حسين عبد الرحيم

المُسْتَبْقِي

رواية

دار ميريت

القاهرة ٢٠٠٧

المُسْتَبْقِي

المُستَبقَى

رواية

حسين عبد الرحيم

الطبعة الأولى ٢٠٠٧ .
(c) دار ميريت
٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف : **أحمد اللباد**

المدير العام : **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/١٤١٤٩

الترقيم الدولي: **977-351-366-1**

مفتتح

إلى الأب

حسن عبد الرحيم

ربما يتبدد الظلام يوماً،
ربما تتحول الأزمان مرة،

° ° °

ربما أرسلتنا ساعة الموت أيضاً ونحن شباب
إلى أماكن جديدة،
ولن ينتهي أبداً نداء الحياةلنا
فهيا يا قلب، ودّع والتمس الشفاء!

لعبة الكريات الزجاجية

(هيرمان هيسه)

المدينة شيء بالنسبة إلى من يمر بها دون أن يدخلها، وشيء آخر بالنسبة لمن يجد نفسه واقعاً في شباكها ولا يخرج منها؛ المدينة شيء يوصل إليها لأول مرة، وشئ آخر تبدو بالنسبة لمن يغادرها دون رجعة؛ كل واحدة جديرة أن تحمل أسماً مختلفاً.

ربما أكون قد تكلمت، فيما مضى عن تحت أسماء أخرى، وربما لم أتكلم قطّ عن؟!!

مدن الخيال

(إيطالو كالفينو)

ديسمبر ٢٠٠٤

ليس نداءً خفياً هو الذى ناداني..، ولا حنين لماض تولى..، ولا هو عبث السبعة وثلاثين عاماً التى توارت...، أظنه الزمن.. الزمن وتراكمات التجارب وضيق المكان،

– لماذا الآن يا محمود؟!!..

– "محمود محمود طلخان". هذا هو إسمي الذى أحمله على كتفى يبرزه جبيني. أفرُ بـ ٣٧ سنة. أزعق وفى وجهى الجهامة دائمة، وأمامك المشوار طويل يا محمود. وهذا أغلب الظن... خلفى عمر ساحر انقضى فى آمال وطموحات خائبة، المشوار كان طويلاً مشى وجرى وصعود دائم حتى هذا المستقر..

– فى هذه الليلة تحديداً- قمت من نومى مذعورا وليس هذا بجديد، ليس هناك سبب محدد أو دقيق لتلك الآلام. فليس للإحباطات دور ولا للجسد الهزيل. ولا للوجه الأصفر منذ أعوام. أظنه الوجع ؟!!، نعم هو الوجع الذى ظهر فجأة فى أقدامي والعرق الغزير السابحة فيه ملاءاتي ووسادتي وسريرى كله. فلا سماع القرآن قد شفاني ولا نفرة الاوركستر الهارموني "لفا جنر". قمت للاستحمام تحت "الدَشّ" رغم برودة يناير وجسدك البارد استسلم لرزاز الماء البارد فهوت الزخات والرزاز فوق فروة رأسك بشعرها المجعد- خرجت عارياً والخصية متدلية، والساقين ضامرتين والريح تهوى خارج النوافذ والتليفزيون مفتوح على نشرة الأخبار الملفقة..

ظللت لـلجدران فتأكدت الوحدة وحسيت بالعزلة عن العالم السوى... هل لكالمـة الأمـس دورا لـما أنـت فـيه الآن، "إبراهـيم أبو حجة" اتصل بالأمس بعد منتصـف الليـل بسـاعة وأبلغـك بالعثور على "جثة" الأب محمود طلخان ناحية "شـرق التفريعة" فى ممر القناة فى "بورسعيد"؟!! تضحك بهيستيرية ويصيبك الشرود والخرس. هل حدث كل هذا بالأمس؟!

– والآن فقـط وبمجـرد خـروجى من الحمام أتذكر ما حدث عقب المكالمة... هـل حدثـنى إبراهـيم بالأمس فعلاً.. أم أننى كنت مستسلما لحلم ما. لست على يقـين كـامل بـأن أبـو حجـة قد هاتفنى بالأمس وإلا- كنت قد سافرت، بالتأكيد أنـا مـريض- فخاصـية الإظهـار عـلى شاشة تليفونى تظهر أن آخر المكالمات التى وصلتنى كانت منذ سبعة أيام، ولكن.. ولكن..؟! – ما هذا الرقم الظاهر –

يـبدأ بزيـرو سـته وسـتين. "كـود نمـبر" بورسـعيد. ولكن، أحدق- فبقية الأرقـام بتسلسلها التقليدى لا تخص أهلى. فليست هذه الأرقام لأمى. ولا تُخص أخواتى، إذاً. كيف ومتى وصلتنى هذه المكالمة؟ حاول أن تتذكر يا محمود؟ تذكر يـا محمود ماحدث بالأمس...، آه. أظنها المرأة المغناجة التى كانت تشهق تحت الجسد العـارى للـرجل الضـخم الـذى يمتطـيها أربـع مـرات أسبوعياً، جارتى السـنيورة بنـت الـ ١٨ الـتى أتـتني وحوحـتها وآهاتهـا عبر جدار غرفة نومي المعتمة...،

كنـت ممـدداً كعـادتي. فجـأة تذكـرت مـا قالـه لى مـالك العقار: (ياسى يا محمـود. يـاعم طـلخان فـيه عروسـة جديـدة دخليـتها اللـيلة فـى الشـقة اللـي فوقك!!)

– وكانـت المـرة الثالـثة الـلى بـتدخل فيها عروسة جديدة وتتعرى وتبقى بلبوص وتتفشخ عا السرير الجديد اللى فوق... تذكر يا محمود.. تذكر.؟!

– آه، قمت من النوم وكان الفراش غرقان فى عرق رغم البرد، سيطرت علىَّ أحاسيس عديدة بين الفزع ونشوة وخوف والبنت بدأت فى الصراخ والاستغاثة تقول (كفاية. كفاية، حرام عليكم. كفاية ياماما. خليك إنت ياحافظ (آه. آه. آه.. ياماما..) (ياحافظ أنا تعبت). الأنَّات إنكتمت فجأة وصعدت أصوات النسوة وأعقبتهن العروسة في صراخ طويل فصار الصوت مبحوح. كانت تستغيث. وخفتت الجلبة فلانت. والصمت يعقبه صوت الرزاز من الدش وقلت أن العريس "غشيم". وفشل فى فض غشاء البكارة. وتجلت التأوهات من جديد ومرت الساعة وخلفها ساعة أخرى واستمرت المراودة والطبطبة وخرج صوت زاعق من مسجل صيني وظلت نبرات المطرب الشعبى تخترق أذنى ويزيد إنصاتي حتى اسمع وأكاد أرى، ضرب الإصبع السبابة فى "فرج" ضيق، وتطرطش الدماء على الحوائط وتهرب البنت أخيراً وتبتعد عن قنص الأدياى العفية،

– صار العرق ينز من صدري يفر من جبينى بسرعة فيصل إلى بطنى وقدمى اليسرى صارت تزن وسقف غرفتى يدنو ودما أحمر قان يمتزج بمني أبيض نشوي يترسب، ينفذ من مساحات الحوائط والجدران يغمر جسدى، الدم يملأ غرفتي ويسيل فى الطرقات. المني يطفح. يعلو. يصعد لسريرى والكلاب تعوى فى الشوارع المجاورة واسفل شُباكي.. تذكر يا محمود؟!

ضلفة نافذة الصالة القريبة من رقدتى تصطدم بالجدار الاسمنتي وجسدى بارد..، أتلفت عابراً الحوائط بنظرى .

– من أنزل هذه الصور من فوق مكتبى حتى صارت بجانب سريرى؟!. وما هذه المجلات المترجمة بالعربية والعبرية.، إبراهيم.. إبراهيم أبو حجة؟!! إبراهيم لم يكن معه تليفون منزلى بالقاهرة، كيف اتصل. ومتى، تذكر يا

محمود، خرجت لغرفة المكتب. الروزنامه أعلى الحائط المجاور تتدلى بـ "٣" يناير ٢٠٠٥م. اقتربت أتصفح أغلفة "النيوزويك" و"الهيرالدتريبيون" و"التايمز". و"القدس العربية" و"الحياة اللندنية" صور "لقصي" وعُدى "وبورتريه أصغر حجماً لصدام حسين بيطل بحسرة لدم متجلط فوق وجوه أبناءه "قصى" و"عدى" ممددين على أرض خراب؟!!، تذكر يا محمود.

تذكرت أبيك!!. أبى. أبى. محمود يا طلخان.؟!!

– (ولماذا الآن تذكرت الأب يا محمود).

أنصت فى وعى كامل لطرقات قوية على باب الشقة. شقتى، اقترب من الصالة أحدق فى فرجه العين السحرية دون ضوء، فى العتمة. قلبى يدق. أضيء الأنوار قرُب السلم، أعود للخلف قاصداً شباك الصالة المطل على الشارع الواسع بكورنيش المعادى ويدور المفتاح بهدوء فى كالون الباب الزان- افتحه على مصراعيه فى الظلام.. لا أحد؟! عاد وقع الأقدام يتهادى على درجات السلم. الأصوات تقترب من أذنى فأغلق الباب فى خوف،.. صوت جهورى يخترق السكون وسكان العمارة ينامون، نفس الصوت الغليظ يكرر النداء،

:– (إنزل يا محمود يا طلخان أبوك مات؟! إنزل يا محمود؟!! أنتبه حقيقة على الصوت الفعلى المحشرج. أطل من نافذة المطبخ على مهبط الشارع الجانبى أرى وجوهاً غريبة. عربة شرطة زرقاء وبجانبها عربة شيروكى "فور باى فور" وأنوارها مضاءة- هبط رجل فى الأربعين وصار أمامه ضابط فى زى ميرى مشى فى بطء حتى كاد يلامس رصيف المهبط الخلفى فتلاقت عينى بعيناه. صار يتفحص وجهى عبر نافذة المطبخ المفتوحة وأنسابا ذراعيه بطول جنابه.

– إنت محمود طلخان؟!!

خرست وأنقطع الصوت جوايا، لا كلام ولا صوت ولا سكون. غبشة ماقبل الفجر وطرقات متعجلة على باب الشقة وأنت فى النصف وفوق البلاط اللامع صرت محصور يا محمود) تكررت الطرقات وزادت ارتجافاتي وسمعت صوت الدش اللابد في جدران حمامي وقد انفتح فجأة وصار الماء يغمر طرقات الطرقة الطويلة الواصلة ما بين الحمام وباب المطبخ المروحة. الماء يتجه لغرفة نومى. أغلقتُ باب المكتب بعنف فطارت صورة الفوتوغرافية الوحيدة المعلقة بجدار الصالة ومالت صورة الفنار البحرى وهبطت تعوم على سطح الماء. سقط برواز الزعيم "جمال" ليسبح فى بحيرة المياه التى غمرت أرضية الشقة.؟!! قصدت الحمام، على العتب وقفت أمد يدى اليمنى لأغلق المحبس الرئيسى. الأقدام تدب على مقربة من أذنى والصوت يقترب- فتحت الباب وطرقته خلفى أنظر لعقارب ساعتى. الساعة تقترب من الرابعة إلا عشرة دقائق لا صوت يعلو على صوت الكلاب التى تنبح من الساعات الفائتة قرب مقلب القمامة القريب من ورش شركة النيل للنقل. خرجت من باب العمارة أجرى فسدوا الطريق فى وجهى كانوا خمسة من ضباط المباحث أربعة يرتدون البذات السوداء وواحد ملكي بعيون زرق عمره تخطى الأربعين اقترب ليشبك ذراعه الأيمن بكفى الأيسر وأصابعى الطويلة. اقترب منى فى الخطى فسمعت أنفاسه الرتيبة تزيد من هلعي وتوجسي ثمة صلابة وجرأة وبرود يدفعوننى للتحديق مدققاً فى ما يرتديه من ملابس إسبور راقية، كان السويتر الجلد الأسود بخمسة أزرار من العضم السكرى الغليظ المنتفخ طافيه تحجب منتهى العراوى الدقيقة الحاذقة. البنطلون "ليدر" تركى من القطيفة الزيتى. وأنطلقت سيارات الشرطة من اليمين واليسار، ومن خلفنا طارت عربة البلوكامين الزرقاء تعتلى الرصيف المسفلت لطريق المعادى، وتعالت قُرب النهر وبجانب مبنى المسطحات المائية صوت

الكلاكسات والسرائن وهالات الشارات الضوئية الحمراء وتوقفت عربة "دودج" رمادى تحمل لوحات معدنية بيضاء ملاكى جيزة، قلبى يدق وأقدامى ترتجف وعرق غزير يسيل فوق لحم بطنى الغارق فى بلل فانلتي القطنية البيضاء. وعربة الإسعاف الشيفروليه تلزم الرصيف خلف عربة النجدة الهونداى البيضاء.. اقترب فصار فى مواجهتي. حدق فيَّ بغرابة حتى كادت ذقنه النابتة أن تلامس شعر رأسي الهائش. قال فى حزم وكياسة،

:- (اسمك بالكامل)

ونظرت للبريق الحاد الخارج من الحدقات الزرقاء فرأيت ظلال الرأفة والود محجوبة خلف النظرات القاسية الحادة الآمرة والتى صعدت على أثرها الأصابع الطويلة البيضاء لذراعه الأيمن الممتلئ والمكسو بشعيرات صفراء طويلة منتصبة حول المعصم العريض لتهبط على كتفى الأيسر العظمي النحيل.

– (محمود محمود طلخان)

– وليك كام سنة يا محمود ماشفتش أبوك؟!!

– آخر مرة كان سنة. سنة. سنة ٧٨ فى بورسعيد، (إنت متأكد يا محمود).

استدار ولف حولى، دار وصار ينظر لمرافقيه من الضابط والجنود، يرمى بإيماءات غريبة ومجهولة. متفق عليها ليعاود الطلل من جديد جهة الوجوه المحدقة فى تروى وكياسه ترقب الحاصل، تراجع خطوتين جهة الرصيف المتكسر ليعود هذه المرة مستفسراً ومتأكداً من تلك البيانات الموحودة فى حوزته.

– لك من الأخوة والأخوات تسع. أو هو كذلك؟

:- (لا. هم عشرة)

بخلافك أنت،

(نعم) هُم تسع بخلافي،

إذاً فأنا أرجو منك الهدوء حتى ننتهي من معاينة الجثة للتعرف عليها،

وخفتت السرائن وصارت أصوات محركات السيارات رتيبه للغاية ودار محرك الديزل للنش المطاطي الطافي فوق سطح الماء الرائق نسبياً واقترب رجال الضفادع البشرية من المرسى القابع أسفل الكوبرى الحديد وعلت الكركرة والوشيش فجأة ورأيت اللنش يدور في موقعه وظهر الرفاس الدائر في القاع الطيني يرمى بالماء العطن وقدم ثلاثة من الغواصون ليعبروا الجسر في ثوان معدودة. هبطوا داخل اللنش الصغير وتراصوا خلف ذراع القيادة "الياماها" وسُلطت الأضواء المبهرة في عرض البحر وجهة جزيرة "الذهب" صار المنشور الضوئي يجوث في البعيد المرئي والمحجوب خلف الهيش وعيدان البوص المنتصبة في أجناب المر المائي. وعند المركب الكبير الخرب "المُعين ٣" بانت الجزر الصغيرة راقده وسط سطح النيل المعتم. مراكب شراعيه عطلانة ومواعين البضائع مركونة في مراسى طينية، أصوات المحركات تصدر وشيشاً منتظماً يسرى في جسدى الضئيل اللابد في ملابسى الشتوية، ضابط من قوات الأمن برتبة عميد يمسك بميكرفون صغير زاعق. يطوف بجانب أسوار الكوبرى من أعلى. يطوف جهة الحواجز الصلب ويخطو بتؤدة مترجلاً لأسفل دانياً للمهبط ماراً بالحاجز الطويل للكورنيش أسفل الكوبرى المعلق يقترب من الباب الحديد الصغير المفتوح والمؤدى لهيئة المسطحات المائية، العربات تفر فوق الأسفلت الأسود الخشن وأنا أستند على الصندوق الصاج لعربة البلوكامين وسكان منطقة "دار السلام" و"الزهراء" يحتشدون أمام برج القانونيين العالى. والنسوة تركض خلف ناطحات السحاب الأسمنتية ليعبرن الجسر الأسفلتى ملتفات حول مهبط الكوبرى الحديد وأمام مدخل الهيئة. العساكر تصرخ في الأهالى والضابط الميرى

يـنادى فـى الميكرفون، (من فضلكم يا جماعة عايزين نشوف شغلنا). كله يرجع لـلخلف، من فضلكم، يا "سميح"، إعملى كردون حوالين الراسى بسرعة، طافت الهـالات وأخيلة الشارات الضوئية فى المكان وتوقفت العربات الآتية من المعادى وحلـوان واسـتدارت قـبل مصـعد الكوبـرى المواجـه لمستشفى السلام الدولى حتى "بـرج القانونـيين"، الجنود قفزت من اللنش المطاطى لعمق الماء وطالت محاولات رجـال الضـفادع البشـرية فى البحث عن الجثث. ورأيت ضابط بزى أسود يمسك بدفـتر صـغير ويقلـب فـى صـفحاته مطـلاً للـنهر مراقباً حركة الغواص الواقف بمفـردة وسـط اللـنش فى حالة تأهب لسحب جثة جديدة طفت على سطح النهر وامـرأة عجـوز تصرخ فى قلب الليل المظلم تنادى على إبنها المفقود منذ أسبوعين وأمـين الشـرطة يمـنعها مـن عـبور الحواجز الحديدية المتراصة فى إحكام حول المرسـى، ومشـيت أتحسـس وقـت أن تدلـت رقـبة الغـواص جهة الماء فى حذر. عـبرت الحواجـز فسـمح لى الضـابط بـالاقتراب شـريطه ألا أتخطـى جنود الأمن المركـزى ولاحـت الجثة شبه عارية وفاحت رائحة العفن ممتزجة برائحة طمى أسـود عطـن انتشـرت حبيـباته فى منطقة البطن وعند الخصية المقضومة. وتعالى النداء ينادينى باسمى:- (قرب يا محمود)

زحفـت متكـئاً عـلى ذراعـان غريبان لوجهين مألوفين بجسدين عريضين، دنـوت للمـنطقة الـباهرة الضـوء وارتفـع المصـباح فـى البقعة المضاءة بالبطاريات الكـبيرة وانفجـر المطـر كسيول يتهاوى من سماء سوداء غامقة فسمعت من يقول بهمس (وحدّ الله) خطـوت خطوتين باتجاه اللنش الراقد فى الماء وسُحبت جثة سابعة لشـاب يقـترب مـن العشـرين واستدار جندى الحراسة بهيئة المسطحات المائية يُشد الجسد العارى واضعاً إياه فوق طاولات الصاج التى تراصت بمحاذاة الرصـيف العـالى المـوازى لمشـى الكورنـيش اسـفل الكوبـرى الحديـد وصـمتت

الماكينات عن الكركرة والوشيش فأتانى من خلفى ونبرات صوته العالى تحجبُ اضطرابه وحسرته،

:- (قلت لى عندك كام سنة يا محمود)

قلت لسعادتك ٣٧ سنة

:- شكلك أكبر من كده بكتير؟!!

لف ودار حولي، "وأطل لصفحة النهر" الساكن إلا من مراكب سياحية كبيرة تتجه ناحية "جزيرة الذهب. المراكب تحمل سائحين أوروبيين وعرب وبينهم مصريون قلائل يقتربون من النوافذ الزجاجية المشرعة طالقين الصواريخ النارية والسهام الكاشفة وسط مجرى النيل وقُرب "محطة الزهراء" ومرسى "نيل كريستال"، واستدار الضابط أبو العيون الزرقاء يأمر أمناء الشرطة والعساكر الواقفين حوله بالانصراف الفورى والاتجاه ناحية المرسى لتأمين الجثث التى تمددت على الطاولات الصاج فى شكل دائرى، قال وهو يُخرج منديله الورقى من جيب السويتر، فتشوا هدومهم؟!! واجمعوا البطايق والمتعلقات الشخصية، (تمام يا افندم) قالها ضابطبرتبة ملازم أول، يا سميح. سميح إيه أخبار البلاغات اللى عندك، كل الأوصاف الواردة فى البلاغات متطابقة مع صور البطايق يا عزيز بيه. والصور متطابقة مع الملامح الظاهرة للجثث السابعة يا فندم.

:- (قولى البيانات اللى عندك يا "نادر"

فيه اتنين من بورسعيد وواحد إسكندرانى واتنين من المنصورة واتنين سوايسة،

:- (والثلاثة اللى فى اللنش لسه؟

:- ٢ صعايدة من سوهاج يا فندم. والجثة الثالثة مش واضح معالمها بالمرة، (يظهر إن السمك أكل جزء كبير من وشه)!! (يعنى كلهم غرباء يا نادر)؟!!

وضع يده على كتفى فى حنو وسرنا فى اتجاه الكوبرى الحديد ورأيتهم يجرون جثة أخيرة لجسد غليظ واندفعت بمفردى أدنو لضفة النهر القريبة فطفت الجثة لرجل كهل، الرجل سمين وبشرته بيضاء قريبة للشقرة وتعقبنى الجندى وحيداً وقد أمسك بالسلاح فى يده اليسرى وبرزت ملامح الجثة تحت ضوء الأعمدة الطويلة المنتصبة أعلى الرصيف وتحركت عربة الإسعاف وخلفها عربة الشرطة التى إنزوت أسفل الكوبرى وقت أن استدارت عربة الإسعاف لتعود بمؤخرتها جهة المرسى، بت أطلُ فى هلع لوجه الرجل الذائب فى الشحوم حول الصدغين وأدنى الرقبة اللحيمة ودوَّت السرائن فى المكان ودارت الشارات الضوئية حمراء وزرقاء فوق أسقف عربات البلوكامين والشرطة الهونداى البيضاء وجرى مندوب الطب الشرعى يهبط من العربة المرسيدس الرمادى والتى توارت بسائقها العجوز لتقترب من مدخل كازينو "سى هورس" الواقع أسفل الكوبرى الحديد وانفتحت الأبواب الخلفية لعربات الإسعاف الثلاثة التى استدارت فى ثوان مقتربة من الطاولات الصاج ودنا عزيز بيه نافذاً من وسط الحواجز الحديدية مقترباً من وقفتى قائلاً فى تروى،

:- بُص يا محمود. الجثة اللى طالعة دى- هى الأخيرة وكل مواصفاتها متطابقة مع ملامح أبوك، عايزك تتماسك، سرنا سوياً بمحاذاة الرصيف الواطى متخطيين بناية هيئة النقل النهرى هابطين نمشى بجانب ربوه صغيرة رملية تؤدى لمرسى آخر كبير تنفرد القناطر الخشبية العائمة فى أوسطة وتقدمنا ضابط برتبة رائد وسار خلفه جنديان ومخبر من إدارة البحث الجنائى يركض ناحية

الهيش ورجال الصفادع البشرية يقفزون وسط المياه الضحلة ويتعالى نقيق الضفادع في السكون متداخلاً مع هسيس عيدان البوص التي تتمايل مع عصف الرياح جهة مرقد الجثة الأخيرة الضخمة، ورفع المخبر الملاءة المزقة من فوق وجهه.

:- (هوه ده أبوك يا محمود)؟!!

بجسارة كست ملامحي وقوّت من عزيمتي وجدتني ألتفت محدقاً في خوف،

:- (معرفوفش يا فندم)؟

:- بص لوشه يا محمود، (دقق كويس) هوه ده أبوك، هوه ده محمود طلخان، يا فندم مش أبويا، أنا أبويا أسمر وإسمه محمود محمود طلخان سليمان عبد الرحمن؟!!

- سيبك م الاسم دلوقت وبص كويس...، إكشف يا ابني جسمه كله؟!!

دنوت أطل متفحصاً الملامح الغائرة.. البشرة بيضاء بشقار والوجه أقرب إلى الاستدارة مع ضربة مطواه مخرّمة العنق والرقبة الغليظة مع جُرح غائر وعميق فاصل الحاجبين عن بعض والعيون صفراء في لون صُباع الموز المغربي، سحبت ذراعه في جرأة فبانت الأظافر مقضومة من جذورها. شعر الرأس الأبيض طويل وواصل حتى منتهى القفا وأسفل الأذنين الكبيرتين، أعطاني جوانتي بلاستيكي وآخر شفاف فارتديت النايلون الشفاف وتمددت أصابعي تتفحص فمه المفتوح على آخره، خرجت الحشرات ثلاثة من نوع طيني أسود غميق فشهقت وقتما توارى الصرصور الصغير الخارج من أذنه اليسرى مشطور نصفين، الفم خالي من الأسنان واللثة ضارب فيها الخضار مع الصفار اللحمي

الباهت المهترئ، زاد فزعى فانتصبت أضم سيقانى التى باتت ترتعش على الدوام، وقلت فى استدارتى الأخيرة قبل الترنح،

:- (يا فندم أنا عمرى ماشفت الراجل ده. ومعرفوش)، رأيت عزيز بيه يضغط على صدر الرجل بعنف وجهامة ليخرج لحم ثديه الأيمن ويمين بطنه فى رقائق ونثار ونتف تشبه ورق البفرة. وضرب المخبر بيده الغليظة بين وركيه الغليظين وهوى بخصيته لأسفل فانفرطا، قضيبه الطويل المنتصب يتمدد على الطين اللزج،

– (مسكين؟!! (واضح إن بقاله شهور فى الميه،)؟!!

– (أظن هوه ده رجل الأعمال اليونانى بتاع الزمالك يا فندم)؟!!

– (تقصد اللي كان عايش لوحده)؟!!

(أكيد يا فندم، هوه فعلاً. (بلاغه له أربع شهور فى الإدارة)؟!!

رأيت ورد النيل الطافى يزحف ذابلاً فى بطء فوق سطح الماء العكر منزوياً أقصى يمين ضفاف النيل لابداً خلف عيدان البوص الرفيعة الجافة المنتصبة فى الخلاء.

فصل ٢
[- أصوات -]

كـان لازم كـل ده يحصل عشان تقرر إيه هوه اللى ممكن تعمله لنفسك بعد مـا اخـترت.. واخـترت بإرادتك،؟!! بإرادتك إنت اخترت الطريق اللى مشيت فيه،

- ودلوقـت بـتقول مـن بـرَّاك وجوَّاك- لا. مش أنا اللى اخترت الطريق ولا المسار؟!!

وحـتى مـش قـادر تصرح ولا تبوح لنفسك- أنت المخطئ من البداية، سبعة وثلاثـين سـنة عشـتهم ما بين موروث دينى وقدر بتفسره بخزعبلات وتراكمات حـنين فتأسـى عـلى كـل مـا فـاتك مـن الحـياة الماضية. اخترت النهاية. لا. فلا تعرف حتى الآن يا محمود .

- هل اخترت النهاية فعلاً بإرادتك أم هى التى اختارتك،

- المهـم- مـا حصـل قـد حـدث وأنـت الآن فـى الصورة وحدك وأمامك شبه نهايـة- عشـت تحـلم وتتمـنى راحـة مؤقـتة أو دائمـة، وتأتى بداية الأقدار فى مكـان عملـك. عملـية جراحية فى المستشفى وفرصة عظيمة لـ ٢٠٠٠ من زملائك فـى العمـل لكـى يـتقربوا مـنك لعـالك وفكـرك وأحاسيسـك بجـد، لكن المؤلم يا محمـود أنك حزين لأنهم شافوك فى لحظة ضعف. نائم على السرير الأبيض فى إنـتظار المـوت. ضـربه سكينة فـى خـدك الأيسر ولكمات قاتلة فى مقتل من واد صايع رافقه أربعة من أشباهه.

عملوا عملتهم ودخلت غرفة العمليات والنزيف له أربع ساعات مفارق طرق وسكة تانية. وتسأل نفسك فى وعى يا خايب- هتكمل مشوار العمل والترقى في القاهرة. أم أنك ستعود إلى بورسعيد يا خائب.. ساعات بحس أنها نهايتى فعلاً..

-: لكن صدقنى- يا أخى أنا بحسدك على يقينك وبصيرتك. أظنك لامس وحاسس عطف كل زملاء العمل عليك، نائم على السرير الأبيض فى المصح البحرى بباب الخلق، الحلم كان بيطاردك فى كل لحظة وبقدر خوفك منه- بقدر لهفتك على رؤية تحققه الفعلى.. (هتموت مضروب بطلق نارى مجهول المصدر)؟! ستكون الطلقة فى قفاك- أى ستأتيك من الخلف. فى النهار. فى شارع بورسعيد؟! أمام مستشفى "أحمد ماهر". أو ممكن. وده المؤكد. هتتقتل من ضربة مطوة فى جنبك الشمال وهتدخل قرن الغزال فى كليتك اليسرى.. طبعاً أنت متأكد من ذلك. لأنك قد رأيت قاتلك وهو يمشى خلفك فى ميدان "باب الخلق" لما انفلتت العربة النقل "الفورد" من جهة مديرية الأمن ودُرت بودانك وأجفلت عيناك قليلاً وطأطأت رأسك وطللت للأجناب لمن هم سائرون على يمينك وشمالك يحدقون فيك- واد أنزوح ابن دين كلب. لاجئ بورسعيدى وعايش فى الدور- أيوه يا سيدى، هوه ده اللى ضرب اختى سميرة "الحكيمة" بالحزام على "طيزها" -. الدم مطرطش على الحيطان فى كل حته- وانت نايم على ملايه بيضة غرقانة فى دم أحمر أسنانك مكسورة. والفك الأيسر إنخلع. والقميص الأبيض ممزق وبنطلونك مخلوع بقصد- ونصفك الأعلى عارى تماماً. نائم بالكلوت الأبيض القطن وسرينة عربة النجدة بتزعق. ورجال الشرطة الميرى بيلفوا ويدورو حوالين المستشفى. وبتدور تحريات رجال مباحث العاصمة وبيبحث الضابط الملكى عن الجانى؟! الشارع كله واقف على رجل واحدة.

ولكنك لم تسمع ثمة أحداً يبكي حزناً عليك. وتعمدت ألا تستغيث بزملائك في العمل ليخلصوك من هؤلاء الأشرار.

واحد بموسى حلاقة والثاني بسكين "قرن غزال" والثالث بهراوة غليظة مُدببه من عند الرأس. ووقفت وحدك وسط حلقة موت، خلف مكتب السيد الأستاذ الدكتور مدير عام المستشفى، وإنخلعت الأحزمة الحديدية من البناطيل الجينز وظهرت النصال الحادة وأنهالت عليك الطعنات- في ربع ساعة كنت راقد فوق طاولة من الصاج المجلفن. تدخل غرفة العمليات الكبرى، يتواراو كل القابعين بداخلك وكُلاً بهواجسه وحدثه وبصيرته، حتى هذا التي رجح من قبل نهايتك العبثية مقتولاً في حادث مرور على الطريق الأسفلت.. واحد بعينه لسه جواك كان واعي لهذه الخاتمة رسم لك هذا المشهد قبل حدوثه. صوّرة بكافة تفاصيله. ولأن ردود الأفعال كانت دائماً ما تأتي نتاجاً مؤكداً لحدسك أنت جنيت حصاد التهورات لتُرهاتك ومصائبك العديدة التي لا تنتهي. كنت على بينة إنك ستُضرب وستغدر وتهان وكانت الضربات- عنيفة ومهينة.. ستة وقائع وعدة مشاجرات حدثت في عشرة أيام مضت كنت فيها أنت الغالب والمندفع. توجاساتك الدائمة تجاه كل الآخرين- الغرباء؟!!

إنت حر. ولا حساس. ولا مجنون ولا عصبي. ولا ثائر، إنت من يا محمود -مجنون ولا فنان بالغريزة والمكان ده مش مكانك، ولا الزمان زمانك- الوعي متواطئ مع موروث جاهل والتفاسير عشوائية في الغالب يا غلبان- كان لزاماً عليك أن تنتظر مصيرك وقدأتي، وأتتك الفرصة أخيراً لتستريح يا محمود يا طلخان، عشرين ساعة بينقضوا في العمل يومياً. وفي الأربع الباقيات تحاول أن تستريح. كيف ستنام، انهض يا محمود. انهض لتحقق طموحاتك يا غريب، كنت دوماً وحيداً- فوق سريرك الحار في ظهيرة أغسطس حاولت مراراً أن

تـتمدد. أن تغفـل عيـناك سـاعة واحدة. لم تعد تحلم مثلما كان يحدث يومياً فى السـابق. الجـو حار جداً والجلبة والصخب وزعيق السكان الرعاع. وفرح كل يوم قُـرب سـكنك. ومشـحمة فـى عمـارتك والدور الأرضى مبتل على الدوام ماكينات الديزل تضخ الغاز والماء فى أذنيك وتدق بأصابعك المعروقة رأسك المتعب المدفوس فـى الوسادة العرقانة، المهم إنك دخلت غرفة العمليات فى المصح البحرى ومنها للعـناية المركـزة ونفسـك تـبكى ومش قادر. عمال تخرّف ومحموم ودمك مُتجلط وملقـى عـلى الرصـيف أمـام مكتـب المعـاون بـباب ٢ "زيـارة". و"الشومة" الزان انفلقـت نصـفين عـلى ظهـر آخـر واحد من المعتدين "غزنى بقرن الغزال" وفرفى ثانية.. هرب ثلاثة. وتم القبض على الرابع.

ونـوازع الـثأر بـتفور جواك ياصعيدى- بتتمنى أن تنهض من جديد وتقطع تلـك الأنابيـب وتمـزق الخراطـيم. وتسـير دون فـك وبـلا رأس وتـنهض ساحباً الدرنقـة مـن أنفك ورقبتك ومن جنب بطنك الصغيرة بيزيد الألم ويفور هياجك. ٣ حقـن مـن البـنج. كـلى، والصـدر الحـنون لـلحاجة "عائشـة" كبيرة حكيمات العملـيات يحتضن رأسك الغارق فى الدم اللزج برائحته الزفرة. ومدير المستشفى يؤكد لضابط المباحث الواقف بالخارج.

هـوه الـلى دايمـاً بيـتهور.. لـيه دايماً عايز ينط لوحدة؟!"مايخلى المركب ماشـية"، يـا باشـا. أنـا. سعادتك. اللى؟!! مازلت أذكر طلله بشفقة- للأسف يا محـترم. هـوه ده قـانون بلـدك. لكـن مـتخافش هنجيـبهم واحـد واحد يا أستاذ محمود،

- لا أسمـع ولا أحـس، أرى خـيالات وهـالات مـن بـياض بخـيوط رفـيعة تـتقافز فى الطرقة وممرات غُرف العمليات المضاءة بالفلورسنت الصامت. أضرب كوعـى فـى صـاج الطاولـة مـن تحـتى فتنجرح الشرايين فى بطن ذراعى الأيمن.

أهذى وأنفلت من رقدتى وأحس بالقابضين على جسدى ستة من المسعفين وأطباء التخدير وحكيمات الإفاقة. ثمة من يتهادى ببالطو أبيض مبقع بدم أحمر غامق. وآخر يسير بجانبه. عيونه عسلية ومهيب. لابس بنطلون جينز. أخضر زرعى. كرومبى. يتقدم فأحاول التحديق- اتفضل يا فندم- هوه ده المجنى عليه.

-: لا صعب سؤاله دلوقت.. بعد الإفاقة.. لا هوه بورسعيدى أصلاً.. لكنه عايش هنا. ساكن فى المعادى. وحيد.

- و٢٠٠٠ زميل فى العمل بيتفرجوا عليك وانت بتنضرب فى عز النهار.. الحاجة عائشة لها رائحة جميلة تأتينى من جهة صدرها. من فتحة فمها. من الأسبراى النافذ من تحت إبطها الأبيض. شايفها بتضحك وبتظهر شفايفها النونو حمرا زى دم البنات الجُمال البكارى. وطبيب التخدير رائحته عفنة نفث دخان سجائره الرخيصة فى الطرقات وتحت كشافات الإضاءة المسلطة لرقبتى ووجهى فى غرفة العمليات "٣"، وبيخرج من جواك خمسة من البنى أدمين. كلهم شبهك، حسن وحسين ومحمود طلخان الكبير وعبد الرحيم السوهاجى وطفل ببدله هلنكه لونها وردى فى أبيض بيضحك فى خيالك، وبيتجسد ويحبو، يدنو. يفرد أصابعه البضه الصغيرة. يلعب فى شعرك العرقان ويبوسك من جبينك.. أتاك الخمسة يتساءلون. يسألونك فلا تجيب. لا تفارق سرير الإفاقة تقدم إليك الغليظ. فتوه. جاسر فى ملامحه. همس فى أذنك فزادت دمعاتك وطال صمتك وأعقبه من له السبق فى التهور وصاحب الثأر ومن معنى بالهداية والغفران.. وهزنى بقوة من له السبق فى الاعتداء- بت أحلم بلياليّ الماضية أرى محمود على طريق مُسفلت. مظلم، يمشى وحيداً كعادته يتلفت خلفه وحوله. يخشى أصوات العربات النقل التى تفر فى الخلاء وجهه كورينش "المعادى" و"حلوان" . وصوب مبنى المسطحات المائية. أنحنى يميناً

واستند على جدار الكوبرى الحديدى المتهالك. تلفحنى تيارات الهواء المنفلتة من جهة الإطارات الكاوتشوك الغليظة، تعود للتحديق للخلف من جديد.

وتلزم أقصى اليمين خائفاً، ليس هناك أية عربات. تعتلى الطوبان، هالتك تلك البقعة الآمنة فزادت هواجسك من جديد. لا تعرف من أى الجهات ستأتى الأقدار، جسدك ينتفض على الدوام وقلبك يدق. يدق وتسير وحدك فى طول الكورنيش، رأسك تتعالى وتنظر للسماء الموحشة فى كل حين. الظلمة تأتى من النيل العفن ومن خلف الأبراج الأسمنتية العالية ويخرج الشخص الجسور من داخلك فيؤكد لك أن هذه العمارة الخالية ستتهاوى فوق رأسك تجرى فوق الكوبرى صارخاً وقد وضعت الكفوف مشتبكة فوق رأسك. بغتة تطل من جديد للمبنى السكنى الخالى الذى صار بعيداً عن موقعك. تضحك بصوت عال وتسير ببطأ فيناديك الصراخ الفعلى وتخترق أذنك أصوات الاستغاثة الأتية من تحت الكوبرى من عند المواعين والحاويات الخربة الراقدة بجانب مرسى مستشفى "النيل بدراوى".

تتوقف العربات السائرة وتحتشد الأنفار. وصوت الارتطام المدوى يسحبك من هدوءك فتفر لمنتصف الكوبرى عند أعلى نقطة. تحدق فترى الواصل لقعر النيل. جثة الشاب المنتحر؟! ! على مسمع العابرين ومرأى حبيبته البيضاء التى رفضت إتمام الخطوبة لعدم وجود وظيفة. أظنّ أن الفتاة قد وصلت متأخرة بعدما تعاركا وصرخا سوياً.. فتركته ومشت فوق الكوبرى واصله لنهايته عند مدخل المستشفى الدولى لتركب الميكروباص، عادت تركض مع صوت الصراخ وقوة ارتطام جسد الحبيب بالمؤخرة الحديدية للنش البحرى الراقد فى المرسى الوحيد أسفل الكوبرى.

وسمعــتهم يتهامســون، قــواد الشــيروكى والــ B. M "والأوبــل"
و"الكريسلر" و"المرسيدس" الشبح، - يا حرام دا باينه صغير!! الظاهر كان
ميديلها ميعاد عشان تشوفو وهوه بيرمى نفسه.. هأ. هأ. هأ، وصلت الفتاة
متأخرة وقتما توقفت إشارات المرور حيث تصادف مرور موكب السيد رئيس
الجمهورية،واختار المنتحر وقت الغروب وصعد لأعلى قمة وكأنه قد نشّن على
أعتق القاطرات البحرية الراقدة منذ سنوات ليصير الارتطام مدوياً فى كافة
البقاع المترامية رمى نفسه في جسارة يُحسد عليها وتراءت الخلق وقد تسلقت
ممشاوات الكوبرى المعلق فى الفراغ واغتنم رجال الحرس الرئاسى الفرصة
فانطلقوا فى ثوان يعبرون مفارق "المُنيب"، تتوه في زحام المدن. تنصت لجلب
الفارين وتختزل. ويدور العقل والخيال ويسكن الفؤاد مع ارتطام الأجساد بركام
الحديد، وتتقلب على السرير الصاج فى شبورة ضوئية كارهاً تلك الروائح،
تتردد فى خرف واقعاً تحت تأثير المخدر وحقنات البنج، مشهد سقوطه كان
أكثر حميمية من وهج سنوات عمرة التى انفلتت فى انتظار الحلم والأمل.
"العمل"؟! أحسُّ بالشلل يقيد حركة نصفى الأسفل. سيقانى وقدماى. أطرافى
العليا تحاول الانفلات من القيود الحديدية لسرير العمليات، والبنت تخلع
ملابسها فوق الكوبرى. تقف عارية وتهم بالقفز. المشارط تغوص فى رقبتى
وفكى وثمة سائل ساخن يسير بمهل على صدرى وخلف أذناى، الحاجة عائشة
تحتوينى بجسدها تدفس شعر عانتها فى فروة رأسى. تمسح بأصابعها اللدنة
الطرية على جبينى وخدودى. وتتهاوى دموعها فوق عيونى فتنتابنى رعشة
وقشعريرة وقتية، البنت كانت جميلة وشعرها أصفر طويل- وقوية بجد..
صرخت فى فتيات الملاكى. دفعتهن بقوة وصارت تقف بمفردها هائشة الشعر.
وصاحبة الـ 4 x 4 تضحك قبل نزولها من الكرسى الأمامى خلف القود الغليظ.

تضع النظارة "الريبان" الشمسية وتدنو من موقع الحدث- وانت ترقد وحيداً؟!!

° ° °

تلفتُ ورأيت السماء واطئة فظننت أن الرب قد هبط من عليائه أخيراً بعدما استفزته سلوكيات البشر، دنا يرقب عن قرب عكس ما تعود منه الناس، ظننت أن الساعة قد اقتربت. وحانت الأقدار وظهرت رؤى تدلل على صدق حدسي وجواز هواجسي في ليالي عمري الفائتة. الضباب منتشر فى الأجواء النيلية وحالات الذعر تهاجمنى من جديد. أبكى رغماً عنى وأتذكر البنت التى غافلت الخلق ورمت نفسها من فوق الكوبرى بعد انصراف الحشود، العربات تطير بجنون فوق الأسفلت وانت حائر تحاول عن تفسير عقلانى عن سبب تلك الحالة التى تلازمك- ترتكن على جدار الكوبرى الحديد والناس تنظر إليك فى استغراب ودهشة. ترقب حركاتك وقت مرورك صامتاً بجانب الزحام. تعاود الانحناء ناحية اليمين وينكمش جسدك الضئيل فتأتى من خلفك عربة نقل بمقطورة "سيما ف" تحمل أسياخ حديدية تصعد لك فوق الرصيف وكأنها مُرسلة لك خصيصاً- وترى من يرمون بصنانيرهم إلغاب من فوق الكوبرى فى هدوء بمحاذاة ضفاف نيل "الزهراء". تتأكد بأنك الشخص الوحيد الذى سيدهس فى الحاجز العالى لكوبرى المفارق فتشاهد رأسك وهى تفر فوق الأسفلت وعيونك تحدق فيك وأنت تقترب من بقايا الجثة المكومة ما بين رصيف المشاة والقمامة المبعثرة فى نهاية الأسفلت الأسود. وتضحك من جديد. ولكن بدموع منسابة حتى فمك هذه المرة، تسخر من خيالاتك الجهنمية وتواصل المشى، وينتابك مع التذكر خوف حقيقى واقعى لمسته وعن قرب منذ شهور ماضية، تهديدات مديرك فى العمل- فى المستشفى. وترديده كل حين.

-: (لو ينقل نفسه ويريحنا (عامل لى ثورى)؟!!

وتتذكر وقتما كنت تمر من أمام مكتبه بالدور الأرضى أمام مدخل (١) المخصص للأطباء. ونظرات التعالى من سكرتيراته المنتشيات بإذلال البشر، ويعود الوعى يذكرك- (اللى تعرفه أحسن من اللى متعرفوش) خليك هنا وبلاش تهاجر- خائف من غدى: فكم عانيت فى السنوات الماضية فى عملى. "معاون إدارى" بمؤهل عالى. بكالوريوس إعلام ولكن التخرج من جامعة عمالية.. فقد توالت الأيام ما بين نوبتجى وسهران فى وردية ليل؟!! نهار السبت وليلة حتى صباح الأحد والشوارع خرساء، وبقايا الأيام. تنفرط ساعات العمل من الثامنة صباحاً وحتى الثانية ظهراً والثلاثاء "نوبتجى" نهار، وعشرات الموتى بالكبد؟! صراخ وأنين ووجع كل يوم وجثث تمر كل عشرة دقائق من أمام مكتبك- حسرة الغرباء الواقفين على البوابة الحديدية بباب الخلق أمام "مصح أحمد ماهر".، المياه مقطوعة يومياً عن الأدوار العليا. "ومبنى البرج" والدرجة السفلى والثانية. وكلاب بتجرى فى الطرق والممرات المؤدية لعنابر المرضى. (و٣ حقن من البنج الكُلى ولسه فايق، والحاجة عائشة تصرخ فى غرفة العمليات. الواد ده بيحشش ولا إيه؟!! وتستدير لتبكى تلوم نفسها على ما قالته وتربت على أكتافى وأنا مسجى على ظهرى شبه عارى، تعى ما تقول وما يقال على مقربة من سريرك فلا تحرك ساكناً. فجأة تنشدُ الخراطيم الشفافة من فمك وأنفك وتفر من رقدتك على صراخ التومرجيات والمسعفين الملتفون حول سريرك. تسحب جهاز التنفس وتقطع تلك الغُرز الحرير وتمزق وجهك بوعى فتحس بقوة أصابعك وطول أظافرك القذرة تضرب أخصائى التخدير واستشارى التجميل وتقوم بخلع الجلباب المرتدى على اللحم البردان، تدهس نظارة طبيب الإفاقة النوبتجى وتضوى عيونك ويقف الشعر فوق رأسك.

تفر فى العتمة وتهبط من أعلى السرير الصاج فتحس بقوة عضوك الذكرى المنتصب فى فراغ الغرفة الخالى وترى الشرايين الزرقاء ممتلئة بالدم. وتتقازم معنوياتك رويداً رويداً فتمر الساعات فى كابوس دائم ما بين الرقود والهياج وعيون مفتوحة تراقب الفائتين. والواقفين حول سريرك فى الصالة الكبيرة- المشارط ملوثة بدم أحمر غامق والجفت موضوع بمفرده فى محلول ملح وخيوط حريرية متأكلة وترابيزة استانلس تسير فى عُجلة فوق بلاطات رمادية. عين نصف مغمضة وأخرى أكثر اتساعاً، وأذن تنصت وحلم حقيقى يتجلى مع صفاء وقتى تعاظمت فيه سكينتى- روح بتسير، وبيخرج من جواك إنسان حساس مسكين له ٢٠ ساعة بيرتعش من البرد والنوافذ مفتوحة والستائر تطير فى الهواء. ترتدى الجلباب من جديد. وترى من يدخله فى رأسك لتستسلم له فى رضا محيّر.. وتتمدد فتأتيك الأصوات عبر الكول الداخلى. يناديك أخيك "على" و"قدرى" و"محمد" واختك فاطمة مكتوفة من الخلف، محجوزة بداخل غرفة خلع ملابس السادة الأطباء؟!، الصوت تختلف نبراته فينادى على مرضى وزوار وموتى غرباء فى حوادث طرق ويندفع سريرك من خلف فتخرج على أثر الدافع من العمليات تترك الغرفة الكبيرة حافى القدمين ورائحة المخدر تسكن روحك وجسدك. تسرى فى روحك فيخف بدنك ويدفعك توقك للطيران وأنت تحدق لسقف الغرفة الشديد البياض.

ينفلت عضوك من جديد حراً فيرتفع فى أعين زملاءك والأطباء والحكيمات والموظفين والمرضى المددين على مقربة من غرفتك. تسحب جلبابك بهدوء فتراه وقد انتفخ حول جسدك النحيف وصارت اكمامه كجناحين طائر، تمددا على الجانبين فحلقت برأسك حتى صعدت السقف لغرفة لتهبط بقوة على الملاءة البيضاء بجانب المكيف "الكاريير"، ورأيتنى سائراً وحيداً فى طرقة طويلة

وبنت ممرضة بتلبس "الأوفرشوز" وتنزوى فتدخل الحمام الرجالى. وتسرى همهمات فهمسات فآهات بشبقه، حمام قسم الأطفال شبه مضاء ونصف معتم أتبع الونس الوهمى فأزحف على بطنى فى الأرض جهة حمام "الحريم باطنه" وامرأة تستحم أسفل الدش تخلع السوتيان وتقف تحت الدش تدعك صدرها والباب مفتوح. قُرب "قسم الأطفال المبتسرين" هبتْ رياح ديسمبر الشيطانية فصرخ وليد يرقد بقسم الثلاسيميا ولاحت المصابيح مطفأة على أجناب طرقات قسم الباطنة رجال. وزعق فرد الأمن فانتبهت وظهر تحت الضوء الخافت بزيه الأزرق والتاسكيت الكحلى.

– (إقفل باب العمليات. إقفل باب العمليات يا سعيد؟!!، يا أم شبراوى إوعى تنسى الباب الرئيس وطفى النور..،) الساعات طويلة والنهار بعيد. وبقع دم طازج بتغرق مدخل مكتب المعاون ونبأ وفاة فى الثانية والنصف بعد منتصف الليل.

– : [محمود طلخان مات يا ناس. محمود طلخان مات يا عم "لولى"، يا منى، يا فاطمة، يا باتعه، يا "هالة"، محمود. محمود ووووووو.؟!!

ويعود صدى الصوت فتنتبه وتتحسس السرير القريب الخالى.؟ وتشم رائحة محببة إلى نفسك (ريحة حبيب قديم ريحة ونس لغريب هاجر، غريب مثلك، وتتذكر عم "مدبولى" وطانط سعيدة وسيد عبد الخالق سيد عبد الخالق؟!!. وتحرك السرير الخالى فيدور فى الفراغ والحديد ظاهر من تحت الفرشة المقطوعة البارز منها صورة قديمة لقرار نفقة دولة بعلاج المذكور من ورم خبيث فى القلب- ودم بيتسرسب من تحت الوسادة وصوت عم لولى وهوه بيصرخ كل ليلة فى عنبر ثلاثة بالمستشفى الأميرى فى بورسعيد بيشعرك بغصه –:– آه. آه. ألحقونى يا ولاد الكلب عايز مسكن يا ناس. نار يا دكتور بتاكل فى

لحمى) وبيدفس صباعه فى مؤخرته ويتسع الجُرح فينظر بحنو وتجفل عيونه العسلية على لهث عم حسن المناخلى التارك سريرة فى عنبر ٧٠، مردداً داخل حمام الحريم المظلم فى انتظار اندفاع البول المحتبس فى مثانته منذ ليلتين .

-: [يا ريتنى رُحت مستشفى "الدلفراند" آه يا حوش يا ولاد الكلب يا كفرة. هموت يا محمود. إلحقنى يا ابنى مسكن يا دكتور. لبوسه. فوار، حقنة شرجية، والصديد يخرج من فتحات عديدة غير مرئية والذباب يطير على الستائر الممزقة. والترولللى يجرى فى طرق ضيقة ويأتوا بالحقن والمطهرات فتضغط الممرضة القصيرة البدينة على العانة وفوق الكليتين. ويأتى ضوء النهار مع صوت اندفاع العربة السرفيس وسقوط الوسادة الصغيرة من تحت رأسى وركض القطط الجربانة جهة الخبز الطرى، وعلى ونسه النهار الزائف تغفو قليلاً مستسلماً لصوت الوشيش الآتى من المكيف القريب،.. وبتروح بعيد، هناك، وتتقلب فى الفراش وتطل لجندى بزى كاكى عاد من سفر بعيد فخلع ملابسه خلف مركب صيد قديم بميناء ساحلى فهالة الرداء الأبيض للقبطان البحرى العجوز العابر فوق سطح لنش المرشدون "عابر ٣" صاعداً صوب قمرة السفينة السياحية الضخمة الواقفة بالبوغاز منذ سبعة وثلاثون عاماً.. عدت تتململ فى فراشك منتبهاً للصوت الرخيم المكرر.

– محمود محمود طلخان..

– (أيوه).

– إنت محمود بتاع بور سعيد؟!

– (افندم يا هانم)

– عندك مقابلة مع الأستاذ محسن عبد العظيم المحقق بالشئون القانونية. ميعادك بكرة الساعة ٧؟!!

فصل ٣
المستشفى

لم يكن يحيى عبد المنعم كوهية المحاسب بالشئون الإدارية يتخيل أن يصل الحال بمحمود محمود طلخان إلى هذا الحد، مدير المستشفى بيطلب ملفه الإدارى ومسوغات تعيينه من إدارة شئون العاملين- أفراد، محمود محمود طلخان عبد الرحيم، تاريخ تعيينه ١٩٩٥/٨/١٥ على درجة معاون رابع- معاون ثالث. معاون أول؟!! بكارلوريوس إعلام من الجامعة العمالية- والمؤهل الأقدم دبلوم تلمذة صناعية. تاريخ ميلاده ١٩٦٧/٥/٢٢ من مواليد بورسعيد. طولون وحارة العدل- أول العرب، وقرار بالفصل فى انتظار وصوله اليوم- بعد دقائق أو ساعات، وعلى من يراه من زملاءه أو أصدقائه إدارى المستشفى إبلاغه بذلك على الفور - ومصطفى حسن عبد الرحمن رئيس الأمن بالمستشفى يمضى على صورة من القرار - استلمت صورة طبق الأصل، عُلم. وجب التنفيذ حتى يأتى المذكور ابن طلخان، يحيى عبد المنعم ينتظر بمدخل الإدارة. يقف بجانب منى محيى الدين زكريا. أحدث سكرتيرات المدير العام والحبيبة السابقة والمخلصة على الدوام لمحمود طلخان والذى احتفظ المذكور بكلوتها الأسود الحرير فى الدرج الكبير فى الكومودينو بشقته فى المعادى وعرف مدير المستشفى بذلك، كيف؟. لا أحد يعلم، وشعبان أبو بكر المنياوى أمين مخزن الأدوات الكتابية ودفعة محمود طلخان بيقابل يحيى فى طرقه الميزانية

فيمشيان سوياً هابطين المبنى الإدارى صاعدين الدرجة السفلى وصولاً لقسم الجراحة متحدثان فى مغزى القرار.. شعبان يقول (أنا لا ألوم محمود.. حظه سيىء. بنى آدم شريف وسط عصابة شراميط ليقول يحيى كوهيه- كنا كُلنا بنخاف منه؟!!

لكن عمرنا ماهنحب حد زيه... وينفخ- اشمعنى هوه يعنى اللى بيتكلم. عاملى عنتر .. تتحرق المستشفى ويتناك كل اللى فيها- مش ليها مدير.. أنا قلت له الكلام دا كتير (مرتبك وحوافزك وبس) وشوف حالك بره... هوه فاكر نفسه إيه، دا المسيح إتعذب والرسول إنضرب بالطوب... بص يا عم شعبان- إذا كانوا كلهم لصوص- يبقى هوه زيهم- ويصرخ شعبان فى وجهه- اخرس يا كلب- إنت عارف محمود كويس وعارف أخلاقه، يبتعد عنه ويطرق غرفة باب كبير أطباء الجراحة- قائلاً: (آه يا بلد وسخة يا ولاد القحايب).

-: (كان لازم يتكلم)؟!!

-: شاف كل شيء عا الطبيعة وهو سهران باالليل؟!!

عشر سنوات وأنت تتعامل مع ٢٠٠٠ موظف وطبيب استشارى وأخصائى ومناوب وامتياز وطبيبات وحكيمات أغراب وعمال وفنيين آشعة، (تفتكر ممكن يكتفى بنقله)؟!.

:- (دا قرار فصل ولا رجعه فيه)

:- الطريقة الوحيدة للخلاص- يعمل إضراب وينتظر رجال أمن الدولة. يقلب الدنيا... (الله يخرب بيتك يا مس سامية. ربنا ينتقم منك.. وكل ده ليه، عشان شرخ ما بين رجلين. آه يا شوية شراميط.

-: لكن صحيح. هو شافهم بيلحسو لبعض.

- (يا أخى دا أخد كلوتاتهم بالعافية وروح إمبارح الصبح.

لكن اللى هيجنن المدير- إنه خلاً مرضى قسم النفسية والباطنة يوقعوا على المذكرة بعد ما شافوا بعينهم؟!!" سامية" رئيسة التمريض بتلحس للبنت "هداية" ممرضة المبتسرين

° ° °

مبنى المستشفى يتسع رويداً رويداً. وكل عام يضاف قسم جديد يلزمه مبنى آخر فى أرض خالية أو مبنى قديم متهالك ينهدم أو يتجدد تنتقل إليه مستلزمات جديد، أسرة. وتورلات وكومودينات وفرش ملاءات وكراسى وبارفانات وعربات سرفيس وحوامل محاليل. ودواليب للألات. والسرير بـ ٦٠ ألف جنيه و٨٥ ألف إزاى؟!!، ومع بداية قدومى كان فيه ثلاث ابنيه متوسطة الارتفاع كانت بتمثل الهيكل الأساسى لمبنى المستشفى. اللى كان زمان قبل الثورة أسطبل لخيول الملك- الخيول البزرميط- كان فى المقدمة المبنى الإدارى وغرفة المدير وكان مساعد أخصائى إسمه محمود شلتوت. أيامها كان المدير الفعلى هو الحاج عبد الجليل. كان الكل فى الكل، الحاج عبد الجليل- أبو هشام عبد الجليل فنى المعمل- اللى بنشوفه دلوقتى فى المسجد على طول.. يصلى الظهر فى "القاضى يحيى" ويرجع للمعمل يقرأ جريدة الأخبار بيتابع أخبار الكورة.. بيحب الحشيش قد عينه. بيشتغل فى معمل الدكتور أحمد حسين بعد الضهر وينام ساعتين ويقوم يقعد فى القهوة ويشربله عشر حجارة وتبات معاه، ييجى الصبح رايق ومسطول، غلبان. الله يعينه على حاله- أظنه ادرّوش اليومين دول.. قسم الجراحة يقع بجانب الدرجة السفلى الدرجة السفلى يعنى إسبشيل متغطى. تعمل كل حاجة براحتك- بس بعد ١٢ بليل، وقسم الباطنة فى الدور الثانى. المبنى الثانى فيه عيادة الأسنان فى أول دور- تحتها قسم الأمراض النفسية والعصبية وهى العيادة الوحيدة فى هذه الناحية،

أمـا بقية العيادات فتتوسط حى "الحلمية" جهة السينما القديمة وبنايه منفصلة مـن أربع طوابق مخصصة سكن للأطباء بتطل على حى المغربلين ونادى الحبانية وسكة الجنابكية المواجهـة لقسـم الاسـتقبال الرئيسـى الجديـد موقعه فى أول مدخـل الحـوادث والطـوارئ القريـب مـن مدرسـة صـلاح الديـن الثانوية بنات، عرفت الأقسام مـن مدرسـة صـلاح الديـن الـثانوية بنات، عرفت الأقسام كافة. وأطلعـت عـلى جغرافية المكان من خلال تتبعى لمصدر النداء عبر الكول الداخلى الموزعـة سماعاتـه فى كافة أرجاء المستشفى. وكانت المرة الأولى التى اسمع فيها اسمـى يـردد باسـتمرار وأنـا واقـف بجانـب مخـزن الأوكسجين الرئيسى، كان يومهـا فـيه واحـدة سـت بتزعق. لعنت المدير والمدرسة وخرجت من باب صلاح الديـن عـلى قسـم الطوارئ مباشرة، كانت بنت الست حملت سفاحاً كانت طالبة فـى ثانية ثانوى وعندها ١٦ سنة أحبت ولد مراهق ضائع. قفز لها من على سور المدرسـة سـاعة طـابور الصباح وتحـية العـلم، انـتظرها فى الحمام وهى عارفه فدخلـت وراه فـى أول حصة وكان اللى كان،.. وجنين ذكر مرمى فى دورة المياه وشـرطة أداب ومباحـث. والطفـل زى كومـة الـلحم الحمـرا بينشـال مـن جانب الجـرله ويحمله العسكرى ببدله سوداء وتستدعى مُدرسة الحصة الأولى والبنت الضـائعة، واشتبك أنا مع ضابط الشرطة بعدما هرعت فى ثوان إلى قسم الحوادث والطوارئ وترجونى أم البنت.

-: (فـى عرضـك يـا ابـنى خلـيك معانـا- البنـت لسـه صـغيرة ومستقبلها هيضـيع... (تعـالى يـا أفكـار) وتـأتى تلمـيذة الصف الثانى الثانوى فى حمايتى خلفـى ويتقدمـنا المديـر بصـحبة ضـباط الشـرطة ومديـر المدرسـة والإخصـائية الاجتماعية. ويحل الموضوع ودى فى هدوء؟!!

يومهـا خافـت البنـت مـن أمهـا- وبالذات ساعة ما ضربتها فى بطنها أكثر من عشر مرات.

نزفـت البنـت من فوق ومن تحت. وصعدت يومها إلى الدور العاشر، وقف محمـود طلخان يومها يستطلع المكان من أعلى. من شرفة الدور العاشر وبانوراما البيوت المقفرة منشورة فى شكل دائرى حول المستشفى. كان الغبار صاعد من كل ناحيـة، وامـرأة عجـوز تمسـك بإبـر "الكانفـاه". وأخرى سمينة تتدلى فى دلال لتنشـر ملابسـها الداخلة المبتلة على الأحبال البلاستيك فى شرفة الدور السابع فـى "كـوم الصـعايدة" راقبـت حـركة الطبيبات الامتياز الجدد داخل مساكنهن- قـرويات غلابـة. وأخـريات مـن عاصـمة المعز يأتين بعربات فارهه دائخات بعد منتصـف الـليل... كانت الأدخنة تتصاعد من مبنى المشرحة المشرعة على الدوام وفـى الخـارج يجلس الحارس الحشاش محمود شعبان. عامل خدمات المعاون الله يـرحمه، كـان بلطجـى بـس جـدع، مدمـن ويـتعاطى كافة أنواع المخدرات حتى البرونكوفين.

الله يـرحمه. كـان أقـرب الناس لقلبك يا محمود وعشر سنوات فى الخدمة فى وزارة الصحة، والمصير.

-: (قرار فورى بالنقل)؟!!

يـنهدم المبـنى عـلى أصحابه ويـبقى الشرفاء. شرفاء؟!! ولكن كيف نأتى بالشـرفاء فـى هـذا الـبلد- حقـنه "الأنسـولين" تـباع بخمسـة جنيهات وساعات بعشـرة فى السر والعلانية. وأدوية الكبد والجهاز الهضمى، والإسبازموكانوليز يهـبط مـتوارياً فـى حقائـب بلاسـتيك مسـروق مـن صيدلية نفقة الدولة. العلاج المجـانى المخصـص لمرضـى الكُـلى يخـرج فـى الـترو للى مخفى تحت الكارتون الفارغ وتأخذه الحكيمات من "بخيته مروان وليلى محمود الغندورة حكيمة قسم

الوجـه والتجمـيل لتحمله التومرجيات، نادية شعبان مصطفى وسيدة عبد المنعم وهالـة الصـفوى عاملـة السـرفيس ويتم توصيله إلى تجار منشية ناصر المنتظرات بالخارج قبل قسم شرطة الدرب الأحمر. والعديدات من عاملات النظافة يساعدن في المهمة نظير السماح لهن بالخروج باللحوم الجافة والفراخ المجمدة من الباب الرئيسى أو باب الزيارة ملفوفة في ملابس متسخة، والباب الرئيسى يقف عليه فـرد أمـن موسمـى يـأخذ تعليماته من رئيسه المباشر مرتضى حسب النبى الذى بـنى العمـارة الـرابعة بفيصـل مـن شـهرين. وعشـرة جنيهات يومياً لفرد الأمن القديـم الواقـف عـلى بـاب بورسـعيد مراقباً ومقدمـاً التسهيلات للصوص أدوية مشـروع العـلاج على نفقة الدولة. و١٥ جنيه توريد جارى عن كل تذكرة وشنطة عـلاج تصـرف بالـتزوير وأسمـاء متشـابهة مـن صـيدلية نفقة الدولة، وقرارات خارجـة وداخلـة- ١٥٠ قـرار كـل يـوم والصـرف مـن العتـبة. زجاجـات شامبو وصـابون سـائل. ومقـوى عام "فيتاماكس" و"فيتاماكس بلاس" و٥٠ جنيه عن كل كـرتونة كـبيرة مملوءة لمبات فلورسنت ١٢٠، ٦٠ جديدة لم تفتح وأمناء مخازن المستديم والهـالك والجـاف عـال العـال، وجـردة الحسـاب. وحصر الصافى يتم يومـياً فـى الثالـثة بعـد الظهـر فى المكاتب المغلقة ووقت استلام وتسلم نوبتجيه أفـراد الأمـن العـاملين من الثالثة حتى الحادية عشر ليلاً ومرتضى حسب النبى رئيس قسـم الأمـن يقـول لـلمدير المظلـوم والـتى وصـلت سمعته السيئة للوزارة ورئاسـة الجمهوريـة: (يابـيه الحـرامى بشـيلته. والـلى يقـع مـن رجالـتى معـرفوش)؟!! شاربه اصـفر وشـعره نـاعم قصـير مفـروق مـن الجانب وعيونه عسـلية وبشـرته بيضـاء، كـيف "بـيرة" ويُعـبد الجنـية وملـوش فى النسوان، جسـده نحـيل وطويـل نسـبياً ويتمشـى فـى خطـا واثقـة ونظـراته حـادة مدققـة وفاحصـة. وسـاعات مريـبة. حـتى لأقـرب أصـدقاؤه- محمـود طـلخان المعـاون.

والذى يعرفه مرتضى جيداً بل يعرف أخلاقه ومطلعاً على بيئته. ولكنه دائماً ما بيسلم عليه فى حب ظاهر فى انتظار أقرب فرصة للانقضاض عليه حاملاً فى يده أو حقيبته أى شىء، ومسئول الرقابة الإدارية زارنا الأسبوع الفائت. حضر المستشفى فى السر. وسأل عن كل شىء وشاف الحاصل وقال.

-: مفيش دليل مادى ملموس يؤكد البلاغ؟!!

وبناءً على رغبة أمين عام الهيئة العامة للمستشفيات والمعاهد التعليمية وللكرم الزائد المعروف عن سيادته. أمر عم سيد سائق المدير بتوصيل السيد المفتش فى العربة الشيروكى حتى منزله واضعاً له الظرف البمبة المنتفخ فى جيب الجاكت الأيسر

° ° °

٢٠٠٠ من البشر ما بين موظفين وأطباء وحكيمات وفنيين وتومرجية بيلفو ويدورو فوق الحصى الأسمنتى المبدور فى طرقات وممرات ودهاليز المستشفى. لكل شخص طريق معروف لا يحيد عنه، زينب أمين التومرجية تمشى فى طرقة الباطنة فى الحادية عشر مساءً. تدخل الحمام الحريمى وتغلق عليها الباب وتعُد الحلاوة المغلية وتنتظر حكيمات "البساتين" ومنشية ناصر وبير أم سلطان السهرانين الليلة. تبدأ فى النتف بعد منتصف الليل داخل قسم الأطفال، زينب أمين تنتف كل المناطق الحساسة عند الحريم وده لغاية ثلاثة بعد نص الليل وتتفرغ بعد ذلك للحقن الشرجية. وليلى منصور نائمة عارية على السرير الأوسط بتفتح رجليها عا الأخر وتبكى قائلة اتصورى يا خالتى أم أمين الراجل بقالة ٣ شهور مقربش ليا. وترد أم أمين، كلب ابن كلب. ديله نجس. الحق عليكى. مش إنتى اللى بتشتغلى وتعرقى وتديله المرتب والحوافز فى إيده كل شهر. له حق يلووف على غيرك يا دايخة.. وابن الكلب ملقاش إلا

البنت مرات البواب. وكل ليلة. يشرب البانجو ويقعد عندها لغاية الساعة سابعة.. تنشغل أم أمين فى تجهيز حالات لست عمليات باكر. حقن شرجية وبالدور وكل مريض عليه أن يدفع عشرون جنيه، ١٠ للحقنة وخمسة للاستحمام والتليف. والخمسة الأخرى لحلق العانة. أو ما حول فتحة الشرج إن كانت العملية "بواسير" والدكتور فؤاد بتاع المنصورة يترك النوباتجية كنائب إدارى للعناية المركزة ويصعد سكن الطبيبات ليعتلى د. ليلى المرعشلى التى تتعاطى الترامادول والأمادول بصفة مستمرة. د. ليلى المرعشلى تغيرت ملامحها كثيراً فى الفترة الأخيرة فهى تشرب أكثر من عشرة قهوة سادة شوب يومياً.. وفؤاد يذيب فص الأفيون فى القهوة إلا سكتوا الفرنساوى بُن محوج مع سيجارتين من الحشيش البلدى وينط الساعة ٤ قبل الفجر.

وساعات بينزل من سكن الطبيبات وقت الأذان ويستأذن بعد ذلك بالصعود لسكنه المخصص للأطباء الغرباء، وأنا واقف الساعة خمسة وربع أباشر عمال مصر سرفيس وهم يقومون بسحب المياه المتسخة من فوق كوبرى العيادات ودائماً ما اسمع الشهقات الساخنة مع انصاتى لنبرات فيروز الشجية وهى تغنى ريح الشمال. وسكن الليل، وطيرى يا طيارة، وصراخ وزعيق وجلبه وسب دين والصوت يأتى من داخل طرقة الحوادث مع هجمة ضباط مباحث الداخلية من قسم شرطة الدرب الأحمر بصحبة وكيل نيابة حديث التعيين والتحقيق والتأكد من مواصفات جثة المنتحر.؟!!

وبدر الكومى لص الملابس الجديدة ينام عارياً فوق ترولى صاج فى طرقة الحوادث بعدما انفلتت أقدامه من أعلى جدار بدروم عمارة أبو طالب وقت أن اقتحم شرفة الحمام وقام بسرقة الملابس الداخلية لمدام أشرف بيه المراكيبى ضابط مباحث الجمالية. هوى ابن الكومى الساعة خمسة وربع من الدور الثامن

فسقط مضرجاً فى دمائه، وسكان العقار ١٣٣٥ طالبات الجامعة الأمريكية البرجوازيات. يتدلون من الشرفات فى الظلمة ويسحبون البناطيل الاستريتش والباديهات المنشورة مبتلة على الحبل الطويل، حدقوا فى بغرابة وأنا واقف مسنود على باب (٢) المخصص للزيارة والمطل على شارع بورسعيد. أتأكد من ملامحهن وأتذكر إحداهن والتى نزلت قبل أذان المغرب بالأمس حاملة صينية الفراخ والأرز المعّمر والخضار الحراق لنتناول نحن موظفين المستشفى النوبتجية الفطور الجماعى فى أول يوم صيام فى الشهر الكريم" النهاردة ثلاثة رمضان ومش عارف ليه بشعر بحزن وأسى غريب ساعة الفطار. بحس بوحدة كئيبة. وكأنى أنا الوحيد اللى بيراقبه ربنا فى كل شىء بيعمله، وزوجة النائب الثالث لمدير الأمن القواد تنظر لى فى شفقة عند كل إفطار وخاصة وقت أن ينطلق مدفع الإفطار الرياح تهوى والسماء سوداء والموتى اليوم عشرة، هبطوا من قسم الكبد والجهاز الهضمى بعد علاج متأخر أسبوعين فقط. عبد النبى الحانوتى يلهث خلف تصاريح الدفن. وسمير الصاوى المعاون يوقع كل حين على حالة جديدة نظير ١٠ جنيه يدسها الحانوتى فى كفه الأيمن والتشخيص واحد — لا يتغير والمرضى كلهم من قسم الكبد— هبوط حاد فى الدورة الدموية أدى إلى توقف القلب؟!! —

وامرأة تقترب من الثلاثين تخرج خلسة من قسم العناية المركزة. تجر الترولى مع خمسة عمال. والمتوفية ممددة على ترولى صاج بارد والدم بينضح من الملاءة البيضاء التى تستر عريها، وحقنة البنج كانت خاطئة كما علمنا من الحاجة "تعويضة" تمرجية العمليات الكبرى، راحت المسكينة فى غيبوبة ٣ ساعات وهى تقاوم الموت فى غرفة الإفاقة ٢ سيدات.. المريضة كانت عروسة جديدة فى شهر العسل وزوجها الضابط فى القوات المسلحة صار يتوعد طبيب

البنج بالقتل برصاصة بعشرة صاغ من سلاح ميرى- صارت المرحومة ممددة على الترولللى. فارعة الطول كشجرة مورقة، الترولللى يسحب بالحالة المتوفاة جهة مخرج العمليات بجانب العناية المركزة بعيداً عن أهلية المتوفاة. الساعة الآن الثامنة والنصف صباحاً- ٧٠ سكرتيرة موسمية يقفن منذ الصباح أمام مكتب ضبط الوقت لتوقيع الحضور. البنات يملأن الطرقة المؤدية للعيادات وبنك الدم. ينظرن للعابر صامتا. معاون المستشفى السهران السائر بمفرده يطل بدهشة للجموع الغفيرة. الصراخ يتعالى من جانب المشرحة وخلف ثلاجة الموتى. والكل سائر فى طريق معلوم "نوبى" فنى بنك الدم يختلى بشهيرة.. حكيمة الدرجة العليا. "وفتنة" طبيبة الامتياز الجديدة ساكنة روكسى تمشى خفيضة الرأس تتباطأ فى سيرها بعدما فقدت بكارتها على يد الدكتور حسان طبيب الأسنان الإسكندرانى.. وينطلق أذان الظهر فأرقبها متعمداً وهى تركض ناحية مسجد المستشفى تتخلص من حذائها القطيفة وتقترب من صحن مسجد السيدات لتقف خلف طبيبات الأطفال المنقبات آخر دفعة امتياز"..

° ° °

الساعة بلغت الثانية عشرة والنصف وخمس دقائق ومحمود طلخان لم يصل. وباب بورسعيد الحديدى مشرع وزحام غريب جهة شباك تذاكر الزيارة، و"نجلاء" سكرتيرة البرج تنسل من بين المرضى المجانى والزوار وتتأهب لإعداد وجبة الفطور- كشرى ساخن من عند مؤمن مع فلفل اخضر حراق، القامة قصيرة والجسد ربع والأجناب منتفخة والهيئة تتشابه مع زير قناوى، أه يا ولاد القحايب ٣٧ سنة بمئات السنين من أعماركم الأستاذ أحمد سعد المحامى مدير الشئون القانونية له ٣ أيام بيحقق مع سامية هريدى حكيمة العمليات المساعدة التى ضُبطت وهى تسرق ٦٠ جفت متوسط و٣٠٠ أمبول بنج مخدر،

و٥٠٠ سرنجة فى كرتونة مغلقة مع ١٠٠ مشرط كبير و١٠٧ مقص كبير وخمسة أجهزة للضغط وسبعة أجهزة لقياس السمع مع العشرات من سماعات الكشف التى لم تحصى حتى ساعتنا هذه، ومرتضى حسب النبى فخوراً بضبط سامية هريدى، مؤكداً للمدير العام إنه يقظ ومنتبه بل حريص على المال العام، سامية قفشها رئيس قسم الأمن وهى خارجة من باب العمليات الكبرى. الباب الخلفى المخصص لخروج العمليات الاستثمارى على المصعد مباشرة. مدير المستشفى يهاتف رئيس الشئون القانونية سراً مطالباً بتوقيع الجزاء- خمسة أيام خصم من الراتب الشهرى على ألا يتكرر هذا الأمر مرة ثانية، وينزعج رئيس قسم العمليات الكبرى أ. د. رشاد المصرى استشارى القلب وزميل كلية الجراحين الملكية بلندن من نوعية الجزاء الظالم.. ف دكتور رشاد المصرى كبير الجراحين يرى أن المستشفى (مش ناقصة فضايح) حيث أن المذكورة اللصة تعمل معه فى عيادته الخاصة بمصر الجديدة.. يضحك أ. أحمد سعد مدير الشئون القانونية ويشتاط غضباً فيظهر فى الصورة سيد حامد الجناينى سابقاً ومندوب البوستة الحالى. وهو يقضم سندوتش الفول الحار على رصيف نزيه الفوال الذى يعدُ رسالة الدكتوراة عن أثار البقوليات فى إعداد جسد المواطن المصرى بالصلابة. سيد الجناينى "بيحلبش" من ٣ أيام على د. عنايات الغفير استشارى الأمراض الصدرية السابق ومنسقة الزهور حالياً. سيد ضبطه معاون المستشفى فى حالة تلبس وسمسرة. فقد إلتهم المذكور ١٠٠ جنيه مصرى من الدكتورة نظير أثمان الزرعات الجديدة الزابلة- بوطس وفيكس ولبلاب واتى بهم من بلدته فى عربة ربع نقل. ومع التحريات ثبت أن المتهم وضع الأصص داخل العربة الأخيرة فى قطار منوف والمخصصة لنقل المواشى.. الجناينى يسحب مصحفه الصغير من كيسه الكتان المعلق فى صدره أسفل الصديرى ويقسم بأغلظ الإيمان أن

الزرع غلاً ثمنه. وما أتى به صباح اليوم من فيكس وبوطس ولبلاب هو هدية اسبشيل بيقدمها لأعز إنسانه لقلبه. د. عصام الناشيرى أخصائى العظام يؤكد لمدير المستشفى أنه بيراقب سامية هريدى من خمسة أعوام. وحادث الأيام الفائتة ليس هو الأول. فقد سبق لبنت هريدى أن نُقلت من القسم مرتين بسبب سرقات مشابهة .

° ° °

تلاوة من الذكر الحكيم لقصار السور يرتلها القارئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد "والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين. لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين"؟! (والعصر إن الإنسن لفى خُسر إلا الذينَ أمنوا وعملوا الصلحت وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" "قل يأيها الكفرون لا اعبد ما تعبدون ولا أنتم عبدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عبدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين" أذن المؤذن من مسجد قريب من المستشفى حى على الصلاة حى على الفلاح مع التسليم وخروج المصلين. دوى الصوت وانطلقت صرخات الفزع مع حالات هرج واستغاثة هرولت حكيمات قسم الاستقبال وخلفهن طبيبات قسم الحالات الحرجة والعناية المركزة متوجهات لمكتب المدير العام الذى قابلهم مذعوراً واندفع يجرى قاصدا قسم الاستقبال وهم يركضن ورائه بقدمه اليمنى ضرب باب غرفة (١) المخصصة لاستقبال حالات النساء ففوجئ بطبيب الامتياز هانى كمال الدين وقد تجرد من بنطلونه ولباسه الداخلى فصار نصفه الأسفل عارياً تماماً وظهر منكفئاً فوق سيدة سيدة حامل فى شهرها الرابع. ولاحت المرأة مستسلمة فى رضا ونشوة وقد تمددت فوق سرير الكشف الصاج منفتحة الساقين. بانت مؤخرة طبيب الامتياز ساطعة فى الواجهة وتمدد حيوانه يستطيل. ينقر فى الشرخ اللحمى ومنيه يتساقط فوق

البلاط. وحكيمات القسم ومعهن التومرجيات يصرخن في ذهول ويسحبن الملاءات الجديدة ويرمين بها فوق جسد المرأة الغائبة في نشوتها. ظهر المسعفون وقد بدأو يضربون الطبيب على ظهره وقفاه وبالأحزمة على ساقيه وهو لا يبدأ كالمخدر تاركاً نظارته الذهبية الطبية تسقط على الأرض، واندفع ضابط المباحث وخلفه الزوج يضربان في الطبيب على مؤخرته بعصا من الخيرزان وهو ضاغط بصباعه الأوسط على سُرة المرأة الحامل المدة على ظهرها منفرجة الساقين.. الدم طرطش من ظهره وجنابه وقفاه وسال من أذنه اليمنى. سحبوه من قدميه منكفئاً على وجهه فوق البلاط المتسخ وقد صار جسده كله منتصباً وعضوه الذكرى منثني لادنى قرب فتحة شرجه بين فخذيه.. مدير المستشفى مذهول وازقه الحبانية وحارة الصعايدة. وشارع الجنابكية خرجت برجالها ونسوتها الملتفون بالعباءات والملس على اللحم العرقان.. وتقدم شاب في الثلاثين هائجاً معلناً أن المذكورة شقيقته الكبرى. سحب نصله الحاد البارق يضوى في مقدمه "قرن الغزال" المفتوحة والمعدة للنفاد، ولم يستوعب مدير المستشفى الحاصل. ما يراه أمام عينيه. في مشهد سريالى. شبقى. حضر وكيل النيابة على الفور وبدأت المعاينة علانية في موقع الحادث وتراصت العساكر وأمناء الشرطة والضباط واختبأ ممرضات قسم الاستقبال والنساء والتوليد داخل دورات المياه. وعلى طلقات الرصاص المندفع من فوهه الطبنجة الـ ٩ ملي. كان ضابط مباحث الدرب الأحمر بزيه الملكى يرمى بالمتهم العارى في الصندوق الخلفى لعربة البلوكامين وقد توسط جسده الضئيل بطوله الفارع الدائرة المُحكمة للعساكر وأمناء الشرطة الملتفين حوله في صمت ورفض طبيب الامتياز ارتداء بنطلونه قبل صعوده العربة رغم موافقة الضابط وعلى مضض لرجاء مدير المستشفى، ومع تراجع

وكيل النيابة مصطحبا المدير العام متوجهاً للإدارة كان فرار الخلق خلف عربة الشرطة أشبه بيوم الحشر.

وقتها خرجت أم ميدو التومرجية تقول.. (ابن الكلب الخول شايله على كتفه. الحقّ على جوزها المعرص. كان لازم يقطعموله... وأم صابر المغسلة تقول فى ثقة. والنبى بت الكلب دى عملت الفيلم دا هنا قبل كده من ٣ سنين. أنا لسه فاكرة شكلها الشرموطة، ود. على السبكى المدير المناوب. يرشق عيونه فى الأرضية البلاط قرب الاستقبال وداخل غرفة النساء محدقاً للمنى المنزلق تحت سرير الكشف وأسفل الحوض الزهر (. إيه ده.. كان فين كل ده. إيه ده، ويرد معاون المستشفى النوبتجى الواقف خلفه مباشرة، دا نشا.. نشا يا دكتور على عقبال عندك

° ° °

٣ أيام ومس سامية زكريا رئيسة التمريض ممنوعة من التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف. بل صارت تخجل من الدخول من الباب الرئيسى للمستشفى كعادتها كل صباح على مدار مدة خدمتها التى تزيد عن عشرين عاماً.. تأتى من الباب الخلفى– باب الاستقبال وتدخل فى تمام السادسة قبل دخول الحكيمات تلزم مكتبها بجانب الدرجة السفلى وسراً تبعث بالحاجة عائشة ليقفان خلسة بجانب الباب الرئيسى وباب (٢) زيارة ليترقبا عودة محمود طلخان الذى تغيب لمدة أسبوع ولم يزل قرار فصله عن العمل فى انتظاره.

طرقة العمليات

مع اختراق الميني باص لشارع بورسعيد. هبطت عازماً على الدنو متلصصاً، دق قلبي بعنف وطفا نثار العرق يتسلل على جبيني دانياً لو جنتي هابطاً إلى عنقي ومقدمة صدري ووجدت أقدامي ترتجف فأحسست بنذير الشئوم، قصدت باب ٢ المخصص لدخول الزيارة محتجباً خلف العابرين، ثوان معدودة وطاف الصراخ يدوي في المكان مع هجومهم على بالسيوف والعصي الخيزران والهراوات الغليظة سقطت وسط الدائرة المحكمة وتحلقو حولي الخمسة. أعمارهم تتقارب من الخامسة والعشرين، انكفأت أرضاً محاولاً الانفلات من أسفل ماسورة الدرابزين الغليظة التي سدت الطريق في وجهي وقت الهروب. في لحظة كنت قد تراجعت للخلف مستديراً محاولاً الجرى حاجبا وجهي وعيوني بكف يدى اليمنى وقت أن صرخت المرأة العجوز الواقفة على شباك التذاكر ترقب الواقعة.. (حاسب يا بنى، (خمسة على واحد يا ولاد الكلب). قصدت باب المعاون المغلق فتبعوني مشهرين الهراوات واندفع فرد الأمن الوحيد الواقف بجانب عربة المدير الشيروكي يتشابك معهم، ضربوه في صدره. لكمة واحدة في فكه وهوى يفترش الأرض. وسقطت الهراوة الغليظة على رأسي من الأمام. فحاولت التماسك مستنداً على الجدار الأسمنتي الملاصق لمكتب المعاون وقت أن سمعت الزعيق يخترق أذني مردداً صراخاً تواصل بشتائم جارحة من تلك المرأة غريبة الهيئة والملامح التي كانت تشير إلى وقت دخولي من الباب.

-: (هوه ده الصايع الجربوع. هو ده محمود المعاون يا غريب (إضربوه المعرص)، وانسل السيف الطويل المسنون. فارتفع فى الهواء هابطاً فوق رأسى رقدت غارقاً اتحسس عظم راسى. فهوت الشومة المدببة على فكى الأيسر بوجنتى واندفع شلالا دموياً ساخناً من فمى فتحاملت على نفسى محاولاً الوقوف من جديد، فى وهن بتُ أستطلع المكان من حولى حدقت فى فراغ خالى عبر الطرقات الطويلة المؤدية إلى العنبر الإدارى. عينى تفتش فى الزوايا والأركان والممرات. جريت والدم يملأ قميصى. استغيث متنقلاً بنظرى فى النوافذ القريبة والبعيدة فى مبنى البرج. ومركز أبحاث الأسنان وغرفة توقيع الحضور والانصراف- لا أحد. لا زميل إدارى ولا طبيب ولا ممرضة، الطرق والممرات ساكنة وكأن القدر قد اختار الوقت المناسب لإنهاء حياتى، تفاديت الضربة الثالثة بذلك اللوح الخشبى الذى سحبته من مقلب القمامة. فباتوا يلاحقوننى من كل اتجاه. تعددت الطعنات فى عنقى ووجنتى وقفاى وتوالت ضربات العصى الخيزران تلهب أفخاذى من خلف ومن أمام وقرب خصيتى ومرت الدقائق كأنها دهر فانفرطت عزيمتى، فجأة رأيت خالد الأقطش فنى الأشعة يركض فى اتجاهى. كز على أسنانه الصفراء ونهض بصدره العريض فاتحاً ذراعيه فى وثبة غضب طوق الثلاثة من أعناقهم هابطاً برؤسهم إلى المسطح الرخامى الطويل المواجه لمقلب القمامة. وهرع أفراد الأمن القدامى على الصرخة الأخيرة المنطلقة من حنجرة المريضة نحمده الكالوتى المحجوزة بقسم الباطنة والتى تصادف مرورها بجانب محطة النفايات، تماسكت فانتصبت من جديد مكشرا عن أنيابى هائجاً فى جنون أسحب حزام بنطلونى الجينز الجلدى الغليظ أبو توكه حديد. جريت خلف الاثنين الأخريين ألف الحزام الطويل حول رقابهم الغليظة محكماً قبضتاى على طرفى الحزام تارساً العنقين فى دائرة

محكمة أمرر ذيل الحزام فى ثقب التوكة المتسع. أجر الجسدين فى هياج زادت علاماته مع الصرخات المتكررة الخارجة من حنجرتى المبحوحة.

° ° °

كان مدير المستشفى وأمين شرطة الدرب الأحمر قد طلبا قوة من مباحث المديرية. واندفع كافة العاملين بالمستشفى متحلقين حول موقع المشاجرة. تمددت على الأرض الحصى فى ممر الدخول الطويل منتظراً حضور الترولى الصاج من قسم الاستقبال وقت أن أنسلت من بين حشود المرضات المتجمهرات حول مكتب المدير ومدخل الزيارة ومكتب المعاون المغلق، امرأة بدينة فى الأربعين قريبة الشبه بمس سامية زكريا مشرفة التمريض. دنت بعباءتها السوداء المحبوكة حول أردافها الطويلة تقترب من د. محمد عاطف المدير العام للمستشفى الواقف جهة غرفة الأوكسجين يستمع وبإنصات لحكايا فرد الأمن الذى كان واقفا بباب الزيارة وقت المشاجرة. أسهب فى التفاصيل شارحاً كافة الوقائع. روايا ما حدث بدقة على مدار النصف ساعة الفائتة والتى انقضت فى الشتائم والركل والطعن النافذ حتى صارت طرقة باب الزيارة غارقة فى الدماء. وسمعتها تردد فى هوس وافتخار وبذاءة ووسط جموع العاملين من الزملاء الإداريين الذين تحلقوا حولها فى دهشة واستنكار. (بتبصولى كده ليه. يموت ولا يتحرق ولا يروح فى مصيبة. (مش هوه اللى عاملى دكر وداير يسب ويلعن فى بنات الناس)؟!!

° ° °

ووجدتنى فى شبه غيبوبة فائر الحواس. مقلوباً على وجهى الملطخ بالدماء. مغطى بملاءة بيضاء ممزقة واصلة حتى منتصف ظهرى العارى. جسدى المرتعش ممدداً على الترولى الصاج الفارر على البلاط الموزايكو متجهاً

لغرفة العمليات الكبرى الذى انفتح بابها على مصراعية، عيونى مغمضة وشعرى هائش والدم خارج من صدغى وأذنى متسرسباً قُرب لسانى المتدلى خارج فمى يلعق المسطح المجلفن للترولـلى. ذاكرتى تجتر سنوات عمرى الفائتة. والعجلات الصغيرة الأربع تتخطى العتبة الأخيرة المؤدية لسرير العمليات بغرفة جراحة الوجه والفكين. قلبى يدق بعنف والدموع سائلة كنهر من عيونى. وتنتابنى حالة هياج بيّن فيزيد صراخى فى جنون وأسى. أضرب أقدامى النحيلة فى هوس فوق سرير العمليات البارد فى الغرفة المشبعة برائحة الديتول، اجتر خطاى فى سنواتى الفائتة. طموحاتى وأحلامى. ونجاحاتى، خساراتى المتعددة التى لا تحصى، شقائى فى غربتى. ووطنى اسأل نفسى:- ماذا جنيت يا محمود. وماذا استفدت، من الرابح ومن الخاسر؟!! ضربة غدر كنت فى انتظارها. نفرة الخوف من المجهول وأى مجهول يا شقى، كنت تقول هى آتية بلا ريب. كنت تعلم دوافعها. تحسها. تنتظرها، وتتهيأ لها عبر اندفاعاتك وتهورك الدائم. جسارتك. تمردك وخروجك عن المألوف والمتبع، البحث فى الخبايا كان همك، ملاذك- التفتيش فى أسرارهن وحياتهن المخبوءة. المحجوبة. اللامرئية، ثلاثة أيام بلا نوم!! خوف السنين الماضية. الآتية والآنية، ٣٩ سنة وعايش بقوتك الروحية. بحواسك تسير دوماً وتوارت قوتك الجسدية رويداً رويداً فما عادت تأتيك إلا فى لحظات الوحدة. والاغتراب والقلق والأرق فوق فراشك، لسنوات طويلة فاتت وها هو اليوم قد أتاك. بمفردك كنت داخلاً. واقفاً. وضربة غدر من مجموعة بلطجية هبطوا فى ثوان من عربة ميكروباص قديمة: وانضربت وزادت الإهانة عند مدخل الزيارة- وعلى مسمع ومرأى الخلق. زملاء ورفاق وأحبه وأعداء كثيرون كشافات العمليات المتدلية قُرب سريرك تضاء فى الغرفة المعقمة المحكمة الإغلاق. روحك بتروح بعيد-

فى زمن آخر توارى، وزمن قادم، والخلق بتتفرج عليك من الشبابيك، فى شفقة تـارة. وفـى حسرة تارة وملامة تارات، تتقلب على السرير البارد. سرير حديد برجول صدئه.

الـدم نازل من الأنف على بطنك وأنت غير مبال، النور بيزيد ويزيد معاه الخوف فتقول فى رقادك،

:- خايف م الموت يا محمود؟!!، لا تخف).

لـن تمـوت الآن.؟ تخـلى عنك الرب فجأة متجلياً فى عليائه فدنت عنايته تسـتعطف وتـرجو رضـاه، نمْ يـا محمـود ولا تخـف. فلـن يتركك المولى، (عُديا محمـود)؟!! تقولهـا نفسـك لنفسـك فـتفور حواسـك الهائجـة رغم حقن المخدر الكُلى، وتنقلب على ظهرك عارياً وتنطفأ الكشافات الموجهة صوب رأسك فتبكى فـى أسـى. وتنفـتح عينـيك عـلى آخـرها فـتحدق مشدوهاً فى جوانيات التنانير المحـبوكة فـى بياض حول أرداف فتيات التمريض وطبيبات الامتياز المتحلقات حول سريرك. وتطل الربى المرمرية ويلوح اللابد منتفخاً أسفل الكلوتات الحرير المشدودة فى المؤخرات مروراً بالفروج الهائجة.

فصل ٤
غُرف عمليات القاهرة؟!!

مـاذا حـدث، يجـب أن تسـأل نفسـك- وهـم يسـألون، ومـنى محيى الدين تجـرى خلفك وأنـت محمـول على الترولّلى الصاج البارد الفار فى طرقه مبلطة بـرخام رمـادى ويقـترب المدير العام. محمد عاطف كريم الدين- إيه اللى حصل، ويـرد طبيـب الجـراحة. واستشارى المخ والأعصاب فى نفس واحد (كسر بعضمه الوجـنة اليسـرى وانفصـال فى الفك مع تهتك بالجمجمة). وكل ده من الخناقة. يستكمل حديثه المدير، (أيوه يا فندم).

(اطلـب العمليات بسـرعة)، أخـبار البـنج إيـه. ومنى بتبكى وهى بتجر خلفهـا حجابهـا الطويـل الحريـر والطـرحة الزرقاء وتسمع من يصرخ فى طرقة الـدور الأول- أظـنه كـان الـدور الأول- قُـرب الجـراحة. قـبل مدخـل العملـيات الكـبرى، (يـا حبيـبى يـا بـنى). يـا نـور عـين أمك يا حسين)؟!! ويتدخل فى الحديـث إبراهـيم العجمـى فـنى التعقيم، مين حسين دة يا جماعة. هوه حسين ولا الأسـتاذ محمـود طلخان. وينادى من يمسك بلسته العمليات ويقف على باب غـرفة الإفاقـة (١)- يـا جماعـة الحالـة دى بـتاعة بورسـعيد. ولا هـوه محمـود طـلخان الموظـف؟!!. عملـيات تـانى- تـانى وثالـث ورابـع- (وهوه أنت ناقص يا نـور عيـنى)؟!! بـنج كُـلى و٣٧ سـنة عـذاب منهم ١١ فى مستشفى أحمد ماهر وتــتذكر يـا محمـود- تذكـر- الأولى كانـت كسـر فـى الحاجـز الأنفـى نتـيجة

مشاجرة مع معتوة زادته قرفاً تلك الرائحة النفاذة الخارجة فى الهواء الطلق من براميل حرق النفايات من المحرقة اليدوية الموجودة بالأبواب الخلفية للمستشفى، سب لك الدين وهبدك فى مناخيرك فسقطت تنزف ساعة والثانية مشاجرة مع بلطجية من الزوار دفاعاً عن المستشفى وإدارتها أولاً ثم كانت الضرورة القصوى فى تحصيل تذاكر الزيارة من زوار الأقسام المجانية- (مبسوط يا عينى، ماتتحرق المستشفى). عشرة ضربوك وهربوا. بَطل مغامرات، وبَطل شَكَلْ. دى أمور بلطجية. خليك أنت فى عملك وبس، يرد المدير الإدارى كل حين. ويلتفت للخلف فيمشى نادماً على ما قال. جناية. وجنحة ومطالبة بالتعويض ومحاولات صلح مع الأطراف وقضية فاشوش. ماخسرت إلا دمك، والشهر السجن مع إيقاف التنفيذ لم يفش غليلك، يا قلب أمك صديقة يا غالى.. وبعدين يا محمود، الثالثة ثابتة يا قلبى يا حسين؟!!.. (إنت حسين يا ابنى ولا محمود. اسمك إيه. محمود طلخان ولا حسين عبد الرحيم. يسألك عم سيد التمرجى الواقف جنب راسك فتبكى قائلاً.

- يا عم سيد. أنا محمود طلخان. انت مش عارفنى) يبكى الرجل ويربت على صدرك العارى.

ويسحب الترولى للغرفة رقم ٣١) بالعمليات الكبرى ويتساءل المدد. يحدث نفسه همساً فتتحرك شفتاه.. كان آخر مرة بتشوف أبوك- ملفوف فى جلباب أبيض ونائم على نفس الترولى- من كام سنة. لا تتذكر.. المهم أن الساقان كانا ملتفان حول بعضهما البعض ووشه أصفر ومخطوف وعيونه زايغة. كان بيهرب فى الجلباب الكِتان الخفيف الواسع ونظراتك بتشرد وتحدق فى هيئته. صار يومها تائهاً يسحب عنوة إلى عتبات غرفة البنج، انتبه يا محمود؟!

رائحـة الديـتول نفاذه ووشيش الماء المنساب من الصنابير القريبة يزيد من وحشتك وانقباض قلبك. الأجساد مكومة حولك فى الممرات وزجاجات المحاليل مغلقـة ومعلقـة فـوق رافعـات الحوامل الحديدية وتتدلى الخراطيم زرقاء وبيضاء والـدم يجـرى فـى المسـالك. حقـن وسرنجات معقمة والعيون شبه مغمضة وشبه مفتوحة ترقب الحاصل عن قُرب وبعيداً عن رقدتك. وتتكرر محاولاتك فى النوم فتهاجمك الروائح النفاذة للأجساد المنتهكة والبارفانات الرخيصة. تشتم رائحة عفـن وعـرق وبـتحس بمقـبض حديد بيلف حول ركبك الرفيعة وأثداء الطبيبات والمرضـات تـتكور خلـف شـعر رأسـك الملتصق ببروده الصاج المجلفن. جلبابك الأبـيض يشـف فـيظهر جسـدك الضـيئل، أرانـى عاريـاً والسـت عائشـة كـبيرة حكـيمات قسـم العمليات تصرخ فـىْ مسـاعديها (سيبوه بالكُلتْ يا ولاد الكلب هقولهـا كـام مـرة)، تـتوجس أمـانى خـيفة وتلـزم الجانـب الأيسـر من السرير مبتعدة عن وقفة عائشة قائلة (يا حاجة لازم يقلع كل هدومه ما انتى عارفه)

-: (العملـية فـى فكـُه يـا ختى مش فى بتاعه) تقولها فى غضب عائشة، تسـتدير فـى غفلـة مـن طبيـب البـنج. الـنوافذ مشـرعة والهـواء يكسح الملاءات الخفـيفة والأسـرة الخالـية تـدور فى مواقعها. الأبواب تغلق فجأة. باب الحمام (٢) رجـال- وبـاب ١ حـريم (وبـاب ١ ملابـس غـير نظـيفة) وتخفت الأصوات رويداً رويداً،

- إنـت بـردان يـا حبيبى. طب عِد يا محمود. يلا يا بطل- ١-٢-٣، البنج الكـلى غـير مؤثـر.. واضـح أنـه بيـتعاطى مخـدرات؟!! ويسـتدير طبيب البنج ويظهر بنظارته السميكة كهالة من رماد. رأسه تلمع. أقرع،

- عد يا محمود- حقنة ثالثة ورابعة وخامسة، قوللى يا لذيذ يا رايق. إنت اسمك إيه.. يلا. قول- ١-٢-٣ وتردد فى حالة هذيان، (محمووووووود. طلخ !!!!!!!ان

:- بتحب عبد الناصر لسه يا محمود،

- الله يرحمه مات وساب مصر والمصريين فى حيرة..

- كان حلو ولا مر. وحش. وحيـ ش ش ش ش.

- عد يا حبيب الملايين. يلا يا محمود، تقول الحاجة عائشة العبارة وتضحك وتنزل الدموع من عينها فى نفس لحظة نومك.

- انت خائف؟

- لا أخاف أحداً

- بتحب مصر. حبيت القاهرة اكتر ولا بورسعيد؟!!

الجثة همدت وكذلك الجسد وبات العقل يدفع الذاكرة للاجترار

- بتشرب أفيون يا إبن الكلب!!

- (يلا يا ناصرى).

الأثداء المتكورة تزداد انتصاباً. تلتصق بأكتافك وبجانب عنقك المصبوغ بدم أحمر متجلط والألم فى ضلوعك بيزيد مع تحليق هواء يناير، يناير أم فبراير. أم مارس. لا يهم، بتسمع موسيقى لفاجنر وأغان لفيروز وفى دقائق معدودة بيتخلق بيتهوفن من جديد ليعزف لك سيمفونية لم تكتمل. الصور تتحرك أمام عيونى وعقل يفور وتتجلى هالات شيطانية فوق سرير العمليات ويزيد التحديق فى الأنابيب المددة. وملاءة قصيرة تغطى نصفى الأسفل. الملاءة ممزقة. والستائر تتطاير خارجة من فتحات الشبابيك. عضوى الذكرى ينهض منتصباً ليحدق فى المرضات الملتفات حول سريرى فى الغرفة. يتحدى الأطباء الجهلة

المتعجرفين وطبيبات الامتياز يضحكن دون خجل. حيوانى ينفث سخرية مميتة وأنـا لسـت بخجـلان. أرى فـنار بورسـعيد القديم فى شارع ممفيس خلف شارع فلسطين. ويداً ناعمة تتمدد خلسه. وأصابع واثقة تقلب نصفى الأعلى.

تضغط على فكى الأيسر. تكتم أنفاسى. والطبيب الجراح يسب ويلعن،

– يعنى بتكره السادات؟!!

أنقلب عـلى جانـبى الأيمـن. (زى ما انت يا ابنى. زهقتنا معاك)، ومنى محـيي الديـن تـرفض الخـروج مـن غـرفة العملـيات فتسحب من ذراعها الأيمن بـالقوة فتنسـاب دموعهـا وتقـترب من فمها الواسع، تحدق فى يديك وأصابعك. عظـامك. عـروقك الـنافرة تذكرك بمعصم الأب. أين أبيك يا محمود. تسأل نفسك فـيعود الـزمن الفائـت بصـورة العديـدة وأحداثه القابعة فى ذاكرتك اليقظة– فى بـرام الـلحم زمـان كـان زند محمود طلخان الكبير بيدور فى الطاجن الخارج من الفـرن. الـزند غلـيظ والمعصم مفتول– العظام متشابهة. وجسدك انت. هو الأكثر نحـولـه. سمـار الوجـه. ضـحكته. بسـمته المرسـومة– والـلى اتـأكدت الآن أمـام وجهـك، مـلاك إذا نـام. وشـيطان إذا اسـتيقظ. مغامر إذا راح، منتصراً إذا عاد. بتروح فى غيبوبة مؤقتة لكنك حاسس بالدائر حولك. تشعر بكل دبة كل حركة طبيب كل نظرة غواية متبادلة بين الحكيمة هدى اللى ماسكة المشرط ود. يسرى رشدى استشارى الجـراحة الملـتحى. ود. إيناس مساعدة التخدير بتلف وتدور تقـترب مـن رأسـك تطـبع قـبله عـلى جبيـنك والجفت ينسل داخل جوه الدماغ. والعـيون تـبرق فـى غبشـة أطـياف رماديـة فاتحة. قاتمة. بيضاء. عقلك مشدود لزمن مضى. أزمنة أخرى. وبشر أخرون. زمناً جديداً أتياً بلا ريب تسأل نفسك. هتموت يا محمود.

– لا. سأحيا. لن أموت؟!!

– مش حتموت ماتخافشى. إنت بسبع أرواح، الخيوط الحرير تنسحب من بكرات شفافة الخيط الأبيض يتسرسب فوق صدرى العارى وثمة قطرات دم ساخنة تسيل على خدودى،

– تقول فى نفسك وقد ازددت دهشة بحالك، لماذا كل هذا الوعى واليقظة المفرطة.. كنت زمان بترووووح مع أول حقنة بنج. فى أول عملية والثانية والثالثة- الرابعة- والآن-كنت فى الأول بتتمنى ألا تخرج من غرفة العمليات. كنت بتحس بونس وصحبة مع الأطباء والحكيمات والتومرجيات، وكان المخدر بيشعرك بصفاء نادر كنت محتاجة. جسدك الآن لا يسكن. طار الصفاء. تبدد. وتلاشى الونس،

–: يا ابنى بلاش تقليب. إرتاح يا حسين. نام على ظهرك، اسمع يا محمود. دى آخر مرة أقولها. إنت حر، أنت حر. ولا حسين ولا محمود،

كأنك بتتفرج على نفسك وإنت بتستكمل الدور المرسوم ليك. دور وارتسم بدقة. لم تخطط لشىء ما على الإطلاق، من الذى أتى بى إلى هنا، من أخرجنى من بلادى. من مدينتى من أتى بى من الشاطئ الساحلى إلى تلك المدينة الفاجرة.. سرت فيها بعقلى ووعيي فقط. آجلت مشاعرى.. تبددت. انزوت، وروائح من هذه التى يفوح أريجها مخترقاً حواسى نافذاً لأنفى محركاً روحى.. عيناك جاحظة تحدق فى الواقفين والواقفات قريباً من جسدك، من هؤلاء. تتساءل فيردوعيك، إنهم يعرفونك أكثر من نفسك. مطلعين على ماضيك فتشوا فى إسرارك. نادوك بأكثر من أسم فاإلى أى اسم تنتمى أنت. إنت مين يابنى آدم؟! !

– بشر. ملاك. شيطان أخرس، ممثل وانكتب له دور من مؤلف قدير فبات المخرج الماهر يتحاور مع دواخله فتخرج الشخوص من روحه عديدة صار سيناريو الفيلم الحداثى يتجادل مع الأقدار.

-: (ستوب) "بريك ربع ساعة" عظيم يا أستاذ هوه ده فن تحريك الممثل. وينصرف طبيب التجميل وتبقى الخيوط متدلية من رأسى. والأنبوب الصغير يتمدد بمحاذاة خراطيم محلول الملح وسائل الجلوكوز وكمامة التنفس الصناعى.

-: (ارتاح يا محمود)، الحيطان بتضرب فى دماغك.. الجدران تتنقل وأهلك هناك فى بورسعيد. صرت معلقاً من رأسك فى خيوط من الحرير وصوت المؤذن منفر ولا شىء يدعو للتوحد أو الاستكانة- الشط كان طويل- طويل الشاطئ فى بورسعيد. ونس وكلوبات منيرة معلقة فى أصابع عشاق البنات. والبنات حكايات وخيام زرقة وسماوى. وسيمون وهوى طاير فى خلا وسيع عيون سارحة وعيون غفلانة فى العشق والحواديت، الموج العتيق يصطخب فينفذ من بين الصخور الصلبة ويزحف على الأرض البراح. يفر ويفر. الموج يناديني. وصخرة بعيدة بتناديني. وبنت جميلة وشقية شعرها طويل وسايح واقفة بتطل للموج العالى البعيد بتنادى عا اللى سابح. جسمى بردان والأطراف بترتعش، - غطا- غطا- عطوووووو نـ يـ يـ ى ى (غطونى يا ولاد القحبة).

الضحك خافت بيتسلل لودانى وحيوانى هامد وأصابع الأقدام ملفوفة حول بعضها. خصيتى ضامرة. ولباسى الداخلى فر من بين الساقين وهبط خلف الأصابع فى آخر السرير، الموج بيضرب دماغى والحواس بتهييج واتوه.

وتطير الذاكرة تلتقط ما حدث فى الماضى البعيد، فنار مضاء ونوره مبهر مُسلط فى الغاطس. السفن عتيقة فى البوغاز والسرائن عالية. والوجوه فرحة تطل لشط القناة. الفتيات عرايا وشقراوات، زئيط ومرح وصخب. ورجل يشبه أبى- يسحب طفلا من يديه. يمسك أصابعه الصغيرة اللينة. الواد بيجرى على رمل أصفر ناعم. بيجرى. يجرى. ويكبر وتمر أعوام قليلة. وينط عا البسكلت. الصبى بيفر بالعجلة الإسبور الـ ٢٨ الصينى أم جادون قلاب ويعاند الرمل

الكثيف ويهزمه- بيسلط ضوء فانوسه الشبورة على الصخور البعيدة الجافة بيقرب. بيمد إيده يلقط البساريا ويوشوش القواقع ويجمع الأصداف المشطورة. الصوت ينادى من عمق الماء،

:- (يا حسين دى مدريد. ودى لارناكا . ودى قبرص يا عبيط، دى اثينا يا محمود. ودى بيروت.

ومراكب فرح معدية وألف وادور والأب ينادى،

- إنزل ياد. والعجلة تفر فى السما وتبص لنفسك وكأنك طاير ومحلق وصوابعك النونو بتسيب البدال وتطل لأبوك الأسمر، كان فتوه- بجاكته رمادى وفوقها بالطو إمبريال كحلى والبنطلون قطيفة أسود وحذاء كرب يجرى وينادى- (شايف المراكب يا اد. يا اد سيب العجلة).

اغوص فى البحر العميق وادخل القمرة فى المراكب اليونانى الراسى واشوف بنات شارعنا اللى بتنط الحبل وسط الليل على ضى الونسة المنصوبة تحت الخيام البيضة المسروجة بقناديل الغاز. ولما يدور الفنار من جديد قبل الفجر تدخل المراكب الكبيرة فى المراسى العتمة وتفر الشماسى، الصوت يناديني مع صواريخ النار وكرات ملونة بتفر على وش الرمل الناعم- تنضرب الصواريخ فجأة وتغمق السماء وتتغير الحياة ويروح الزمن مع طلقات البوارج الحربية القريبة من الضفاف وظهر القمر مخنوق مع برقة عيونها الخضراء الناظرة لسماء الهزيمة، البنت كانت بديعة بشعر طويل ووجه أبيض- والواد كان واقف منتظر جنب الكوخ الصغير المصنوع من الخشب الحُبايبى المغطى بسقيفة الشمع السماوى. البنت خرجت بهدوء، كانت عفية ودبت الأرض بصندل أحمر مفتوح ولما برقت عيونى فى الضباب والصمت شفت الفيونكة على جنابه، صرخت وطالت الصرخة الوحيدة فى العنبر الطويل،

- ارتاح يا محمود؟!!

البنت ماشية ولا بتجرى بتضحك ولا بتبكى.. والسامع ماله- صاحى.. صاحى ومتيقن من الندا،

- (تعالى يا محمود)،

ازحف على ظهرى البارد وأحاول الوقوف فيضغط الألم على صدرى بأيادى غليظة وأصابع بتطول الأقدام وتقيدها فى مؤخرة الترولى، السفن بتزعق فى الغاطس واللهب بيتعالى مصبوغ بلون الدم. وأهالى بتجرى فوق الشط وتصرخ أمى وتعبر عربات نقل بتشيل (عزال)، ولوحات معدنية- قنال ٣- قنال ٥- قنال ٧.

:- الجماعة المهاجرين على طلخا. حضروا الشنط،

:- (محمود طلخان)..، محمود طلخان ،

:- (افندم)

-: إنت هتفضل هنا- (إنت مستبقى)؟!!

النمل سارح فى رأسك وجسدك شبه مخدر والأطراف كالثلج. والبنت واقفة هناك منتظرة لها ٢٠ سنة طار شعرها مع الزعابيب الهايجة فى السماء الواطية الدنيا بترخ والمطر سيل بينزل عاالعيون الدايرة فى الحدقات الوسيعة... وعيونك بتنقفل وتنفتح فى غرفة العمليات بشارع بورسعيد فى مستشفى أحمد ماهر ووسط الإضاءة المبهرة فى غرفة الإفاقة بتطل بعيون ذابلة للسقف الرمادى المطلى بالجير مع صرخة الحاجة عائشة التى نادت.

-: (الإفاقة على طول). غطوه كويس ببطاطين جديدة. يلبس بنطلون،

وأغلقت النوافذ أخيراً وخيم الصمت والسكون وأذنى منصته لكلاب تنبح بالقرب من نوافذى. الحيطان صماء والأسِرة خالية أصابها الخرس. خرج

الجميع وصرت وحيداً والكُفر بيّن- قريباً من فؤادى، القلب يخفق واللسان يردد الدعاء المستحب واللهم ما ارفع مقتك وغضبك عنا.. يارب النهار والليل. الصمت والكلام، الكلاب تعوى دون انقطاع وثمة مشاجرة دائرة فى الدور الأسفل. احلم بل اشتاق للنوم- والحكيمة النوبتجية ترقبنى عن بعد. تفتح باب غرفتى. تنسل. تدخل دورة المياه وتترك باب الغرفة مفتوحاً تضيئ اللمبة السهارى فيدخل خلفها طبيب التخدير فيترك الباب موارباً. البنت تشهق وأنا مقيد فى سريرى زاد الغنج والتأوهات ومرت نصف ساعة. وأنا أحاول دفع السرير انهض من رقدتى هابطاً بذراعى الأيمن جهة البلاط. اتدلى محاولاً دفع السرير للأمام جهة باب الحمام المضاء. جسدى نصف مشلول.. الماء ينساب فى مهل مع ضحكات شبق ونشوة أدفع السرير للخلف وتتكرر المحاولات الفاشلة.. خفتت الأصوات. واطفئت اللمبة السهارى، "يارب". ادعو. لو ترتج الأرض وتنشق الصخور لو تنهار الجبال ويتدلى من يرفعنى إليك- خذنى بجانبك فى أحضانك. خذنى بخطاياى وصمتى وجنونى. خذنى بكفرى وشكواى، السماء عالية. والثقف واطئ. لو يهبط الرب الجالس فى السماء البعيدة يرقب عبادة الفجرة، التومرجيات يسحبن الأسرة فى العنابر المجاورة. يضحكن فى صوت عالى. على يسار سريرى تظهر المرآة كبيرة سطحها الصافى يلمع صوب عيونى المحدقة. اتوسط سريرى فى الجلوس أطل فى الضوء الخافت الأتى من الطرقة العريضة أحدق للمرآة فأرى وجهى الملفوف بالشاش الكثيف. من بؤبؤ العين الخارجة من جبيرة الجبس الملفوفة حول وجهى وصدغى ونصف رقبتى تلاشى صدرى وأكتافى. غابت معالم جسدى كله وظهر الانتفاخ الوهمى للملاءة البيضاء المزقة التى تستر نصفى الأسفل صارت الحدقات المجهدة تبرق لصفحة المرآة فترى لفافات القطن البارزة هائشة ومتسعة تفترش مسطح المرآة

العريضة. عن بعد سمعت الأطباء النوبتجية يتهامسون، الخدر يسرى فى حواسى. يزيدنى هياجاً وقوة فيتجلى غضبى. أعُض على شفتى السفلى والعليا. معدتى تؤلمنى فأتحسس وجهى أدور على مناطق الألم. جروحى الغائرة. الضمادات. بردان. ارتعش، لو تعوى الرياح مثل الكلاب وتزلزلُ هذه الأرض فتنزوى من تحتى. أصرخ وحيداً: (خذونى من هنا يا ولاد دين الكلب. آه ه ه)

ويقول الطبيب النوبتجى: – لم يكتب للمذكور مرافق،

وأنهى الشيخ اللئيم الصلاة فى المسجد القريب، ورحل الفجر لتعود الكمامات من جديد وجهاز التنفس الاصطناعى وأنا مقيد الحركة فوق سريرى والروح بلغت الحلقوم وقت أن اتفتحت النوافذ من جديد قبل شقشقة الصبح (نفسى أنام) أصرخ أنادى أمى وأخوتى وأخواتى فردًا فردًا فلا مجيب، وتأتينى صورة أبى من كثرة انصاتى لأصوات داخلية تخاطب نفسى تدعونى للفرار وترك مكانى. سريرى ومدينتى وزمنى وأحلامى وآلامى وإحباطاتى وأوجاعى وغلبى وجسارتى وحتى طموحاتى، أريد التحليق فى عالم آخر وزمنا آخر. أتمنى الطيران بسريرى إلى الفضاء تاركاً تلك العالم القذر والمستشفى العفن. صوت البحر والموج والسحر الساحلى يراودنى عن نفسى. والنيل قريباً من مكان رقودى راكداً ومياهه ضحله ورجل صعيدى يبول بجانب هيش طويل ينتصب على طول الضفاف. السطح مخضوضر وثمة مجارى طينية وعشاق غلابة يجلسون فى البرد فوق الكراسى الحديدية الصدءة.. لو تنهد الدنيا فتغير من مياه النيل الراكدة فى الممر الطويل الساكن. لو تأتى الزلزلة من خلفى. من فوقى. لو تفور تيارات كاسحة ويهج الموج المصطخب ليخرج من بين الصخور التى أراها وقد انشقت فجأة هناك- من خلفى عند الساحل المتوسط فى بورسعيد وتكتسح الفواصل وتزال المبان والخلق أجمعين لتندفع الأمواج بقوة هابطة بجبال المقطم

الراقدة خلفى فأرى طيران الأحياء المجاورة المغربلين والحلمية وسكة راتب ونادى الحبانية، رأيت المياه تندفع فى شلالات وسيول والحمم البركانية تقذف بحجارة صخرية فتتفتت جدران المستشفى الصماء جهة باب الخلق. الماء يسير تحت سريرى الذى أرتفع فجأة وصارت الأمواج تضرب الأطباء والطبيبات والحكيمات فى ظهورهم فيطيروا فى الفراغ فى سقف غرف العمليات وقسم الإفاقة، أرى طبيب التخدير معلقاً فى السقف المجاور يضاجع الحائط الأبيض المقشور طلاءة الماء ينشع من البالطو الأبيض ولباسه الأزرق الدمور ينفلت من بين ساقيه فتتعرى مؤخرته. المرضات يتطوحن فى طرق وممرات حجرات الجراحة والعظام، وعيونى مجهدة تبرق من وسط لفائف الشاش والقطن، سفن تزعق بسرائن عالية. الأصوات تأتى قوية من خلف ظهرى وشوارع بورسعيد وأهلها تحتفى بقدوم ليلة رأس السنة. زجاجات البلاك هورس والجون ووكر والريد ليبول والنبيذ المعتق ترمى من الشرفات العالية فى الساعات الأخيرة فى العام ١٩٧٨، أقنية الفودكا الروسى تقذف فوق البلاطات البازلت فى شارع النهضة والجمهورية وشارع فلسطين وعمارة (المساجيرية) ومبنى (سيمون أرزت). وبارات "أكرى" و"سيسيل" وطمادى لابوست". أحس بدوار مع ظهور الأضواء المبهرة والمنثورة أعلى المراكب الغربية الراقدة بالبوغاز وفى منتصف الغاطس وقت أن ركض السياح بالآلاف فى مرح وبهجة قاصدين ممشى ديلسبس، صدرى يضيق والنفس ينقطع، انزع الكانولة من فوق كفى المعروقة واضرب محلول الملح بقبضتى فتطير العبوة البلاستيكية وتنفجر زجاجة الجلوكوز فوق فراشى والحاجة عائشة تسلم النوبتجية الليلة ككبيرة حكيمات المستشفى،

-: (مع السلامة يا حسين. تصبح على خير يا ابنى. راعوه يا بنات).

أتـوه فيرتـج يـا فوخـى اسـأل نفسـى فـى ضـعف واستسلام- (من أنا)؟!!
ذهبت عائشـة وتركتـنى وحـيداً، تتبعـت خطواتهـا وهـى تمشى قاصدة الباب الرئيسـى للعمليات صـارت تترنـح مجهـدة وأقدامهـا تحف بالأرضية الرخام. رميـت بنفسـى مـن فـوق السـرير وصـرت أزحف على بطنى اتتبع خطاها أنادى علـيها وهى تقترب من السويتش قاصدة باب الخروج، أمى. أين أنت يا عزيزة، صديقة عبد الواحد عبد العزيز. أين هى. أصرخ (أنا مين ياناس)

– انـت مـين- محمـود طـلخان ولا حسـين، ومـن جـاء بـك إلى هذه المدينة ولماذا تركـت بـلادك، ويعود السؤال يعتيلنى يفتش فى سيرتى- من انت.؟ أنا. أنـا حسين عبد الرحيم ابن حسن لا وهم. أنا محمود. نعم محمود محمود طلخان ابـن طـلخان الكبير "بتاع المقاومة الشعبية" اللى حارب فى ٥٦، ٦٧، ٧٣، وظل "مسـتبقى" حـتى تلاشت ذكـراه. أنـا مـين، ولـن انـتمى. كـيف تركت الديار. محمـود محمـود طـلخان- بكـارلويوس إعـلام معـاون ثالث وثانى وأول وإدارى، وقـرار بالفصل فـى أنظـار خروجك... لو تأتى "سامية زكريا" لو أراها الآن؟!! الضـباب يـزحف عـلى عرفـتى وطرقـتى. وقرب سريرى. أعود القهقرى محاولاً الاسـتناد عـلى جـدار مـتآكل. أيـن الأصـدقاء أيـن زملائـى. زملاء عملى فى هذا المكـان، شـعبان أبـو بكـر ويحـيى كوهـين، سـامية زكـريا الشـرموطة رئيسـة الـتمريض وأخواتهـا البلطجـية. لـو تظهـر سامية الآن بمفردها- سأمزق لباسها الحريـر وأتـركها عارية لأراها عن بعد وهى منكسرة ذليلة. أشعر بدوار غريب وقـوة جـبارة تسـيطر عـلى جسـدى. أقبض أصابع يدى فى بطن كفى الأيمن بقوة فيهـتز الـذراع فـى الفـراغ. انتـبه باحـثاً عـن صـفاتى فـى نومـاتى الماضـية- جـراحاتى. عملـياتى الجراحـية الثلاث الأثر الرائق المنعش المستحب الآتى بعد ضـربة حقـنة المخـدر بالبـنج الكـلى. أيـن نشـوتى. أين الونس والوجوه الطيبة.

اتساءل إلى أين ذهبن هؤلاء.. راحت فين صحبة الونس فى حكيمات الزمن الفائت. أين عواطف بنت السكاكينى ومى خلدون وليلى عمران وصفاء عواد ومس دلال وهند بنت حى النيل. عضوى الذكرى يعود للانتصاب فيصير أكثر قوة وجرأة. رائحة الشهوة والشبق تتلبس جسدى. تحرك رغبتى. تعتلينى. والمرضة الجديدة فى نوبتجية الثامنة صباحاً تروح وتجئ فى الطرقة. وتهتز الإلية والأرداف المشوقة داخل الكلوت الأسود اللابس فى المؤخرة العجيبة والكعوب الحمراء للقدم تتمايل أعلى فرشة السابو الأبيض الجديد اللابد فوق البلاط بثقة وعنفوان، رائحة الجسد تنعشنى- لو تأتى سامية زكريا الآن فاقفز من سريرى المتلئ بالدم الجاف وأركبها على سرير الإفاقة الخالى والمنزوى بجانب الشباك المطل على باب الخلق. لو تأتى، سأضرب حيوانى الغشيم الأخرس فى شرخها الغائر بين الساقين- بين الفخذين وتنزف دماء سعادتى وشماتتى، لو تأتى سامية فأعضها فى الشفايف الحمراء. وسط الحنك الواسع لتخربش أظافرى حلمات بزازها النافرة، السرير يتأرجح فوق الرخام والعضو منتصب كالفولاذ وسارة الحكيمة تبتعد. تخرج لتعود بعامله الأوفيس التى ظهرت تحمل صينية الفطور- رغيفان من الخبز الجاف المعطن من الظهر وقطعتان من الجبن اللافاش كيرى وبيضة مسلوقة عفنه ومصبوغة بصفار مطرطش فوق الزلال. أزحت الفطور بعيداً سببت بالدين ولعنت الـ ٣٧ سنة اللى مضوا. سبعة وتلاتين سنة يا كلاب. ٣٧ سنة بمئات السنين من أعماركم الزائفة

° ° °

الليل طويل وأقدام غريبة بتحط على الطرقات المجاورة فتصعد بجسارة للدور الرابع وقت أن قرر الطبيب المعالج نقلك لغرفة خاصة بالبرج قسم جراحة الوجه والفكين تحت إشراف طبيب المخ والأعصاب. الغرفة وسيعة وحقنة

المسكن كل ثلاث ساعات ولا سكون للألم، الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل ونفسك تدخن سيجارة حشيش مع أول بزوغ الشمس الصباح الباكر- الساعات تنفلت في كوابيس. جلست وحيداً كالعادة فلم يزورك أحد ما قريباً أو بعيداً. الشمس تسطع من بين فرجات الشيش وصرخة قهر تسمعها جيداً. الصرخة دوت في كافة الجنبات في الطرق والممرات وغرف مستشفى أحمد ماهر ذوى الجدران الأسمنتية الغليظة. صرخة تخرج من فم عاشقة. ملهوفة- حبيبة قديمة ودائمة. بدأت بزعيق وقت دخول العاملين في الثامنة وصارت تلهث في الطرقات وتضرب الأكف فوق صدرها البارز من تحت النقاب الكحلي. صرخت مني بقصد قرب باب الدخول فهرع الزميلات والزملاء إلىمصدر الصوت. وباتوا ينصتون وهي تردد في حزن وقد انفلتت خصلات شعرها الأصفر من تحت الطرحة الحرير السماوية. صرخت في وجه المقربين والشامتين وصارت تردد العبارة في هذيان.

:- حسين عبد الرحيم مات. حسين مات يا ولاد الكلب حسين مات في غرفة الإفاقة؟!!

- (مين حسين)؟!!

نزعت الشريط الملاصق من فوق معصمي وتركت سريري في البرج فتوجهت للحمام واعياً لما أفعل. باب جناحي بالدور الرابع مغلق من الداخل أو من الخارج لا أعرف. أغلقت باب الحمام واستدرت فسمعت من يضرب الباب بقوة. ينادي. يزعق وسط جلبة المحتشدين بالخارج: - (يا محمود- يا أستاذ محمود)- (فين المريض بتاع الخناقة) وترد التومرجية، يا فندم دا جناح الأستاذ حسين المعاون، معدتي خاوية وجسدي هزيل وأقدامي لا تقوى على حملي. ثمة بول غزير محتبساً في مسانتي والطبيب المعالج يزعق وينادي من

جديد يحاول دفع الباب. يحاول كسره. المقبض يدور فى الفراغ المثقوب. انصت لهرولة حكيمات المخ والأعصاب وجراحة الوجه والفكين. مدام جميلة ومدام أمل الزلاط والطبيب المناوب يقول (أنا سايبه إمبارح فى أمانة الله) أخرج من نافذة شباك الحمام وأنسل من باب الطوارئ المؤدى لسلم الهروب. ادخل المصعد قاصداً الدور العاشر أخلع جلبابى الأبيض الممزق وأمشى بالسروال وعضوى يزداد انتصاباً وتتمدد فوهته متشابهة بمنتهى ماسورة المدفعية م. ط. اللابده فوق الكثبان الرملية لتلال الضفة الشرقية فى ٦٧ والتى فشلت فى وقف هجمات الطائرات المحلقة فوق سمائنا الساحلية فى يونيو، أرى شوارع بورسعيد. ضفة القناة خطوط المواجهة. الساتر الرملى بعد القنطرة شرق، نسمات الهواء البارد فى صباح يناير تزيدنى قوة وعنفوان. دُرت فوق سطح الدور العاشر فتجلت صلابتى. بت عارياً أرقب المشهد من آخر الأدوار، انظر لاسفل- شارع بورسعيد الطويل المؤدى لباب الخلق ومديرية الأمن- إشارات المرور مغلقة والسيارات واقفة من أول ميدان السيدة مروراً بالخديوية ومدخل الحلمية. ومنى تجرى عارية الشعر. صارت كاالمجنونة تركض. وتترنح. تخطو جهة باب المشرحة.

-: حسين مات فى غرفة الإفاقة. وتمشى فوق حصر طرقة الإدارة جهة باب (١) المخصص للأطباء. وتمر على باب (٢) المخصص للزيارة والعاملين بالمستشفى يهرولون خلفها. يزعقون محاولين إيقافها للاستفسار. ترتمى فى الأرض تهيل التراب على رأسها، الصراخ يتعالى عند مكتب الاستعلامات وداخل السويتش. وجيهان عاملة الكول الوسمية تبكىفى ذهول. عويل ونحيب. ولطم خدود وحسرة بادية على وجه شعبان أمين المخازن أقرب الموظفين إلى قلبى. يحيى كوهين يقفز من الدرجة السفلى ويجرى قاصداً مكتب

المديـر العـام. أجسـاد الحكـيمات وطبيـبات الأمتيازتـتـهاوى كـالدمى هابطة من الأدوار العلـيا مـن الدرجـة السـفلى والعلـيا. واقتصـادى (٢) واسـتثمارى (١) وعـاملات نظافـة (مـودرن سـرفيس) يـرددن- (الله يرحمه كان أجدع واحد فيهم كلهم)

وتصـطدم الأجسـاد الهاويـة بسـيارات الإسـعاف الواقفة أسفل مبنى البرج لتنشـطر فـى إشـلاء ونـثار وكـتل لحمـية غارقة فى دم سائل ينثلت منسالاً على الجـدران الواطئة بجانب مخازن الأوكسجين. مدير المستشفى يطلب وكيل نيابة الـدرب الأحمـر وقـت أن أتـت قوة من قسم شرطة الحلمية وجرت قاصدة مدخل الـدور الرابع عند قسم جراحة الوجه والفكين وجراحات التجميل. وأنكسر باب غـرفة٢ بمطـارق حديديـة وطبيب التخدير مذهول يفتش فى دولابه الخاص عن أدوية مخدرة. يُعد حقن المورفين. الدم يملأ الطرقات وستة رؤوس بشعور طويلة تـتوارى مـتفرقة بـين إطارات عربة البلوكامن وأتوبيس العاملين الـ ١٦ راكب، وسـرائن عـربات الشـرطة تـدوى فـى فضـاءات الممرات ومداخل العمال والفنيين وإشـارات المـرور مازالـت مـتوقفة. ومديـر الأمـن يقف على باب مدير المستشفى يـتحدث بصوت منخفض مع رئيس مباحث العاصمة صارا يمشيان باتجاه مصعد مبـنى الـبرج قاصـدين الـدور الرابع، استندت على جدار السطح بذراعين قويين قبضـا عـلى مؤخـرة الدرابـزين الحديـدى تسـائل نفسك- هل تفكر فى الانتحار. هـل سـتقفز فـى الهـواء من الدور العاشر لتريح وتستريح. أحلم بالدفء. بالنوم الدائـم مـتمددا حـتى آخـر الـزمان. جسـدى يـتمايل فـاقداً التوازن. انظر أمامى وخلفـى وفوقـى وتحـتى. طلـه بانورامـية تكشف لى موقع المكان وارتفاعه مبنى الـبرج العتـيق بالمستشـفى. الأحياء المجاورة والشقق المغلقة صوب البصر المنازل معلقـة فـى الهـواء. هشـة. الأبـراج الأسمنتـية المنصـوبة فـى الغـبار والأخـرى

الواطئة. الشوارع تهتز وحبال الغسيل تتمايل والملابس القديمة المبتلة تتطاير فى الهواء أعلى مسجد قيسون مخنوق- مخنوق يا محمود، وإلى متى ستظل هكذا. أشعر بدوخة وصداع مؤلم يخترق جمجمتى يشطر رأسى نصفين. عيونى الجاحظة تحاول النظر فى خلسة محاولاً تتبع دورانى حول نفسى تحت السماء الغامقة التى دنت حتى صارت على مقربة من شعرى الهائش، ثمة أصوات غُنى ونقرات دفوف واصطكاك صاجات ونفح قرب مزامير صداحة تتعالى نفخاتها، ناى وحيد يتجلى متقدماً الآلات فى عزف اللحن الفريد. جسدى يهتز وصوت المطرب يدنو لأذنى يخترق حواسى وفؤادى وجسدى الذى صار يتمايل منفرطاً. أدور حول نفسى. ألف وأدور وأرفع ذراعاى بأصابعى فى الهواء. المطرب الشعبى الأسمر يظهر على مسرح وهمى ليقف على الاستيتج الزجاجى المصقول الظاهر مرئياً صوب عيونى. خلف هالات من خيال وضو السراب يهتز بمحاذاة سور السطح العالى والمطرب يغنى فى أسى (يا جارح القلب اسمعنى. بلاش يا عمرى تضيعنى)؟! ! انظر للسماء فى ألم وابدأ فى رقصتى الأولى والأخيرة. انثنى وانفرد وأحكم رباط استك لباسى القطنى فى وسطى. أرقص. أرقص ورأسى تتعالى وأقدامى تفارق البلاط ويتوارى البرد فأدنو من سور السطح أنظر فى سخرية للبشر العابرون على الأرصفة فوق أرضية مدخل حى الحلمية. البشر يتقازفون يلهثون. يركضون والنسوة تمشى فى خبل وأخريات متسكعات وشباب يطأطأن الرؤوس فى الخطو فيقفزون كالفئران فى الميكروباصات المتهالكة التى تنفث العوادم فى أدخنة زرقاء تسبح فى المدى البصرى وغبار كثيف يقتحم عيونى وحدقاتى الحمراء، اعتلى السور فى قفزة واحدة لا إرادية فيزيدنى العنفوان نشوة وخفة. أرقب قرص الشمس المحجوب خلف ركام السحب أريد الطيران إلى سابع سماء محلقاً أسابق الريح واصلاً لقلب المجرات، طاقات

جهنمية جبارة تراودني عن نفسي. تدفع جسدى الخفيف دفعاً.. والبشر يتقازفون فى الأسفل يركضون خلف العبث واللاجدوى. أقول فى نفسى وقد تلبسنى الوعى المفرط- هل ستقفز يا محمود يا طلخان- اتنتحر، لا. لن أفعلها - فأنا أقوى منكم جميعاً. سأواصل الحياة مراقباً سلوكياتكم عبثكم فى الحياة وعبثها بكم. لا. فأنا أقوى مما تتصورون ولا أخاف شيئاً. لا أخاف أحد. فالمولى حدثنى بذلك. بعثنى لأرقبكم فى أزمنتكم المختلفة حتى أبعث من جديد شاهداً حيادى على جهلكم وعفنكم. نعم. سأبعث من جديد فى يوم معلوم يعلمه هو. ربى رب الأقدار. الذى هبط من علياءة. ليراكم عن قرب فقد فشلت كل محاولات اتباعه ورسله ومريديه فى شفائكم وإثنائكم على خطاياكم فى حق أنفسكم، ودنت الظهيرة باكرة وقد جرت أطياف عبثية اشتبكت مع نفسى فصارت تسائلنى. تسألنى عن جدوى الركض والصراخ والرقص والبحث عن ملاذى. تراجعت أهبط تاركاً السور أطل فى منتهى الهوة المنفتحة فى آخر الأدوار. والمؤدية فرجاتها المتسعة إلى مسار الداربزين الحلزونى اللازم لكافة أدور المبنى البرجي ماراً بكافة الأدوار. وكيل نيابة الدرب الأحمر يترك الدور الرابع. ملتفتاً لنوافذ الطرقة الرئيسية وممر الحالات الحرجة الواصل حتى الدور الخامس. بات يفتش عن ثمة مداخل مجهولة أو مخارج مخفية تيسر حالات الهروب أو القفز، مشى يزعق وقتما تراءى لى جسده الطويل بكتفيه العريضين الملتحمان البطانة المنفوخة لبدلته السكرى وحذاءه الأجلاسية الأسود اللامع عرج إلى الدور السادس صعوداً على السلم وبرفقته ضابط من الأمن العام برتبة نقيب. نادى على عامل النظافة الليلى الذى كان نائماً بجانب سلة القمامة البلاستيك، ضربه ببوز الحذاء- أصحى يا اد، أيوه يا باشا. إنت كنت نابتشى بليل- أيوه يا فندم، (وراح فين مريض التجميل اللى كان بايت فى القسم

الاقتصادى، ركض العامل وصار يتراجع للخلف ثم استدار مشيراً لدورة المياه الحريمى القريبة (يابيه أنا شفت الأستاذ محمود آخر مرة الساعة اتنين بعد نص الليل. كان مسنود على الإزاز الفامية اللى فى الدور الرابع- كان واقف لوحدة فى الطرقة وحكيمة الدور كانت نايمة فى أوضتها اللى جنب الكونتر. ساعتها شميت ريحة غريبة. أظنها ريحة مخدر. أو حشيش، كانت حنفية الحمام مفتوحة عا الأخر. ولما رحت أقفلها- رجعت ملقتهوش، كان باعتنى أجيب له سجاير روثمان وبيرة من عند و"يلسون" وحطيت الطلبات أدامه وزى ما يكون ماشافهاش. ودخلت اشطف الأحواض فسمعت حد بيزعق. بيصرخ بصوت عالى. وبيقول سيبونى يا ولاد الزانية. جريت يا بيه على أثر الصوت. فسمعت صوت حاجات ثقيلة بتهبد. بصيت فى المنور وعلى سلم الهروب ملقتش حد... صدقنى يا بيه هوه ده كل اللى حصل،؟!!

-: إنت بتحشش يا ادد... قول- اسمك إيه يا كس أمك (لأ يا بيه أنا شكلى كده)... أنا. أنا.. يو.. يوسف.. يوسف يا بيه استدرت. فجريت قاصداً النزول للدور التاسع. عند قاعة المحاضرات الرئيسية.. ٣٧ سنة بأعماركم كلكم يا ولاد القحبة، وأذن المؤذن فى نبرات خشوع وصفاء. تجلى الصوت صداحاً فى جنبات المكان. الصوت الملائكى. الشجى العذب يتسلل إلى روحى التواقة للخلاص. يزيد حواسى فوراً فأخطو بالجلباب الأبيض الممزق الذى صار يرتجف. ينكمش. وينتفخ. يلتصق بجسدى النحيل فيشف. يظهر معالم جسدى. قضيبى وبطنى وسيقانى ووسطى المقيد بلباس قطنى مربوط حول مؤخرتى. أين ذهب الرب وتركك فى هذه المتاهة يا محمود؟!! نظرة أخيرة من الضيق إلى البراح العالى فى بانوراما السطوح وهول الدور التاسع المستدير- إلى

أيـن سـتذهب يـا محمـود هل ستترك البلاد. هل سترحل عن هذه المدينة وتعود لموطنك.. لا. لا. لن أعود مهزوماً يا كلاب العاصمة.

تتحسـس قـواك وثـبات روحـك الطلـيقة. وكلما زادت الخطى فى القاهرة- ضـاق المكـان وصـار الوعـى مكبلاً لخطواتك فى الحياة، أنت الذى اختار الطريق برغبـته. لا. أنـت مرتبك، عشوائى. متناقض. هوائى. تزرع الأحلام. استسلمت للأهواء. لنزواتك وطموحاتك. لعبثك. مسكون بالوهم فى التحقق والسمو، أفق يا محمـود يـا طـلخان أنـت سـكران. مخـدر. أنـت خرفان. نعم أنت خرفان يا ابن طلخان، الهواء الشتوى يخترق عظامك فلا ترتعش. خفَت الصراخ والعويل وبقى الـتجمهر أسـفل مبـنى المستشـفى العتـيق وبـاتوا يتساءلون ويحيى كوهين يلزم الصمت ويستند على الجدار الموزايكو لقسم الأورام، يخترق الحشود .

— الأدمية فى مدخل الإدارة.

– يعـنى إيه. يعنى إيه يا ناس: – (حسين مات خلاص)، أقول فى نفسى —أنـا مـين، ومـين حسـين عـبد الرحـيم مشـروع جـاهل ومـوروث خزعـبلات وأساطير زائفة، شاب أسمر بملامح غريبة تتلون كل حين. رؤية فنان لكل شىء فـى أى لحظـة. سـحر أحاديـث شـجية تنـتهى وتختـتم بالأسـى دوماً. تركيبة تناقض، والخنقة طالعة بغصه. كبت والحزن قابع جواك من ٣٧ سنة.

° ° °

مشـيت وحـيداً قاصـداً ألا يـرانى أحـد مـن زملائـى العـاملين بالمستشـفى. ومازالـت الإشـارات واقفـة بشارع بورسعيد وباب الخلق ومديرية الأمن ومدخل السـيدة زينـب مـن جهـة أبـو الـريش. السيارات متراصة بطول الشارع المسفلت المليء بالقمامة والمؤدى إلى ضريح السيدة زينب،

–: إنت مين يا محمود؟!!

إنسان وضل الطريق. طموحات وتعثرت. مدينة ساحلية وضاقت فلفظت أبناءها، وعى وقتل صاحبه الطموح الجسور. معاون إدارى بمؤهل عال. بكالوريوس إعلام- الجامعة العمالية ١٩٩٩م. وتعيين بدبلوم تلمذة صناعية، خيابة خائب وحلم بالسفر والبحر والمراكب العابرة جننته، ومراكب فرح معدية فى بوغاز بورسعيد. وطفل شقى ببدلة هلنكة حمرة بطرطور شفاف بكباسين. الواد بيفر بالبسكلتة وقت الأصيل وبعد الفجر ويطير فى الهوى مع الغروب. كان بيجرى فوق الرمل الأصفر يسابق طيور النورس الواد كبر وصار فتى جسور.. عبر بدراجته الطابية وضحك على وقفه فرديناند فخلع شورت الاستحمام عند قاعدة ديلسبس- طار عارياً هابطاً فى سماء العاصمة.. القاهرة صلبة وعودتك إلى مكان الطفولة يقترب. فهل ستعود عارياً- عارياً إلا من جلباب أبيض وعضو مرتخى وبقع دم متجلطة عند الرقبة، تمشى فى خطى واثقة. وحيداً تعبر باب الإدارة فى غفلة من البشر تبول على باب المدير الزان. لست نادماً أودع الحيطان التى استقبلت أصابعى الغضة، لمبات السقوف الفلورسنت محترقة ومتربة تتساند على ضلف باب مدير شئون المقر تهرب من رائحة العفن قرب مكتب د. فارس نبيل. نائب المدير البراجماتى العتيد، رئيس قسم الجودة المستلم شهادة الأيزو بأربعة ملايين جنية من ميزانية علاج نفقة الدولة. تضحك بهستيرية فى خلاء الأمكنة فتسمع من يهاتف مديرية الأمن من تليفون مكتب المدير الإدارى.

– يا فندم كل رجال الداخلية فى صحبة رئيس مباحث العاصمة والسيد المحافظ واقفين فى الشارع والقوات منتشرة فى كل مكان فى المستشفى ولا حس ولا خبر.

-: (يـا فـندم مفـيش جـثة... آه بـيقولوا مات فعلاً انتحر. رمى نفسه من الدور العاشر. من مبنى البرج يا فندم.

:- (إزاى يا بنى آدم)

-: (جـارى البحث. جارى البحث يا قيادة. حاضر يا فندم مع سعادتك عا الخط.

° ° °

الشـوارع زحمـة فـى طريق شارع بورسعيد. تخرج وحيداً كما أتيت وحيداً فتصطدم بـك امـرأة غريـبة كانـت تجـرى مـن زوجهـا الماسك بسكين حاد يريد طعـنها مـن الخلـف. المـرأة تسـتغيث بكمـال بـائع السجائر فى الكشك الصغير المفـتوح بـأول "سكة راتب". أذن العصر وصوت الاستغاثة يهز قلب الكون وانت واقـف تـتفرج مسلوب الإرادة. امـرأة عجـوز تـرفع يدهـا بالدعـاء وقـت أن دنا أوتوبيس ٩١٩ الذاهب لمدينة السلام، وتنفلت المرأة من بين الجموع الغفيرة التى احتشـرت فـى عرض الطريق لتشاهد المشاجرة. والزوج الغاضب يرفع سكينة فى الهـواء مـتوعداً إياها بالقتل وطفل رضيع يسقط على الأرض فجأة وينكشف غطاء وجهـه الصـغير مـن وسـط لفـائف الخـرق البيضـاء، صرت مشدوهاً بما ترى فى الشـارع المـزدحم هـرج ومـرج وصـراخ وارتطـام والكل يجرى فى عبث وبنت فى الثلاثين تنكفئ على بطنها فوق رصيف المستشفى الخارجى وأعيرة نارية تنطلق فـى الهواء ودماً غزيراً يسيل من رقبة سائق التاكسى الفيات الذى اندفع يحجب المـرأة بإطـار كاوتشـوك تـالف فنفذ النصل الحاد فى عنقه فابتُ تحدق فى غرابة المـتوجهين إلى قسـم الاستقبال تلزم مكانك. وترقب عن بعد عبث وجنوح البشر. مـن يتشـاجر مـع مـن ومـن الظـالم ومـن المظلوم- ابن من هذا الطفل الرضيع الذى صار يصرخ على الدوام متكوماً بجانب الحائط المتهدم المواجة لعربة نزيه الفوال

وتسمع مـن يـتوعد، يلعن ويسب الدين فى عرض سكة الحبانية مردداً فى غل. إبن مين ده يابت الزنى يا فاجرة.؟!!

والمرأة المختبأة خلف ورشة الخراطة المغلقة تخرج لسانها للرجل الهائج الذى تجرد من جلبابه الأبيض وخلع بنطلونه الجينز وقت أن هجم عليه الأهالى آخذين منه السكين. مشيت قاصداً رصيف "المقهى التجارى" فسمعت المعلم عتريس يقول لزبائنه علانية (المرة شرموطة والراجل عرص. (هربت منك وراحت لغيرك. آل إيه بيدور عليها بقاله سنة ابن القحبة)، وجمعة النادل يقول – والله دا جنون. مرة فاجرة، والواد الصغير دا بقى– مين أبوه.– آه يا شعب وسخ.

ويتلفت جمعة جهة مدخل الزيارة عند باب (٢) للمستشفى،

:– وإيه كل الزحمة دى. حادثة دى ولا إيه.. يا اه. إيه ده، دى الداخلية كلها فى المستشفى.

:– (آه يا سيدى. بيقولك فيه مريض رمى نفسه من الدور العاشر. إنت مش شايف كمال بيه. آه. دا حتى رمزى الشاعر هناك أهوه واقف مع المدير على الرصيف.

° ° °

مشيت مستنداً على جدار قصر عابدين وباص مدرسة المنال الخاصة مركون بجانب رصيف مطعم رشدى. صرت أحدق للعابرين فى جنون وكأننى غير معنى بالوجود من حولى. تخترقنى نظرات الصبايا الخارجات من المدارس الثانوية الواقعة خلف مستشفى الجمهورية. النظرات تأتينى خلسة تحدق فى. تتفحصنى. الأصابع تشير إلى من بعيد وعن قرب. تطل لهيئتى تفتش فى ملامحى. جسدى ملابسى الممزقة الملوثة بالدم المتجلط. سيقانى الرفيعة التى

عادت للارتجاف مع ازدياد تيارات الهواء الكاسحة التى تصطدم ببطنى الصغيرة وخصيتى المتدلية. أحدق فى مرآه قديمة مشروخة معلقة بباب سيارة فولكس موديل قديم مرفوعة على رصيف مقر الأمانة العامة للحزب الوطنى بعابدين. أحدق ملياً فى دهشة فأرى جروحى الغائرة. بؤبؤ عينى الجاحظة الهالات السوداء أعلى الجفون وأسفلها. لفائف الشاش والقطن الهائشة خارج جبيرة الجبس الملفوفة حول فكى وعنقى وأعلى رأسى وصولاً لمقدمة صدرى البارزة عظامه. الدموع تنزل من مقلتاى رغماً عنى، ثمة من ينظر لى فى شفقة. فى جنون. فى نفور والصبيه يركضون فى طرقات عابدين دون إكتراث مقتربين من جسدى يسدون الطريق الضيق والممتد حتى مبنى وزارة الداخلية. قلبى يدق بعنف. اتوارى فى جلبابى الخفيف استر عورتى أضع كفى الأيمن مفروداً على خصيتى أزحف بالسابو الأزرق دون جورب فيبرز الأوفر شوز الأزرق من كعب قدمى اليمنى. قدمى اليسرى عارية من الخلف تتمايل فوق الرصيف المتكسر الغائص فى طفح المجارى، أتذكر الصورة القديمة لوالدى مع رفاقه من جنود المظلات فى ك ٥٦ ردار- خلف كوبرى الجميل فى بورسعيد- فى يونيو ٦٧، والبوارج الحربية تقذف كرات النار فى طلقات مدوية فتبيد أسوار الثكنات العسكرية عند ساحل بورسعيد. خلف حقول الألغام، الجنود يسيرون حفاه فوق الرمل الملتهب أسفل الكوبرى الحديد قبل الجرابعة. الغبار يتطاير كالحمم يصطدم بالوجوة الصفراء- مشوار طويل وهزائم متتالية وصوت مسموع زاعق بيزيدك قوة. صوت خفى يلزمك بالصبر ويدعوك للنهوض لاستكمال المشوار فتقول فى نفسك (أى مشوار هذا- وكيف سيكون الحصاد فى منتهى طريقك الطويل. وما مغزى الصوت- دلالته- وتقبض بأصابعك الطويلة المعروقة وبكفوف يديك على اكتافك فى خشوع وتطل لخيمة السماء ناحية قصر عابدين

ويأتيك الطيف من جديد. يخترقك الصوت زاعقاً فى غضب- امشى يا محمود. امش- اتبعنى. يأتينى من خلفى. يدفعنى من ظهرى، سيرتك بتعذيبنى يا ابا- انت فين يا ابا، بتجتر ٣٧ سنة مروا- ٣٠ سنة- ٣٩- أربعين- مش فاكر- الضباب كثيف وواحد بيشبهك فى كل شىء. بينادى عليك، أحبك كثيراً. رافقته أكثر فصار يدعوك كل ليلة على العشاء بصحبة الأم- (صحى محمود يا صديقة عشان يتعشى)، برام التورلى الخارج من فرن البوتاجاز المسطح قبل الهجرة فى ليل العزبة فى بورسعيد؟!!. أبوك يا محمود، (فاكر أبوك يا محمود). أبوك مات فى ٦٧، ضرب نفسه بالنار بعد كامب ديفيد.. لأ. لأ. انت خرفان انت جاهل- الأب رمى نفسه من الفنار فى ليلة ٣٠ سبتمبر سنة سبعين؟!!، هون على نفسك يا عزيزى فلا داعى للاجترار. لا تستسلم للذكرى.. أبوك كان جاهل، غشيم.. لك ٣ ساعات ماشى. هربان من البشر وكأنك بتدور على ربنا (ربنا موجود فى كل عبادة) فى خلقهم.. ربنا مش هيهبط للأرض عشان يحكم بين عباده الفسدة. (إنت سكران يا محمود) لا. أنت مريض. انت تهذى. أنت لا تعى ما تقول، وتجلت الذاكرة المنهكة بعباراتهم القابعة فى مخيلتى منذ عشرات السنين. يوسف رخا وإبراهيم أبو حجة وطلخان الكبير، أين أنت يا أبى.. أعواماً عديدة مضت وتورات منذ ذهابهم- وعادت الذكرة مُرة. ذكرى آخر لقاء- العام الثانى فى هوجه الانفتاح- عقب الافتتاح وصدور قرار المنطقة الحرة. بورسعيد ١٩٧٨م- مرح ونشوة وزئيط وسهر كل ليلة تحت أضواء النور المبهر فى (أول العرب) حينا القديم؟! "طولون" وعزوه صعايدة سوهاج القادمين منذ الأربعينات وقد استوطنو ومكثوا فى المدينة الساحلية. وومضات سحر الكهرباء ولمباتها تنسينا شفافية أنوار

"الكلوبات أم رتينة" اللى بتلعلع على عربات البطيخ الجيزاوى الخشب أم دنجل مخفى بين العجل وعاالسكين يا بطيخ؟!!

بناتى يا عنب يا عناقيد لولى يا عنب، والمفلس حزين ياتين، برشومى يا تين. العمار يامشمش؟!!

يا حموى. العمار العمار. يازرع حلال ياشيلين. وكل البطيخ أقرع يا حسن؟!! كله أقرع يا ابا،

- (إصحى يا محمود إنت سكران.. لا. (أنت مريض)؟!! أنت تهذى. أنت خرفان، أخرج من البلد دى يا محمود..؟!! (البمب بيفرقع فى حارة "العدل" المتقاطعة مع شارع "طولون" فى بورسعيد سنة ٥٦، أطفال "حى العرب" بتدور بصحبة ولاد حى المناخ وتضاء الفوانيس الصغيرة بحجارة رفيعة مسروقة من عم جلال بتاع "الحرازات"، بنلف فى شوارع "نبيل منصور" و"التوفيقى" و"أوجنيه" بنطل على حوانيت وسكك أحمد ماهر وأبو رجب الكومى واقف تحت تراسينه الحاجة عفاف أم شربات بيزّعق (طفى النور يا وليه- وجنود المقاومة الشعبية وقوات الدفاع الشعبى يتجولون فى الحوارى مرددين- طفى النور يا وليه إحنا عساكر دورية. إيدن إيدن يا جبان. كله هيضرب فى المليان. "المنزيس" الهش البش ضرب مراته بصحن المش.، ناصر ناصر يا فتاك كل الشعب العربى معاك؟!!. "إيزنهاور" يا عظيم إحنا وراك بالملايين- والمعلم ضاحى سلطان رشوان ينور الكلوب أبو رتينه تحت بلوكات محلات "الغرابلى" بتاع الفحم وتطلق السهام النارية بعد ساعة عند مدرسة "الواصفية" وجنب "مسجد العباسى" لطفى شبارة بيقدم فطور رمضان على مائدة الرحمان فى سرادق "أبو ليلة" يوم ٢٧، وطفى النور يا بهية؟!! إحنا جنود البحرية، (قيدى النور يا بهية كل العسكر حرامية؟!! وتخرج عواطف بنت

الحاج حسن ملفوفة فى ملس أسود وتحته الكلوت أحمر لبنانى صغير- بتسحب القلة القناوى من تحت السبيل الحُبايبى. وتدلق الميه بالماورد فى بقها النونو وتظهر الشفايف الورد فوق الصوابع الملبن الملفوفة على زور القلة وتبتل رقبة الجُمار وتسيل الندع نازله فى مفارق بزارها، بيجرى "العربى" الوليد ابن سنتين ونص ويقول المعلم ضاحى ابن سلطان الكبير. (كفاية يا حسن.. لم الولاد يا طلخان) رمضان كريم، إصحى يا محمود؟!!

إنت سكران. لا انت خرفان. أنت مريض، عُد إلى ديارك يا غريب؟!!

° ° °

إمشى.. هأ هأ ها.. هـ هـ هـ مدد يا سيدة، يا طاهرة؟!!. هأ هأ، يا طاهرة مدد، النبوءة مُرة علقم، أمشى جنب الحيطان الوسخة. طلائها بول وصفار، وصوت فيروز عالى قُرب مفارق شارع مجلس الأمة، ريح الشمال يا نسيم بلادنا، وتسأل نفسك- أى البلاد بلادنا، لأى البلاد تنتمى أنت فى هذا العالم. وتحت انتفاخ هذه السماء الرمادية التى صارت عالية- غريبة عنى. بعيدة وقريبة. تدنو وتتعالى وكأنها ستهبط فوق رأسى بصخور صماء، لو أطولها؟!! آه لو تطولها يا محمود. لو تلمس بالونتها طائراً مبدداً الخنقة والخوف. أمشى هائماً على وجهى أحدق فى وجوه البشر كالممسوس. أتمنى أن أضرب يدى فى فراغ الوجود والعدم. أنطح السماء. أغرز يدى الحديدية فى قلب الكون فى لحم السماء فيخرج زراقها ويعود صفائها الذى مضى، هالنى هبوط هالات الضباب فجأة فعزمت على التحليق باحثاً عن ملاذ. اضرب بكلوة يدى ركام السحب فتزيد خنقتى. أسحب النجوم المخفاه خلف المجرات السائرة بمهل، أثقب لحم الحيوات المجهولة فى رحم السماء السادسة فيندفع الدم الفاسد فوق رؤوس القوادون واللصوص وأبناء الزنى المحتشدين فى ميدان السيدة

زينب، مدد يا محمد، مدد يا كريم. مدد يا طاهرة. يا أم العواجيز. يا أشرف الخلق يا نفحة الرب القدير فى سلالة النبى الكريم، مدد يا محمود يا ابن طلخان.. مدد. مدد يا محمود يا ابن محمود ابن طلخان ابن عبد الرحيم.

° ° °

قُرب مقام السيدة زينب كانت وقفتى. قبل المغرب ولحظات الأسى تسيطر عليك وكم شعرت بها كثيراً من قبل ومنذ وصولك للقاهرة وعملك فى مستشفى "أحمد ماهر"، جئت منذ عشرة أعوام وتكررت خطاك ومشيك فى شارع بورسعيد الطويل. طرقت كافة حاراته. وصوت المؤذن خاشعاً يخترق أذنك فتتوه وتسأل نفسك وقت أن قال الشيخ، الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله. حى على الفلاح- لماذا لا يأتيك صوت الآذان والمؤذن إلا فى لحظات الضيق والوحدة وتلاعب الأقدار بك. وهل يكفى هذا الدافع الوحيد للبت فى علاقتك بمسارك فى الحياة، وهل أنت الذى اخترت الطريق بإرادتك وحدك، دعوت الرب وتوقفت منصتاً كالصنم أتبع حواسى. استشر قلبى الذى خفق وقت المناجاه، نظرت لباب الدخول. طللت للمقام بانواره الخضراء. راقبت طواف الحبايب والأتباع والمريدين،، بدأ الطواف من الغرباء الزائرين فاخترقت الحشود وطفت شبه عارياً إلا من جلبابا خفيفاً صار متسخاً. رأيت الشحاذون بجانب البكوات والنبلاء والقوادون والمقاطيع. الكل يدنو من العتبات خاشعاً يرفع الأكف بالدعاء. صارت روائح المسك والعنبر تختلط برائحة العرق النفاذ. وقدم شاب فى الأربعين راكضاً بعدما هبط من الميكروباص المزدحم لاحت ملامحه الأسيوية تصبغ معالم وجهه الأسمر المصبوغ فى صفار وانتفض شعره الطويل الناعم السارح حتى منتصف ظهره النصف مكشوف واستدرت أتطلع لهيئته وتلك القلادة السوداء التى تطوق عنقه بكاتينة من العضم مطبوع عليها صليب معقوف

التفت أرقبه حتى تخطى صحن المسجد واقترب من القبلة فخلعت حذائى ومشيت خلفه أحدق فيه وقتما نهض مقرئ السيد الطاهرة قاصد الميكروفون الصغير وبدأ فى تلاوة قصيرة من سورة "مريم" وتوارى الشاب مستنداً على جانب المنبر الزان المطعم بالأرابيسك مطأطئاً رأسه واضعاً كفوفه فوق شعره الطويل ليعقصه فى ضفيرة كزيل الحصان ويلفه بقصاصة من الحرير الأبيض وقت أن كرر الشيخ ترتيله للآية التاسعة على مسمع المنصتين من حوله فى صمت وخشوع (قال ربّ اجْعل لىَ إيةً قالَ أيتكَ ألاّ تكلم الناسَ ثلثَ ليال سويًّا) وراح الشاب فى بكاءٍ حار يدفس رأسه بين ركبتيه مطلقاً نحيباً وعويل مسموع، وبكيت على مقربه من جلسته وقد أعتلتنى الدهشة فصرت مكلوماً ونهض الخادم يقيم الصلاة معتلياً أعلى قمة للمنبر والتفت الشاب فى صمت يستدير للخلف متجهاً إلى باب الخروج منتعلاً حذائه فى ثوان تائهاً فى زحام الشارع الغائص فى الغبار الكثيف جريت خلفه اتبعه وعينى تنظره. ترقب خطاه وهو يهرول هائماً. تحدق فى جلبابه المغربى- الكتان المفتوح من عند الصدر بطاقة مشغولة مطرزة بفصوص العقيق البراق فتدلى من خلفه ذيل العباءة الترجال السماوى أم الكنار الستان الطويل الهابط لسطح الأرض المسفلته المتسخة، الكنار يكنس التراب فى الشارع المتعرج فيشتبك بقفص فارغ من الجريد، صرت أركض خلفه فى هرولة وجنون طامعاً فى توقيفه وسؤاله عن هويته. بلاده- من أين أتى وكيف كان ميلاده. ولن يركع ويسجد ولأى الحضارات ينتمى- هباءً ولجت أنظره فى الزحام جهة شارع "السد" فدنت عربة جمع القمامة الكبيرة تنحنى يميناً بجانب أكياس القمامة والقاذورات المكومة أدنى رصيف مسجد السيدة زينب لتحجب الرؤية، كان جسده قد تلاشى فى زوايا الأمكنة. وذابت ملامحه المميزة وسط العابرين فى لهاث يركضون دون هدف واضح، عدت

مستديرا خائب الرجاء اجتر طفولتى وميلادى وغربتى فى عاصمة المعز- فى دنياى وبلادى ونفسى ومكانى ودينى- حيرتى فى وطنى ومشوارى الطويل باحثاً عن ملاذ أو جدوى فى طريقى الممتد إلى مالا نهاية، بتُ اتلفت متحلقاً حول نفسى أطُل للوجوه الغريبة- وحيداً وكما جئت عدت أسير فى شارع بورسعيد ومتاهاته؟!! يحيرنى الاسم. والرمز والدلالة فى تسمية هذا الشارع (بورسعيد!!) موقعه فى نفسى. وقع المدينة. مدينتى والتى شهدت ميلادى. طفولتى وصباى- ما اختاره المسئولون ابتهاجاً وتقدير لرحلة شعب بورسعيد الطويلة؟!! صمودهم وبسالتهم ضد الغزاه عبر ثلاثة حروب ٥٦، ٦٧، ١٩٧٣، حماة الوطن- المدافعين عن الضفة الشرقية راكضين خلف السواحل الهامة والاستراتيجية للوطن، مشيت كثيراً فعدُت حزيناً مخنوقاً مذموماً مدحوراً كارهاً "الاسم" والذكرى ودلالة التسمية فى المهد؟!! فى المكان الأولى ومكانى الأنى بوجوهه المنفرة الجهمة، صرت أُلقى كل غبار العالم بذراته محلقاً فى الفضاء فانفخ فيه من روحى. من نفسى العطشى بيقين الحابل المنتهى وجدواه. من قلبى الجريح نفختُ فتطاير الغبار صاعداً بكثافة من فوق الأرضية المسفلتة. من فوق الأرصفة. من أعلى الطوبان يكنس الطرقات القذرة والشوارع المتربة. أنفخ من روح يقظة متوثبة ترفض الخنوع وتتوق للطيران، ذرات التراب تسبح للعلى فتتلقاها الشياطين فتطيح بها فى كافة الأجواء لتسرى بجنون فى دفقات جنونية تهبط أرضاً مندفعة فى وجه الظلم ووجوه العباد، البشر الضالين فاقدى البصر والبصيرة. الغبار يحلق فى دوامات خبيثة دائراً فى دوامات هوائية يذروها الرياح المنفلت يكنس الشوارع والحارات والطرق ليسدُ السكك والمنافذ أمام العابرين فى الطرقات والشوارع والممرات يتحسسون الأشياء الرخيصة فيصطدمون بالحيطان العالية.

ورأيت الوالج فى الظلام دانياً يحمل منقد الفحم النحاسى رامياً بالبخور الرخيص فوق النار المشتعلة ساعياً بجلباب رث ممزق من جهة مؤخرته العظمية. وفاحت رائحة الصنن الكريهة من خلفه وقت أن دار فركض قاصداً المقام الأخضر مردداً.. مدد. مدد مدد مدد ااااااد، مدد يا طاهرة إعتلي الرصيف المبلط وزعق ناهضاً يمسك بالسور الحديدى المتحلق حول المقام قائلاً فى صوت مبحوح.. (النبوءة. النبوءة مُرة عقلم)؟!!

مشيت فى الظلام عابراً شارع "قدرى" فأتانى الصوت الفيروزى عالياً نافداً من السماعات الضخمة للكاسيت "الأكاى" الموضوع فوق الرف الزان البارز من محل عصير الفواكة القريب من سينما "الهلال" القديمة المغلقة الأبواب وسرى صوت فيروز يردد فى أسى وتوق (ريح الشمال يا نسيم بلادنا. ريح الشماااال يا نسيمـ يـ يـ م بلاادنا؟!!

قلت فى زهق فرددت نفسى المعتلة تتساءل،

– (أى البلاد بلادنا فى هذا العالم الكئيب العابث تحت نفخة هذه السماء الرمادية الكدابة التى صارت غريبة. بعيدة عنى.. نهضتُ أشبُ محدقاً للعلى فى قلب لحم السما أردد فى نفسى وقد فارقت أقدامى رصيف الشارع جهة الرشيدى الميزان – لو تطول السماء، لو تطول لحمها. لحمتها. بالونتها) صاعداً تتلمس حُجبها ضارباً بيد من حديد قلب الكون، تخايلنى زرقتها انتفاخها. حملها الكاذب- أخشع وتهبط رأسى لأسفل مشدوداً فى حنان وخفة لصفائها فيما مضى، أبغى الطيران محلقاً غارزاً يدى فى وسط قلبها الأزرق لينفتح فى هلع صابباً دماً فاسداً خارجاً فى وحشية دانياً يهبط فى نوافير وشلالات ساقطاً على رؤوس فقراء النفس والبلطجية وحاملى المباخر فى ميدان السيدة زينب المتحلقين حول مقام أم العواجز، ومدد- مدد يا محمود- المدد، مدد يا ابن

طلخان مدد يا غريب؟!! مدد يا حسين يا على (يا شيخ أحمد)؟!! مدد يا سيد يا شقيقي. مدد يا تائه. مدد يا قدرى؟!! مدد يا محمد. مدد يا غلابة. مدد يا فتحى يا عبدالله. مدد يا "قُرنى" مدد يا ابن حيدر،؟!! مدد يا أهل المدد (النبوءة مُرة علقم) مدد يا غرباء؟!!

مدد يا أهل القُلب والعزيمة. يا أهل الطريق.

° ° °

عرجت سائراً قُرب مدخل الحلمية القديمة، انظر على يمينى فيسارى محاولاً إلا بتعاد عن الزحام في الليلة الكبيرة لمولد السيدة زينب. أتأمل المساجد العتيقة المبنية على الطراز الإسلامى، وسرى الصوت منفلتاً سارياً من قرب المقام البعيد لمسجد تمراز الأحمدى أتذكر وقفاتى الماضية- قبل المغارب. لحظات الأسى والكدر عديدة متراكمة داخل نفسى. وكم من مرة جُلت فدُرت فى هذا المكان أجتر السنوات الماضية التى توارت. سبعة عشر عاماً إثنى عشر إحدى عشر- لأذكر- كنت قد وصلت للقاهرة وأستلمت عملى كمعاون إدارى فى مستشفى أحمد ماهر وصار لزاماً على أن أسير يومياً فى نفس الشارع بورسعيد؟!! ترجلت كثيراً فى حناياه ودُست أرصفته فى المواقيت المختلفة للأذان- كانت الأصوات خاشعة وثمة مناجاة تهمس فى نفس الغريب الشارد فى دنياه، كنت أطوف حول المقام وأنظر لخضار الكسوة والضوء وأبكى بلا دمع. حدث هذا كثيراً فى تلك الأيام الماضية- وقت أن كنت أخلع حذائى فى مهابه ورضا وتوق متواصلاً مع جلال المكان والحالة.. صار الحال غير الحال؟!! طال وقوفى فوق رصيف "الحلمية" متردداً تنتابنى غربة فريدة فى وقعها ووطأتها. داخل نفسى وروحى، ونودى للصلاة من المسجد القريب فركضت مستسلماً أدنو لعتبات "القاضى يحيى" القريبة من الحبانية. وتوقفت فجاءة تنتابنى رعشة

مباغـتة، هائـباً مـن ظـلال المـبان والأمكنة. أرشق نظراتى فى القباب الملوكية. المشـربيات القديمـة ومداخـل الحوانيت العتيقة صافى النفس ذاهباً عنى الكدر- أنظـر الصحون والهالات المنبعثة من لحمه الفسيفساء، وعادت الرهبة تعتلينى. تُخـرس الوعـى بداخـلى فـانفض الطـلاءات الرخيصة من بصرى فتقوى البصيرة وأرانى محدقاً فى فتون مدفوع بمدد روحى تواق للوصال إلى مالا نهاية.

الليل يزحف على الجدران والأعمدة وحول الأسبلة القديمة المهملة. نفذت فـى ممـر ضـيق أتطلـع فـى وعـى حـيادى مفـرط متسـائلاً- لـماذا تُصـر دائماً على البحـث فيما وراء الأشياء؟!! دلالة البنايات طرزها. علاقة تلك الطرز برسـالات سـكانها. أو مـرتاديها، مـن أمـروا بتنفـيذها مشـرفين على تشييدها، أقول فى نفسـى. إمشى. وطل وفسر وتفكر وتذكر الدلالات والدوافع خلف كل الأبنية فى العمـوم. أسـأل نفسى راضياً بما مضى وشيد فظل سامقاً شامخاً فى مهابه، ما هو السـر وراء هـذه الـروائع. مـا هـى فحـوى الخبايا والأسرار التى كانت ومازالت مدفونـة خلـف هـذه المشـربيات ولحمـات الأرابيسـك المعشـق المُـترب، وتتجدد تسـاؤلاتى الماضيةـ الأنـية ويترجلـن فتـيات هيـئة الآثـار بصحبة طالبات كلية الفـنون الجمـيلة والتربـية وفتـيات معاهد الترميم اللائى بتُ أنظرهن عن قُرب مدققاً فـى مـا يرتدونه من ملابس قديمة باليه تستر الأجساد البدينة والمتكورة والمفلطحـة والـتى ترتج فى إفراط لحمى خاطية فى غُلب أعلى البلاطات المتكسرة المحجوبـة أخاديدهـا فـى الظـلمة. قلـت فـى قسوة بأحكام متسرعة ماذا يفعلن أولئك الفتيات فى هذا الميقات، وهل هن طاهرات؟!! أم عابثات عاهرات تجرأن عـلى قداسـة الـتاريخ بحضـاراته فانفرطـت أقدامهـن تلوث الأمكنة عابرات فى عبـث أدنـى معـارج الأولـين، ودعت نواصى الحلمية و"قيسون" هارباً من أفواج

الدراويش والشحاذون الفارون بملابس مهلهلة يركضون خلف عربة الرش السائرة بمهل تسقى الأشجار الجرداء العارية فى شارع بورسعيد.

° ° °

قصدت شارع عابدين عابداً امام قهوة "التجارية" دون خوف يذكر ودون رهبة وجدتنى سائراً غير مُبال بما حولى- نصف عاقل. نصف مجنون. نصف نائم. نصف يقظ أنظر فى بلادة وغيظ إلى زملاء العمل فى المستشفى والجالسون متحلقين حول طاولات الكوتشينة على رصيف "التجارية"، سرت بجسارة عابراً أمام كراسيهم الخيزران فلم يلتفت إلى أحد مدخل عابدين خلا من السيارات. انحنيت يسار الطريق أمشى بجانب أرصفة "القواس" عابر أسفل شرفات مساكن الطالبات اليتامى والمغتربات، سرت بجلبابى الأبيض عا اللحم وصال الهواء وجال يصفع جسدى النحيل، نسوة ورجال وفتيات مراهقات يمرون بجانبى. يندفعات فى مواجهتى فى طول الطريق خارجات من أسفل المنازل القريبة من المدخل الخلفى لمستشفى الجمهورية المواجهة لسور قصر عابدين العالى والذى وقفا على بابه جنديان يحملان الأسلحة الرشاشة فى أكتافهما محدقين فى خلسة لمؤخرات طالبات الثانوية العامة الواقفات أمام مقر الحزب الوطنى، صارت طلات العابرين ترقب هيئتى وملامحى شعرى الهائش، جلبابى الممزق المبقع بالدم، نظرات بلاهه. وأسى. ثمة تحديقات متلاحقة من على يمينى وعلى شمالى ومن أمامى. وعابرة بمواجهتى متوارية خلف ظهرى ترقب أقدامى الحافية التى تدوس فى الماء الوسخ الخارج من دكانه عم عبدالله الرفاعى الجزار الذى رمقنى بنظره حنو مشوبة بعطف بيّن وهرول يترك دكانه دانياً خلفى يسألنى فى دهشة واستنكار: (يا أستاذ محمود، محمود.. (سلامتك ياابنى مالك؟!! (الله. مش إنت محمود المعاون برضه

ولا)؟! ! نظرته من بين طبقات الشاش والقطن المتكوم فى طبقات متحلقاً حول وجهى بصداغى مربوطاً بالبلستر الأبيض أعلى فكى الأيسر. نادانى مرتين فلم ألتفت وتراءت لى الصبية الخمرية وقد احتضنت كراساتها المصفوفة فوق صدرها مسنودة بأصابع يدها اليسرى الناعمة المفرودة فوق صدرها النافر. عَبرت من أمامى تزعق منادية زميلاتها الواقفات على طوار عطفه البيومى فى انتظار الباص الدانى لمظلة الصاج تلصصت فى خبث بتعمداً محسوباً أدقق النظر لأفخاذها الملفوفة فى هياج وشموخ تحت الاستريتش اللامية الأسود المحبوك فى قعر المؤخرة اللدنة. استدارت تدفع بالقدم اليمنى داخل الباص المزدحم فتراءى لبؤبؤ عينى القابعة وسط الجبس ضفتى الشفران وقد توستطهما قبة الشرخ الغائر اللابد بين الساقين طافيا فى انتفاخ مُغرى يشبه تفاحة أمريكانى متوسطة الحجم.

وتدلى اللصق البلاستر يهجر قفاى طائراً يتهادى فوق رأسى ساقطاً فوق جبهتى بحاجباى هائشاً عالقاً برموشى أعلى الجفن الأيسر. التفت أنظر يساراً متابعاً حركة المرأة اللعوب التى قطعت على الطريق بالعرض خاطية بتنورتها البيضاء ورائحتها الكريهة التى فاحت وقت أن رفتّ عينى اليمنى على أثر ضراطها المباغت الواصل لسماع جنود الحرس الجمهورى الواقفون على باب (٣) منهمكون فى توزيع وجبة العشاء، وراحو فى ضحك متواصل وقت أن طارت تنورتها فجأة مرتفعة عند السُرة مظهرة لباسها الداخلى البصلى، قصدت الشارع الخالى خلف قصر عابدين أمشى بموازاه النجيل المزروع وسط الحدائق المتلئة بفتيات محجبات افترش المسطحات الخضراء مستسلمات لداعبات الفتيان المراهقين المتحلقين حولهن محتجبون خلف الأشجار الكثيفة المنتشرة فى الأرض المبتلة، تذكرت الملك فاروق وزفافه الأسطورى ودعوة عشرات

الفنانـيين والمطـربات اللائى كُن يتسابقن على الغناء- جماعة وفرادى وقت مرور موكـب الملكـة "فـريدة".. بتُ اتشمم الأنفاس الخارجة من جوفى لفمى- أستنشق رائحـة البـنج.؟! ! أتمخـط فى قرف، شهيق وزفير. وثمة صفاء يتلبسنى. خدر يسـرى فـى جسدى فـتروق له حواسـى الهائجة فيروق لى الحال وينتفض قلبى خفاقاً فـتخفُ روحـى أقـترب مـن زهـور الياسمين القليلة المنتصبة فى أحواض عـابدين المهملـة ويـأخذنى الحـنين لأيـام بعـيدة مضت، الذاكرة تجتر، فترمى بصـورتهنا بوجههـنا بإنوثتهـنا الطاغـية وجمـالهن الـرائق، (فوزيـة)؟! (وفـريدة)؟! ! وأريـج العطـر السـابح فـى أنفاسـى يلهـب خـيالى الجامع فتهتز أجسـاد هـن الطرية على كراسى العرش وتلوح الملامح المميزة لتنتصب معلقة فى مواجهـتى عـلى جـدران القصـر الكالحـة. الكئيـبة. الغارقة فى الظلام مقشورة. الطـلاء الرخـيص شاخصـة لأعلى صوب شبكة أصابع الولد المراهق الهائج القاعد فـى حجـر البنت الشقراء التى نزلت من سيارتها (الفولكس) منذ ثوان، وأتانى صوتها مبحوحاً وهى تودع القصر فى ١٧ نوفمبر ١٩٤٨ بعد أن خرجت الصحف المصرية بالخبر فتناقلته عنها وسائل الإعلام العربية والأجنبية، وتلاشى المكان والـزمان بمعالمهمـا إلا مـن رنـين الفضة الغالية والتى تحمل صورتها؟! ! والتى فـرت أمـامى عـلى الأسـفلت المهـد فـى مـيدان عابدين بعد أن سقطت من جيب جلبابى الأبيض المزق المبقع بالدم صارت تضوى فى الظُلمة، قلت فى نفسى وأنا أودع المدخل الرئيسى للقصر والقريب من مبنى المحافظة، ولماذا الآن تتذكرها يا محمـود؟! ! لـماذا "فـريدة" بـالذات، عينى تدمع وأحس بنقطة دافئة ترقد أسفل الـنن، دمعـة سـاخنة تـأبى الـنزول، أدركـت ضـعفها وشـجونها وقـت الرحيل وأنتابنى نفس الإحساس فتسائلت فى نفسى لماذا؟! !

– عينى تجوث فى المكان فى السماء والأرض حول القصر. حول وقفتى، داخل نفسى خلف زمانى الأنى، الماضى. الآتى؟! يجتاحنى إحساس مروع بالهزيمة فى هذه المدينة؟!!

تذكرت أن الملكة "فوزية" قد خرجت بملابسها فقط خاصة بعد ما تأكد لها عدم نقل "عقد الهبة" بخصوص "قصر الطاهرة" المقدم لها هدية من "محمد طاهر" باشا ابن عمه الملك فاروق.؟!! وها أنا ذا أخرج من القاهرة عارياً. نصف عاقل؟! نصف مجنون؟! "مختل؟!! كلى حُب. كُلى كرة.. إنسان مخبول لا مبالى- يدارى جُرحه با الامبالاة والتخفى خلف أكوام من الشاش والقطن والدم المتجلط فوق جلبابه "البافته" المزق ونعل حذائه الواطى المتروك بتعمد داخل حمام المستشفى بمبنى "البرج"- بتُ اتحسس أقدامى فى جنون بعدما جلست على حافة السور الواطى الموجود بمدخل محطة مترو "محمد نجيب"- أنظف أصابعى المتسخة بمناديل ورقية، أحاول التذكر، هل نزلت من المستشفى بحذاء. أم سرت حافياً. صرت أبكى فى وهن، دموعى تغلبنى- اقترب لمقهى "المنظر الجميل" المواجهة لمبنى "وزارة الأوقاف". خفت أن يرانى أحد من أصدقائى المخرجين والشعراء. تذكرت "إبراهيم فريد". و"فتحى عبدالله" و"قُرنى" و"حيدر" والسيدة "إيناس بكر" التى أحنَّت علىّ كثيراً وعاملتنى بشياكة وبشكل راق مُتحضر معتذرة عن تأخرها فى زيارتى فى المستشفى لسفرها المفاجئ إلى فرانكفورت. وعرضها على مبلغ من المال أبرزته بُحب وعزم حقيقى على الإهداء. (عشان تصرف منه- (إنت لوحدك إسمع الكلام؟!! وعزيز القمنى وأحمد سعيد اللذين أنسيانى بعض آلام العملية الجراحية بثلاثة سجائر محشوة بالحشيش والبانجو- قلت لماذا تتذكر إبن القمنى الآن؟ هل لأنك تسير منذ ٥ ساعات نصف يقظ، نصف نائم. نصف سكران نصف واع.

نصف غائب. نصف حاضر..، حاضر؟!! حاضر وبعيد عن الوعى بمساحات بعيدة. ورغم انتباهك لسرقة الفواكة واللحوم والشيكولاته من ثلاجتك الخاصة بالمستشفى وكذلك نصف زجاجة الويسكى والأرغفة الكايزر الصلبة والحشيشة الملفوفة فى رقة السيلوفان، إلا أنك مازلت بتسأل نفسك،

- إنت فايق يا محمود؟!!، إنت واعى للحاصل، واعى لما قمت به منذ خروجك من باب المستشفى وذهابك إلى المقام فى السيدة، تقول فى حدة وبصوت عالى.. نعم. كنت واع لكل ما قمت به وما صدر عنى من تصرفات. عبثك بعضوك الذكرى وقت السير.. بولك النازل على مكتب مدير المستشفى. إحساسك بالجسارة والفتوة. توقك للطيران. كرهك للبشر. إذاً. أنت مدرك يا ابن طلخان

—وتشعر بقوة غريبة لم تشعر بها من قبل. قوة وخفة جسد وتوق روح يجعلانك مُصراً على ترك هذه الأرض، ترك هذه الديار محلقاً فى السماء مخاطباً ربك. مناجية، واقف بجانب جدران وزارة الأوقاف تريد الصراخ. تريد الطيران لتضرب يدك فى لحم السماء العالية المنتفخة لعلها تنفجر ويخرج منها الدم هابطاً فى شلالات حمراء تملأ الشوارع والأمكنة والجسور ورؤوس العباد السائرين فى قلب القاهرة والعالم الثالث.

تريد ثقب السماء السابعة- لأنك تعلم أن الرب قد تركها بعد ما زهق من عبادة الأشرار.. البول يزيد من رائحة العفن جاف وسائل فوق الجدران العالية لوزارة الأوقاف المظلمة. ورجل صعيدى يعطيك ظهره العظمى ويقضى حاجته فى هدوء.. لو ترى إبراهيم فريد؟! الليلة مولد. سترى القاهرة فى أكثر من شكل وهيئة. ستتعدد سيماتها، ستكون عطوفة وصافية وحانية. ستكون بخيلة وشحيحة وطاهرة وزانية وكافرة ومؤمنة، مبهرجة فى عيون السكارى. دافئة بالدراويش والأتباع والمريدين والصيع والحسالات.

سُترى "أم العواجيز" شاخصة. باردة وصماء قبل أهل القاهرة- حنونة. عطوفة وليست متعجرفة جهة الغرباء والحيارى، مدد. مدد. مدد يا طاهرة. مدد يا جامعة الأنجاس حولك- متحلقات فى بلاهة، مدد يا خط القنال يا مزغرد- مدد يابورسعيد، ٥٦، ٦٧، ٧٣- مدد يا ٧٨ سنة عذاب لـ (آل طلخان- وعبد الرحيم. وحسن زنجير" و"على زنجير"؟! ! مدد يا عدوان ثلاثى طرّش كل أولاده الدم وتركهم فى ظلمات الليل القاهرى يلهثون، الساعة ٨ والليل طويل الليلة، أين أنت يا محمود يا طلخان. رحُت فين يا أبا.. رحُت فين يا بويا، وإنت (إلى أين أنت ذاهب يا محمود إلى أين ستذهب؟ هل ستعود لبورسعيد. كل القادم من هناك بيقول- كل شيء فيها تغير. صارت بورسعيد أخرى، بورسعيد اللى عاش فيها أبوك تلاشت. ذهبت بلا رجعه.. الساعة عشرة؟! !

وأنت دائر وسط المدينة. ماشى بضمادات مخيفة تحجب ما فوق صدرك من أعضاء. والهواء ربيعى، أظنه ربيعى سيخترق ضلوعك المهشمة، أرتعش وجسدى متعب وخائف. معدتى خاوية وليس هناك أدنى رغبة فى الطعام.

أحلم بوابورجاز مصلصل. أنعس على وشيشة وسط ناس يعرفونى. أحس الأمان فى وسطهم- مش شرط أعرفهم أو يعرفونى، بردان فلا أشعر بوجود أصابعى. الخلق بتمر فى عبوس، وجوه الكآبة تمرق كل حين. ونظرات الحنو والعطف والشفقة تنقلب قبل منتصف الليل بساعتين إلى اشمئزاز واحتقار ونفور. وأنت شبه نائم، نصف حى. نصف ميت، بتدخل مقهى "الحرية" وتقعد فوق كرسى بعيد- قريب من النصبة.

° ° °

حمدت الله كثيراً أن سعد النادل قد تعرف على فأجلسنى قُرب النصبة لما رآنى بردان استكنت للوشيش الأتى من بعيد قريب زحف الغرباء عديدون. ألمان وفرنسيين وبرابرة ونوبيون يشربون البيرة ويقضمون حبات الترمس ويتناقشون فى جدوى المعرفة وماهية الوعى والجيل القديم فى النوبة- قبل السد وبعده ويمرون على المنشور أسفل صفحات الجرائد الحكومية عن جوائز الدولة فى الأداب والفنون، لو يأتى إبراهيم فريد الآن؟!!

الدفء يتسرب إلى أقدامى عبر وجدانى. وهج الدست ونار الوابور يزحفان بلفحاتهما فتتسرسب السخونة جهة الحاجز الخشبى الطويل الفاصل بين مقعد مدير المقهى ومتعاطى الخمور، بدأ الدفء يتسلل سارياً فى أطرافى وعظامى وكل نصفى السفلى- وبدأت أدرك حالى، ما وصلت إليه؟!!

طللت فى مرآه قديمة دون خشية أو ملامة نظرت وجهى ورأيت الضمادات كبيرة أكثر مما تصورت. نكشت بأصابعى فى جُرحى محاولاً قص بعض الانتفاخات القطنية الكثيفة الموضوعة فوق صدغى بوجنتاى، نزعت البلاستر من فوق جبينى ومن على رأسى فطل الجالسون فى استغراب ودهشة، فى لحظات صخب وهرج تسبب فيها أحد المخمورين. وقعت الفتاة العشرينية على وجهها فتعرت أفخاذها وبان كلوتها الأسود الممزق من تحت البطن. وبكى الرجل السويسى ودخلت بنت صغيرة حوالى سبع سنين- أبوها العازف عا الربابة تحلق حول السكارى. لف ودار ٣ مرات وخرج وجيب السيالة فارغ، قمت أبول متكئاً على الكراسى الخيزران. عدت ورأيت السكران النوبى التروتسكى يكيل الركل والشتائم للبنت أم كلوت مقطوع.. البنت صارت تقول،

:- (إنت السبب (حد يسيب رفيقته من غير أكل ولا سجاير ١٥ يوم)؟!!
البنت بكت وخرجت للشارع. قابلت مراسل الصحيفة السعودية الواقف فى

انتظارها على رصيف بائع "المُخ". الرجل النوبى صار يبكى طويلاً حتى نام على كرسية، لو تأتى غادة السنان الآن؟!!

لو أرى أهداف الأكيابى.. وهل مازلتا يحييون؟!!

° ° °

غادة السنان خرجت من بورسعيد سنة ٧٩، ٨٠، مش فاكر إبراهيم أبو حجة أكد ذلك فى المهاتفة الأخيرة، أى مهاتفة؟!! هل هاتفنى إبراهيم أبو حجة فعلاً؟

هرشت دماغى وظهر شعرى المنكوش "ملفت للنظر أكثر من اللازم. واحد مجنون دخل القهوة وظل يحدق فى ملامحى ربع ساعة.

غادة تركت بورسعيد. وسكنت فى "المعادى" وتزوجت من أستاذ جامعى براجماتى عتيد.

:- من قال ذلك- (أظن إبراهيم أبو حجة).

من إبراهيم أبو حجة- شكله إيه الرجل الأسطورة هذا، هل مازال حى. أم توفاه الله- أين أنت يا أبو حجة، أين أنت يا أبى؟!! الصور؟!! الصور؟!! قلبت فى جيب الجلباب- لا شىء لا يوجد صور، الجيب الشمال، النوم يزحف على جسدى، فى حالة استرخاء تام دعكت عينى- وضربت يدى فى جيب جلبابى اليمين، الجيب فيه موبايل- نظرت فى شاشة الموبايل الكاتيل - رقم من هذا؟!! ٠١٢٢٣٧٠٠٠٠

رقم من هذا الذى أمامى.. وأين كان المحمول وقت خضوعى للجراحة- وقت إجراء العملية؟!! ومن الذى أعطانى إياه لأرميه فى جيبى منذ تسع ساعات.. ٩ ساعات مروا منذ أن تركت مبنى البرج بالمستشفى ولم أحس بهذا

الشيء في جلبابي أو يدي، ماتفسير هذا.. ماذا يعني هذا؟!! أنت دائخ يا محمود،

– أنا خائف؟ خائف جداً. ماذا تخبئ لي الأقدار في الساعات. اللياك. الأيام الآتية.. تذكر يا محمود!!– تذكر يا محمود، عم سعد أحضر لي نصف رغيف كبدة بلدي ونصف مُخ وكوب ماء. شوب كبير كريستال، لحظات الضعف تلاشت نسبياً بعد الأكل، سعد نزل لي واحد شاي بحليب وبعدين سادة. وشربت سيجارتين فتجرأت وطلبت واحدة بيرة "ستلا" وواحدة ثانية وتلت الترمس كثيراً مع فول مقشر، "سوداني"؟!! ساخن. أدخلت يدي في جيوب الجلباب من جديد. خرجت سبع أوراق من فئة العشرين جنيهاً وتوسطتهم ورقة جديدة بخمسة. تذكرت سلوى بكر "الفنانة المعروفة"– عازفة الفلوت الرشيقة عندما وضعت يدها الناعمة تحت وسادتي رقم جديد بيظهر مع رنات الموبايل. شاشة المحمول منيرة callme. 0122371213

عربة "فولكس" تركن فجأة بجانب السيارة الشبح في باركنج باب اللوق أمام عبد المعبود بائع البن، صبية مدندشة بعيون ملونة. طويلة وبخصر نحيل. شعرها طويل– أصفر بنهود بارزة ف حجم المانجو "الألفونس"، بنطلون قطيفة بيج. وبلوزة زرعى مطرطشة بأخضر فاتح. الطقم مش جديد قوى الطقم مش قديم قوى، البنت عندها حوالى ١٧ سنة، مكسوفة وخجلانة بتطل للقهوة بحذر، كعب السابو لميع نبيذى فوق منه ظاهر كعب القدم وردى. القوام بهى والبنت خجلانة بتطل لقهوة "الحرية"؟!!، وحدة أخرى بتنزل من الباب الأمامي الشمال. وفيه مفاتيح معلقة في سلسلة ذهب ملفوفة في الكف اليمين– الست الثانية تخطت الأربعين– او يمكن لسه، وقفت خلف البنوتة الصغيرة تطل هى الأخرى– مشينا سوياً يقتربان من زجاج المقهى، الهانم الكبيرة.

تـرتدى تـايير روز والجـوب مفـارق الُركب البيضاء العجينية الذائبة فى حمرة طبيعية، راقبت خطوتها. مشيتها وهى تعبر الشارع المسفلت دانية من الزجاج. طلـت بشـغف لـلحظات. واسـتدارت قاصـدة مطحـن عـبد المعـبود.. هـيه يـا محمود.؟!!

° ° °

مش منتبه.. واضح إنهم ناس هاى،

ناس رايقه.. بس فى عينهم حُزن غريب،، قمت وبصيت بحسرة، دعكت عـيونى، عـادوا بأكـياس الـبن وعبوات السحلب الفائح الرائحة، راقبت خطاهم فـى رويـة. طللـت بـؤبؤ عيـنى مـن وسـط الجـبس. على الرصيف أوقفنى ضابط مباحث بزى ملكى وعيون زرقة- بطاقتك؟

العـربة دارت واسـتدارت ومشـت قاصدة ميدان التحرير ، الضابط يسألنى إنت "مخرج"؟!! يحدق، حدق طويلاً فى وجهى رفع البلاستر عن صدغى. وضع صـباعه الأوسـط بـيده اليسرى فوق الجرح. طل من جديد. (وردد فى دهشة. (لا مؤاخـذة، معرفـتكش؟!! إيـه الحكايـة أُمـال- دا فيـلم جديـد.. يـلا مـيهمكش الحياة مليانة دراما؟!!

عُدت للمقهى الزجاجى فى بطء.

هالنى الإعلان الملتصق بالواجهة

وسط البرواز الزجاجى بخط قديم.

"مفقودون"

محمود محمود طلخان عبد الرحيم

الســن ٧٨ سـنة تقريـباً- محارب قديم بالمقاومة الشعبية من مواليد سوهاج يقيم ببورسعيد "مستبقى"؟!!

الصفة- "مراقب جوى". حارب فى العدوان الثلاثى ٥٦، ٦٧، ٧٣- غادر المدينة منذ سنوات من يجده عليه لاتصال بمقهى ضاحى سلطان رشوان بأول العرب ببورسعيد. ٠٦٦/٢٢٢٢٤٣

° ° °

الإعلان منشور بجريدة الجمهورية فى عددها الصادر فى "ثورة التصحيح"؟!! الذكرى السابعة ١٩٧٧؟!!

فصل ٥
"مفارق طرق"

كل ما أذكره من تلك الليلة هو رنين جرس التليفون بعد منتصف الليل فى سبتمبر- ١٩٩٨م وحديث إبراهيم أبو حجة الباغت وصوته المتهدج. وشعوره بالخوف والذى لمسته مع الانصات لنبرات صوته عبر سماعة التليفون، كانت الدنيا ضلمة على لكورنيش، وأنا نازل من الميكروباص القادم من التحرير واصل المعادى. نزلت عا الرصيف بسرعة. وقصدت منزلى، كان التيار الكهربائى منقطع وقت صعودى على السلم وتوجهى للدور الخامس، فى الدور الرابع سمعت رنين الهاتف فى شقتى وأنا ساند بإيدى على الدرابزين- جريت افتح الباب فى لهفة. دخلت ورفعت السماعة وجانى صوت إبراهيم ضعيف وخائف كان نفسه العالى واصلنى وداخل ودانى اليمين، قُلت: أهلاً يا أبو حجة (فينك يا راجل من زمان. سافرت بورسعيد كثير ورحت لك "الحرية" وعند عم عوض. وسألت عليك فى قهوة "الشكر بالى" قالولى- عَزل وراح سكن فى مساكن "الضباط" فى الزهور...،

قال بعد نفاد صبر (صحيح)، المهم يا محمود- عايزك تيجى بورسعيد ضرورى. وفى أقرب وقت. (الرئيس جاى بعد يومين هنا. ومباحث أمن الدولة والمخابرات سارحة فى كل حتة فى البلد من أسبوع. و(سامع إن فيه نية لإلغاء المنطقة الحرة؟!!)

قُلت: (إزاى يا راجل)- الناس بتنفتح. وهما عايزين يلغوا المنطقة الحرة،

المهم يا محمود. أنا عايزك تيجى ضرورى!! (وأنا حضرت الصور القديمة بتاعة ٥٦، ٦٧- ياريت تجيب كل حاجة عندك لها علاقة ببورسعيد. هات كل الصور وشهادات التقدير بتاعة أبوك؟!)

لازم تيجى يا محمود. فيه صحفيين كتير جايين بورسعيد بكرة. وجاى معاهم رئيس منظمة "مراسلون بلا حدود" وكل مناديب وكالات الأبناء العالمية، محمود (أنا هستناك فى بور فؤاد) عند بلاج الهيئة. فى ركن البيرة إللى هناك، مجمود العربى سليمان عايز يشوفك؟!! وانقطع الخط فجأة ووجدتنى مضطرباً أتساءل فى نفسى وقد انتابتنى الحيرة...

° ° °

ظللت أكلم نفسى طوال الليل- من أين أتى إبراهيم أبو حجة برقم تليفون منزلى فى القاهرة. ولماذا هذه المكالمة الغريبة فى هذه الليلة تحديداً. وما علاقتى بزيارة رئيس الجمهورية لبورسعيد. وما علاقة صور وشهادات والدى؟!!- وكيف اجتمعا أبو حجة والشيخ "العربى سليمان" المتطرف. وكيف تلاقيا سوياً. وأى الأفكار أو الأغراض جمعتهما تلك التى لا أعلم عنها شيئاً. وأى ظروف قد جمعتهما هذه الأيام فى هذه المناسبة تحديداً..؟!!. ،

وهل يعلم إبراهيم بطبيعة أو مدى علاقتى بالعربى- فليس هناك ثمة ما يربطنى بالشيخ الجهم الغاضب على الدولة ونظام الحكم على الدوام. فكل ما كان يربطنى به صار ذكرى- ماضياً بعيداً تلاشى فور أن تركت منطقة أول العرب مع أسرتى فى نهاية الثمانينات، وابتعدت المسافات بيننا كثيراً مع مجيئى للقاهرة.. ،

لا أنكر أننى أحياناً ما أتذكره وخاصة عندما أفكر فى كتابة سيناريو جديد عن الاغتراب مثلاً؟!! بتُ قلقاً طوال الليل. أتقلب فى فراشى محاولاً الربط بين التفاصيل والأحداث فى مكالمة الساعات الفائتة. وسيرة العربى والحاج أبو حجة على سفرى لبورسعيد؟!.. ووجدتنى اجتر زمنا طويلاً.. "أول العرب" طولون.. الحميدى. جدى. والدى؟!! العربى سليمان (الواد الرذل). الفتوه اللى شايف نفسه على شباب أول العرب الهلافيت اللى واقفين على النواصى، الواد الغلبان اللى بيفضل صاحى طول الليل. وأبويا يراقبه وهو معدى على فرشة البطيخ- ومساء الخير يا عم محمود يا طلخان- وابويا يقف فى لحظة. يبّرق بعينه للعربى- الواد يخاف ويكش لما أبويا يشخر له. أبويه "المستبقى" مكانش بيخاف من حد.. كان يفضل سهران فى أول العرب. يبيع بطيخ ومانجو وجوافة ويضرب التخين- أصل كان متسيط جرئ. ويطارد العفاريت فى الليل. وعم ضاحى سلطان الله يرحمه يشهد بذلك- حتى العربى ابن ضاحى سلطان رشوان كان بيعمل حساب لأبويا- محمود طلخان- (راجل عياره فالت). ومحمى فى قوات الدفاع الشعبى. مراقب جوى فى المقاومة الشعبية. والعربى سليمان عنده ١٧ سنة وواكله أكله جمبرى مسروقة وبيتسحب على طراطيف صوابعه عايز يسرق بطيخة من فرش أبويا اللى سهران طول الليل وجزمته تحت دماغة فوق فى "الصندلة".. أبويا محمود بينط ذى القرد على دماغ العربى سليمان، ضربة بالقلم على صدغه وشخرله مرتين وسب بالدين وقله. (ياللى مربياك مرة قحبة. يلاً ياله يا حرامى البطيخ يا ابن الوسخة- (هتروّح والا اسلمك يا خول لعادل أبو الحمد كان عادل أبو الحمد ضابط مباحث برتبة رائد فى قسم شرطة العرب- اتقلب فى فراشى وكأنه فيلم طويل- بخرج من سيرة العربى وبردد فى نفسى، (كان غلبان- يا ترى هو

عـامل إيـه دلوقـتى– ولـيه دايمـاً كـان بيـتخانق مـع شـيوخ الأوقـاف فى المسجد العباسـى.. لـيه كـان بـيكفّر كـل الـناس حـتى أمـه– كل أخوات العربى سليمان هاجروا لأمريكا. سافروا فى نهاية السبعينات نيوجرسى. وسابوه لواحده غلبان العـربى– وأنـا زاد قلقـى ومـش جـاى لى نـوم. فيـلم طويـل– شـريط سـينمائى لا ينتهى كانت أيام صعبة. وناس فى غاية الغرابة بس غلابة؟!!

° ° °

عـلى فكرة، مش الشيخ العربى سليمان بس هوه اللى غلبان، أبويا محمود طلخان. (كان أغلب م الغُلب)

كفايـة إنـه حـارب فـى ٣ حروب ومكانش بيشوف ولاده إلا كل ٣ شهور. (مكـانش بيـنام)، زيـي أنـا دلوقت كـده.. بقالى ٣٠ ساعة ماشوفتش النوم– ٣٠ ساعة– دا يمكن ٣٠ سنة– ،

عـلى فكـرة أبويـا محـبش حـد فـى ولاده قـد حسين. أخويا الصغير. اللى سـاعات بحس إنه مش صغير بالمرة، (كأنه عنده ٢٠٠ سنة) وساعات بحس أنه طفل عنده سبع سنين.. نفسى أنام،

– (يا ترى إيه اللى جاى بكره)؟!!

إيـه الـلى فكّرك بيا يا عربى إنت وإبراهيم، إبراهيم مولود فى نفس اليوم اللى اتولد فية محمود طلخان، ورغم كدة مش عارف هو بيحب أبويا ولا لأ؟!!

° ° °

سـافرت فـى اليوم التالى. عقب الغروب قصدت محطة السوبر جيت، وطار الأوتوبـيس الذهـبى عـلى الطريق الصحراوى فوصل للإسماعيلية فى ٤٥ دقيقة، عـند الكمـين الواقـف بعـد محطـة تحصيل الرسوم وقبل دخولنا مدينة "القنطرة غرب" بدقائق. طوق رجال الشرطة ومباحث أمن الدولة فى بورسعيد الأوتوبيس

مـن كل جانب، وتحلقت العساكر وأمناء الشرطة والمخبرين حول الركاب وأسفل الطـريق المسـفلت. الظـلام يخيم على المكان المعزول وسط الطريق الصحراوى. فى الأول صـعد ضباط أمن الدولة من الباب الأمامى جهة السائق الذى لم يتحرك من مكانـة مكتفياً بالـنظرات المتلصصـة كـل حين والتى ترقب خطى الضباط وحركة الـركاب عـن كثـب. اقـترب ضـابط شرطة برتبة نقيب. فتش فى حقائب الركاب للقـاة عـلى الأركـان الفيبر العليا المكسوة بطبقة من الدوبار الغليظ المفرود بطول الأجـناب العالية جهة السقف متلصقاً بكبسولات مستديرة مرشوقة فى الأضلاع الفيـبر الطويلة. انزلوا الحقائب من أعلى إلى أرضية الأتوبيس وصارو يقلبون فى الملابـس والمستلزمات الشخصـية. أخـرجو كلوتـات السـيدات من الشنط القطيفة الهاندبـاج ووجـدت السـيدة الـبرجوازية الـتى تجلـس بجانـبى تتمـلمل معلنة استنكارها لما يحـدث قائلـة فى غضب (أظن مصيحش اللى انت بتعمله ده. دى ملابسـى الخاصـة)، عفـواً يـا هـانم، مش إنتى المقصودة. كلها إجراءات أمنية، وتدلت الكلوتات الحرير الفرنساوى سوداء وحمراء وبيضاء، ووجدتنى ارتعش. أطـرافى وأقدامـى الـتى صارت تصطك فى بعضها البعض جهة الدواسة الأرضية الكـاوتش. إطلعـوا عـلى بطاقات جميع الركاب وفى ثوان معدودة. وجدت الكلب الولـف يقفـز داخـل الأوتوبـيس مـن جهـة الـباب الخلفى الذى انفتح بغته فلم أعـرف كـيف، كانـت أنفـاس الكلـب المـدُرب تتعالى فى السكون المطبق وأنا أظل بحذر وكياسة للمبات السهارى الصغيرة المتدلية من الكشافات البيضاوية مرسلة بقـع ضـوئية خافـتة، اقـترب مـنى. وتـدلى لسان الولف الطويل أحمر بشراشف نبـيذية اللـون تهـاوت عـلى لسـانه القرمـزى خارجـة مـن فـيه الواسـع المدبب المحجـوب نصـفه بكمامـة جلديـة سميكة. صار الولف يتشممنى. قلبى يدق فى عـنف وعظـام صدرى النحيل تصعد وتهبط فى تلاحق. اقترب من بنطلونى وقت

أن انكفأ الضابط الملكى بعيونه الزرقاء الثاقبة وشعره الناعم وذقنه الحليق وتلك الرائحة المنفرة الكولونيا بعد الحلاقة التى نفذ أريجها الكلاسيكى العطن إلى أنفى فتذكرت جنازات الموتى الفقراء فى مدينتى.. سخونة غريبة تغوص فى أحشائى تصعد لوجهى الذى تلاشت حمرته فى دقائق صار قريباً من جلستى يسألنى منكفئاً فى وضع ركوع وقت أن مالت رفيقتى فى المقعد بشعرها الطويل المستند على زجاج النافذة المطلة على الخلاء. (وحضرتك بورسعيدى فعلاً ولا قاهرى.. قلت (أنا)؟!! حاولت التماسك. قال نعم- سيادتك؟! النقيب يحدق فى بطاقتى الشخصية- ويقول.. بتشتغل مخرج.. (آه) وتليفزيونى بقى ولا سينمائى.. (الاثنين)، آه- أنت بتاع برنامج "دراما الحياة"؟!! أيوه..،

سحب الحقيبة الهاندباج الموضوعة على حجرى وقام بفتحها وقلب فى متعلقاتى الشخصية. أطل فى بعض الصور الفوتوغرافية الخاصة، صورة بنيه لجمال عبد الناصر. وأخرى لجيفارا وثالثة لتروتسكى. صورة أخيرة لنجمة سينمائية هوليودية من أصل إيطالى، رمى بالحقيبة كما كانت فانفرجت أفخاذى على المقعد فجأة فسقطت الصور فى الأرضية السوداء، ورأيته يجوث- فيطول تحديقه من جديد لحامل الحقائب الكبيرة ويسألنى فجأة. (معاك شنط كبيرة. خرس لسانى وتلعثمت مطلاً فى خوف مُبطن أنظر لركاب الأوتوبيس الجالسين بموازاتى بطول الصف الأيسر من المقاعد الثنائية. رددت فى جرأة (لا)، لا أحمل حقائب أخرى إلا ما رأيت، وسمعت النقيب يقول وهو يبتعد متوجهاً قِبل السائق. (مفيش معاه مخدرات يا فندم، تباعد فوجدتنى وقد زادت جرأتى ونفد صبرى (هوه فيه إيه حضرتك).. ورد المخبر البدين ذو الوجه المفلطح والقامة القصيرة والشارب الكثيف القصير اللابد أسفل فتحتى أنفه، (إسمه

سيادتك يا له)، جن جنونى فحاولت التماسك معقباً (ياريت حضرتك تقولى أنت عايز إيه بالضبط،

-: (لا ولا حاجة يا محمود بيه يا فنان. لكن خلى بالك. كل مكالماتك متراقبة. فى بورسعيد والقاهرة.. خلى بالك من نفسك كويس.. هاها.. (يا مخرج)؟!!

-: يلا يا عباس بيه، واستداروا يهبطون الأوتوبيس من الباب الخلفى ساحبين خلفهم الكلب الولف البدين والذى بدا متثاقلا فى الخطى وهو يجر ساقيه فى المشى الضيق المؤدى للباب لخلفى، طللت للافتة السوداء المدقوقة يمين الطوبان والتى كُتب فوقها بخط فسفورى كبير- بورسعيد ٧٠ ك.م، "أنت فى أمان مع إيزالو" وتطفو صورة الطفل الأشقر الرغد وهو يتثاءب أعلى بروز اللافتة السوداء.

° ° °

وصلت بورسعيد حوالى ١١ مساءً. صعدت لمنزل عائلتى. فتشت فى دُرج الكومودينو القديم. أخرجت رقم الموبايل الخاص بإبراهيم أبو حجة، واندهشت شقيقتى هالة لاستعجالى وحضورى المفاجئ. فقالت بُحسن نيه. (الله انت عرفت إن باتعة محجوزة فى مستشفى ناصر. (آه). (الله هوه ماحدش اتصل بيك- (لأ). اختك عندها الكبد وفى العناية المركزة بقالها أربع أسابيع؟!!

أمسكت برقم الموبايل فى الورقة الصغيرة.. وراقبت هالة لهفتى فقالت وإحنا شيلنا المباشر. وباتعه سايبة الموبايل مع بنتها منال.. مشيت فى الطرقة متوتر ولاحت صورة الزعيم جمال بإطارها الأسود موضوعه فى البرواز العتيق المعلق فى مدخل غرفة الأب، قلت:

:- هالـة- أنـا رايح مشوار فـى بـور فـؤاد وضـرورى هنوت على باتعة، (ماتنساش تشترلها العلاج اللى عايزاه عشان مفيش فلوس فى البيت،
:- (حاضر)

° ° °

أخـذت التاكسـى مخصوص ونزلت عند قسم الميناء القديم وأخرجت الورقة الصـغيرة. هاتفت أبـو حجـة مـن الكشـك الألومنـيوم الحديد الواقع على رصيف عمـارة المسـاجيرية وجـاءنى الرد فى رسالة تقول- عفواً لا يمكنكم الاتصال الآن حيـث أن -؟!!، ركبـت المعديـة. ظللت لعصمى الأيسر الساعة ١٢/٤٥ ورائحة الـيود تـنفذ لأنفـى وجسدى هزيل- وبقع ضوئية منثورة فى الممر الملاحى للقناة. العـربات الملاكـى متراصـة فـى صـفوف ثلاث منتظمة بطول المعدية التى تأهبت لمفارقـة الرصـيف رقـم (١) رجال المباحث يطوفون حول سيارات الأجرة الواقفة يسـار المعديـة، ضـباط ملكـى بملامـح غريبة غير مألوفة ترقب وقفتى عند بُعد. مشـيت اتقدم للأمام واقفاً أسفل كابينة السائق الجالس فى المربع الحديدى العالى يعبـث بالدفة، تراجعت من جديد أظل فى خبث لقواد السيارات الملاكى، أحدق فـى وجـوه أطفـال لا أعـرفهم. الأطفـال تضحك فى براءة وهواء منتهى الخريف يـرمى بنسـماته الـباردة فـى لـيل ديسـمبر ووسـط أركـان المعدية التى تشق الماء العميق فى ممر القناة، أشعلت سيجارة مارلبورو حمراء. وابتعدت قاصداً العتب الأمـامى المـرفوع فـى وجوه المشاه العابرين للضفة الأخرى جهـة بور فؤاد.. ركام المـاء الأبـيض المـالح ينفلت من جهـة الرفاس فيذوب فى دوائر الدوامات الشفيفة الـتى صـارت تبـتعد رويـداً رويـداً سابحة فى منتصف المجرى الملاحى. المعدية تـبطء مـن سـرعتها وقـت عـبور سفينة السياحة الكندية العتيقه "إكليل لاورا" الـذى عـبرت بالطول فسدت الطريق والرؤية فى القناة، قبطان السفينة ينظر من

علـيائه فـى تكـبر. محدقـاً لوجـوة البشـر الكثيـبة الـتى تزاحموا فاحتشدو فى الواجهة يحدقون للمرشدون الواقفون على أجناب قمرة القيادة فى "بلوتس" (٢) و"إنقـاذ" (١) و"المعـاون" (٣) الـتحلقون حول مقدمة السفينة السياحية المفارقة لميـناء بورسـعيد السـابح فـى الأضـواء الساطعة دخلت بلاج الهيئة فقصدت ركن الـبيرة المضـاء بمشـكاوات الفلورسـنت. مشـيت قاصداً الركنة الرخام المستديرة. سـألت البارمان على إبراهيم أبو حجة الذى كان يجلس على الترابيزة الفردانية البلاسـتيك، دنوت لكرسيه أربت على كتفه اللحيم فلم ينتبه، سحبت الكرسى الخـيزران فـنهض يخلـع نظارتـه السـميكة. بـاعداً بين زجاجة الهانكان وطبق الترمس. قلت، (إيه يا عم)،

- إنـت مخمـس ولا إيـه،. وقف يدعك فى عينه اليسرى قائلاً.. (الله أنت جيـت يـا ابـن الغـالى، والـلهى مـاخدت بالى يافنان، إيه يا عم السويترات دى- عـيوق مـن يومـك يا أستاذ. أقعد. طلبت كاس ويسكى سك. وفاق أبو حجة. وبدأ فـى الكـلام، وصـار الـبارمان يـركض جهة الترابيزة كل عشرة دقائق مردداً (لا مؤاخـذة يابشـوات، شدو حيلكم شوية. ضباط المباحث وأمن الدولة ماليين المكان — لا مؤاخـذة يـا أسـتاذ محمود. قدر موقفى يا فنان، والرواد تتناقص أعدادها كل ربـع ساعة ومع إلتفاته وأخرى أسمع سيد عويس الكاشير بيقول لمحمود البغال مخـبر أمـن الدولـة- لأ يـاريس دولا زبـاين، ويـدور الـبغال محدقـاً فى الوجوة المتحلقة حول ترابيزات البيرة، سائلاً الشاربين فى ثقة،

(وانـت مـين). آه طالـب- طـب يـلا اعـتمد. عـلى بيـتكم، ويطـل لعم سيد عويـس فـى غـيظ قـائلاً (وتقـولى زبـاين المكان)، يدخل ضابط ملكى بعيون سودة ضـيقة وشـنب مـبروم. يقـترب مـن وقفـة عويس المنهمك فى تحصيل الحساب، يصـفعه عـلى وجهـه بقـوة فتسقط نظارته الذهبية على التزجه الرخام. يستدير

مطلاً في وجهينا. سحبني من كتفي بقوة وسحب نظارة إبراهيم فشم رائحة الحشيش الآتية من الترابيزة المجاورة. ضرب الترابيزة بالحذاء. فسقطت زجاجات البيرة مهشمة. فتش الجالسين. كانوا الثلاثة شباب قاعدين على كراسي بوص. بان الواد الرابع في سن المراهقة يلوك اللبانة في فمه المتسع المعوج. دنا الضابط يضغط على فكيه بقوة دافعاً إياه في صدره لتبرز اللبانة البيضاء كبيرة كحبة الجوافة خارجة من فمه الذي توقف عن التشدق وقت أن سالت الدماء بغزارة من فيه فصار يلوح بيده غاضباً مردداً في لوع (الله. إيه يا باشا) هو أنا صغير ولا إيه. اشمعنى دول يا خويا. إيه يا ادلعدى؟!!

وطاشت أقدام ضباط المباحث تضرب الكراسي والترابيزات بالأحذية السوداء الغليظة ومحمود عبدالله رئيس مباحث بور فؤاد يقول يلا ياد يا مكفي على وشك يا إبن القحبة!! وعزمنا على الهروب من الباب الخلفي فأمسكا بنا العميد ياسر صابر رئيس شعبة البحث الجنائي الذي تصادف قيادته لكمين المديرية صار ينظر لي في تريث وقت أن وقف مساعدوه على مقربة متحلقين حول الباب الخلفي للبار مستندين على مؤخرة عربة البلوكامين الزرقاء الذي ترك باب صندوقها الخلفي مفتوحاً على مصراعيه ممتلئاً بالسكارى والأحداث والقوادون والمسجلين الشواذ واللصوص والهاربين من الخدمة العسكرية، رأيت العميد ياسر. يعنفني بتعمد بعد ما تعرف على ملامحي مدققاً النظر في وجهي مقترباً بأنفه ناحية فمي يتشممني، شعرت بالخجل يشل حركتي. يخرسني فتدور أصابع يداي في حركات لا إرادية صار العرق ينضح من جبيني اللامع تحت أضواء الفلورسنت والعميد ياسر صابر يقول بنبرات حازمة مكسوة بحنو باطني.

(يعنى بقالى سبع سنين ماشوفتكش. أشوفك سكران، يخص عليك.. دانت مقرف، هى دى داراما الحياة.. وانفلتت وجنتاى وتمددا ذراعاى وتعالت نبرات صوتى فى ضحكة مفاجئة ساخرة من ذاتى ووجودى، وقدمت اعتذارى لياسر بيه الذى ترك ضباطه الصغار يفتشون فى حقيبة عم إبراهيم بترو ودقة.. قلت. أنا مش عارف أقول لسعادتك إيه يا ياسر باشا. أخوك الصغير وغلط، وياريت حضرتك بس تـ.. خير.. (عم إبراهيم بس يمشى معايا. دا لو أذنت معاليك.

-: (طب يلا يا سيدى إنت وهو بالسلامة، وابتعدنا عن بلاج الهيئة. وفوجئت بالعم إبراهيم يخفى مظروف كاكى عريض فى بنطلونه الجينز. تحت الحزام أسفل السويتر الجلدى.. قلت بعدما عدنا نتأهب للسير جهة طريق جامعة قناة السويس قاصدين المعدية- (مقلتليش يا عم إبراهيم- قابلت العربى سليمان فين. هوه إنت تعرفه، قال مضطرباً وقد شرد بنظراته فى الأفق الكابى، (شافك فى برنامج تليفزيونى. وبالصدفة كنت قاعد بتفرج عليه فى قصر الثقافة، وعرفنى يومها بنفسه هوه وواحد شغال فى الحى اسمه السيد الجيار له أخ اسمه ميمى عايش فى أمريكا، قلت.. (آه عارفه). دا أخوه فى نيوجرسى مع الجاولى الكبير بقاله عشرين سنة، وسمعت بإنصات لكل ما ذكره من تفاصيل. حتى أقتربنا من مدخل المعدية العائدة لبورسعيد. الساعة تقترب من الثالثة والنصف والفجر يقترب. والشوارع خالية. إلا من عمال المتابعة الواقفون فوق أرصفة المراسى المنيرة. قلت وقبل القفز فى معدية عبور "٣". بص يا عم إبراهيم أديك شفت اللى حصل الليلة. وسيبك من موضوع مقابلة الصحفيين بكرة. مباحث الدولة كلها بايته فى البلد. وكل الرفاق القدامى

متراقبين.. وإنسى ياعم إبراهيم السياسة (وبعدين إنت متعرفش العربى سليمان كويس: - ماله يا أستاذ؟

- (يا عم. دا واحد متطرف ومتستبعدش أنه يعمل أى حاجة، وبعدين دا عايش لوحده هنا وكل إخواته عايشين فى أمريكا. حتى أمه- سبته وسكنت فى مساكن مبارك الجديدة فى أرض الجولف..، وبدا إبراهيم أبو حجة غير مقتنع. زاد شروده وتغيرت ملامح وجه فصار يهذى مكرراً عبارات بعينها: - (يعنى كل تاريخنا يضيع هدر)؟!! ما ترد عليا يا مثقف يا فنان- فين المبادئ يا بتاع دراما الحياة!! جرى يتركنى سائراً بمفرده مولياً وجهته قبل فيلا السادات- القديمة مبتعداً على مرسى المعدية صارخاً فى جنون، مردداً فى الخلاء والظلمة خلف نادى بور فؤاد المغلق، (حرب وحاربنا. أربعين سنة عذاب ومقاومة وهروب ومنطقة حرة. ونكسة كبيرة. وكل الصحاب ماتوا، رد عليا يا محمود، رد يا محمود يا طلخان (فين أبوك دلوقتى) فين بورسعيد. فين الناس اللى بجد. فين ٥٦، ٦٧ و٧٣، شهداءنا، تعرف تقولى فين كل ده.

هى دى دراما الحياة.. ناس تحارب وتموت وتعيش برجل واحدة ومن غير عينين. وناس تشحت.. ناس هاجرت. وناس اتغنت.. سامعنى يا محمود. عبد الناصر ضحك علينا يا طلخان- والسادات لبسنا العمة وكله فشوش يا بتاع "دراما الحياة"، وصار العم إبراهيم يجرى فى الظلام مقرباً من فيلا السادات

° ° °

عدت وحدى فى المعدية. مشيت هائماً فى الجنبات أخطو فوق السطح الحديدى للناقلة المتسعة الغارقة فى الندى بعد الفجر. صياد عجوز يرمى بمخله من قماش كاكى فوق ظهره المحنى. يخطو فى بطء جهة الفوانيس المطفأة. المعدية سارحة على صفحة الماء، وأنا أمشى متثاقلاً شاعراً بثمة برد

خبيث يخترق ضلوعى وصدرى وسيقانى. أدنو من ماكينة الديزل التى تكركر فى رتابه. أغيب فى متاهة المكان والميقات. وعلامات الأقدار. ورموز الدلالات فى مجرى حياتى وأسفارى، وتلك القناة الطويلة والمجرى الملاحى المتد إلى بلاد وبلاد والواصل إلى موانئ عديدة. وبشر آخرون وأحلام ممكنة- تدنو وتتعالى (الطريق طويل يا محمود؟!!) والجو برد فى بحر بورسعيد الجميلة- بورسعيد التى تعرفنى. والتى لم أعد أعرفها. الصياد العجوز يشعر بالنعاس فيحط الصُرة على الأرض المبلولة ويتمدد وأسفل ماكينة الديزل تنفرد سيقانه النحيلة فيسحب الكوفية الزرقاء من حول عنقه ليغطى بها وجهه، المعدية سائرة وسط القناة الطويلة والناس فى بورسعيد الحرة نيام؟!!

° ° °

توجهت لمستشفى ناصر وقلت لسائق الفيات (أمام الباب يا أسطى). نزلت قاصداً الحارس النائم على الباب الرئيسى. أبرزت بطاقتى فقال فى استنكار :- (يعنى إيه مخرج؟!!) الخمسة جنيهات اندست فى يده المعروقة فأشار لمدخل الرعاية المركزة. دخلت أطل على باتعة.

كانت نائمة. العيون مغمضة فى الظلام. أضأت النور الخافت وظهر الدمع سارح على الملاءة المتسخة. قبلتها فى جبينها فلم تتحرك. سعلت وهى مغمضة —ودخلت حكيمة كبيرة فى السن نفضت السجادة القديمة خلفى وألقت السلام بحب وحنو قائلة. تعرفها يا بيه، قلت أختى.. قالت (ربنا يشفيها. أنا عارفاها) كانت زى القمر- (ماعدش فيها إلا العيون الزرقة دايبة فى الصفار). قبلتها وبكيت. تساندت على سرير قديم. وأخرجت حافظة النقود ورجوتها مبرزاً- العشرين ليكى يا حاجة والـ ٣٠٠ لباتعة. أمانة توصليهم، قالت الحكيمة (أعدم نور عنية لروح بنفسى الصبح أجيب العلاج والباقى فى أيديها

— مشيت. مشيت لوحدى تحت الأعمدة المطفأة. قاصد طريق بيتنا القديم فى شارع مظلوم والمشير أحمد إسماعيل على.

° ° °

مفتاح قديم وانضرب فى خُرم عتمة. دخلت- كان سيد أخويا نايم بالجزمة بيشخُر. إيد على التليفزيون والتانية بتطفى النور فى الصالة- والمذيعة تؤكد على زيارة رئيس البلاد لبورسعيد بعد ساعات، ضبطت المنبة وقلت أنام. سرحت فى عم إبراهيم والعربى سليمان. وبورسعيد. ومصر. مكانى هناك- وهنا- سفر طويل. ومراكب فرح معدية؟!!

° ° °

نزلت فى الظهيرة أمشى فى البازار. قابلت كابتن نصر قنديل على قهوة الجازوى. قال الريس وصل- ودق قلبى بشكل غريب مشيت فى شارع ٢٣ يوليو — وسمعت الخلق بيقولوا (الموكب هيعدى من ٢٣ يوليو) عديت عند "فشور" الحلوانى. كانت الدنيا زحمة وقلبى لسة بيدق. والدق بيزيد، قلت أسافر- سافرت- لا. ماسافرتش سافرت؟!! وجريت على البيت فى المعادى. فتحت التليفزيون وجت النشرة متأخرة. وسمعت الخبر، نزلت مرة أخرى أهوى فى العاصمة. خائف، قصدت بائع الصحف من جديد واشتريت الأهرام وقرأت اسم المعتدى بشكل مرتجل (التحقيقات الأولية طرحت اسم الشيخ، الشيخ "عربى ابن سليمان"؟!! صرخت فى الشوارع. ركضت جهة جلسة الأستاذ رشيد محفوظ". صعدت الطابق الأول فى فندق شبرد. وقابلت مخرج "أرض الخوف المدعو" إلى حفل بسيط على شرف الأستاذ رشيد. هنأته ونزلت مسرعاً فنادانى رفيق الأستاذ،

-: (يـا محمـود. يـا محمـود. الأسـتاذ عايـزك ضـرورى يـا محمـود،؟!!
(محمود. تعالى كلم المخرج أنيس عبد السيد...

° ° °

الدنـيا ضـلمة فـى طـريق المعادى. وانا خايف أمشى لوحدى. تايه وتعبان. عايـز أطلـع أنـام وخـايف.. خـايف. قلت أسافر تانى. عُدت لبورسعيد ورجعت نزلـت القاهـرة، قلـت أقصـد الأتيلـيه أولاً. اشـتريت الجـرائد فـى الطـريق فلم افـتحها قرأت فى عنوان صغير بالصفحة الأولى خبر عن نهاية مهرجان القاهرة السينمائى وحفـل الخـتام. وفـوز أحمـد زكـى بجائزة أحسن ممثل عن دوره فى "أرض الخـوف"؟!! سـعدت بالخـبر كـثيراً. وواصـلت القـراءة لبقـية وقـائع المهـرجان. سـوق المتعة لوحـيد حـامد وسمير سيف- أحسن فيلم. حزنت كثيراً وأغلقـت الصـحف، طرقـت أبـوب الإتيلـيه فـى "كـريم الدولة" فقابلنى المترجم رؤوف السباعى على أول ترابيزة من الخشب القديم صاح فى وجهى فى استنكار قائلاً،

:- (إيه يا راجل اللى إنتو عملتوه ده)

قلت خيرياً سيد رؤوف. (كنتو عايزين تغتالو الريس فى بلدكم؟!!،

- ريـس مـين يا عم رؤوف. رئيس الجمهورية ياسى محمود.. واحد بذقن من بورسعيد دخل عليه بمطواه قرن غزال؟!!

° ° °

أعـود لبورسعيد. الخوف يزيد. يستوحش يأكل روحى، صعدت فى غفلة من صاحب العقار. فتحت باب الشقة فى هدوء. أغلقت التلفاز. تمددت. خائف. بتُ اجتر ما حدث هناك اتسائل فى نفسى ماذا حدث بالضبط؟

ولماذا حدث ما حدث!!.

طلقات رصاص بتنضرب فى عقلى وتهيج حواسى وذاكرتى، أقف على السرير فى الظلام أغلق النوافذ. أسدُ الفرجات فتأتى الطرقات عنيفة على بابى. طرقتان أثنان والثالثة دفعه بحذاء ثقيل، صفعات وركلات والظلام يطول والدم ينزف من الودان والعيون وأعلى الجفون ومن الجناب والأقدام

بنشال واترمى فى عربية صاج وعيونى محجوبة. ولا نفس ولا صوت ولا ناس والوجه الأسمر بالجزم ينداس وعربة بتفر فى طريق طويل طويـ يـ يـ ل.

الدنيا ضلمة- واقدامى ماشية على أرض خشب. الريح بتعوى جنب ودانى، الطريق كان طويل، والغرفة واسعة فى أرض بعيدة (وأنا مالى)؟!!

٥ ٥ ٥

سحبونى من يدى فى الخلاء. وسمعت من يصرخ فى. (نط ياكس أمك) نطيت، العيون معصوبة والأذن تطن وردهة طويلة فى مكان غريب، الركلات فى مؤخرتى تدفعنى للاصطدام فى الجدران وسائل ساخن يهوى من رأسى وأسمع صوت أسانسير. وهمس وحفيف وصوت كلام؟!! وبشر بتستغيث، صوت مراوح ثقيلة دائرة فى أسقف بعيدة- قريبة، الخطى طالت فى الممرات ٥٠ باب إنفتح فى دور مجهول وضربة على يا فوخى وإرتماء على الأرض فوق بلاط بارد. ودقائق وعادوا من جديد وانفكت العصابة من فوق عيونى فصرت أحدق للجالس أمامى فى هدوء جالساً على مقعد زان منجد بكسوة شمواه بُنية فى لون التبغ المحروق. ولاحت مؤخرته الغليظة بفخديه الغليظين غائصان فى الحشو المنتفخ. نظرنى شذراً فرأيت الشرر يتطاير من عينيه الضيقتين حرك نصفه الأعلى فدنا بذراعه الأيمن المفتول يدنو من وقفتى ليضع كفه الأيسر على كتفى الأيمن النحيل. ظهرت أوداجه المنتفخة وبأن الجُرح الغائر القديم فى ندبه تتوسط ذقنه الحليق بوجهه الأبيض المربع، نهض من على الكرسى فأحسست

بمـن يـتحرك مـن خلفـى. كـانوا اثـنان. طوقـانى– فـتحلقا عـلى يمينى ويسارى وصاراً يحدقان فى هيئتى وقت أن بدأ هو فى توجيه الأسئلة،

:– وكنت فين بقى يا روح أمك بقالك يومين،

تلعـثم لسـانى فـى فمـى فـنظرت الواقفـان عـلى جانـبى، وقلـت فى صوت خفيض،

– كنت فى بورسعيد يا فندم؟

– منا عارف ياخويا.

– جيت من بورسعيد (رحت على فين)

– رحت الإتيليه ومشيت من هناك بعد ساعة ورحُت على فندق شبرد.

:– (وقلت إيه للسباعى المترجم لّما عرفت بمحاولة الاغتيال؟!!

– مصدقتش ومشيت مضايق،

قام من على الكرسى ليخطو فى اتجاهى.

– وإيـه الـلى ضـايقك بقـى ياسـيدى. (رد يـا روح أمك؟!) لما عرفت بفشل المؤامـرة؟!!– انطـق. وهـوى بكفـه على خدى الأيمن فالأيسر. وانفلتت الصفعات من خلفى تهوى على قفاى برقبتى، قلت

– أبداً يا فندم– أنا معرفش حاجة عن اللى حصل،

:– وإيـه علاقـتك بإبراهـيم أبو حجة.. وإزاى اتقابلت مع العربى سليمان فى بورسعيد،؟!!

تُهـت وزادتـنى أصـوات الصـراخ والاسـتغاثة الآتـية من الغرف المجاورة خوفاً. فوجدتنى ارتعش رغماً عنى. ركبى تصطك ببعضها البعض والعرق يسيل غزيراً من وجهى منزلقاً فوق رقبتى سائلاً على لحم بطنى أسفل فانلتى الداخلية

القطن، وعاد يجلس من جديد ممسكاً بيده خنجراً صغيراً صار يقطع به بعض الأوراق الصغيرة الصفراء،

-: (يعني مش ناوى تتكلم)؟! !- طب ياسيدى ماتزعلش، خدوه- (فرجوه على الدنيا بتاعتنا. ورّوه الإخراج على حقيقته؟!!

° ° °

عدت والدماء تنزف من أذنى- من خلف أفخادى . شعرى هائش. اترنح فى مكانى- فى وقفتى فوق البلاط البارد اتلفت باحثاً عن بنطلونى لاستر عورتى، جردونى من ملابسى وعلقونى فى الفلكة الخشبية كالزبيحة. كالخروف قيدوا يدى بكفوفى من أعلى بمحاذاة أقدامى المربوطة بأحبال مفتولة وتهاوى ظهرى بمؤخرتى لأسفل دانياً قبل البلاط، سُحبت من شعرى فكنست التراب الخفيف من فوق البلاط الموزايكو فعدت عارياً كما ولدتنى أمى. أقف أمامه متدلى القضيب، وعساكره الثلاث يدخلون العصى الخيزران الرفيعة فى مؤخرتى. عادو قد أشعل سيجارة جديدة من علبته المارلبورو، سحب نفس من السيجارة وهو مستدير. رمى بالولاعة "الزيبا" فوق المكتب واخترق جسدى مطفئاً سيجارته فى شعر عانتى وبقرب فوهه عضوى الذكرى مردداً فى جهامة،

-: إيه. مش ناوى تتكلم برضه،

– يا فندم. العربى سليمان كان جارنا زمان فى بورسعيد.

– آه فى أول العرب. كان طفل شقى بيسرق البطيخ من أبوك بتاع المقاومة الشعبية- اللى حارب فى ٣ حروب- وكان مستبقى فى قوات الدفاع الشعبى، (واسطوانه مشروخه. ومش هسمعها تانى يا ابن المتناكة. ملعون أبوك. على المقاومة الشعبية على عبد الناصر اللى عمل لأمثالكم تمن ياصيع يا ولاد الكلاب – قولى يا محمود بيه؟.. تحب أجيب لك واحد يركبك دلوقت،

طأطأت رأسى وبتُ انظر النافذة القريبة محاولاً القفز،

-: قعدت مع مين فى شبرد؟

– مع الأستاذ رشيد محفوظ الكاتب. كانوا عازمين المخرج أنيس عبد السيد بمناسبة الجايزة. أصل الأستاذ رشيد متعود كل يوم حدّ يقعد فى شبرد

: – ومين تانى كان معاكم يا محمود بيه يا مخرج

– الأستاذ رضا هلال بتاع الأهرام؟!!

-: (آه-يعنى كل فرقة الكفر، لف ودار حول نفسه وصار يتحلق حول مكتبه الفخم البيضاوى، اقترب وقد أمسك المنشه بيدة وتظاهر بمطاردة الذباب. غرفته متسعة مطلة على الخلاء. وتليفزيون جولد ستار ١٤ بوصة موضوع على الرف العالى المدقوق بخوابير حديدية فى الحائط المواجة لقعدته صوب المكتب- التليفزيون مفتوح على قناة الجزيرة. والمذيعة الشامية المحجبة تُعلن عن القبض على تنظيم إرهابى جديد بمحافظة بورسعيد المصرية..؟!!، وأتانى يمشى بتؤده قاصداً دهس أقدامى العارية ببوز حذائه اللامع. تهاويت للخلف فأغلق التلفاز وصار يتحدث فى هياج ضارباً منشه الذباب فى الحائط القريب،

-: رضا هلال دا مش بتاع "تفكيك أمريكا"؟!!

– أيوه يا فندم،

– ورشيد محفوظ بتاع حكايات الحارة؟!! (وانت بقى تعرفهم منين؟- (تعرف منين. أنيس عبد السيد المخرج، مش ده الشيوعى برضه.

– (ماركسى يا فندم)

– آه ياكفرة يا ملحدين يا ولاد الزنى.، (الدولة تعطيكم جوايز وإنتو تشتموا الحكومة وتعاندوا فى السلطة. وعايزين ديمقراطية وحرية رأى يا أنجاس؟!!

:- (يا فندم... دور اللـ.. دور المثقف؟!!

- مـثقف؟! ا- هـى الـثقافة إنـك تديـر مؤامـرة لاغتـيال رئـيس الدولـة- عايز تقلب نظام الحكم؟!!

وزعق فى حدة. لف ودار حول نفسه مردداً النداء دانياً من الباب الداخلى لمكتبه المغلق (يا محمود.. محمووود.. يا محمود يا ربيعى؟!!

وانفـتح الـباب مـن الخارج بعد مادارت الأكرة المستديرة المذهب- (خُد ابن القحـبة ده.. خـدوه ه. عايـزو يتفرج على دراما الحياة عندنا- (محمود) وهرول محمود مذعوراً ملبياً النداء ساحباً إياى من شعرى الهائش،

-: (عايـزة يجيـلى زاحـف. عايـزه جاهز يا محمود، وابعت هات الصور بـتاعة أبـوه المـرحوم- هاتـلى صـور المستبقى يا ربيعى؟!! ورفع سماعة الهاتف فـى غضـب وقـال للسـامع (إبعـت هاتلى محمود أبو النور من بورسعيد.. هاتلى الواد المسئول عن موقع الأون لاين بتاع الصور؟!!

يـلا يـاروح أمـك. لمـا نشـوف حكاية أبوك هوه كمان، خرجت زاحفاً على بطـنى. مجـروراً فـى الطـرقة الطويلـة بـالدور الـثانى- ودنـا صـوت إبراهيم أبو حجـة يخـترق أذنـى.. نـبراته الواهـنة تـتعالى، صرخات الاستغاثة تنفلت من الغـرفة البعـيدة. ويعـود صدى الصـراخ عالـياً- محلقـاً فـى الأجواء. سارياً على مقـربة أعـلى رأسـى المنـبطحة- عـند خصـلات شـعرى الهائشـة الهاويـة خلف صداغى. قُـرب مؤخـرة رأسـى المجـرورة فوق ممر الطرقة الرخام الممتدة بطول الدور الثانى بالمبنى المهيب الراقد على أطراف "أرض الجولف"؟!!

فصل ٦
[الرحلة؟!!)

معصوب العينين بتُ اتهادى مضطرباً. تقودنى حواسى سائراً فى الممر الطويل المعتم بالدور الثانى بمبنى مباحث أمن الدولة.. تسعة شهور مضوا فى هذا المكان الكئيب. ٢٧٠ يوماً ويزيد وأنا خاضع مرغماً لأبشع صنوف التعذيب، علقت بمروحة السقف ودارت بى الدنيا كثيراً. فترجرجت ذاكرتى فصرت لا أعى الفارق بين يومى وأمسى. وتلك الذكريات السوداء التى زادت قتامه منذ أن قبض على فى منزلى بعد حادث الاغتيال بيوم.

مازلت أذكر الساعات. وكأنها دهر طويل يمتد فى متاهات الزمن الفاررفى كآبة. أضغط بكعب حذائى المترب والذى تمزق رباطه. وتوارى بداخله الجورب العفن الذى ارتديه منذ الليلة المشئومة. رائحة الجورب تشعرنى بالقرف بالاشمئزاز. باحتقار نفسى، ينتابنى ويسيطر على الإحساس بالدونية، ٢٧٠ يوماً وآلالاف الأسئلة توجه إلى فى كل حين. الصفعات تهوى على صداغى وقفاى. ركلات فى بطنى وقُرب خصيتى ومن أسفلها تنزلق العصى الخيزران لتُدفس فى مؤخرتى فتخرج بالدم ليحملونى معلقاً فى مروحة السقف "الأوشا" من جديد. وتدور المروحة وتتعدد سرعاتها ما بين الأدنى والأقصى فأهبط بجسدى المتهالك فوق الأرضية البلاط الباردة منكفئاً على وجهى مستسلماً لضغط النعال على رقبتى ورأسى.. بتُ مشدوهاً فى ممرى الطويل فى الدور الثانى

أحاول نسيان ما مضى. أضغط عظام رأسى العظمية النحيلة التى باتت تؤلمنى. هباءً أحاول استجماع ماحدث. الذاكرة متوقفة. وصداع رهيب يفتك برأسى أتذكر أبى وشقيقتى المريضة، إبراهيم أبو حجة.؟! ! ظروف حادث الاغتيال؟! ! مصير العربى ابن سليمان.

– مات كافر؟! !.. اتساءل فى نفسى مردداً السؤال على وعيى وضميرى عشرات المرات، ماذا جناه العربى ابن سليمان بمحاولته الفاشلة للاعتداء على رئيس البلاد فى زيارته الأخيرة لبورسعيد.. ١٣٠ طلقة ويزيد صوبت من قبل رجال الحرس الجمهورى وضباط المخابرات. كلهم استقروا فى بطنه وصدره وأجنابه ورأسه وأسفل الترقوة فتمدد على أرض ٢٣ يوليو سابحاً فى دماء غزيرة تسيل من بين أفخاذه.. وتنطلق الرصاصات من جديد فى الجسد النازف المتهالك الرخو.. جسد العربى سليمان البدين. وترتج لحيته الطويلة لتهوى بشعيراتها الطويلة غارقة فى برك الدماء السابح مُقترب للصدر الذى صار يعلو ويهبط، ينتفض فى زلزلة على أثر الطلقات المندفعة من كل الجهات مخترقة الجسد لتؤكد لطالقها انسحاب الروح من جسد المسكين. "الجاهل"؟! ! الذى اخترق الموكب متظاهراً بالشكوى يلف المدية القرن الغزال فى ثلاثة أوراق بيضاء ملفوفة فى عجل،

–: رحمك الله يا عربى يا ابن سليمان.. رحمك الله؟! !

ويرحمك فى الآخرة، رحمك من الدنيا من يديهم برصاصاتهم، فادعوه- أدعُ لنا، يا عرب. لكي يرحمنا المولى مثلك...،

وتركتنى معذباً فى ديارهم المظلمة؟! ! أحاول اجترار ما مضى. فيغلبنى الوهن الجسدى واعتلال رأسى بيافوخى. ذهاب عقلى فيما مضى- فيما حدث

لـروحى وأنـا الـبرئ الـتى سـاقته الأقـدار إلى مديـنة "المولـد" فـى يـوم زيـارة الرئيس؟!!

ذاكـرتى تجـتر وتـتعدد المحـاولات الفاشلة فى النسيان والتذكر، خطوت اتسـاند عـلى داربـزين السـلم الحديـدى. عـلى صـوت المخبر الذى نادانى وهرع ناحيتى يدفعنى من خلفى أمراً إياى، قرب يا مُخرج.. (لك زيارة).؟!!

واسمع عم محمد الغيطانى الذى سار بجانبى يهمس فى أذنى،

-: على فكرة يا ابنى. الست دى (سألت عليك كتير). شفتها أكتر من مرة واقفـة عـلى الـباب الرئيسـى للمبـنى- وفـى كـل مـرة كانـت بتسأل عليك- كانوا بيقولولها.

"مفـيش حـدّ بالاسـم ده موجـود هـنا يـا هـانم، روحـى أسـألى علـيه فـى المستشـفيات، أو فـى مشـرحة "زيـنهم"، (خـلى بـالك يـا محمود يا ابنى- دول جـبّانات (كفـره مـلهمش دين ولا مله)، ويتقدم محمد المخبر منصتاً.. ويتوارى عـم الغـيظانى متراجعـاً يجلـس عـلى الكنـبة العريضـة فـى غرفة الترحيلات.. العُصـابة ملفوفـة فـوق عـيونى تطـوق رأسى من عند المؤخرة. العُصابة من قماش اسـود معقـود بمهـارة أعـلى يـا فوخـى. فوق قفاى المعروق، سرت أهبط درجات السـلم فأهدتنى الحواس خيراً أمشى متشمماً أريج العطر الفرنسى النافذ يخترق أنفـى الملتهـبة. نزلـت أتوكـأ عـلى الجـدران الرخامية وألواح الزجاج الصامتة، سمعـتها تنتحـب عـلى مقـربة. فبتُ أتحسس ما تحت أقدامى مسحوباً من يدى أسـير مترنحـاً، لا أرى شـيئاً. أمـد أصـابعى فـى امتداد خلاء الفضاء فى الطرقة الطويلة فى الدور الأرضى. واسمع من يحذر عن بُعد،

:- (مـن فضـلك يـا هـانم. الصـوت شـوية..، هسيبك ١٠ دقايق.. وياريت الصـوت يكـون واطـى.. بـلاش شوشـرة وعواطـف كدابـة.ـ- (والمـتهم فى انتظار

الأمـر بالترحـيل- ثمـة أصابع حانية. طرية تشتبك بأناملى. تسحبنى فى هدوء وكياسـة وتجهـش بالـبكاء. أود لـو تنـتزع العصـابة مـن فوق عيونى- هالات من سـواد فـى بـياض مائل للرمادى تتراقص أمام بصرى. دفقات ريح وهواء خريفى تفر من مدخل الباب الرئيسى من ردهه البوفيه المنزوى على يسار مدخل الحمام الغائص فى أصوات ووشيش الطلمبات والمياه المترسبة فى مجارى البول،

ادخلونـى بعـنف داخـل المكتـب الـزجاجى الصـغير المـلحق بالرسبشـن فسـمعتها وقـد اجهشـت بالـبكاء.. تنهنهـت فى حسرة وصارت تعدل ملابسى. تشدُ القمـيص داخـل بـنطلونى الجيـنز. وتسـحب توكه الحزام على وسطى فى هـدوء، انصـرف محمـد المخـبر. فـلم تـتمالك نفسها. نفذ العطر محركاً حواسى وخـلجاتى سـارياً فـى أوصالى. ساخراً من ضعفى ووهنى محطماً كبرياشى.. قالت غـادة السنان فى نبرة شفق. (يا حبيبى يا محمود. يا عمرى يا محمود. وحشنى وحشـنى. وحشتنى يا عمرى. يا طفلى).. عشر شهور يا محمود عشرة. جت لك كتير وقالولى (محدّش هنا بالاسم ده) لكن كُنت حاسة إنك هنا. (ولاد الكلب).

وارتميـت فـى صـدرها مجهشـاً فـى البكاء بدون دموع فصارت تربت على كـتفى وظهـرى. تحتضنى فى جنون فتنفذ النحنحات إلى سمعى. على مقربة من قعدتـنا، سمعتها ترجو العميد "سيف حمدى بكشه"، تستعطفه مسترحمة إياه عـبر سماعـة الهـاتف الداخـلى الموضـوع صـوب صـدرى عـلى الطقطوقة النحاس الصـغيرة.. تقـول فـى كـبرياء مغلفاً بالوهن والاستعطاف:- (عشان خاطرى يا فندم أفُك العصابة عن عنيه- خمس دقايق بس)، ويرد البيك قائلاً.

:- (يـا هـانم مايـنفعش. إحنا سمحنا بالزيارة عشان خاطر الدكتور رأفت بس فياريت من فضلك متضغتيش عليا أكثر من كده؟!!

أرى الأطياف وقد تكاثرت حول عصابتى. بين بصرى بعيونى المنفتحة وسواد الثقوب الصغيرة اللابدة فوق عيونى يحبكها الشريط الأسود الصوفى، ثمة أصوات سيارات تسير ببطء. تتهادى قريبة لسمعى. تسرى فى إذنى عربات سوداء تسير فى ليل مظلم. ترمح فوق الأسفلت الناعم- خارج المدخل الرئيسى فى الشارع الطويل الخالى.

وتتوقف العربات قرب المبنى العتيق المصمت. أسفل واجهاته الزجاجية الفاميه المسطحة.. المبنى يتراءى راقداً فى الخلاء والوحشة. يتوسط "أرض الجولف"- وسط ضاحية "مصر الجديدة"؟!! صوب مفارق الحد الفاصل بين "مدينة نصر "ومنتهى الشارع الطويل القاطع لطريق "النصر"؟!! وعمارات عباس العقاد، أطأطأ رأسى فى وهن منصتاً. أتحسس حركتها. اشتياقها بسمتها البعيدة- تلك الدمعة القريبة الراقدة فى حداقتها الوسيعة. أهفو إلى بريق عيونها. زرقه النني الصافية المحدقة تتطلع بعشق وبدقة وشفقة للعين المعصوبة، العطر يفوح بأريج ملائكى وقت أن رفعت رأسى أنظرها فى خفوت وعجز، اتمنى رؤيتها. أبصرها. أنظرها فى ود وحب جارف مفعم بالاشتياق بالتوق الدفين المؤجل عبر سنواتى المنقضية، يهفنى الحنين والشوق لاحتضانها. لمجالستها لداعبتها. لمضاجعتها للتمرغ سوياً متجاهلين تلك الأسياخ الحديدية. تلك الطرق والممرات والدهاليز. تلك المكاتب الصامتة بمشيئة القائمين عليها. منشئيها؟!! المنصتين لدبه النملة فى أركانها، سمعتها تتململ فى جلستها فوق الكرسى الخشب. توماً. وتدنو مقربة ناحية وجهى ليبثُ العبير فى فؤادى محركاً روحى محفزاً حواسى، تقول فى صوت هامس حنون.

:- (خلى بالك المكتب كله سماعات مرشوقة فى الحيطان يا محمود.. (مركبين كاميرات تليفزيونية فوق دماغك)؟!!

- عادت تنكفأ فى حجرى. تربت على كتفى بصدرى.

تسحب أصابعى الغليظة- تضغط على أناملى- تمسك أطراف الأصابع- تحاول تقبيلها، ضغطت بقوة فصرخت. فالتفت المتحلقون حولنا فانتبهت لجُرحى- للفائف الشاش المبقع بالدم ملفوفاً فوق أظافرى؟!!

صمتت. وعادت لتبكى قائلة.. (كل ده يا محمود؟!!)

حتى ضوافرك خلَّعوها. (كلاب) كلاب ولاد كلب؟!!

وأنفلت الدمع من عيونى. خرج من حبكه العصابة يطفر متسرساً جهة حنكى. قُرب شفتى، أحسستها وقد انتصبت. وقفت مشدوهة. تزعق وتنتحب، فلم يلتفت أحداً..،

عاد محمد المخبر يقول فى شماته. (يظهر مافيش ترحيل إلا بعد السحور؟!!

دنت ترمى برأسها بين أفخاذى تحوط وسطى الفارغ من جهة الأجناب وقبل الضلوع البارزة، أوقفتنى وسحبتنى من يدى فى هدوء فاجلستنى بركن منزوى فوق كنبة منجدة بكسوة خشنة.. وعادت تقول- ماذا حدث يا حبيبى إحَكْ لى.. قلت، (شفتى اللى حصل للعربى سليمان يا غادة)؟!!- عقبت (واللى حصل ليك يا نور عنيه فى الدنيا، وانصرف المخُبر على صوت الأذان. هرع خارجاً يقصد المسجد القريب وقت أن هرع أحد السائقين الجدد مخترقاً مدخل الريسيبشن. قائلاً فى خوف:

-: (يا عم محمد- بلغ العميد سيف بكشه (إن الهانم راحت النادى مع الهانم الصغيرة)- وتوتو بيه؟!!

– وهوت الصفعة مرتطمة بصدغه وقت أن طاشت كف المخبر الغليظة– على وجه السائق الجديد (ماتفوق ياروح أمك)– اسمه (سيف بيه)؟! ! مفيش هنا عُمد ولا لواءات، غور– غور يا ابن القحبة– ودفعه فى صدره بكلوه يده. فاستدار السائق يخرج من باب المبنى مطاطئاً رأسه لأسفل،

ونهض الشيخ الكفيف ليقيم الصلاة فى المسجد المجاور بقُرب كنيسة "مار مينا" التى تتوسط الخلاء فى أرض الجولف غادة تدعونى للطعام. ترقب العابرين. تفُك لفائف الخبز. تناولنى نصف رغيف محشو باللحم البارد (الروز بيف) والشيخ يردد فى أسى. وتنفلت أصداء التلاوة عبر الميكروفون الكبير القريب لسمعى– (والتين والزيتون(١) وطور سينين(٢) وهذا البلد الأمين(٣) لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم(٤) ثم رددنه أسفل سافلين(٥)، وانتصب فى الركعة الثانية وصار يتلى (لا أقسم بهذا البلد(١) وأنت حل بهذا البلد(٢) ووالدٍ وما ولدَ(٣) لقد خلقنا الإنسان فى كبد(٤) أيحسب أن لن يقدر عليه أحد (٥)؟!!) وقرعت الأجراس فى الكنيسة عالية قبل خروج المصلين. ووجدتنى منتصب الرأس أحدق فى المدى المنير أعلى الأسقف العالية. التى أنفتحت بطاقة نور.. صفت روحى فأحسست بجسدى يخفُ. يحلق فى ارتفاع مفارق الكنبة صاعداً فى العلى واصلاً للسماء الرحبة فى هيام وتوق يقيده ارتخاء الجسد وثقل الأعضاء الخائفة التى تخشى القيود. طفت فى العُلا أسبح فى المدى الواسع تشُدنى الصور الدانية أسفل قدمى. الصور الغرائبية. الغريبة. الكئيبة الرامحة – الفارة على الأرض. أعلى الأسفلت الهابط أدناى زاعقاً بأصوات شيطانية تصرخ فى من تحتى. تعوق مسيرتى فى النفاذ تحجب الرؤيا عن عينى بأستار وهمية تنتصب ناهضة من الأرض مرتفعة بأسياخ حديدية شاهقة تفر من خلفى تبغى ملاحقتى. تطاردنى– الأسياخ صارت دوائر. قيود من حديد انتفخت

فجـأة وتعالـت فباتـت تتسع رويداً رويداً. الدوائر تدفع بخرفان صغيرة عظمية. شـبه هـياكل محلقـة، ثمـة أجـراس تشـخلل- الخـرفان تركض في أرض خـراب لتصـير جـرذان، أسود. كلاب مسعورة تجر أجساد متهالكة وتفر في ظلام المدى البصري- بين الأرض وبين السماء؟

فصل ٧
بورسعيد ١٩٧٧

على ناصية شارع فلسطين رأيت عادل مصطفى يجلس على مقعد القيادة بعربة محمد العسيرى "الفولكس" موديل ٧٠ على الجانب الآخر وفوق رصيف "النهضة" المؤدى لبار "ريتس" وقف نبيل فرج وقد ارتدى البدلة "البير كاردان" والقميص "السابواى" الجرسية الفرنساوى المزركش مفتوح الصدر وعلى الجيب الأعلى الأيسر للجاكت الأسود ظهر حرف الـ "N" الذهبى الإيطالى بارز وتحركت فى أصابعه اليمنى الطويلة السلسلة الفضة الفرعونية للملكة نفرتيتى. صفّر وتكرر صفيرة العالى مع إلتفاته للتحديق صوب الصحاب القادمين من شارع الجمهورية سكارى. وهرول محمد خلف وقد أمسك بعلبة السجائر "الكينت" عندما رأى الفتاة الشقراء تدنو من عتبات محل "بشكة" بائع الانتيكات وعلا شخير عم "مناخلى" الشحاذ النائم على رصيف سيمون أرزت العريض فارداً كفه جهة المارة هلل حسن علام ومحمد القدس وطارق بسكوته على الفتيات الأجانب الهولنديات والإسبان والطلاينة الهابطات على التو من السفينة الكندية "إكليل لاوروا" خرجن من باب ١٢ بشورتات قصيرة كتان وبلوزات قطن سماوى وصفراء وحمراء وصارت شلة "أول العرب" التى اجتمعت حول الفولكس تنادى بسخرية على الخارج يتطوح من بار "اسبلندد" ممسكاً بسيجارة المارلبورو الأحمر نافثا الدخان الرمادى فى الهواء مقترباً من باب القيادة الأيسر

على الضحكات الساخرة لعادل مصطفى الطالل بدهشة وغرابة إلى صديقه الغائب منذ ليلتين، "السبع وصل يا بشوات"؟!!

-: (سلوشش. سلوشش. سلوشش سنيور. سلوشش سينوريتا. طاليانو سنيوريتا.

- عود حميد يا طلخ، وحاول محمود طلخان أن يظهر تماسكه ورغم استناده على القائم الأيسر للسيارة إلا أن رائحة البراندى كانت تفوح من فمه الصغير القابض على السيجارة بأسنان بيضاء لامعة، إيه يا باشا عكننت عليك بنت الإكيابى ليك حق ياابني- خليك في القبرصي أحسن. إلا قولى صحيح (هوه قبرصي ولا يهودى، مع خروج الكلمة الأخيرة تغيرت الملامح على وجوه الشلة القديمة وبدا ابن طلخان وكأنه غير معنى بما يقال. تظاهر بإغلاق سوسته الجاكت الكاوبوى الوينستون) وقت أن اقترب الفوج السياحى بفتياته الشقراوات يتقدمه مرشد مصرى يرطن بلغة إنجليزية ركيكة. عبروا رصيف فلسطين ببطء متوجهين إلى مدخل عمارة "الفريبور" واقفات أمام الفاترين الكبيرة مطلين للساعات الكلاسيك المعروضة بالواجهة الزجاجية، ونظر محمد خلف في ساعته الزودياك أم المينا بصلى ثم دنا من السيارة يخاطب محمود بمودة ظاهرة.

:- إيه يا عم إنت فين ليك يومين. دحنا من بليل منتظرينك في الشاليه. شفنا فيلم والثانى والثالث. وصاحبك فلاش شغل واحد كاراتيه "لبروس لى" حبيبك. وبعدين عادل مصطفى قلق نزل هوه ومحمد الزينى "أول العرب" وبصوا في قهوة "الشكربالى" وراحوا البازار ولا حس ولا خبر. ماالطمناش إلا الظهر لما اتصل بينا "لعى" الشيف، (آه) د. محمود، (ماهو أنا تعبت شوية بليل كنت سهران في "مكسيم" مع أصدقاء من القاهرة وبعدين رحت على "ريتز" صمت، مالك يا محمود. (إنت زعلان من حد فينا):- لا أبداً واللهى، بس أنا مُجهد

شوية، طب يلا بينا، على فين، على لمعى هنسهر فى ريتز النهاردة، واقترح النبيل فرج أن نركن السيارة خلف "الفريبور" ونذهب للبار سيراً على الأقدام طمعاً فى مصالحة فورية بين عادل مصطفى ومحمود طلخان الذى أغضبه اتهام ابن مصطفى بمرافقته ليهودية فخرج عن صمته فى الطريق وطفا الغضب يكسو ملامح وجهه الأسمر المنحوت وهو يزعق فى وجه صديقه التى تقدم خطوتين للأمام وصار فى ركاب فتاه أمريكية كانت تسير بمفردها وقد ارتدت جيب لاميه أسود محبوك على خصرها النحيل الملفوف فى كلوت أبيض صغير لابد بين فخذيها ونادى نبيل على عادل متحاشياً وقوع صدام بين صديقيه وقت أن مرقت الفتاة عائدة لباب ١٠ قُرب معدية بور فؤاد التى تركت الرصيف وتراجع عادل للخلف فصارت الشلة تترجل فى صف واحد متساو أسفل بلوكات شارع النهضة المرصوف بالبازلت وبادر محمد خلف بعناق محمود واضعاً ذراعه الأيمن على كتفه ساحباً إياه من وسطة مهرولاً جهة عادل مصطفى المنهمك فى نزواته. وضحك محمود بغته عندما اصطدمت قدم الفتاة الأمريكية برصيف كوافير "الكاستن" رغماً عنها وهروباً من معاكسات عادل المستمرة والتى تصاعدت رويداً رويداً حتى وصلت للذروة وملامسة أصابعها البيضاء النحيلة وقت النفاذ من ممر عمارة "المبّيض" وقت زحام المارة ليلة "شم النسيم"، الليلة رايقة والسماء صافية زرقاء وقسم شرطة الميناء سمع هس وعساكر الحراسة واقفين قبل المدخل بثلاثة أمتار وأمامهم السواتر الحديدية مصفوفة بطول الممر المؤدى إلى مدخل (١) لمعدية بور فؤاد والرابط بين حوض المواعين الرئيسى والمكتب الخشبى الزان المخصص لضابط القسم النوبتجى الجالس شارداً منهمكاً يُعد تقرير سريع عن حركة الاستعدادات الأمنية لحركات أبواب الميناء المتعددة وتلك السفن الضخمة والكثيرة الراقدة بممر القناة وعند الغاطس خلف البوغاز،

سرائن المراكب السياحية تطلق صفير عالى عند مبنى "الحجر الصحى" وقرب أرصفة شركة لإنشاءات البحرية. وخلف أحواض شركة "وهابكو" وبمحاذاة مواعين "شركة الربط لأنوار السفن" ورجال عجائز يمارسون هواية الصيد الليلى أمام نادى بور فؤاد وبجانب القبة الخضراء للمبنى الرئيسى لمقر هيئة القناة. ومحمد القُدس يقول: – ليلة عنب. والـلهى ولا ٢ مليون زائر النهاردة لبورسعيد، كلهم أجانب، لأ ياسيدى دا فيه بشر بالألاف جايين م السويس والإسماعيلية، آه دا غير كايروو إسكندرية، "سلوشش".

"سلوشش"، "بامبيناسنيوريتا". باتا سيرى سنيور"، "باتا سيرى كوديانا". ويضحك القُدس ومحمد الزينى فيرددان، ويى مسيو ويى ومحمود طلخان يشير إلى السفن المنيرة للممر الملاحى مزدانه بأنوار مبهرة وأعلام ترفرف فى هواء الربيع الطائر بالبشر المبتهجين سكارى منتصبين بميدان المنشية وشارع "أوجنيه" وصفية زغلول،

:– (زى ما تكون دى آخر ليلة رأس سنة فى بورسعيد) ويعقب محمود فى الظلمة وقت المرور على مطعم العلمين،

– رأس السنة فاتت يا طيزى، (إنت لسه سكران يا طلخ)؟!! إنت صدقت ياريس. يلاً م الحلو ودع، هيه الحكومة مش عايزه كدة؟!! آه ه. بلاش توّلع كاوتش فى "المنطقة الحرة". ويبقى فين "شم النسيم"، ترَوح تشِمهُ على البحر يا فشخر. آه يا ولاد الكلب. وتروح فين با"الألبى" آه يا دولة الرفض؟!! وطارق بسكوته يضع يده اليسرى فى جنبه ويكور كفه الأيمن على شكل بوق ويقربه من فمه فيبصر للسماء رافعاً رأسه لأعلى شاهقاً مطلقاً زفيره فى ضراط عالى بات ينتشر فى أجواء "حى الإفرنج المزدحم بالبشر، طظ فيكى يا حكومة، وصرنا نهتف نحن الستة بصوت عالى وغليظ ووسط السكارى المترنحين أمام بار

"سيسيل" و"اسبلندد" و"طمادى لابوست" وجيانولا وفندق "أكرى" اليونانى (سينما أونطة هاتوا فلوسنا، طيط طيط طيط طيط يا حكومة عايشة فى تزريط ويرد محمود عبدالله طيط طيط طيط طيط. وشعبك ماشى بالتلقيط. طيط طيط طيط طيط، والتفتنا على صوت الأعيرة النارية الطائشة فى سماء شارع فلسطين والسهام النارية الكاشفة تطلق من فوق السفن العابرة وسط المجرى الملاحى للقناة وتجار التحف والانتيكات يرفعون مسدسات الصوت الأعلى جهة شارع "ممفيس" وجهة معديات بور فؤاد العابرة التى احتجبت خلف سحب الدخان الكثيفة التى يطلقها قواد لنشات الفيبر جلاس ومعاون(١) ومعاون (٢) ومعاون (٣) الطائرة فوق السطح الرائق لمجرى القناة والأطفال والنسوة والصبايا يهرولون ويضحكن بصخب أعلى الأرضيات الصاج القريبة من معديات المشاه العابرة جهة الشرق دانية من مراسى "بور فؤاد" ولاحت زجاجات الويسكى تطير من التراسينات العالية فى شارع "الجمهورية" فتنفذ لطرقات النهضة وتطيش أعلى بلوكات "المساجيرية" منفجرة على أرصفة محلات "أكاى" و"صرافه "حريزوجزار" وتنفلت سدادات الفلين من البلاك هورس. و"البلاك ليبول" و"الجون ووكر" ويظهرن الفتيات البكارى بقمصان النوم الحريرية وقد وقفن فى البلكونات الزجاجية الفاميه فى الأدوار العليا فى شارع "حافظ إبراهيم" وتتدلى الصدور والنهود الصغيرة بشبق صوب العابرين فى نشوة قاصدين محلات "قطارية". ويصب النادل فى الكوؤس البوظة طازة وعربة نبيل فرج المرسيدس تقترب من مدخل بار "ريتز" بقيادة الشيف "لمعى" كبير الطهاة وعم صفوت البارمان يرحب بنا ويهلل وقت دخولنا من الباب" وضعت يدى على زجاج الباب المروحة العريض فانفرج الجاكت الشمواه لعدنان "الكاشير" وبانت

السلسلة الذهبية "الكارتيير" الإيطالى تطوق عنقه متدلية وسط الصدر اللحيم المدفوس فى فانلة هاف كول بُنية اللون.

على زعيق الجرسونات صار يعلن وبجسارته المعهودة. (النهاردة عيد ميلاد عمكم يا كلاب)

-: النهاردة ليلة البرنس محمود. وبجانب الكراسى العالية وأسفل الضوء الخافت قال محمود طلخان الكثير فشاركته كل أفراد الشلة وفى نفس واحد. (ليلتك طين يا معلم عادل وعقبال البكارى يا عم "بلبل") ومعانا حسن علام الكاسر والقُدس قُدَّس بسكوته، وهز الوزه يا عم الرزه، ياجنتل، وسمع هس ووش الشيف لمعى شبه الكُس، وجاءوا بأربع ترابيزات فورومايكا بأرجل زان واستطالت المائدة وجلس السكارى حتى الصباح؟!!

فصل ٨
(منطقة حرة)

السما بترُخ ليها عشر تيام والتلج نازل حبوب مكورة وصغيرة بتفر تحت جزمتى أم رباط على الأسفلت المبلول، كان الولاد الصغيرين زملاتى فى مدرسة "الواصفية" الابتدائية- بيجروا قدامى بالهدوم البيضا. وشُفت سامية ولبنى وسماح وغدير وقنديل الرفيع ابن عم إبراهيم أبو حجة القزم بيتسابقو تحت المطر فى صف واحد طويل ودماغهم فى الطراطير البلاستيك مايله فى الأرض زى الفيران الجبلى اللى كان بيحكيلى عليها جدى كل ما بيرجع من "غزة". كنا عند "المحكمة" بنلعب كورة زى كل يوم خميس بعد ما نخرج من مدرستنا اللى فى شارع "محمد على"، ولما رجعت بيت جدى فى أول العرب- شخْط فيا الكبير "ضاحى"- (خُش ياااد يا جرد البيت. (ادخل ياد يا فجرى)؟!! وسمعت أمى صديقة بتنادى وتقول- تعالى يا محمود- أبوك بايت فى المظاهرات من إمبارح- عمال الكوبانية عاملين مظاهرة فى ميدان "المسلة") وحوالين المحكمة. أبوك خرج م الساعة ١٢ إلا ربع بليل. بعد ما نده عليه أحمد الدرش وعزمى البلاط والسيد البرشة، كنت غضبان من عم ضاحى الكبير وسمعتنى "صديقة" وأنا ببكى طبطبت عليا وغسلت وشى بمية باردة من الفنطاس القديم. سَرحت شعرى الناعم ورميت الشنطة الدمور على الكراويته وخلعت المريلة الكتان ولبست الجزمة أم كعب موريتان عا الشورت الكاكى

والقميص الأبيض وفوقه السويتر الأحمر الهلنكة أبو طرطور- اتسحبت بشويش من ورا عم محمد الفحام صاحب أبويا واللى بيبيع الجاز فى حارة "العدل" ودخلت قهوة "الشكر بالى". شفت أبويا وعم عزمى البلاط وسيد البرشة قاعدين حوالين الطقطوقة القش أم الرجول زان فى آخر القهوة. كانوا جنب النصبة وتحت رجليهم الفحم والع. شفت الجوزة النحاس بتلمع وعم يوسف رخا بيوشوش "الدرش" الجرسون، الدرش غاب عشر دقايق ورجعله بلفة قزاز كبيرة فيها عجوة؟! ! ومش عارف ليه بيقطّعها بسنانه بسرعة ورماها بصوابعه فى المنقد أول ما شاف عم "عُطيفى" المخبر اللى فى "قسم العرب" داخل القهوة على طراطيف صوابعه.

° ° °

بصيت على قهوة الشكر بالى من ورا الإزاز- كانت ريحة الحشيش فايحة فى المكان ويوسف رخا عيونه حمرة والدخان الأزرق طالع للسقف- عبرت بيوت موظفين الهيئة فى شارع محمد على. طللت للثقوب والهوات المتسعة المنتشرة على جدران المنازل القديمة فى شارع أحمد ماهر الممتد حتى الميناء. جراج السعدنى تهدم كذلك فيلا مدام "إيلين" الكبيرة فى "حارة اليهود". أثار المقذوفات الصاروخية وطلقات المدفعية حولت الجدران بالأساسات الصلبة إلى ركام وصارت انقاض مدرسة "هيئة قناة السويس الإعدادية" تلال من الرمال والطوب المتكوم فى خلاء الشوارع الساكنة على مرمى البصر حتى شارع "أوجينيه" ومبنى المحافظة وطرح البحر، ١٩ سنة زى الكابوس، ٥٦، ٦٧ وهجرة وتهجير ومهاجرين من بورسعيد وكل مدن القناة، صواريخ م البحر وطائرات من الجو ونار على الأرض- الدم فى الطرقات برك، وعربيات نقل وطلخا والمنزلة والبصراط والجمالية والدقهلية وانت "مستبقى"، بتطل فى الخلا

على مخازن التموين في عمارة "الكحكي" وعبارات التنديد والوعيد مازالت مسطورة على بعض الجدران التي لم تزل على هيئتها (مورهاوس ليه بس إجيت علينا واتعديت) "ولـيامز" يا جبان يا ويلك من عسران. الكلام مكتوب بخطوط الفحم وبدم متجلط وبتسرح عيونك في جدران منهارة وبتفتكر اللي ماتوا بالألاف وبتفر الدموع من عنيك رغم عنك وانت واقف محصور وكأن البشر تبددوا.. وبنت بيضة زى القمر بوجه بيضاوى وعيون زرقة وشعر طويل وسارح في أرض التراسينة الأرابيسك المعشق. البنت نازلة بنهودها على البرواز الحديد المربع أبو عتب عريض. انحنت ونشرت غسيل مبلول في الدور الثالث في عمارة الكحكي. الملايات حمرة ووردى مفرودة على حِبال بلاستيك طويلة. السما صفت وأنا تايه في وقفتي ١٢ ساعة وأنا بـ ألف وادو وارجع لنفس المكان في "أول العرب" وقهوة "الشكربالي" و١٩ سنة "مستبقي"، حارس للخراب والصفة (مراقب جوى) من قوات الدفاع الشعبي- طفى النور يا وليه، طفى النور يا صديقة. قيدى النور يا بهية كل العسكر حرامية؟!!

° ° °

دخلت قهوة "الشكر بالي" فقابلني المعلم ضاحي سلطان رشوان الكبير بالأحضان قائلاً:-

(إنت فين يا محمود بقالك يومين)، موجود يا معلم. تسلم لى يا جدى، (هيه والولاد جايين ميته؟!!

- (كلها يومين يا معلم).

وخرج السيد البرشة ينادى على. ترك كرسيه الخيزران ونهض يدنوا من كرسي المعلم ضاحي مردداً.. ماتدخل ياابن الحلال. دى الميه غرقتك. إنت فين.

سألت عليك إبنك البارح قال لى (أبويا فى المظاهرات عند المسلة.. (إيه ياابن الحلال (إنت مش هتجيب جماعتك من طلخا ولا إيه)

– إدخل يا محمود، محمود، (أنت عرفت أن يوسف رخا رجع م "البصراط" هوه وأحمد الجعفرى، عاد لصحن المقهى سحب كرسيه للخارج واضعاً إياه أسفل المظلة الصاج الجالس أدناها المعلم ضاحى الذى سمعته يقول فى ضيق.

–: (وعمل إيه يوسف رخا مع المحافظ العرص يا برشه، واللهى إحنا اتصلنا بالمجلس المحلى أكثر من عشر مرات يا كبير.. (آه عشر مرات. وما جالكو جواب،

:– أبداً يا معلم.. قال لنا انتظروا يومين– (إللى خلانا مستنيين بقالنا عشرين سنة–نستنا كمان يومين، ويتدخل فى الحديث الدرش النادل والذى رمى بالجوزة فى الحوض الأسمنتى المواجة للنصبة، (والنبى السيد سرحان دا رجل عرص– أمال بورسعيدى إزاى، وإيه الحكمة يعنى. إشمعنى مايرجعوش المهاجرين لبيوتهم إلا فى اليوم اللى جاى فيه السادات مع بهلوى يفتح الكنال. إيه الحكمة يعنى، إيه التعريص دا يا كبير؟!!

° ° °

اتفقت مع إبراهيم أبو حجة على السفر "لطلخا" باكر خاصة وأنه قد أكدلى (إنه كله تمام يا محمود)

وعموماً أنا عديت أنا ويوسف على المحافظة النهاردة. وشفنا صورة فوتوكوبى من الإعلان المنشور فى جريدة الجمهورية والأهرام.

وقالولنا فى المجلس المحلى (إن كل المهاجرين راجعين من بكرة لبورسعيد والإسماعيلية والسويس زى ما قال سيد مرعى من شوية فى

التليفزيون، وسمعت يوسف رخا وهو يقفز بجانب المعلم ضاحى داخل العربة البيجو الـ ٥٠٦ الزرقاء المتوجهة للقنطرة فى مهمة سرية وعاجلة- (إعمل حسابك يا أبو طه- (عثمان أحمد عثمان هيبعت لمهجرين بورسعيد اللوريات على البصراط والجمالية والمنزلة، سافر هات عيالك يا محمود يا طلخان. سلام يا محمود

° ° °

جريت ناحية المعدية ودخلت شمال من عند قسم الميناء. كان شارع فلسطين خالى والمراكب الصغيرة واقفة بجانب لنشات الفيبر جلاس بتترقص على وش الميه فى مجرى القناة. عربات لورى "بدفورد" جديدة بتفرغ موبيليا وكراسى سفرة على رصيف الساجيرية الذى تهدم سطحها العالى بأسواره الغليظة التى تهاوت أسفل المبنى الضخم، دخلت السنترال البحرى فى "شركة الرباط لأنوار السفن واستأذنت الأستاذ بدر الدين حسن الملاح فدخل معى الريس "حمو" السويتش فقمت بالاتصال بالبصراط مباشر وجاءنى صوت زوجتى مخنوق. سألتنى عن محمود الصغير فقلت لها بخير ومواظب على الدراسة فى الواصفية الابتدائية فى محمد على، سألتها عن حسين والواد على الكبير فقالت صديقة وهى تبكى (على سافر "يافا" يا طلخان، راح يشترى حرير بقالة أسبوعين. وسمعت من أحمد البنهاوى الخردواتى النهاردة- إنه هيطلع من يافا على بيروت- تعالى شوف ولادك يا طلخان. (أبوس رجليك). بكت صديقة وغاب صوتها للحظات. وسمعت من يتحدث بعجالة. كان الصوت بعيد ومتقطع
– (مبروك يا عم محمود هترجعوا بور سعيد تانى. قولى يا عم محمود (حقه السيد سرحان هوه إللى أتعين محافظ؟!!

° ° °

فى الجزيرة الخامسة بورش الشحن والتفريغ خرج المهندس عبد الرحمن أبو طالب من مكتبه على أثر المكالمة الآتية من رئيس المجلس المحلى بالمحافظة والتى بُلغ فيها بقرار الإشراف والمتابعة والنقل والاستقبال لحركة المهاجرين العائدين إلى مدينة بورسعيد عبر بحيرة المنزلة، كان يوسف رخا فى انتظار المهندس على الأزق. ربط لنش المعاون قُرب حوض الرشمة ووقف يطل فى فرح لمراكب البامبو طية السائرة فى ممر القناة وقد ازدحمت بعمال الهيئة ومشرفين كوبانية المية ورجال خفر السواحل وبعض القوات البحرية الواقفون حول كبائن ركاب اللاحات وشركة الرباط لأنوار السفن المتوجهين إلى مراسى البحيرة فى تهليل تواصل مع إطلاق السرائن الزاعقة فى طول المجرى الملاحى، تخطى عتبات ورشة الديزل فاستقبله يوسف مرحباً سعيداً باختياره لهذه المهمة الصعبة (مبروك يا باشمهندش)، اتفضل- أنا جيت من مكتب الإرشاد فى الهيئة ومكلف بتوصيل حضرتك لأى مكان، وابتسم يوسف فى وجه المهندس عبد الرحمن مرحباً مادا ذراعيه ليسحبه من يده ويقفز الآخر فى اللنش جالساً بجانبه فى قمرة القيادة، بص يا عم يوسف. اسمع اللى هقولهولك ده عشان تنفذه بالحرف الواحد. وتبلغه لكل الجماعة. عمال ومهندسين وملاًحين وحتى الإداريين من شركات الشحن والتفريغ الموجودة تحت إشراف هيئة القناة، وينصت يوسف معقبا، معاك يا باشمهندس. سامع حضرتك كويس، بعد القرار الصادر من مجلس الوزرا واتصالات السيد المحافظ بيه مرتين. هتروح إنت يايوسف سنترال الحرية فى المناخ- هنتصل بمديرية الأمن فى أسيوط والقاهرة والبحيرة ودمياط وإسكندرية يبلغوا كل المهجرين- إن عربيات عثمان أحمد عثمان هتكون عندهم من الساعة خمسة الصبح. ولازم الكل يكون مستعد بشنطة وعزاله. وأنا من ستة الصبح هكون راسى فى بحيرة

المنزلة فى المناخ- بص يا يوسف. (ضباط الداخلية وأمن الدولة. هيكونوا معايا أنا والسيد سرحان المحافظ فى استراحة شركة النيل بتاعة النقل.

بلغ محمود طلخان بالأوامر، بص يا يوسف كل مديرين الحركة فى محطة اللنش وصلتهم الأوامر، وجماعتنا بتوع أول العرب والحرية والمناخ اللى قاعدين فى المنزلة والبصراط والجمالية وطلخا. هايجوا فى اللنشات اللى هتطلع من القابوطى والمناخ الساعة أربعة الصبح، سامعنى يا يوسف، سامع ياباشمهندس، يوسف (المحافظ جاى بنفسه يستقبل الناس. مش عايز تظاهر من جماعتك بتوع المقاومة الشعبية المستبقيين؟!! وبعدما توصلنى ياريت تقابل محمود طلخان وتبلغه باللى أنا قلتهولك دلوقت.. يايوسف، (الريس جاى بكرة البلد. وأنت عارف إن السادات بيحب بورسعيد عشان كدة اختارها هى دوناً عن مدن القناة وجايز يجيب معاه الشاه بهلوى بتاع إيران ويعيد افتتاح القناة؟!!

° ° °

رأيت سفن الأجانب السياحية تدخل البوغاز فى صمت مع جلبة أهالى المدينة القليلين الذين توافدوا على معديات بور فؤاد رافعين أعلام مصر التى صارت ترفرف وسط المجرى الملاحى وقرب ضفاف بورسعيد جهة محلات سيمون ارزت وعمارة المساجيرية. وقسم شرطة الميناء لنشات الفيبرجلاس الصغيرة الطائرة تطير على سطح المياه البيضاء المالحة الهائجة فى دوامات متعددة تدنو من صفاف ممشى المقر الرئيسى لهيئة قناة السويس، وجدتنى سعيداً. مغمور فى نشوة سحر وفرح أحدق لعربات النقل التى تفر فوق الأسفلت فى شارع الجمهورية وقد تدلت من مؤخرتها اللوحات المعدنية البيضاء والمسطور عليها بخطوط سوداء واضحة. نقل بورسعيد (الناقلة مخصصة لنقل المهجرين- دخلت كافيه "دى لابوست" وطلبت ربع براندى ساخن وطبق

فستق وظللت التفت لواجهات العمارات فى شارع فلسطين والنهضة، اللافتات الخضراء مضاءة بالنيون الأبيض ولافتات الترحيب بعودة المهجرين معلقة على الجدران الواطئة بشارع ممفيس ومفارق فلسطين مع شارع "أوجينيه" اللمبات الكمثرية الحمراء والخضراء تزين واجهات بار سيسيل وفراندات "اكرى" اليونانى وتلتفت حول الأشجار العالية الخضراء بكازينو "بالاس" بشارع المحافظة وأمام مسجد "لطفى شبارة"، قصدت دكان الحاج "أبو النجا" واستأجرت موتوسيكل "جاوا" جديد. دُرت فى شوارع المدينة فى حى الشرق والعرب وفى حى المناخ. سلكت طريق الحرية قاصداً منزل إبراهيم أبو حجة الذى قفز خلفى على الموتوسيكل فى بهجة مردداً- (عايزين نفوت على حلمى المغربى وحسن زنجير وعلى). الموتوسيكل يفر على الحصى المنثور فى طريق عزبة سعادة. والدموع تتهاوى من عيونى المحمرة على أثر تيارات الهواء الكاسحة التى تصطدم بوجهى. توقفنا فى العزبة فرأنا المغربى وحسن زنجير. تركوا الجوزة النحاس فى قهوة مصطفى محمود ورقصوا سوياً عقب سماع خبر العودة. وجاء عم محمد عبد الرحيم من مخزن القصب المواجه لمكتب القطرجى المقاول ورأيته يبتسم فى حبور، رحب بنا وطلب ٢ شاى ميزه وانهمك لدقائق فى إخراج علبة الدخان الأستانلس المربعة من سيالة صدره. وهم بإخراج ورق البفرة من جيب الصديرى البنى لف السيجار وأشعله بعود الثقاب الخشبى مفلطح الرأس. جلس على الكرسى الخوص. تحت تندة القطرجى البرتقانى وسحب النفس الطويل فخرج الدخان من فتحتى أنفه الصغير المسحوب لأسفل. تحدث فى هدوء ممتزجاً بحنكة ووعى وكياسه صنعت مجد ومهارة تاجر الخضار والفواكه الكبير،

:– (بص يا إبراهيم. عايزك تبلغ محمود طلخان. يركب حسين عبد الرحيم بأيده الصبح.. أنا اتفقت مع الحاج سعد محمد سعد تاجر الموبيليا الدمياطى. يبعت العربية الصندوق البدفورد طلخا الصبح– (أم على جاية هى وعيالها بكره.. العربية راحة المنصورة بكرة تودى عفش عروسة، (أنا جُلت لسعد مش مشكلة ينزلوا "طلخا" ويجيبوا العيال من شارع البازات، قلت. بس حسين صغير يا معلم. هيعرف يروح لواحده– (إنت اللى صغير يا إبراهيم هوا عارف كل حاجة. الواد بيحب السفر وعايز يشوف أمه" قلت وأنا استدير بالموتوسيكل تاركاً كوب الشاى الفارغ على الطقطوقة الخشب.. (بقولك إيه يا معلم. مش حسين اتولد فى النكسة برضه، (أيوه يا سيدى. عشان كدة وشه فجرى زيك.. ضحكت وقفز إبراهيم يركب الموتوسيكل مصراً على القيادة وقت أن لاحت سيقانه القصيرة بقدميه الصغيرتين المدببتين الغائصتين فى الحذاء الموريتان الأسود مبتعدتين عن الدواسة الكنزه بماسك الفرامل جهة القدم اليمنى،

* * *

جمع كبير من الملاحين سارحين مع قباطنه مصريين بيطوفوا فى ممر المجرى الملاحى للقناة. "درغام بلاطه" يصيح منبهاً وعبر الميكرفون الضخم المعلق برباط جلد فى الرقبة، (على السادة القباطنة داخل السفن ومراكب نقل الأفراد. على كافة قواد اللنشات– على الجميع الالتزام بالقواعد والأوامر البحرية الصادرة من السيد اللواء مدير هيئة القناة والسيد اللوا البحرى مدير هيئة ميناء بورسعيد– عليكم الوقوف بالمراكب والمواعين جنب المراسى وعند الغاطس خلف البوغاز– بمحاذاه أرصفة الترانزيت من جهتى اليمين والشمال. حتى يمر مركب السيد رئيس الجمهورية بأمان.. جديد. تكرر. جديد– (على

السادة قواد لنشات الهيئة ورفاقهم من المرشدين- يجب الالتزام بالأوامر الصادرة بتأمين الضفة الشرقية للمجرى الملاحى بالقناة.. وظهر اللنش الكبير لرئيس هيئة القناة "إنقاذ (٥)" يطوف فى العمق وجهة معدية بور فؤاد. وتكررت النداءات بالأوامر والإرشادات الصادرة للسفن التى باتت تزعق فى الغاطس- وصوب ميناء الصيد القديم. وبعد البوغاز، على مشارف البوغاز. وتدور القطع البحرية الصغيرة لقوات خفر السواحل متحلقة حول المرابط الماكثة بالقاع لتظهر الإعلام الإيرانية والسعودية والكويتية مرفرفة فى الجهة الغربية للقناة. سفن السياحة الأمريكية ذات الأدوار العالية تحمل الفتيات الشقراوات عراياً وبمايوهات حرير وستان واقفات على الأسطح المنبسطة متحلقات حول مغاطس السباحة مبرزات نهودهن الحمراء المتوهجة ذائبة فى وهج الشمس الساطع قرصها فى أعلى الخيمة السماوية الزرقاء الصافية،

° ° °

عبده فلاش وقدرى الخشاب وسمعة تأتأ، راكبين فلوكه خشب بعد نص الليل. نطوا فى الصال الفارغ اللى جنب مواعين الرباط القديمة، ربطوا الفلوكة فى خابور حديد مدقوق على باب مبنى "الحجر الصحى" اللازق فى الأساسات الحديد فى بور فؤاد جنب فيلا السادات الجديدة. الحاويات بتترقص فوق الميه الخضرة المبقعة بزيت أسود سارح على وش المية فى أحواض الرشمة القريبة من "الأفرنتية"،

° ° °

محمود طلخان قابلنى فى قهوة ضاحى الساعة عشرة بالليل، عزمنى على حشيشه زيت ملفوفة فى قزّاز أبيض طرى، عم حسن عبد الرحيم مُصر إن الحشيش دا بلجيكى، لا هوزيت ولا شعبى، والقاعدة إحلوّت حوالين الجوزة أم

بـرطمان إزاز، لما نزلنا إحنا الخمسة بعد نُص الليل ودخلنا الورشة القديمة فى شـركة "وهـابكو"- واحـد ورا الـتانى عـلى طراطـيف الصـوابع فـى الضـلمة، إتسَّحبنا وإترميـنا عـلى الشلت السفنج.. نفس ورا نفس. وطالت الليلة "ملبْن"- فـردت الـتعميرة قدّ الـتعريفة والـنار سماسم حمرا مشعرة. تأتأ بيشد بالراحة عـلى سـدرة. وعـيونه بـتحمْر وتفـنجل ويسـب الديـن ويقول وإحنا بنضحك فى الهـوى الملايكـى. (دا مش حشيش دا طحن جماجم ياك. ك. ك يا كلاب. ياخو. و. و. و.ونـه حسـن عـبد الرحيم إنسطل- رجع من بور فؤاد الساعة ثلاثة ونص. نـزل مـن المعديـة وركـب عربـية "بـيجو ٥٠٤" صفرة. قلع السترة الكاكى وفتح صـدره لـلهوا، جرى من السواق من غير ما يدفع الأجرة، دخل على قهوة الفنار قـبل الفجـر وبـدأ فـى الصـراخ ودموعـه نازلـة مـن عنـيه زى المطر وجروا عليه الصـيادين م الميـنا. شـدوه مـن بـنطلونه الجينز الدايب ونصه اللى فوق بلبوص، بيـنادى عـلى صـديقه وهـوه خـارج مـن الكابانية، ولما زاد الموال وكان هينط فى المـالح، طبطـب علـيه الكـابتن عـبده الديـب وقـال له- بكـره يجـيلك حسـين الفقـرى.. (مـش هـوه برضـو مـن دور الـواد مـيزو ابـنى.. يا محمووود، الواد الوحيد اللى طالع شبهك يا طلخان؟!!

° ° °

رأيـت أحصـنه الخـيالة بالعشرات تصهل فوق مراسى محطة اللنش بآخر أطـراف مـنطقة "المـناخ" الجديـد وبامـتداد سـاحل "القـابوطى" وضـفافه وقـناته الطويلـة المتلـئة بأحواض الزريعة.. الأحصنة تضرب أقدامها العفية فى الأرض الـتراب لتظهر ضباط الخيالة وقد امتطت ظهورها العفية ممسكة باللجام راشقة نظـراتها صـوب المراسـى الخالية المعدة لاستقبال "المهجرين" العائدين. وظهرت عـربات الـبلوكامين الزرقاء وهى تحمل جنود الشرطة وعشرات المخبرين بالزى

الملكى الذين تأهبوا للقفز من مؤخرات السيارات الدانية للبلواكى الخلفية لشركة النيل للنقل النهرى، إنسلوا فى حذر من الصناديق المغطاة بالشمع الكاكى وتراصوا فى طابور واحد طويل بطول ضفاف المراسى ومفارق الرسوة وتحلقوا حول كوبرى "الرسوة الحديدى" المتهدم، مع غبشة الضباب وتعالى صوت نقيق الضفادع من بين الهيش وزرعات البوص الماكثة فى القاع الطينى للبحيرة لاحت اللنشات البحرية التابعة لهيئة الإنقاذ النهرى تسبق لنشات الأهالى الخشبية الدانية للمرسى الرئيسى. أسراب طويلة من مراكب خشب مغطاة بمشمع أزرق تسير بجانب اللنشات الكبيرة ويظهر على متنها بعض مندوبى وزارة الشئون الاجتماعية. خلف قمره القيادة وعلى أجنابها وعلى سطح المؤخرة وفوق الماكينة التى تعالت كركراتها وحول الصارى وبطول القلاع المفرودة فى الضباب بانت القفف والمواعين والأطشات النحاسية والحُصر والأوانى الصدئة المنكفئة على وجوهها والتى تحلقت حولها النسوة العجائز المهدات فى قعر المركب المفروش بالأجولة الخيش. الأطفال نيام وبعضاً منهم يركض متشابكى الأيدى دانياً من الإطارات الكاوتشوك المتدلية على أجناب اللنش، وأطلقت السرائن الغليظة مُعلنة ميقات الوصول لمحطة اللنش ببورسعيد، وصَوّب مصابيح الغاز الموضوعة بحذر بمقدمة المراكب التى باتت على مشارف الرصيف. وبانت مصابيح أخرى وقبل ولوج المرسى الكبير بثلاثة أمتار، مصابيح مغلفة بحواجز زجاجية صلبة تخفى فتيل يحترق أعلى القمرة الماهوجنى المربعة وفوق جذوع الصارى الطويل انتشر الماء يتطاير فى رذاذ كثيف، بدأ ضباط الخيالة فى التحرك فوق الرصيف الأسمنتى الصلب ودارت كعوب الخيول بحدثات لامعة تدب الأرض وتحركت عساكر البلوكامين يقودهم ضابط ميرى برتبة عقيد. اصطحب حكيمدار المدينة معه. فتركوا المسطح

الأسمنتى المرتفع ودنوا يزعقون فى وجه القادمين عبر البحيرة (وعلى السادة المهجرين القادمين من مدن الدقهلية. نرجوا من الجميع الالتزام بالتعليمات. على جميع الأهالى العائدين إلى مدينة "بورسعيد الباسلة" يرجى اتباع التعليمات الصادرة من حكيمدارية المدينة من أجل سلامة الجميع. على السادة سائقى اللنشات نرجو توخى الحذر وتهدئة السرعة وقت الدخول إلى الأرصفة، الشباب يهلل فوق المراكب القديمة التى نفثت دخانها الأسود فتطاير فى أجواء البحيرة المكسوة بالضباب الكثيف. وتعالى الصراخ والزئيط من رجال المقاومة الشعبية "المستبقيين". المتأهبين لاقتحام الحواجز الحديدية الموضوعة بكثرة وسط ساحة شركة النيل للنقل وخلف مكتب رئيس الحركة، واندفع الشباب يفر جهة المرسى الرئيسى قافزا فى لنش "العبور ٣" و"بدرا" وقت أن توالت بيانات التحذير بعدم دخول اللنشات إلا مع أول ظهور للنهار. الفلك الصغيرة تقتحم مراسى محطة اللنش قادمة من جهة مفارق الرسوة والغيوم الرمادية القادمة تسبح فى سماء المناخ وملاحات القابوطى. وثكنات المناخ الخشبية. ضباط مباحث شرطة المناخ والبحث الجنائى يهبطون من عربات البوكس فورد التى توقفت فجأة خلف "شونة الهالك" بشركة النقل النهرى، وطفت النظارات الشمسية البيرسول العسلية تحجب عيون حمراء جاحظة بارقة توارت أسفل "الباريهات" السوداء المحكمة الضبط واللابدة فوق رؤوس مفلطحة بشعر هائش، وجوه العساكر مكفهرة والعيون السوداء الصغيرة محاطة بهالات سوداء دانية للجفون، ورأيتهم يقفزون بجسارة من فوق المتاريس الحديد، محمود سليمان وعبده فلاش وإبراهيم أبو حجة الذى أخرج منشورات ورقية مسطورة بحروف سوداء كبيرة يحرض من خلالها شباب المهجرين العائدين على ظهور المراكب على عدم إطاعة الأوامر الصادرة من حكيمدارية المدينة وحسهم على

القفز من اللنشات. ورأيت اللواء سيد بكشة. مدير الأمن يتحسس سلاحه الميرى هارشاً رأسه الصلعاء. وتطفو الوبرة السوداء الداكنة لبزته الجوخ العسكرية التى انتصبت خيوطها الكثيفة فوق صدره العريض. تراجع خطوتين للخلف فوق الرصيف الأسمنتى وفى صرامة وبوجه كشر صار يؤكد ضرورة تنفيذ أوامر المديرية بحذافيرها. وصارت أطراف أصابعه الغليظة ترتجف. تتعارك مع بعضها البعض وقت أن طارت المنشورات فى الهواء محلقة فى سماء البحيرة ومراسى محطة اللنش. أُسر المهجرين وشبابهم الصغار ينسلون من خلف القمرة فيقفزون فى الماء العطن على دوى الطلقات الطائشة من ضباط الداخلية الذين تركوا مواقعهم على الرصيف وصاروا يتلاحمون مع الأهالى الفارين متشابكين بالإيمادى فى عراك فعلى. طلقات الـ ٩ ملى تصطدم بدش الرفاس بغتة ويتجلى صدى الطلقات مع صراخ الأمهات والعجائز ممن بقوا فوق الكراسى الخشب والأخريات المسكات بألواح الخشب الحبايبى خوفاً من الطلقات الطائشة فى سماء البحيرة، عبده فلاش ينادى فى جرأة ويظهر قرب "بدرا" ممسكاً بشومة غليظة برأس مدبب، (يا أم على، يا حاجة صديقة). ويظهر حسين ابن عبد الرحيم وقد أمسك بإطار كاوتشوك. قفز فاردا ساقيه فى الهواء قاصداً الخروج للرصيف المبلط بالأسمنت. رأى عبده وهو يقترب دافعاً أحد المخبرين فى صدره ليهبط المخبر فى الماء ويجرى مدير الأمن جهة الضفة رافعاً الطبنجة الميرى فى الهواء، على أثر اشتباك الأهالى مع العسكر وضباط الأمن انفلتت عربات الحراسة المصفحة ترقد بواجهة المراسى وركض الجنود بالعصى والخِوَذ دافعين بالسواتر الحديدية للأمام من جديد. حاجبين ضباط الشرطة عن تدافع الأهالى الغاضبين وقد امسكوا بالأوانى النحاسية الفارغة قاذفين إياها فى وجوه رجال الشرطة الذى إنفرط عقدهم وصاروا يستديرون للخلف فى تناثر بيِّن. ركضوا

صوب الأبواب الخلفية لشركة النيل للنقل النهرى مختبئين خلف جدران المسلح العالية، ورأيت عم حسن عبد الرحيم يمسك بإبنه من يده اليسرى وقت أن هرول عبده فلاش آخذاً الولد فى ظهره رافعاً عصاه المدببة فى وجه "سيد بُكشة". الذى بصق فى وجهه فى غيظ فهوى ابن عبد الرحيم بلوح الحُبابيى على رأسه من الخلف دافعاً إياه وبكل قوة من فوق رصيف المحطة يهبط وسط البحيرة.. ورأيت عم إبراهيم أبو حجة يفر من خلف مكتب الإرشاد النهرى، جرى صوب المرسى وقت هياج ابن عبد الرحيم وعبده فلاش وسقوط مدير الأمن فى البحيرة. غافل جنود الحراسات الخاصة. وقفز قفز عالية فى الهواء تخطى على أثرها ظهور أحصنه الخيالة كلها. أمسك برقبه المقدم رأفت حمودة الراكض فى زهو فى الخلاء. أمسك بقفاه الغليظ المنتصب فوق حصانه العسلى الجامح.

سحب رأسه بقوة ليهبط بعنقه فى الأرض المبلولة ليستقر الكاب الأسود فى الطين المكوم أدنى الرصيف الأخير، رأيت الأطفال والرضع يسقطون فى عمق البحيرة وقت أن تعالت صرخات العجائز والأمهات الملكومات، وارتفعت "بنيكه" السمك الفارغة مع الطاولات الخشب المبلول وطارت تصطدم فى وجوه الضباط الفارين.... ومع أول ضوء للنهار أُخترق الضباب فى البحيرة- فأتت الامدادات العسكرية من العاصمة وظهرت الكرابيج تهوى على ظهور المهجّرين واندفعت خراطيم المياه الآتية من صنابير الحريق المدودة من قشلاق سواحل القابوطى عبر المواسير الممتدة فى الصاج المجلفن توجه بحدة فى وجوه الخلق التى انفرطت أجسادهم فى مياه البحيرة وأعلى الأرصف ووسط المراسى بطول ضفاف بحيرة القابوطى الواصلة لمفارق كوبرى الرسوة المضروب بالنابالم...

° ° °

رأيت أجساد الشيوخ والعجائز تنتفض مع الرياح الباردة. وتحت شلالات المياه المندفعة كالطلقات.

° ° °

أحمد البُلك يترك القابوطى بعد نص الليل. ينادى على أحمد الجعفرى السهران فى قهوة "عزام". ركبا فلوكة صيد صغيرة.. عبروا مفارق الرسوة. وانحنوا يساراً متوقفين على أثر صدى الصوت العالى الآتى من جربين ورش الإصلاح فى مدخل الرسوة. استداروا ينظرون للخلف على "سب الدين" والغضب المرتسم على وجه رفيقهم الثالث الذى أصر على الذهاب معهم إلى هناك- يوسف رخا بيسحب السلاح الميزر من حسن البابور النوبتجى فى كوبانية الميه بقاله يومين- المركب بيمشى فى البحيرة. بيقف عند المرسى الرئيسى فى محطة اللنش، ضغطة واحدة على الزناد. والطلقة بتطير فى ضهر رأفت حمودة اللى وقع وسط المازوت.

° ° °

من شرفات غرفة الحبس الانفرادى فى الدور الثالث وفى قسم شرطة الميناء المطل على ممر القناة،رأيت عبده فلاش ويوسف رخا والجعفرى وإبراهيم أبو حجة وحسن عبد الرحيم- ينظروا بحسرة من خلف حواجز السلك الحديد المضفر، كان موكب السادات رئيس الجمهورية ماشى فى مراكب بحرية جديدة، كانت بدلته بيضة- وشاه إيران مسنود على اكتافه. ماسك عصايا المارشاليه وبيطل للقبة الخضرة لمبنى قناة السويس وسط الكنال، شُفت أسنانه البيضة ما بين الشفايف البُنى بتظهر الوجه الفرعونى الصلب اللى انفرط فى ضحكة طويلة ساخرة وسط المراكب البورسعيدية.

فصل ٩
(شم النسيم؟!!)

وفى نفس الشارع الطويل- "شارع فلسطين"؟!!

بتحِس إنك واقف هنا من سبعة وأربعين سنة، وكأنك مفارقتش المكان... ٤٧ سنة من عمرك وعُمره انقضوا فى عبث؟!!

الشوارع نفسْ الشوارع. والصحاب هما الصحاب، لكن البيوت اتغيرت. والريحة غير الريحة. النفوس اتخربت والأحلام اتبددت. والأب غايب من سنين؟!!

وإنتى زى ما انتى يا غادة؟!!

– وإنت يا محمود. انت فين من كل ده- أحلامك. طموحاتك مكانك. اسفارك.. بتدور فى نفس المكان وتقابل نفس الصحاب، وصورهم هيه هيه- محفورة فى القلب والذاكرة تجتر أطياف زمن ولى وناس توارت بلا رجعة وكاميرا فوتوغرافيا مرفوعة على كتفك، ولسه بتسأل نفسك (أمتى يا محمود هتخرج الأحلام للنور وتقدم فيلمك الأول – فلمك المُعد من سنوات عديدة، دراما الحياة، وماحدث للراحلين، بتجمع ٤٧ سنة فى بلاتوة واحد والكاميرا خايبة وقديمة؟!!

والمراكب كتير ليها ليالى واقفة بره البوغاز وأنت بتحلم بالسفر. بالهروب وبيعدى آه النسيم. وبياخدك الهوى وتشتاق لقُرب الليل فى يوم ٢٣ إبريل.

° ° °

أسفل عمارة المساجيرية رأيت البرنس عادل مصطفى يندفع ناحيتى فى لهفة قائلاً:

:- (يا ابنى إنت واقف تصور الخواجات وسايب غادة ليها ساعتين مستنياك عند باب عشرة، روح لها يا محمود.. وأخرج من اللى إنت فيه.. الليلة ليلتك؟!!

لحظات ودنت من خلفى متجهمة، وعاد البرنس فى تاكسى هونداى نورس أبيض فى أزرق. اقترب من النافذة وصاح فى غبطة

- بلاش التجهم بتاعكوا ده. فكوها شويه.. (حاسب يا عم) وصاح فى السائق الذى أبطأ من سرعته فسمعته يقول:

- (هستناك فى أول العرب- الإشارة الأولى فى "مظلوم"؟! والسهرة بعد كدة فى "طرح البحر"، وانطلقت الهيونداى. واقتربت غادة لتمشى بجانبى بمحاذاة ممشى ديلسبس. طلت فى وجهى تنظرنى فى ضيق وغرور مرددة.

- بص يا محمود. لازم تعرف إنى مش حفضل استناك طول العمر- (إن كان السفر وحلمك بالسيما هيمنعوك من الارتباط بيه. (انت حر)

- إعتبر دى آخر مرة هشوفك فيها بدون خطوبة. وماتنساش إن ورايا دراسة. وكل يوم عريس جديد بيتقدم لبابا.. (وأنا قلت لك يا سيدى. أنا معنديش مانع أعيش معاك فى مصر.

قلت فى كبرياء:-

- هوه ده آخر كلام ليكى،

أشاحت بوجهها وصارت ترقب سيارتها الأوبل الحمراء المركونة أسفل المظلات البرتقالية لمبنى "سيمون أرزت". استدارت تنظرنى فى كبرياء محدقة

لبنطلونى الجينز المتسخ وطار شعرها الكستنائى الطويل يتحلق حول رقبتها البيضاء دائياً لعيونها الزرقاء المحاطة بهالات سوداء أدنى الأهداب وأعلى الجفون الملتهبة. صارت تلفُ سلسلة المفاتيح الذهب فى غضب وتوتر دائرة بظفرها السبابة الطويل ليدها اليمنى صاعداً ناحية شفتها العليا الغليظة تمسح بعض نثار الروج العتيق القرمزى الفاتح. اللابد صوب فتحتى الأنف الصغير المسحوب فى كبرياء شامخاً يعلو فوق فمها الواسع مبرزاً أسنانها البيضاء، صرت تائهاً أفكر فى حالى. نفسى. طموحاتى الخائبة. أحلامى المجهضة فى السفر وإخراج فيلمى الروائى الأول- استعيد ما قالت. ويلُح على يقينى بثمة أشياء جديدة. ثمة أحداث أو تطورات استجدت فى حياة بنت السنان فصارت تحدثنى هكذا متناسية كل ما مضى. كل ما رسمناه سوياً. كل ما خططنا له. وعشنا به ومن أجله؟!!

وتوقفت عند عباراتها الأخيرة. وقلت لماذ- لماذا تسمعنى هذا الآن. (كل يوم عريس جديد بيتقدم لبابا؟!!

- وانت -؟! ملكش فى الفرح يا محمود.

حدد موقفك، وبت أردد الأسئلة على نفسى فى صمت الطرقات. وتعددت الإجابات وصار اليقين واحداً.

-وحيداً كنت ووحيداً ستحيا، ووحيداً تنعم بحريتك وشقائك وتناقضاتك، وعزمت على مصارحتها. متخلصاً من تلك القيود الرتيبة- بيت وأسرة. أطفال ومسئوليات. كلها مشروعات خائبة أصحى يا محمود. انت عصفور طليق. كائن متفرد عشتُ دوماً محلقاً لم تعرف الإلتزام إهرب يا محمود؟!

إهـرب- فلـن تسـاعدك الظروف الزوجية، لن تمكنك من تحقيق أحلامك، اسـتيقظ يا محمود، وصرت أحدث نفسى فى جنون كمن مسه الخبل (- تذكر يا محمود تذكر ما مضى؟

- هـل أعـانك حبها على تحمل الأيام الماضية. فكيف إذاً سيكون الآتى إذا كانت البداية هكذا.. إهرب يا محمود؟!!

- عزمـت على مصارحتها فنظرتها فى كبرياء وقسوة قاصداً استفزازها إلى أبعد مدى،

- إدينى فرصة.. كمان ٣ شهور يا غادة. ٣ شهور.

- ٣ شهور. ولا ٣ سنين، (لا يا محمود. أنا مش فاضية لأوهامك..

- براحتك يا غادة؟!

ورأيـتها وقـد تغـيرت ملامحهـا. زفـرت وأخرجـت الموبـايل النوكـيا مـن حقيبـتها الشـمواه. صـارت تـتحدث فـى صوت خفيض مبتعدة عن سور المشى. تصيح فى غضب مرددة.

- قلت لك ١/٢ ساعة يا بابا. ١/٢ ساعة وهجيلك. ووجدتنى أقول فى ثقة.

- يعنى إنتى كنتى جايه تقابلينى لآخر مرة، روحى اتجوزى يا غادة؟!!

نظرتنى فى امتعاض ونفور فتملكنى شعور غريب وظل مسيطراً على يقينى وحواسـى وخـلجاتي. بل ووعيي.. ورأيتها وقد استندت على حائط المشى المبلط بالـرخام. سـحبت بلوزتهـا الجرسـية الخضـراء لأسفل لتحجب حزام البنطلون الشـمواه السـيمون المـرفوع أدنـى سـرتها. وانسل مفتاح السيارة من بين الحلقات الصـغيرة للسلسـلة الذهبية واستدارت عازمة على العودة دون وداع. وتأكدت لى ظنونى وقوه حدسى. فقلت فى غلظة وبوعى عقلى تام .

- يلا يا غندورة.. اتمنالك حياة هادية مع الدكتور. بس إتأكدى يا غادة عُمرك ماحتكونى سعيدة؟!!

(صورتى هتطاردك فى كل مكان يا غادة؟!!

وعلى زعيق السفن السياحية الراقدة بالبوغاز التفت مستديراً للخلف متعمداً إلقاء نظرة الوداع الأخيرة مراقباً إياها وهى تسير فى كبرياء. مشت عائدة فى شارع فلسطين الطويل تقصد مدخل محلات "سيمون أرزت" لتدنو من سيارتها الأوبل الحمراء المركونة أسفل المظلات البرتقالية، رمقتها عن بُعد وقت أن خطا السايس العجوز مقترباً منها وقد رشقت المفتاح فى الباب الأيسر وأشاحت ملوحة فى وجه الرجل فتراجع السايس العجوز تنتابه الدهشة والخجل. تحلق حول العربات الواقفة أسفل المظلة وسار فى وهن متباطئاً يقصد عمارة الساجيرية، ركبت وارتدت النظارة "البيرسول" الفاميه ولاح لى وجه فوزى السكوتى البمبوطى الذى خرج من باب ١٢ يرقبها- نفذ من بين الأفواج السياحية المحتشدة بالألاف أمام باب ١٠ وقد استعدو للتوجه فى دفعات قاصدين قسم شرطة الميناء. تحلقوا فى المدخل وقُرب عمارة "المساجيرية" تراصت الفتيات الشقروات بأجسادهن العارية يحدقون فى اللافتة الرخامية البيضاء التى تعتلى المدخل الرئيسى لقسم الشرطة. وقد كتب عليها وبحروف إنجليزية سليمة. Polic- وصرن يلتقطن الصور التذكارية أسفل اللافتة وغادة تتراجع للخلف بسيارتها. لتنحنى يميناً. مشت فى شارع النهضة لدقائق وعادت تطير على الطريق الرئيسى تخترق تجمعات السياح اللائى فُزعن أثر صرخات الإطارات الكاوتشوك التى تفر فى الفراغ مفارقة بلاطات البازلت المفروشة أعلى الأرصفة الممتدة شارع فلسطين ورأيتنى وقد مِلت برأسى جهة اليسار صوب الطريق الطويل محدقاً لوجهها. انظر ملامحها المميزة. أرقب

حـركات عينـيها. طلاتهـا من أسفل العدسات الفاميه.. وتراءت تطل فى وجهى فـى نفـور وعـبوس. ترقب رده فعلى فى لامبالاة محدقة فى كبرياء عبر الزجاج الشـفيف المـرفوع لآخـره فـى الـباب الأمـامى الأيمـن للأوبـل الحمراء. وانطلقت العـربة تفـارق عيونى وقت أن زاغ بصرى محلقاً فى الفضاءات البعيدة، ومشيت بمحـاذة ممشـى ديلسـبس أرقـب حـركات السـفن الضـخمة السـائرة بمهـل فـى المجـرى الملاحـى للقـناة. أرنـو بأسى وتوق منصتاً لصوت السرائن الغليظة الذى تـأتى مـن الـبوغاز ومـن خلـف الغاطس. حدقت فى عقارب ساعتى. وبت اتطلع للسـماء مراقـباً السـهام الـنارية المـنطلقة من أعلى المراكب الأمريكية والفرنسية والإيطالـية والـتى اسـتعد رُكابهـا للـنزول للمديـنة للمشـاركة فـى احـتفالات بورسعيد السنوية بليلة شم النسيم .

[أحلام؟!! غادة.. محمود]

- يا ابنى دى بقالها ساعتين مستنياك؟!!
(والنبى حد يسيب "زهرة" السنّان ويرافق ماريا اليهودية؟!!
- خليها تستنى... ما أنا طول عمرى بستناها؟!!)

° ° °

كنت دايماً بشوف الكسوة بصلى ومطرطشة بزرعى. والقرمزى الغامق مطبوع على الأطراف وواصل لحدّ مسند الكرسى اليمين المساوى لكرسى القيادة فى العربية الطايرة.. وتلف وتدور قصاد عينى. بصوابع بيضة رقيقة مثل طيف... وضوافر مطلية بالوردى. شفتها بتلعب فى دوسية أخضر.

وبصيت عا الورق الطاير فى سكتى الطويلة؟!! ولمحت مظروف أزرق مقفول شفت صورة ملونة لأعز الأصدقاء. وانتبهت. وقلت فى نفسى دا حلم ولا حقيقة، كانت مستنسخات مدهشة للوحات تشكيلية لفنانين مشاهير من أوروبا، وشُفتنى بقرب- وبيزوغ بصرى من ورا البربريز الأمامى، كانت بتضغط على القرص الأسفنج للكلكس المدفون وسط الطارة قرّبت من باب العربية. شفت شارة هلال حمرة. شفت نفسى ببص من بربريز خلفى.. شفت نفسى ببصُ من بربريز أمامى شفت نفس ببص عا الدنيا.. ساعات ببص من برة وساعات ببص من جوة.. وساعات ببص وأنا طاير فى حلمى فوق فرشتى؟!!

- ساعات وساعات وساعات.

كانت صور حفل التخرج بتترمى فى وشى. تبحلق فى الدواسة وأنا باصص تحت رجليه اللى واقفه بتصرخ من ٣٩ سنة..

° ° °

- يا دمك يا أخى... وآل إيه فنان وبيحب السيما؟!

- وطول عمره عايش فى الأحلام،

وسمعتها بتقول: - كان نفسى يقولى مبروك على التخرج يا غادة؟!!

- (مبروك على التخرج يا غادة)

° ° °

وانطلقت السيارة ورأيت الدموع تتساقط من عيونها الزرقاء متسعة الحدقات. اخترقت الحشود التى تجمعت بمدخل باب ١٠ جهة السفن القبرصية "البرنسية ماريسه" و"فيكتوريا" "عايدة" الراسية جهة القبة. كادت أن تدهس الفتاة اليونانية ذات الشورت الأحمر والتى شيرت الأسود والتى ظهرت فجأة أمام السيارة، قالت وقد لفت ودارت فى فزع فى فراغ الطرقات

- لو رايح جيانولاً السويسرى مش هروح معاك

- هتروحى فين يا غادة؟!!

- إنت اللىهتروح فين يا محمود.

- هنروح منك فين يا أحلام عمرنا؟!!

° ° °

- روح "الماريا" البرنسيسة بتاعتك

- روحى للدكتور الغريب يا غادة.

° ° °

وانطلقت الضحكات ساخرة. طاشت يجلجل صداها خارج النوافذ ليطل المشاه العابرين جهة معدية بور فؤاد محدقين الشباب السكارى الجالسين بصحبة البنات الروس على الرصيف الرخامى الأبيض لبار "سيسيل" المملوء بالرواد، بتايير أسود حرير بكوله مطعمة بعاج اورانج أدارت رقبتها ناحيتى. نظرت مغمض العينين أرقب الكوليه الياقوت الروز المعلق فى رقبة بيضة طويلة مطلة نحو السماء. نحيلة نسبياً، نظرت فى وجهى ودمعة ساخنة تملأ عيونها قالت:

-: (مالك يا محمود النهاردة.؟!!

– (بقالى سنين طويلة منمتش.

– كفاياك أحلام يا محمود، (بنعرف بعض من أربع سنين والنهاردة. النهاردة بس يا محمود بشوفها بكآبه وتجهم وحزن

– مخنوق. مخنوق (مخنوق يا غادة)

– مخنوقة يا محمود

وانفلت أصابع ذراعها الأيمن من فوق المقود وتمددت مقتربة من ذقنى النابتة. تحسستها بحنو وهبطت الأنامل تهمس خدى الأيمن فكتفى الأيسر لتربت عليه بود،

قلت: لا داعى للأسئلة يا غادة،

– (لا داعى للأسئلة يا محمود؟!!

– وبعدين يا غادة؟!!

– انسى أبوك يا محمود وعيش حياتك.

– (مستحيل يا غادة.

° ° °

وعـند حاجـز جرانيـت رأيت طفل وحيد يسحب البسكلتة. قفز فوقها فى جـنون محـاولاً تخطى قوالـب الطـوب الصخرية المنشورة أعلى الأسفلت الأسود المرصـوف بمحاذاه الكورنيش الجديد، الفنار يدور وقت الغروب. يكشف السفن الواقفة بالبوغاز خلف ميناء الصيد القديم المنشورات الضوئية الساطعة تسبح فى الأجواء الرمادية وأعلى السطح لمجرى المتوسط المالح أسفل القدم اليمنى الضاغطة على الإكسراتير، إطارات الكاوتشوك تزمجر فى الأرضية الخشنة.

وتـنزلق العـربة وقـد سُـلطت أنوارهـا فـى الجـدار الخلفـى لكازيـنو "الأيلاندبيـتش". وتقـف فـى تـلال الـرمال الـناعمة المبتلة- قُرب الشاطئ الآتى بالوشيش المستحب. ويصحو الغـافى وقـد صـار قريـباً مـن القواقع والجعارين ورقـائق الأصـداف.. ووجدتـنا وقـد خطونـا بمهل قُرب الماء الأبيض الآتى بمهل يخترق الرمال مدفوعاً من عمق الأمواج الصاخبة الفوارة هناك...... عند.

ولاح حاجـز الأمـواج المرصود بعلامات التحذير الحمراء والفسفورية وقطع الفلين الأبيض المستديرة..

° ° °

قالت بعد ما أنكفأت تلملم حبات أم الخلول الفارغة،

– عمرى ما شفت حدّ يستنى أبوه ٣٩ سنة

– هوه كان شبهك يا محمود؟!!

– بـيقولو.. لكـن سـاعات بحـس إنـه لسـه عـايش. بس فين مش عارف.. حكايات كتيرة.. وأسئلة اكتر.. لكن المؤسف إنه مفيش إجابات

° ° °

– وإلى أين ستذهب يا محمود؟!

– كـل لـيلة سـهر. وضـياع- ياريـت تنسـى أبـوك يا محمود وتفوق لنفسك شوية؟!!

مخـرج وكـاميرا مثبـتة عـلى الشاطئ الطويل.. والبلاتوه بحر غريق واصل حتى ضفاف الجانب الآخر أعلى السفن العائمة فى البعيد.

° ° °

عـلى سمـاع نتـيجة نجاحها فى بكالوريوس الطب قسم الأسنان قفزت فى سيارتها وأدارت المحرك فى فرح وصارت تنادى على من بعيد،

– مبروك يا محمود.

– مبروك عليكى يا غادة.

– وعليك يا محمود، هديتى لك فى يوم النجاح؟!!

– رحلة لروما؟!!

– سفرية عبقرية مش عايزة تفكير،

– فراش وثير. وشارع طويل

[الليلة الأخيرة]

دخلت "أول العرب" قاصداً مقهى "الضاحى" سألت عن عبده فلاش فأخبرنى حسن الشحمة بأنه التقى بمحمد ابن خلف وإنهم سوف يقصدون بوتيك أحمد "بريزيو" ويتجولون بعربته "الهونداى" فى جولة بالمدينة، دخلت بوتيك محمد الزينى فقابلت نبيل فرج الذى نزل من عربة محمد خلف "الفيات" الـ ١٣٢ ليخطرنى بأنه سيقابل البرنس عادل مصطفى بدكانه بشارع إبراهيم توفيق. وأنهم سوف يجتمعون بربطة العلم فى بار "ريتس" فى الحادية عشرة، قُلت لمحمد الزينى

– عايزين نروح "نبيل منصور" يا زينى. بيقولوا إن خضير الخطاط عامل سهرة وداعى فيها المطرب محمد منير وعلاء عبد الخالق... الزينى يصمت لدقائق ويعقب.

– ماشى يا ريس.. بس إحنا هنروح شارع "مظلوم" الأول- الوشاحى الجزار عامل "دُمى" لزعماء دول الرفض" وهيبدأ أول إشارة الساعة ١٢. وإحنا كلمنا ممدوح عسران قال إنه هيطلَّع الكاوتشات الساعة عشرة من منور الضاحى"،

– (هنّولع هنا أول إشارة ونُمر بالفيات نشوف الأحوال، وقبل إنصرافى سمعت ابن فرج يقول..

- (ابقى إلبس تقيل يا أستاذ. النهاردة فيه ويسكى وحشيش لبنانى والسهرة صباحى (كل سنة وانت طيب. وعقبال شم النسيم الجاى)؟!!

° ° °

تجولنا فى المدينة بالفيات والهونداى، قصدنا طرح البحر فتقدم أحمد "بريزيو" فى المسير يقود عربته "الهونداى" وقد ركب بجانبه محمد خلف وقعد فى الكرسى الخلفى حسن الشحمة وطارق البرديسى وطارق بسكوته. وجاء حسن علام يركض جهة الباب الأمامى دانياً لمحمد خلف القاعد على الكرسى الأمامى الأيمن بمفرده،

- ادخُل جوه شوية يا خلف،

- الله- إنت جيت يا "كاسر".. (تعالى يا سيدى)

-وركب ابن علام وصار راقداً فى حجر محمد خلف وقد تعالت رأسه وتمددت لأعلى لتطول السقف المشمع. ومشت العربة "الهونداى" فى طرح البحر يقودها "بريزيو" الذى خرجت رائحة الكحول من فمه نافذة لأنفى، وطللت عبر البربريز الخلفى. ورأيتنى وقد صرت مدفوساً برأسى ومؤخرتى وسط الدواسة فى الكرسى الخلفى "للهونداى" أطل فى الخلف جهة سيارة محمد خلف "الفيات" والذى يقودها نبيل فرج الراكض خلفنا مُمسكا بطارة الدركسيون مُلتفتاً فى مقعده يرمق الفتيات العابرات فى نشوة تاركاً الفوانيس الأمامية تومض وتخفت فى حالة "إنتظار"؟!! ٤٥ دقيقة ونحن جالسون فى العربات نرمق النسوة والفتيات السائرات فى نشوة ومرح وفجور يطرقون كافة أحياء المدينة، وفتح بريزيو باب الطابلون الأيمن المنزوى لأسفل جهة الدواسة. أخرج شريط جديد "لمحمد منير" وهم يدير كاسيت السيارة وانطلق المطرب يردد فى صخب. (كام عام ومواسم عدو.. وشجر الليمون دبلان على أرضه... (فينك- أنا

مـن غـيرك. أنـا لا أنـا عـاقل ولا مجـنون؟! !- أنـا مطحـوووون والدنـيا دى رحايه.؟!!

وحسن علام يزعق فى نفور وغضب،

– يـا عـم هوة دى وقت "الليمون". وأطل محدقاً عبر الزجاج الأمامى راشقاً نظراته فى مؤخرة الفتاة العابرة تركض بجانب السيارة وقد شف الجوب البلاسية لابداً جهة قعرها مطاوعاً الرياح الهائجة التى طارت بأطراف الجيبة عالياً لتنكشف أفخاذها البيضاء المثيرة ويردد ابن علام فى فجور..)

– (ياعم خلينا فى المانجة وسيب الليمون دلوقتى؟!! قطَعنى حتت وأرمينى فى المالح؟!!

وزاغت البنت وسط الزحام فى طرح البحر ورأيت ابن علام منهمكاً يجوث بأصابعه فى قعر الدواسة وتطفو الصاجات النحاسية وقد اشتبكت بأصابع يديه الطويلة. وصار يضرب بالصاجات فى صخب مكرراً فى نشوة متدلى ناظراً الأرداف اللدنة للنسوة السائرات فى شارع الجمهورية وقُرب فندق "إيتاب" يُغنى فى فرح وهياج. وقد صار منصتاً لأغان المطرب الشعبى محمد رشدى. الذى بات يردد فى الهواء (عاالرملة؟!!) وبتنا نصفق جميعاً فى حماس وفجور وقد دفعنا المرح للزئيط قعدنا نهزى كالسكارى. أو كمن مسهم الخبل" والتفتنا نسحب زجاجات البيرة من خلف البربريز ومن أدنى الدواسة. شاربين فى نهم متحلقين حول كرسى القيادة فى انتظار عطايا أحمد "بريزيو" الذى أشعل السيجارة الأول المحشوة بالحشيش ورشقها فى فمه وبات يسحب على صدره نافثاً الدخان الأزرق فى الهواء.

طُفنا فى كافة شوارع بورسعيد بداية من طرح البحر ومروراً بشاليهات المحافظة وقُرب الكورنيش وصوب ميناء الصيد القديم قبل ثكنات قوات حرس

الحدود، وزاد الهياج مع دوام التحليق والبحلقة للأجساد الشبة عارية. الشوارع تزداد ازدحاماً. ونحن قاعدون على الكراسى الأسفنجية داخل الفيات والهوندای، أحمد بريزيو يشعل سيجارة السابع المحشو بالحشيش. السيجار يدور على الأصدقاء. وبريزيو يقول فى فتور

– أنا جعان يا جماعة..؟

وانزوى بالسيارة يميناً. سار بمحاذاة مسجد السلام الجديد. طارقاً عتبات شارع الجمهورية قاصداً كافتيريا هامبورجر كينج. أكل وتناول كلاً منا سندوتش واحد. الكايزر منتفخ طافحاً بالكاتشب المدلوق فوق قرص الهامبورجر المستدير. ورأيت نبيل فرج يركن سيارته الفيات أمام مساكن الموظفين. هبط ومشى يتعقبنا طلب سندوتشات التونة واستدار يحدثنى فى هدوء قائلاً:

–: بقولك إيه إحنا هنلف نُبص عاالبحر من ناحية "إيتاب" وبعدين هنروح أول العرب نُبص على خضير الخطاط، عدت أذكرة بضرورة ذهابنا لشارع "مظلوم لمشاهدة دُمى زعماء الرفض الذى صنعها الوشاحى والذى سيعرضها على المسرح الكشوف بناصية أحمد ماهر، ووجدته وقد صمت للحظات. شارباً آخر قطرة من زجاجة البيرة الملفوفة بالمناديل الورقية رامياً بالزجاجة الفارغة على الرمال البعيدة معقباً،

– يا أخى إحنا النهاردة عايزين نسهر ونفرفش، (إبعدنا عن السياسة يا عم محمود لا سادات ولا عبد الناصر. اعتقنا الليلة يا أستاذ؟!!

ركبنا العربة واستدرنا نقصد رمال الشاطئ سائرين بمهل ندنوا من مدخل فندق إيتاب. وتبعنا نبيل فرج بالفيات فعبرنا سوياً من أمام ثكنات قوات حرس الحدود لننفذ إلى الشاطئ. نزلنا من العربات وتحلقنا فى شبة دائرة متسعة قُرب المنطقة العسكرية. طللنا فى السماء المقمرة فى شوق وانطلقت السهام

الـنارية محلقـة فـى السماء الصافية فى كثرة وبدفعات متلاحقة تخرج من أعلى السـفن السـياحية الواقفـة بالـبوغاز والآتـية مـن الغـاطس البعيد المظلم.. ركضنا نرقب السفن فى سرور وقت أن دوت السرائن والصفير المتقطع الصادر من الأبواق الغلـيظة المـرفوعة عـلى ظهـر الكـبائن الغاشـرة فـى المـر الملاحى للقناة وطارت البالونات المنتفخة تحلق فى المدى البصرى.

ورأيـت لنشـات الفيـبر جلاس تركض فى ممر القناة وقد ظهرت إشاراتها الضـوئية تسبح فى المدى البصرى موزعة فى منشورات ضوئية عاكسة مُسلطة فى مؤخـرات مراكـب المرشـدون الـتى طـارت عـلى سـطح الماء المالح قاصدة الرصيف الرئيسى لمدخـل هيئة قناة السويس، وشرد حسن علام. ورأيته وقد مشى للأمام قاصداً الخـلاء دانـياً مـن الماء المالح المنفلت من بين الصخور الصلبة مبللاً الرمال الـناعمة. حـدق للسفن البعيدة فى أسى وعاد القهقهرى. سار فى اتجاهى يرقب دوران الشارات الضوئية العاكسة فى تجهم ليخرج من صمته مردداً..

– (كل يوم مراكب شكل.. (وإحنا واقفين بنتفرج وبس، ويعقب ابن خلف بالقول.

– آه، نفسك تسافر أمريكا يا كاسر،

– وإيه المشكلة يا محمد، البلد معدتش لينا؟!!

– بس النهاردة فيه سياح كتير اوى؟

ونبـيل فـرج يقـترب مـن الصـخرة الوحيدة متجهماً، استند بكوعه الأيمن فتمددت أقدامه فى الرمال ليقول فى دهشة،

– (بقالـنا عـلى كـدة سـنين.. (لكن النهاردة، البلد زحمة أوى كأنها آخر ليلة فى شم النسيم

ورأيتني أحدق في الوجوه المحتشدة الواقفة بمدخل فندق إيتاب وقلت في نفسي مازحاً.

– (برافو عليه السادات فتح كل حاجة فاضل قلوبنا وانطلقنا بالسياراتين نسابق الريح في شوارع المدينة الصاخبة.. دخلنا أول العرب في تمام الحادية عشر فقابلنا ممدوح عسران الذى نهض يترك كرسيه البامبو الهزاز الراقد على رصيف شاهين الفطاطرى. عربة الشرطة الزرقاء تقف على ناصية محمد على بُقرب مقهى الشكربالى. وضباط مباحث قسم شرطة العرب واقفين بالزى الملكى الإسبور. بناطيل جينز وقمصان كاروهات والطبنجات الميرى الـ ٩ ملى مُعلقة في أحزمة البناطيل على الأجناب اليسرى. ابن عسران يتسلل من خلف جربين الحاج عبد الفتاح المستخلص وحسن علام ينادى عليه،

خليك شوية يا ممدوح- ظباط المباحث واقفين على الناصية. (وخلى بالك عادل أبو الحمد عايزك إنت النهاردة. العيال بتوع قهوة عزمى قالوله إنك إللى بتجمع الكاوتش؟!!

ممدوح يقفز في منور الضاحي. ركض في القدمة وقت الظلام وتبعه الصبية الفواعلية في صمت. دقائق وعاد يحمل الإطارات الكاوتشوك التالفة المُعدة للحرق وتراصت الإطارات في دوائر مرتفعة بطول التندة المشمع وجريت أخطف جركن الجاز من داخل النصبة في مقهي الضاحي. ورمينا بأعواد الثقاب المشتعلة وسط الكومة الكبيرة المرتفعة. وارتفعت ألسنة اللهب. وهاجت الأدخنة السوداء ورأيت رواد المقهى وسكان أول العرب وزوار المدينة العابرين بكثرة ليلة شم النسيم يتحلقون حول الحريق محدقين بدهشة إلى تلك الإطارات القديمة التى تركض خلسة من الشوارع الخلفية ليعقبها الصبية والفواعلية وصبايا حارة العدل وطو'ون ساحبين إياها تحت التندة المشمع. صائحين في فرح ينادون على ابن عسران.

– يا عم ممدوح كدة مفيش إلا العَجل الإسكانيا النقل.

– بـرافو يـا حناكـيش خلـوا الإسـكانيا للساعة واحدة، ودى أول إشارة يا ولاد الرفضـي؟!! وقفز ينتصف شارع طولون زاعقاً فى الواقفين على الأرصفة فى جسارة زائطاً.

– ماتيلا يا اخويا إنت وهوه.

وجاء بالطبلة الكبيرة وصار يضرب عليها بعنف مردداً.

– (يـا ألـبى يـا ابـن اللمـبوحة. مـين قالك. تعشق شرشوحة) غنى وباتت الصبايا يرددن من خلفه فى تحلق مستمر حول ركيات النار المشتعلة.. لف ودار فـى نشـوة. فوقفنا نرقب مقهى الشكر بالى محدقين فى حذر متتبعين خطا عادل أبو الحمد الذى ترك البلوكامين وهرع يركض جهة مقهى الضاحى سائلاً عن ابن عسران الذى أختبأ بالمنور فى ثوان.

وسمعـنا الظـراط السـاخر يـدوى فـى أذانـنا منفلـتاً جهـة موقع وقوف أبو الحمـد الـذى ظهـر مُرتكـناً على الباب الصاج المغلق المسحوب على أبواب بوتيك المقدس "فانوس نجيب".

ضـحكنا كثيراً وانطلقت الضحكات ساخرة تجلجل فى فضاءات أول العرب وطولـون. وخـرج ابـن عسـران وقـد كـوّر قبضـة يده اليمنى ووضعها على حنكه الواسع وصار يطلق الظراط من فمه جهة عربة البلوكامين

° ° °

تركـنا "أول العـرب" وذهبـنا بالسـياراتين قاصـدين شـارعى مظلوم وأحمد ماهـر.. صـرنا عشـرة بعـد أن تعمـد نبـيل فـرج المكـوث فـى مقهـى الضـاحى، واضـطررت لقـيادة الفيات بعد إلحاح عبدالله. دخلنا مظلوم من شارع "التلاتينى" وركضـنا نسـير عكـس اتجـاه السـير. توقفنا على مقربة نرقب المسرح الخشبى

الذى أعدة ابن الوشاحى على ناصية مظلوم وتقاطعه مع أحمد ماهر. حدقت للدمى المتراص فى صف واحد بالطول. واقتربت أطل فى وجوه زعماء دول الرفض المصنوعة من الجبس الأبيض والماسكات البلاستيكية الرقيقة، ورأيت الرئيس السورى حافظ الأسد وقد جلس فى مقدمة المسرح الخشبى المفروش بالسجاد الأحمر الآتى من فراشه جمال السايحة وجلس الأسد على كرسيه الزان المرتفع يرمق الجالسين على جانبيه. ولاح وجهه قائد الثورة الليبية المعُمرَ يطل جهة اليمين فى قلق، على اليسار طفت الملامح الثورية تُبرز وجه رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، وخطوت أحدق فى وجه "عرفات" الذى مال بالشال الأبيض والعُقال- التفت جهة فى غضب ليطلا فى حذر وغرابة مدققاً النظر فى ملامح الملك حسين ابن طلال الهاشمى وقد تجهم وزاغ بصره فى أقصى اليمين، ووجدتنى أطل فى حسرة، ودهشة هامساً فى أذن ابن علام الذى بات مشدوهاً قلقاً جال بالعينين الخضراويين فى الأفق البعيد الغائم متتبعاً النظرات الآتية فى تلصص من قبل ووسط الحشود المتحلقة صوب المسرح فى نصف دائرة ترصد حركاتنا ووقفتنا خلف الأبواب المغلقة للمجزر الآلى.. وسمعت ابن علام يردد فى اشمئزاز وقرف كستهما السخرية،

- واللهى برافو عليه ابن "الوشاحى" (مش دول زعماء الرفض"؟!!

بُكرة الأيام تُمر- وهيعرفوا ساعتها أن السادات سبق عصره؟!!

صمتت ولم أعقب وخرج إبراهيم البحطيطى من "معصرة" "على الطويل" وقد ظهر ممسكاً بيديه دمية كبيرة ملفوفة فى ملاءة سوداء ممزقة. نفذ من خلف الحشود المجتمعة بطول "مظلوم" وعرضه مقتربة فى دهشة واندفاع خارجة من شارع "بنى سويف" خاطية جهة نصبة المسرح الخشبى المكشوف ترقب الحاصل فى فتون، وانسل "البحطيطى" فهرول يتخطى الواقفين فى عجلة

وقد احتضن الدمية فى صدره ليقفز صاعداً المسرح الخشبى فى جرأة نازعاً الملاءة من فوق الدمية ليظهر وجه الرئيس السادات المصنوع من الجبس وقد اكتسى بالسواد. ظللت في ذهول أرقب الحاصل، واندفع عبدالله الذى ترك باب السيارة مفتوحا وفر قاصداً خشبة المسرح صائحاً فى وجهينا.

– إيه اللى بيحصل ده يا جماعة. (إيه المهزلة دى)؟!!

كان ابن البحطيطى قد غرس الدمية فى سيخ حديدى طويل مرشوق فى قاعدة من الشمع. وتحلق منهمكاً فى تثبيت قعر الدمية بالمونة الجبسية السائلة. ويرفعها فى زهو لأعلى ساحباً الترابيزة الرخامية العالية من أدنى الاستيتج واضعاً رأس السادات برقبته فى مقدمة المسرح ونظر للحشود من عليائه صائحاً فى زهو.

– (وادى بطل السلام يا شيوعيين يا ولاد الأفاعى؟!!

والتفت حائراً أطلل فى عبوث جهة الأطفال الصغار من سكان أحمد ماهر. وقد جروا صوب مخازن على الطويل. فى فرح وزئيط. غابوا لدقائق. وعادوا يفرون خلف الإطارات الكاوتشوك التالفة التى تركض أمامهم فى اندفاع متجهة إلى الموقع المخصص المتفق عليه لإطلاق الإشارة الأولى فى الحريق..، ورأيته يجرى مطلقاً السباب والشتائم لاعناً السلام وإسرائيل. منفلتاً من بين أصدقائه هاجماً على خشبة المسرح.. دققت فى ملامحه المميزة وشعره الأشقر وعيونه الضيقة. فاككا الأزرار النحاسية لجاكتته الساكندهاند الرمادى، ورمقه حسن عن بعد وهو يدفع برفاقه بعيداً مصراً على سحب الدمى.

وزعق حسن يناديه..

– (يا أحمد يا عجيبة. بلاش كده يا أحمد. بلاش يا أحمد إنزل يا أحمد.

قلت لابن علام فى تريث

– مش دا أحمد عجيبة الشيوعى بتاع انتفاضة يناير؟!!

– أيوه يا سيدى، (جاى هو وأصحابه يبوظوا السهرة (ماهو ضد الطبيع..؟!!

– مش ده إللى اتقبض عليه فى قصر الثقافة يا حسن

– آه- اوعى يا محمود- وسع. عدينى؟

وصعد حسن علام يعتلى خشبة المسرح. كان أحمد عجيبة اشتبك مع إبراهيم البحطيطى ورأيت تجار السمك يتركون الدكاكين ويجرون خلفه وانهالوا عليه بالضرب وقت أن رفع الكرسى الخيزران بيده اليمنى وهوى به على رأس السادات الذى هوت على السجادة الحمراء.. وطاشت الصفعات واللكمات توجه إلى وجه عجيبة وصداغه وبطنه.. وهجم عليه المعلم أحمد العشرى تاجر الفسيخ ليضربه بالشومة فى ظهره الهش. وسقط أحمد عجيبة هاوياً وسط غابة من الأقدام المفلطحة، فررت ناحية السيارة أركض فى خوف. استندت على جدار المجزر الآلى مفزوعاً أطل للحلقة المنصوبة حول خشبة المسرح وقت أن أصر تجار الأسماك على إحضار جراكن الكيروسين على الفور. رموا بُدمى الزعماء. وسط الإطارات الكاوتشوك التى تراصت فى ثوان. وصار الصبية الصغار يسحبون الهياكل الأسفنجية المحشوة بالقطن من مخازن "الوقاد" الخالية. واشتعلت الحرائق فى إشارة أولى. وطللت فى ساعتى "الأوريئت" متوجساً وقت أن قدمت السيدات الراقيات من "حى الأفرنج" ليقتربن إلى مدخل "مظلوم" وتقاطعه مع "أحمد ماهر" وارتفع تمثال آخر نصفى يبرز أدق السمات والأوصاف فى ملامح الرئيس السادات وصرت مشدوهاً لما يجرى صوب بصرى. أرقب الآلاف من سكان المدينة وقد اصطفو فى طوابير طويلة تفضى إلى صفوف بعرض الشارع. لفت الجموع ودارت حول تمثال

الرئيس. ورنا إلى سمعى التصفيق والتهليل والصياح المتعمد الخارج من أفواه السيدات البرجوازيات سكان "حى الأفرنج" الذى أنشدن فى هياج ونشوة متحلقات حول ركيات النار المشتعلة والواصلة ألسنة لهبها أعلى التراسينات الخشب. (قول يا وشاحى قول. الشعب صار مغلول،؟! غنى وسقف للسادات عبد الناصر خلانا أموات،؟! وأنتصف الليل فى "حى المناخ" وسمعنا دوى السرائن التى انطلقت من عربات الشرطة.. وجرى حسن علام أمامى قاصداً الباب الأمامى الأيسر للسيارة صائحاً فى بجدية وثبات قائلاً:

– إجرى يا محمود. (مباحث أمن الدولة على وصول)؟!! يلا بينا نخلع قبل ما نتقفش، ركضت أفتح باب السيارة الخلفى زاعقاً على الأصدقاء. منادياً على محمد خلف وأحمد بريزيو.. تائهاً اجترفى ظلمة الحارات الصامتة ما حدث عبر السنون الماضية متذكراً والدى ورفاقه. قابضاً بنفسى على صورة الزعيم الخالد جمال. متوقفاً عند محطاته العسيرة مشدوهاً بما جرى عبر الساعات الفائتة، سائلاً نفسى فى صمت: (من منهما كان ظالماً ومن كان المظلوم؟! (من الذى أصاب. ومن ذا الذى اخطأ؟!! الحرائق تزداد إشتعالاً. وفرقعات الإطارات الكاوتشوك المنتصبة فى الشوارع تدوى فى الزحام. فى الخلف وفى الأمام، قصدنا مبنى "قصر الثقافة" بشارع "الأمين" فلفت نظرى صور "السادات" الكبيرة التى تقذف فى ركيات النار. العديدة التى انتصبت فى كافة شوارع المدينة، بداية من "أول العرب" وطولون وشارع "الحميدى" وطرقات "بنى سويف" وحارات "مظلوم" و"العدل" وبطول شارع الأمين وقُرب بلوكات "الحرية" و"ناصر"

وعشش شارع "١٠٠" ومداخل شارع السواحل الطويل المؤدى إلى شارع "محمد على".. طُفنا بكافة أحياء المدينة نتبع اشتعال الحرائق ليلة "شم

النسيم" وكأنها ليلة الوداع- الليلة الأخيرة فى عمر بورسعيد وشعبها بكافة سكانه وطبقاته وأهاليه..،

ركضنا بالهواندى والفيات فوق كل شبر فى المدينة ليلة عُرسها. وصارت الأدخنة السوداء تتعالى خارجة من ركيات النار لتسبح فى الفضاء الغامق قُرب الرابعة بعد منتصب الليل- وقبل الفجر بدقائق الشباب يسيرون عراياً فى طرح البحر.. الفتيات سكارى ينفخون بالبالونات ويطرقعون بالصاجات فى طرقات النهضة فتُرى الأفواج السياحية مندفعة جهة الميناء وباب ٢٠ وكأنه يوم الحشر وبتنا جميعاً صامتين. عربة فى الأمام يقودها محمود طلخان والأخرى "الهونداى" يقودها أحمد بريزيو الذى دمعت عيناه دون مبرر. وصار يهزى مطلاً للسماء الغائمة فى شارع فلسطين يرقب نجمة بعينها تومض. تخفت تحتجب خلف ركام السحب الرمادية. السفن تزعق فى المر الملاحى "وبريزيو" يقول فى أسى،

-: يا ترى هنكون فين بكره؟!!

وعقب طارق البرديسى من خلفه.

- النهاردة البلد فيها ٤ مليون زائر من مصر وإسكندرية والإسماعيلية والسويس والمنصورة؟!!، دا حتى بتوع العريش. ودا غير الأجانب؟!

- وقلت بعد أن اختنقت برائحة الإطارات الكاوتشوك الغليظة.- (شد حيلك يا بريزيو) الدخان عمى عينى،

- عايزين نلحق نروح نُنصب الشماسى عا البحر قبل ما الشمس تطلع.

وأحمد بريزيو يقول فى فتور،

- وأنا عايز أنام يا أستاذ.. تعباااان.، تعبان أوى)

فصل ١٠
[هوى الخريف؟!!]

الساعة الآن السابعة و٥٠ دقيقة، ٥٧ دقيقة مضت بعد منتصف الليل الطويل الأسود. ثمانية عشر ساعة جديدة مضت- توارت من عُمرى. وشيخ يقيم صلاة الغائب من بعيد- المسجد غير معلوم؟!!- الملتحى الجهم يتوضأ فى صخب وفوضى. ينتفض الماء من الأطراف الغليظة فيصطدم النثار بوجه فتى غريب شارد؟!! الساعة الآن الثامنة- وازيز الطائرات يأتى خافتاً فوق أسطح المنازل المجاورة. ينتقل فوق سطحى. قُرب فراشى. أنا الراقد هنا- الراقد هناك- الراقد فى العُلا؟!! فلاشات الضوء تصطدم بشرفات غرفاتى، العرق يسبح فى الفراش فتظهر رائحة العطن وتطفو اللزاجة، الشيخ يركع ويسجد. يسجد ويركع، يسجد من جديد لترتج الأرض من تحتى. من أسفل الملتحى الجهم. أذنى المنصتة تخشى التجلى. تخشى نبرات التلاوة. تنصت. لا تنصت - تنصت للبارك فوق غرفتى يفضُ غشاء البكارة للصبية؟!!

الفتاة تتلوى. تصرخ. تستغيث. وموسيقى الهدم تعلو، بشارف الانحطاط تزداد سخونة لتُسرى الفضيحة فى سكون الغرف المغلقة فى الشقق المجاورة، غُرفى مظلمة وأزرار الضوء مبهمة. والمرأة الشبقة تتلوى بجانب جدارى- فوق سرير الغرباء. الساعة الآن الثالثة بعد منتصف ليل آخر- وقدمى العظمية النحيلة ترتجف، الأغطية كثيرة، جافة. والمطر مخنوق فى الأفاق المراوغة.

الشيخ الضرير يخرج إلى الخلاء. يجر عباءته الصوف فى التراب، القبور تضيق وتتسع والسماء تدور. زرقاء سوداء بيضاء يكثر بياض أشباحها. جسدى بارد كالثلج والساعة تدق. تدق. تُدق والقلب يدق. وثلاثين عاما مروا من خلفى بوعى – دون أن أعى. زمناً طويل خلفى – وأمامى أزمنة ستأتى بلا ريب – جئت برسالة.. يقولون عظيمة وخالدة؟!! ولذا كُلفت وكُلى رضا وجلد. كُلفت من المهد إلى اللحد – والصبية تصرخ ورائحة البخور تخترق الأجواء سابحة بجانب الشرفات المهشمة. إرتج الرحم خلف الفرج فهوى الدم على جدرانى. بلل وسائدى ومخادعى المتهالكة، الدم يقظ يفور. يتنفس وتتسع فيه بويضات لحيوات غريبة آتية – الساعة مازالت تدق، وأمامى نهار لا يأتى. تعلو الأصوات وتتعالى أصوات الماكينات ويزداد الوشيش – وشيش فى الميلاد – فى الطفولة فى البلاد البعيدة. وشيش فى الهجرة. فى الترحال، وشيش قُرب السُفن والمواخير والمقاهى.. آله الزمن لا تتوقف – تتلاشى المواقيت ويرقد الصبى هناك – ينصت بشغف للوشيش، فى "الوابور وشيش وللجاز صلصلة مستحبة تثرى الخيال – فيسبح فى ملكوته وأمكنته، الطفل يتثاءب وتمضى الساعات فى الموانى مع العقارب – فى الرأس ألم – وفى الأجناب ورم وفى اليد قلم ينهل من نبع الأخبار الفريد والعين تدمع فتتحسس، زوار القبور فى الليل يسيرون بمهل بمحاذاة القباب الواطئة. ويعلو هسيس الرياح. يدى تتحسس فى الظلام وتهيم الأنامل للساكن – لى ليال طويلة انتظر مجيئها. مهاتفتها. حديثها، الهاتف ساكن منذ ١٠٠ ساعة ويزيد – هل تأتى تهاتفنى، أم سيقتنص الموت الفرصة الثمينة ويقبض على روحى وأنا وحدى هذه الأيام؟!! الخوف يأكل الروح وتأتى المقذوفات من أعلى البوارج الحربية الراقدة، خلسة تطف على شاطئ الساحل. تمر ساعات فتخرجنى من المتاهة. متاهة غرفتى

وحدتي- شقتي. ثكنتي- شقة الساكن بجانب الثكنات العسكرية قُرب مقابر المناخ؟! اكم بلغت الأعوام التي تورات. كم عام عشناهم يا رفاق. كم من الأعوام عشتُ أنا؟!!

° ° °

طرقت الأبواب- مقترباً من المواخير في شارع النهضة. مشيت أرقب حركات المارة في شارع فلسطين الطويل، رأيت العرب والعجم. والطليان واللاجريج والمصريين، في شوارع بورسعيد. حدقت العمارة الساجيرية أطل للواجهات الزجاجية الفاميه العاكسة وتراءى لى ظلهما يقفان متواجهان- صار كلا منهم في ملكوته يرقب أمكنته المستحبة. كان عبده فلاش ابن محمد السيد العربى واقف فوق رصيف الساجيرية. ينتظر تعاقب السفن العابرة لمر قناة السويس، محمود طلخان. (حوده) سند ظهره على واجهات محلات "سيمون ارزت" طل للبعيد يتفرج على انقاض عمارة "الباب الحديد" فى شارع الجمهورية. طلات خبيثة للعابرات. فتيات أوروبيات- طلاينة شقراوات وعيونهم زرقاء.. عبده فلاش يدخل في ديالوج طويل مع بنت طاليانية شقرة. ولم يقطع استرساله إلا صفير الانذارات وزعيق السفن الداخلة للبوغاز المظلم.. البنت اقتربت من وسطه في شارع الجمهورية عادت بجسده للخلف فتحلقت يداها البيضاء حول خصرة وإشارات لأحواض الرشمة جهة شركة (سبلاى إيجبشن كومبانى) اللنشات الكبيرة تطير وسط الماء المالح في ممر القناة معاون (١) معاون (٢) والزعيم الخالد الفيبر جلاس يتعطل فجاءة؟!!

اللنشات الخشب الصغيرة تخرج من مراسى شركة الرباط لأنوار السفن تتجه ناحية المبنى الرئيسى لهيئة قناة السويس. القبة خضراء منيرة، بورسعيد تتزين لاستقبال الساعات الأولى في الحفل السنوى لليلة رأس السنة.

الأعلام الورقية والعواكس والزخارف البلاستيكية الفسفورية والحمراء والسوداء تتدلى بمؤخرات الكبائن أعلى صوارى الفلك الصغيرة. فوق أسنه وقباب السرائن الغليظة التى تسرى وتصدح فى جلبه وصخب وجلجة مستحبة- الأقمشة المشمع والنيلون تكسو الكبائن الخشبية الزان المدهونة بطلاء براق. الراقدة وسط المراكب الشراعية الصغيرة المربوطة بالخوابير الحديد المغروسة بالقواعد الأسمنتية الغليظة التى تعتلى الجانب الأيسر أرصفة الترانزيت الطويلة الممتدة حتى تمثال ديلسبس المخلوع، صارا يتصايحات بعدما ودعن الفتيات الشقراوات واحتسوا عشرات الأكواب من البيرة وكؤوس الفودكا الروسى التى أتتهم مسروقة عن طريق البامبوطية العابرون أعلى ظهور المراكب الروسية والمجرية والرومانية. اشتروها بثمن بخس واحتسوها بداخل بارسيسيل، ولوكت النقود فى كفوف حمالين الحقائب والمعاونون الملازمون للسادة المرشدون. سارا فى ظلام شارع النهضة يستقبلون السائحين السكارى.

وتوقف عبده فلاش فجأة تحت بار إسبلندد وقت أن مرت الفتاة القبرصية
— اقترب فى ركابها معلقاً وقد عماه السُكر. ياريتك سنة يا رمضان؟!! ياريتك سنة يا رمداااااان. ولا يارمدان. وركض عبدة خلف الفتاة مازحاً يسحبها من الجيب القصير وقت أن استطالت الحروف وتمددت على لسانه وقت تحديقه للسيقان البيضاء البضة- البنت تقصد محلات بشكه.بائع التحف.. وحودة يحلق عليها ثملاً.. (رمضان جانا وفرحنا به بعد غيابه.. أهلاً بالضان؟!!، كان الشهر الكريم قد ودع الخلق منذ ليال عديدة، وضحكا سوياً ودخلت البنت عند "بشكة" فمكثت لدقائق. وعادت خارجة وقد حملت فى يدها دمية لبابا نويل. والتفت عبده مستديراً يمشى خلفها راشقاً نظراته النارية فى مؤخرتها المكسوة بالجيب التركواز الحرير. صار يعلق فى مرح

:- فوانيس- سهارى. بطيخة صيفى متعلقة فى عامود نور يا بشو

وانفلتت الفتاة فى ضيق واندفع فوج آخر من السائحين الألمان. مشوا فى الشارع الطويل ينظرون الملابس الرياضية فى محلات الجزار أسبور فى شارع فلسطين، وزعق حودة على عبدة فلاش فرنوا يتصايحان يمشيان خلف البنات الشقراوت المقتربات من قسم شرطة الميناء فى أردية حمراء من الجرسية والشيفون. بناطيل ضيقة تبرز المؤخرات الغليظة اللابدة أسفل تطريزات الدانتيل النبيذى. عبده فلاش سرح خلف الفوديهات القطيفة، يرقب خروج جوازات السفر. وزعقت البنت الشقراء فى نفور- "شت" ركضت تتأبط ذراع صديقها الطويل أبو شورت بيج كتان، عبده يتساند على الحيطان العالية لعمارة الساجيرية- يصيح فى سخرية. ("سلوشيش". مس، سلوشيش؟!! وحودة يضحك بصوت عالى:-

– (دى حتة بلجيكى يا عبيط. وشرفك دى لا بلجيكى ولا هولندى).

– سلوشيش مس

– برونتو. برونتو. با مبينا- برونتو با مبينا طاليانو". "باتا سيرى"

–والنبى دول باين عليهم يهود يابن طلخان، يلا بينا، دول داخلين القسم،

البنت تستدير قاصدة باب ١٠. تبسمت فى مرح ورضا وقت أن دنا عبده يطل لبشرتها البيضاء فى دهشة مردداً

– هابى نيويير كريسماس،

واتسعت عيناها الزرقاء بابتسامة شبقة فظهرت فرجة ثغرها الصغير مالت برأسها جهة القناة وخطى عبدة خلفها ينظر الأرداف النحيلة التى تهتز أسفل الكلوت الفرنساوى الأسود ليصيح فى هياج.

– سلوشيش يا بشر" إلحقونا يا ناس، إلحقونا يا ناس وبعدو عنيى حودة النسناس؟!!

° ° °

وانتابتـنى رجفة وقت أن سرت تيارات الهواء الخريفية تخترق ضلوعى، قلت لعلـه الخـريف قـد أتـى مـبكراً، اجـتررت أعوامى الماضية فى نفس المكان فصـرت منتشياً بنسمات البداية اللذيذة للخريف، أدركت وبحس ظاهرى تكمن أسـبابه الضـئيلة مـندفعة مـن داخـلى وجدتـنى أربُت بأصابع يدى اليمنى على كـتفى الأيسـر فـى دعـك خفيف محاولاً إلتماس دفء وهمى لا يأتى– فرح عبدة فـلاش الـليلة فـى فـندق مكسـيم. وأنـا أمشـى فـى شـوارع المديـنة مع بدء العام الدراسـى الجديـد– صـرتُ اجـتر ماضـى السـحيق بحسرة عدم الالتحاق بالتعليم الجـامعى. السـاعة تقـترب من الخامسة والنصف– والمؤذن ينادى المصلين للركوع فـى صـلاة المغـرب الـنهاردة خطوبـة عـبدة السـابعة– وأنـا ماشى سكران. الفرح السـاعة ٩ ونـص فـى صـالة فـندق مكسـيم عـند نهايـة شـارع فلسطين، الفتيات الجمـيلات مهندمات يمشين فى بطء ذاهبات لمبنى "سونى" عند المجمع الدولى، رأيـت الأرداف تـتمايل أدنـى الخصـور. داخـل الكلوتات الحرير. ورعد السماء يـدوى. وأنـا أنظـر فى وجوه البشر دون هدف، خنقة فى الصدر– شهيق وزفير. وحفـرة أرضـية. وإلـتواء فـى القدم المتعب عُدت لشارع "النهضة" متسكعاً رأيت المحـلات الفخمـة غائصة فى أنوار النيون– الفلورسنت سابح فى أطياف رمادية أصـابتنى بـالخمول– وقفت اتطلـع لـنهاية الشـارع الطويـل المـؤدى لـبرج الفنار القديـم فـى شـارع ممفـيس. أتحسـر عـلى مجـد ضـائع. عِـز قديـم. أحلامـى المجهضـة؟!! عمـرى الفائـت هـنا– هـناك؟!! إ– (الفـرح)؟!! الفـرح بعـد أربـع سـاعات– نفسـى أفـرح، يخايلـنى ظـل حودة الصغير وهو يجرى بالكُرة الشراب

فـى شـارع ٢٣ يولـيو- وفـى شـارع محمـد عـلى وقـرب أول العـرب- المـتعرجة طـرقاته المرصـوفة بالبازلـت- أخـيراً عـثرت عـلى حُلمى- شقاوتى صغيراً.. كره تـندفع فجـأة أمـام قدمـى اليمـنى، أضـربها بقـوة فتنطلق لأعلى لابدة فى شباك السـماء الـزرقاء الدانـية. جريـت فـى طرقات "سعد زغلول" بالعرض- وقلت فى نفسـى- شـوط، فهـا انـت قـد أفلحـت أخـيراً فـى الهـروب النسبى يا محمود.. وتقـول فـى نفسـك وقـد رُحت فى أسى وانتابتك الغصة.. والحب يا محمود؟!! خفقـة القلـب يـا محمـود. توقـك الدائم للتلاقى مع حبيبة ما تُكمل معها مشوار الحـياة فتـندمل جـروحك الـنازفة.. إجرى يا محمود. إجرى. وجريت أردد فى نفسـى- فـين أحلامـك يـا محمـود.. فـين أحلامك يا شقى.؟! !- (الدنيا وما فيها ومن عليها كذلك)

-: نفسك ترقص يا عبدة؟

تحدثـنى نفسـى فـى ملامـة. فأتذكـر عـبدة. فـرحة الليـلة- كـلها ساعات وتـروح، أرقـص يا محمود وغنى وافرح- خيام الأفراح منصوبة بالعشرات صوب عيونك المجهدة.

- الحاجز عالى يا محمود؟ (صخر. فولاذ؟!!)

الفـرح مـزازيكه قريـبة لأذنى واصلة سمعى بتنعش حواسى. بتنزع الآهه من قلبى يا ناس

- (نور الفرح هوه اللى بعيد قوى يا عبدة،

- الحـب مـش واحـدة وواحـد. الحـب نشـوة لقـاء مش نزوة. الحب حالة كالشجن،

:- (أرقص يا محمود. وطير وسافر. الحب سَكرة ونزوة

:- (إشرب يا محمود؟!!

– معدتى خاوية وفى جسدى قوة جبارة. الشوق جارف للرقص،

مشيت قاصداً بار "طمادى لابوست" فى قرف أمرت النادل أن يأتينى بربع براندى فقال لا يوجد إلا نبيذ يونانى خفيف وليس هناك ثلج،

–: ولا صودا؟

– ولا صودا ولا ثلج،

شربت أربع زجاجات انصاف دون مزات وخرجت من الباب الخلفى مسرعاً دون دفع الحساب. جريت جهة كنيسة الفرنسيسكان المطلة على شارع "أوجينيه". أطلقت ساقى لرياح الخريف فاستسلمت للهوى والخدر اللذيذ الذى اخترق جسدى بأطرافى الخفيفة،

–: الشارع طويل يا محمود؟!!،

مشيت ورأيت الفتيات يرموننى بنظرات البكارة فدنوت أطل فى هيام فوجدت الحياء مصطنع ولفحتنى التيارت الجارفة فدعتنى للوصال وقت أن تملكنى الشبق، النسوة المحجبات يتطايرن فى الهواء وأنا أسير تحت الرصيف فأرى صغيرات السن والشابات اليافعات يُحلقن عالياً قُرب الأشجار الذابلة المغروسة على جانبى الجمهورية المرصوف بعناية فائقة. حمالات الصدور تتهاوى والكلوتات تنزلق فينفخ فيها الخريف من روحه لتعلو حمرة الشراشف، قمصان النوم الساتان. الحرير– تخرج من الأجساد البيضاء اللينة البضة. الأردية السوداء تخرج من قيد الأرداف الطويلة المنبعجة لتسحب أطواق الخمار المحبوك حول النهود لتسبح الألوان جهة قبة السماوات الساقطة بانتفاخات بالونيه كابيه- ارتجت الأرض من تحتى فصرت مغموراً بالنشوة أغنى، (إيه يا بلاد يا غريبة. عدوة ولا حبيبة بليل تصحى عيونى وعيونك

مشى قريبة. دنيا ولا متاهة- دايره وبندور وراها وصبحها ومساها آهه وراها آهه،

-: وانا عاشق للبحر بمشى فى الشارع الطويل فوق رصيف الترانزيت عند ممشى ديلسبس- أبحث عن صالة "مكسيم"؟!!

صرخ الحرير وأنفجر الساتان الأصفر. وتحت زرقة السماء وجدت الأجساد بيضاء فى إحمرار. النهود تطير متحلقة. شبقة. تعالت لتصطدم بقبة السماء فتعود هابطة بكلوتات برتقالية محلقة فوق أسطح العمارات المنتصبة فى "حى البودرة"؟!!

قريباً من مدخل مكسيم كانت غبشة الضوء الأحمر تزوغ بعيناى فأحدق ناظراً الكلوب المنير الضخم المُعلق على باب الصالة، ولاحت لى النهود الشبقة ترتج بعنف فوق صدور من عجين ولبلاب تخطو جهة البيست قريباً من حلبة الرقص وسط الكوشة، وتحلقت الجموع من النسوة حول العروسين، هوانم على مشارف الأربعين يطلبن أكواب من الماء للشرب. وأنساب نثار العرق خلف الأذان الرقيقة المستسلمة لفصوص الياقوت والمرمر والألماس المعلقة فى ثقوب اللحمات المنفرجة. وطرقعة زجاجات البيرة ممتلئة وفارغة قُرب الأفواه المفتوحة فى شراهة رأيت الأردية السوارية تكشف السيقان. الصدور طافية بحلمات منتفخة. ولاحت المؤخرات مرتفعة فى غلاظة تهتز وتتمايل لترتج خشبة المسرح أعلى صالة مكسيم بشارع فلسطين؟!!

فصل ١١
[صدى الصوت]

وأخـرتها إيـه يا محمود يا طلخان (كل مرة كده) وياريتك قادر تبكى أهو تخفف عن نفسك، لكن العكننة والخنقة آكله روحك مع الغربة،... الرجل قعد يكلم نفسه جنب منى وكل شوية أبص له من تحت لتحت وخايف أسأله. العربية ماشية على طريق "عزبة البرج" عدينا كفر البطيخ وأخذنا الطريق الجديد. وشفته سارح وهو بيبص للغيطان المزروعة بالجوافة. الشجر عالى ومزهر. وحبات الجوافة ما شاء الله بيضه قدّ البطيخة. متعلقة زى الفوانيس المنورة. والريحة فايحة فى كل مكان عالطريق- كان نفسى أكلمه- أخرجه من اللى هوه فيه، بص للشجر البعيد وعينه دمعت- مركون جنب منى زى الولاية. و"الدودج" بتفارق الطوبان العالى وبتجرى على الطريق الجديد. الواصل لحد بورسعيد.

° ° °

الموج بيضرب فى سواتر الصخر وينفلت والمية هايجة على الطريق الأسفلت. سابع طريق بيترصف بسبب المية المالحة اللى دوبت الزفت، وحسن الشحمة السائق بيسألنى (إيه) ندخل من تحويله الجرابعة ولا إيه اللى انتوا شايفينه، حسن عبد الرحيم ساكت. (كأنه انخرس) قلت أخفف عنه. ميلت وسألته: - (طب ما تجيب العيال يا عم حسن)،

:- إجيبهم. أجيبهم إزاى. والغارات؟!!
- يا راجل دنا بقالى ١٧ سنة على كدة؟!!

° ° °

ساعتين ونص والدودج بتجرى على الأسفلت المكسر. خرجنا من البصراط قبل العصر. شفنا العيال وأمهاتهم. حتى واجب الرجولة مقدرناش نقوم بيه؟!!

وموظف الشئون الاجتماعية العرص راسه وألف جزمة لا نبّات عنده فى مكتب الترحيلات لغاية ما يطلع النهار- وعم حسن يقوله- يا عم دى مراتى، إزاى تمنعنى أخش لها المجمع- مين اللى قال لك كده. وده يرضى ربنا برضه. رمى لنا البطاطين الصوف الرمادية القديمة. رماها فى وشنا وقال لنادى جديدة- من المنحة الروسى، وعيالى نايمة جنب منى على بعد خطوتين ومش قادر أشوفهم..

° ° °

طلع النهار وفرّينا زى المجانين. سلمنا عالعيال وإديت لهم المصروف- عشرين جنيه. ورقة عريضة بعشرة. وخمسة جنية خضرة وخمسة جنيهات فرادى- مشيت وسمعت حسين بيبكى. الواد شبطان فيه. عايز يرجع معايا لبورسعيد عشمان يشوف جدة اللى عايش فى بورسعيد من ٤٨، تاريخ ما ساب سوهاج ورجع لمعصرة القصب، بكى الواد بيحز فى نفسى، آه يا فقرى ياوش النكسة؟!!

° ° °

دخلنا الجميل فى الضلمة، على أذان العشا وقفت الدودج عند الكمين وقرب المقدم أبو نسر ودبورة. نزلنا بالإزاز وسألنى على البطاقة طلعتهاله من

جـوه المحفظـة.. وسـرح عـم حسن وطل للبيوت المضروبة جنب ثكنات الضباط، ولف له الضابط من الناحية التانية يسأله،

:- بطاقتك يا ريس.

- أنـا بورسـعيدى ومستبقى. ودا كارنيه المقاومة الشعبية. مشت العربية. وبـدأ المطر يُرخ وهاتى ياسما اللى عندك، الشبورة زادت وانحجبت الأماكن عن عـيونا.. ماشـيين بقُرب المقابر تحت أزير الطائرات والشوارع غرقانه فى وحله. جنـب بلوكـات المناخ- وفى الحرية. وشارع أوجينيه وفى امتداد ٢٣ يوليو شفت حسـن بيلتفت ويـبص فـى الـبربر يـز الخلفـى للـدودج- سـحب بقجته القماش ونزل ساكت فى أول العرب.

° ° °

ولما شـفت شـنطة "الـدودج" الـزتونى مـن ورا قلـت توبـه السفر على هذا الطـريق، العربـية لفت ودارت فـى أول العـرب. حـودت مـن جنـب عم محمد شـاهين الفطاطرى اللى شفته بيضحك ويقهقه على شكل العربية من ورا والعجل المريحّ.

° ° °

هتهرب وتسيب بورسعيد يا حسن؟!!

طب والعيال. وفرشه الفاكهة. ورزق العيال فى أول العرب- مستبقى؟!!

° ° °

يعـنى إيـه مستبقى؟، يعـنى إيـه- يعنى تحت أمر الحرب فى أى لحظة. يعـنى لا هاجـره مـع الـلى هاجروا ولا مكان يخصك تقعد فيه.. يعنى لاجىء يا محمـود، اهتفضـل طـول عمـرك عـايش غريـب. إنت فى مكان وعيالك فى مكان تانى. انت فى بورسعيد وهما فى البصراط- فى الجمالية- فى المنزلة،،

أحمد الجعفرى هاجر لدمياط ومحمد عزام راح أسيوط والسيد الناخلى سافر بعياله قنا وقال مش هيرجع تانى- أحمد البصراطى اختار القاهرة هوه وإبراهيم الجمالية. سكنوا فى حوش مدرسة الخانكة الابتدائية. صلاح الكونج اللى كان فتوة إضرب مع اخته عاالعربية النقل البدفورد- إترحل بالعافية مع "ريم". رموهم فى العربية النقل وشحنوهم على غمرة. باتوا فى أحواش هيئة السكة الحديد فى غمرة. وفى أول ليلة. اتسحبوا الصيع بتوع "عزبة الفجر" ونطو على ريم وهما محششيين

° ° °

وأنا عمّال أكلم نفسى فى "أول العرب" جعان. وراجع م السفر هلكان. والعقل بيجيب ويودى- فى اللى قاله ظابط البلدية لعم محمد شاهين فى غيابى، (لازم يشيل فرشة البطيخ من الشارع). بلاش تهريج. البلد فيها أمن. ودا إشغال طريق، يسافر لعياله حسن، وكلها شهور وهيرجع مع المهاجرين. عرفو يا عم محمد. قُل له كده لما يرجع م البصراط، قُل له عايزين رخصة بائع متجول؟!!

° ° °

شفته ماشى فى الحميدى متعكنن. دخل على عبده خلاف بياع البكلويز بعد نص الليل، قال له جعان يا عبدة، ومشيت وهوه بيسحب الكرسى الخوص من جنب فرن راتب فى إبراهيم توفيق، ومشيت تحت البيوت الخشب أم دورين البيوت فاضية ومفيش سكان، برج الحمام مرفوع على عمارة قطان العالية جنب مسجد التوفيقى السما غايمة ومطر كتير متحاش،،

° ° °

عبده خلاف ضرب الطحيبة وقلّب الليمون مع الكمون مع الشطة- حط ملح بسيط. ورفع حله البكلويز الكبيرة بفوطة صفرة. طفا النار. وحط الطبق سخن لابن عبد الرحيم اللى شرب مية البكلويز بالليمون وكل تلت رغفان.

° ° °

دخلت بيت الأدب قبل سوق السمك.

وشى مقلوب وعم زغلول بيسألنى عن العيال وحسين- فرجة قريب يا بطل- (اعتمد على الله الصبح وطلع الرخصة؟!! مشيت فى أول العرب حزين . الدنيا برد وعم شاهين القطاطرى بيطبطب عليا ويمد إيده فى جيبه ويطلّع محفظتى- الصورة غريبة شوية يا ابن عبد الرحيم. الميلاد سوهاج والمكان جوال وتمّم على ورق السفر قبل ما تروح المحافظة،

° ° °

سحبت الغطا المشمع على فرشة البطيخ الكبير. وشافنى عم شاهين وأنا بلف الحبل البلاستيك حوالين أقفاص المانجو، سنارة وتيمور وهندى و"كوبانية" و"بيض العجل" و"فص" و"سكرى" و"بلدى" و"زبدية" و"الفونس". سحبت المشمع الأزرق القصير وقلت لعلى الجمال- (هسيب لك الرباط مفكوك يا جمال. لو جالك زبون بيع له وخلى الفلوس معاك- صحينى بعد الفجر على طول يا على).. وانطفأ الكلوب أبو رتينه شفافة، وباع البطيخ.. باع المانجو والمشمش العمار. باع الخوخ فى الصيف، باع الجوافة وباع البلح الأسود. والسمانى والزغلول والرطب فى الشتاء. باع الأرض والأهل والعيال- اشترى الراحة ونام فى أول العرب، سحب الحذاء أبو رقبة. حطُه تحت راسه واتمدد على الكليم القديم. شد البطانية الرصاصى الروسى وغطى وشه ونام.. نام..

° ° °

مسكين يا حسن يا ابن عبد الرحيم- غريب فى صحوك ومنامك- (غريب أمرك؟!! بصيت لشكله وهو نايم وسحبت باب المحل الصاج- قربت خطوتين أطل لفرشة البطيخ. انظر صورته، كان بيشّخر

° ° °

من مكتب تموين "العرب" لسجل مدنى المناخ يا قلبى لا تحزن،

– حسن محمد عبد الرحيم.. حسن محمد عبد الرحيم

– أفندم- (تعالى)- مبروك. آدى الرخصة بائع متجول؟!!

° ° °

وحسين يقول:-

– تعالى يا أبا)

وتتحلق حوالينا العيال فى مجمع البصراط فى نوبة زفاف وتهليل بيغنوا الصغار. بيلفوا ويدورو مرددين (هش هش هش. إخرجو من بلدنا غليتو علينا المش. هش هش هش. إخرجو من بلادنا صعبتوا علينا العيش؟!!.

° ° °

وإبراهيم أبو حجة يقول. أهى أيام وأكيد هتعدى. فكر فى ولادك يا حسن.. أصمت ويزوغ بصرى فى سواد البحيرة وطينها- نورها البعيد وقت العشاء، ومن ٥٦ لـ ٦٧ لـ ٧٣ يا قلبى لا تحزن؟!!

° ° °

وسيد أبو الحجاج يكرر.. (دى أبسط رسالة تقدمها لوطنك؟!!

– رسالة.. هأ. هأ. هأ،

– رسالة وطن ولا شعب ولا زعيم عنيد ومتكبر- ضحك علينا كُلنا ومات. سبنا ولاية؟!!

– إخرس يا حسن. ماتقولش كده عا الزعيم. ماتقولش كده على ناصر، ماتقولش كده عا العادل اللى كان بيحلم للفقرا،

–: (عادل)؟!!

– (ظالم. ظلم نفسه وظلمنا كُلنا معاه. شتت ولادنا، ماتقولش عادل. ماعادل إلا الله– كل الشعب انتهازى

° ° °

– مالى والبصراط والجمالية. والمنزلة. والجرابعة، (مالى وعيالى)؟!! حلمى فى ونسه مع بشر. مع ناس إتربيت معاهم. شاطئ طويل مشيت عليه فى طفولتى وصباية وشبابى، "أول العرب" يا محمود– مساكن الحرية. حى المناخ. الجميل مقهى الجازوى– و"الشكريالى" "شارع الحميدى". وطولون– مقهى ضاحى سلطان رشوان الكبير. وابنه العربى وإيهاب الحفيد. ١٧ سنة وأنا بحلم بالعودة؟!! فين "غادة" ومحمود الصغير، أهداف الإكيابى؟!!

المكان جوا يا ووشيش البحر فى ودانى– المكان دا مش مكانى، فين بورسعيد يا أبو حجة،،

° ° °

وتدور الشوارع والحارات– تتبدل الأمكنة وآلاقى نفسى فى شارع طويل – شارع قديم أعرفه– ولوحات معدنية مكتوبة بالفسفور. معلقة خلف السيارات البيجو الـ ٥٠٤ السائرة على الأسفلت فى الظلام. العربيات ماشية فى صمت وأنا خرسان. بكلم نفسى،،

° ° °

حاسس بخنقة يا على يا جمال. خنقة مالها علاقة بمكان ولا بزمان– (الخنقة جوانا يا ابن عبد الرحيم).

– زمان لما كنا بنزهق. كنا بنروح البحر ونقعد في مقهى الفنار ونسمع البت.. والأولة في الغرام، والحب.. شبكوني يا جمال؟!!

– والثانية: – (الثانية في الانسجام). واجيبو منين،

– والثالثة– (الثالثة بالصبر أمروني ساعات بحس إني عشت ٢٠٠ سنة، ودخلت كل الأماكن. وزرت كل البلاد. كأني عشت حياة تانية قبل كدة. حياة غير الحياة،

– (ساعات بحس إني عجزت. وفي صباحات نادرة بشوفني لسه مولود– ولما أنام أصوات كتير بتناديني. أه أصوات بعيدة بتيجي م البحر– م الغاطس. من شواطئ بعيدة من مواني معرفهاش.. بشوف مراكب سارحة في بلاد غريبة ركباها ناس تعرفني وتعرف أبويا وأهلي وناسي وتاريخي.. (لسه السفن بتزعق عليا من بعيد يا جمال.. صوت السرائن جحيم،،

– مخلوق شقي وبُلغ برسالة في الحياة؟!!

– ولمين نجمل الحياة؟

– للبشر.

– فين البشر

– للعدم)

– أيوه العدم– تبقى لازم الأغاني تبقى غير الأغاني. والحياة غير الحياة والبشر غير البشر. والزمان غير الزمان

– والمكان يا محمود؟

–: كل واحد فينا وليه مكانه– بس السؤال،

– إحنا اللي سكنا الأماكن. ولا الأماكن سكنتنا، ساعات كتير بتشوف بشر في أماكن غريبة. ومن غير ما تتكلم معاهم. من غير ماتعرفهم. بتحس

إنك تعرفهم- بيحسوا إنك جاى تقابلهم- بيسحوا إنك اتخلقت ليهم واتخلقوا ليك، من أول بصة فى عنيك- تلاقيهم افتكروك. واتعرفوا عليك. وكانوا مستنينك، شافوك من زمان- ساعتها لما بتتأكد. تسأل نفسك يا ترى شافوك زمان، ولا أتقابلتو فى حياة تانية مجهولة -

:- يمكن فى حياة لسة جاية. الشوق خلانا نحلم بيها ونرسم تفاصيلها بدقة؟!!

فصل ١٢
[صوت الفرح]

الصورة؟! ! نعم "الصورة" هى كل ما أذكره وكل ما عُدت به من هذه الرحلة الطويلة؟! ! جوه البرواز- داخل الإطار القطيفة الأسود وبقميص كاروهات وبدلة كاوبوى إيطالى وحذاء "كلاركس"- بيمشى شخص بيشبهنى فوق طريق مسفلت وفيه بعض الحُفر، الصورة لشاب طويل القامة أسمر ونحيل وبوجه منحوت وعيون عسلية وأنف رفيع مسحوب لأسفل. الشاب تخطى الثلاثين من عمره، ماشى نشوان وكأنه فى سكرة أو غفوة بيحدق لحذاءه وينظر لأوراق الشجر الخضرا التى تزّين طريقه الطويل، الممرات معتمة والمكان مجهول لكن الطافى من الصورة المسنودة على "موسوعة الفلسفة الوجودية" المتراصة بحواف مكتبى شديد الدلالة وغنى عن الوصف..، طللت لنفسى كثيراً وبعد ما فشلت فى تحديد ميقات الالتقاط. ومكان وزمان الحدث قُلت لنفسى، لعل الأيام القادمة تأتى بجديد يفسر ما حدث تلك الليلة؟! وما ترتب على ما قيل وقت خروجك من صالة "مكسيم"

فى الرابعة بعد منتصف الليل. ومن هو الذى التقط لك هذه الصورة. وكيف ومتى.. وما هو طبيعة وفحوى النداء الغريب الذى أتاك من شخص عابر اعترض طريقك فى المسير قُرب مباحث أمن الدولة هناك..

شخص مازلت تتذكر ملامحه جيداً. وهذا رغم غرابة حديثه وميقات ظهوره.. شخص تعلم وفى قراره نفسك اليقظة إنك تعرفه وسمعت عنه من قبل؟!!

رجل اطمأننت لملامحه وراقت لك نفسه وروحه فأشعلت له سيجارة فى غبشة الفجر لتمشى بعدها صامتاً وتقرر السفر فجأة مواصلاً البحث عن أبيك،

– كل ما أذكره سنوات طويلة عشتها. بحِس فى ساعات كثيرة إنها دهر. أيام بتجر أيام بتولد ليال، الخنقة والضيق أشياء بسيطة.. لكن الصداع بالشهور. وألم بيتجدد وأعراضه تزيد وتتكرر مع بداية الخريف،

الفراش نظيف والسرير مُمدد بزاوية منفرجة وتبرز الوسادة الحمراء فى أعوجاج نسبى بيطيح برقبتى عند كل إضطجاع فى نواح غير مستقيمة. النوافذ مقفلة بزجاج أزرق والرطوبة عالية والرياح تعوى خارج السكن العالى فى الطابق السادس- أخشى الهواء فاستسلم لهوى الترحال مع أسراب الطائرات العابرة أتيه من أقصى اليمين ويزيد أزيزها ويستوحش فى ممرات مفرودة أعلى سطح المنزل وعبر ظلال غرفة مكتبة الصفراء..،

رفاق الصبا وشبابى المبكر ذهبوا كلاً فى طريق يخصه إختاره بملىء إرادته خمسة فى "نيوجرسى" بأمريكا منذ العام السابع والسبعين واثنين "بهولندا". "طارق البرديسى" و"محمد الخرتيت"، "محمد القُدس" تزوج من مغربية واستقر فى روما،

لم يتبقى إلا محمد ابن الزينى الذى تزوج من شهرين. ومحمد عبدالله الذى أنجب "ميار" و"حسين"؟!! ومحمد ابن خلف تزوج اثنتان- أحب الأولى بجنون فلم تُنجب من يورث مال أبيه. أتى بالأخرى فجاء الطفل "منغولى".

أما أبناء الحاج مصطفى البرنس- عادل وأحمد فقد استمروا هناك- فى بورسعيد. إختارو التجارة فحصدوا فراغ الشوارع والمحلات بعد خراب "المنطقة الحرة" أما أنت أيها "النبيل فرج" فيالك من صعلوك عظيم برجوازى بالفطرة انت الوحيد يا ولد الذى شاركتنى جنونى فى بحثك الدائم عمن تنهش حواسك؟! وتُلهب خيالك المنفلت أحبْ واتحبْ وعشق فانصاع وضاع فى طرقات ومسالك رهيبة فكانت خاتمتك!!

جلس شارداً وحيد فى قمرة عالية. فى زى القبطان صار نبيل فرج كمن غرقت سفينته فى قاع سحيق وبات شعلة الشاغل العبث فى الدفة التى تدور فى الفراغ؟!!

° ° °

الفراش يسبح فى العرق. الأطراف ترتجف والعقل مشتت والخمول يخيم على الحواس اليقظة تلتقط الدانى- العربات تدور. تلف حولى. حول سكنى وغرفتى ومرقدى- حول المساكن المجاورة تطلق الكلاكسات والسرائن عالية الصوت. اتقلب فى فراش غير متساو فأرفع الوسادة فوق رأسى وأدور أسفل منتصف الملاءة البيضاء محاولاً للمة الأصوات الآتية من غرفة الحمام الخافتة الإضاءة. المياه تنقر سطح الحوض "الجرافينا" السيمون وأذنى تنصت للكركرة ووشيش السيفون الصاعد بجلبة تشبه الهسيس أشبه بالزخات التى تسقط فوق أوعية من صاج. فوار فى هالات الضوء المندفع من شرفات الحمامات المجاورة لغرفى.. الكلاكسات تتعالى ويزداد الزعيق والميكروفات المكبرة معلقة فى مكان ما قُرب الذاكرة الحانية. دانية من أذن الراقد عبر الليال الطوال فى الأزمنة المنفلتة، وتتكرر الأصوات.

"عـايدة"؟! ! عـايدة العروسـة والعريس. عايدة والجرى للمتاعيس، عايدة أمورتـنا الليلة، والوحشـة بتزيد. والدخلة الليلة على عابد؟! ! عايدة- عايدة يا قمـرة يـا سـت الكـل لـون الطـرحة بلون الفُل، آلو آلوه ٣،٢،١- ألو ألوه تيست مـايك، يـزيد الصخب ويتعالى الوشيش وتتوالى الليالى مظلمة بعد العشاء وتطول وحدتـك بعـد الفـرح؟! ! وتـبقى الـنداءات عـلى شـخوص مبـتورة حـروف أسمائهـا عـايدة يـا زيـنة يـا بنـت حلـيمة وشـك والله دا صـحن كـريمة وعـرائس وعرسـان داخـل الـزلكات السـوداء "والأوبـل الحمـراء" و"الماتريكس" الـرمادية، الـورود بلدى ترمى من أعلى أسطح منازل قديمة. والرؤية أوضح فوق سـريرى. تحـت ملاءاتـى- أنـا المخنوق الخارج من الشرفة عائداً إلى وسط الجدار الصـامت مطـلاً من الفرجة الضيقة على برقة عيون قُط أسود يجرى على الحوائط المتهدمة ويـرن الهـاتف. يباغتـنى رنـين الهـاتف دومـاً. أغلـق زجاج شرفاتى على شراشف البشكير الوردى الطويل المبتل المفرود على عتبات نوافذى.

° ° °

ألـوه. ألـوه، أيـوه. أيـوه يا بلبل. كله تمام، صوت نبيل فرج على السماعة يهاتفنى من بورسعيد،

:- (أيـوه يـا أسـتاذ. أخـبار مصـراية. عاملـة إيـه معـاك النسـوان أظـن والعـه. ولا خـلاص إتلمـت- لمّوهـامع دخـول المـدارس، آه يـا معـرص- (هـايص انت عندك)؟! ! قولى يا حودة- إيه أخبار الشراميط فى عاصمة المُعز)

:- كلـه تمـام يـا نطْـع. إيـه أخـبار الأشـاوس وعـامل إيه الزينى وعبدالله وأحمد مصطفى وعادل والواد المنغولى ابن محمد خلف،

ويقاطعـنى وقت الرد. وتتسرسب الجلبة والزعيق الأتى من سوق "البازار" هناك مخترقاً أذنى عبر سماعة الهاتف،

-: (بص يا حودة.. محمود. فرحى بكرة. عقبالك. وكفاية كدة، معلش لا تؤاخذنى- معرفتش "أكلمك إلا دلوقت، على فكرة أنا بكلمك وأنا شايل "النجف" لسه جايب النجف دلوقتى من عند بشكة اللى فى النهضة، محمود يا طلخان أنا قريت الفاتحة من أسبوعين على "غادة بنت التميمى" بتاع الكباب. وبكرة كتب الكتاب والفرح فى صالة "مكسيم" هستناك يا معرص.. ويضحك نبيل ويطول زئيط الصحاب من حوله- ادفع السماعة بعيداً مبتعداً عن القرص المستدير؟!!

° ° °

كل ما أذكره سحبى لزجاجة "البلاك هورس" من الفريزر شربت كأسين وأدخلت قدمى فى الحذاء "الكلاركس"، صعدت ثم هبطت عتبة الدخول العالية أمام شقتى. ركضت أنزل السلالم الرخامية متوجهاً لكورنيش النيل، داخل العربة الهونداى الأبيض X أسود قال لى السائق:

-: إلى أين أنت ذاهب؟ قلت: "المرج الجديدة" موقف سيارات البيجو بتاع بورسعيد، الأشجار بتجرى من خلفى قبل منتصف الليل وعلى الطريق المسفلت وضع سائق الـ "٥٠٤" شريط القرآن للشيخ "محمد رفعت" واقتحمنى الوشيش من جديد مصحوباً بكركرة ماكينة السيارة الفرنساوى هذه المرة، رأسى لابده على قائم الجانب الأيسر فى الكرسى الأوسط. فاحت رائحة الحشيش من الكرسى الأمامى جهة السائق الذى ظل ينظر لملامحى فى المرآة المعلقة فوق رأسه أعلى "البريبريز" وسرحت هالات الدخان الأزرق فى سقف العربة ففتحت بابى متسرعاً مع دنو الرائحة تخترق أنفى أغلقت زجاج الباب على الفور. ودنا قرص القمر الساطع يسبح فوق الكثبان الرملية على يسارى. دنا القرص حتى خُيل لى إنه يسبق رحلتى. يدلنى على معالم الطريق الطويل.. (يوم يقول الإنسان اين

المفر).. وتطول التلاوة ويرتل الشيخ الضرير الجالس فى براح الكون. وتبزغ نجمه وتنبثق نجمه أخرى (مازاغ البصر وما طغى) "ما كذب الفؤاد ما رأى"، ورأيتنى نشوان- اسحب النفس وراه نفس والسيجار مبروم. والحشيش زيت مبروم فى خابور وسط الدخان، وسكرة المختال يراها فى صورته- البدلة الكاوبوى والقيص السماوى X أحمر كاروهات والحذاء أسبانى هاف بوت نبيذى أسبور راقد فى الدواسة، ماشى على حصى خشن فى طريق مجهول- وبُطل لهيئتى داخل الصورة الفوتوغرافية المسحوبة من الحقيبة الهاندباك الموضوعة على كرسى خالى. أغفو. ثم أهش النوم ثم أغفو من جديد على وضوح الصورة- رأيت السفينة من الخشب الزان تسير فى المجرى الملاحى بالقناة. بعد منتصف الليل. من وسط الثكنات المهجورة البعيدة عن مرمى البصر بزغ نور الفنار يدور فى وهج، حدقت فى "البربريز" الأمامى وقرب مدخل المدينة الساحلية قلت للسائق: - "حى المناخ" شارع مظلوم و١٠٠، المشير أحمد إسماعيل على سابقاً، لا أعلم عدد سنوات العمر التى انقضت على الطريق الطويل ولا عدد الساعات التى مرت فى الرحلة الأخيرة، ولكنها الصورة القديمة الملتقطة فى أحد الأفراح؟!! ما بين الخمود الجسدى النسبى وتجلى الحواس بالمخدر فى الساعات الفائتة طللت فى ساعتى "السيتزن"، هبطتى من السيارة أمشى فى شارع "الحرية" تحت الأشجار اليافعة التى أسودت أوراقها فى ظُلمة ما بعد منتصف الليل... ماذا فعلت يا محمود؟!!

-: (لا أعى كيف كانت خطاى فى الطريق، ولكن من الممكن أن تدلكم الصورة؟!! فهل ستدلكم الصورة فيما بعد عن ما وصلت إليه فى هذه الرحلة وكيف كانت. ومن هو الذى أشار على بالسير أو أختيار هذا الطريق.. وهل ستتمكنون من رؤية صورتى القديمة تلك، الجسارة تنفخ. فى روحى وأقدامى

تسابق الريح فى الطريق الجديد المؤدى لمنزل العائلة الكائن هناك- "بحى المناخ" السلام مظلمة وقط يجرى فى خلاء الطرقة الطويلة- أصعد. أصعد حتى تغوص أقدامى فى الدواسة. أتحسس العتبات- المشايه القطيفة غامقة وقصيرة. ويفتح الباب على وجه "هالة" تنفلت بالضياء ويبقى شحوب وجه الأم البارز من الإيشارب الأسود اللامية- تحتضنى فى رهبة فانفلت صوب غرفتى متوجهاً لسريرى القديم الخالى وكسوة الوسادات المنبعجة تمزقت فوق القطن- تمددت وبجانبى الحقيبة و"الصورة" تحت رأسى تُبرز شعرى الهائش وعيونى الجاحظة. أغفو فأرانى وقد وقفت تحت دوش ساخن والبول المحتبس يندفع من عضوى فى سلاسة وينتابنى الخمول لحظة فينتصب ذكرى من جديد. أضحك فى عبث، ادعك رأسى وصدرى بالشامبو "البانتين" واستدير على صوت هديل الحمام السارح فوق الأسطح المجاورة. اتمدد فى فراش وثير برائحة معطرة- أهم مسترخياً فاتمدد؟!!

-: كم بلغت الساعات. ومنذ متى بدأت الرحلة؟!! وكيف كان السفر؟!!

وهل وضعت سماعة الهاتف بعد مكالمة نبيل من "البازار" يوم أن هاتفنى من بورسعيد.. أمى تيقظنى فى الرابعة عصراً على صياح وزئيط أطفال شقيقاتى، "باتعة" مريضة بالكبد منذ ثلاثة سنوات. شقيقتى الوسطى محجوزة بمستشفى "ناصر" فى غرفة العناية المركزة بقسم أبحاث الكبد، وأطفالها توزعت وجوههم حول ترابيزة الغذاء فى منزلنا القديم، أكلت بشراهة وارتديت ملابسى ووضعت نظارة شفيفة بإطار مذهب فوق عيونى الحمراء، نزلت مع أول رنة فى تليفونى المحمول- نبيل فرج فرحى اليوم يا أبو طه- الزينى وعبد الله سيسبقوننى إلى صالة "مكسيم" فور انتهائهم من جلسة الحشيش على الجوزة النحاس فى "أول العرب"، وتحية لعريس الليلة. صديق العمر. "نبيل". "أبو

رامى" هيحيى العريس فى "إبراهيم توفيق" و"الشرقية"- مشيت قاصداً شارع الشرقية. دخلت من "كسرى" ومررت "بالعدل" فساقتنى قدماى إلى جلستهم. سلمت باليد فاحتضنونى ودارت الجوزة النحاس على الشاربين. وسحبنى "أبو رامى" من يدى اليمنى وسلط الغابة باالاى بيسراه ناحية فمى- (مساء الفل يا أجمل محمود. وحمد الله على السلامة يا جنتل. إشرب يا بطل، اتنقلت وجلست بجانب العريس كان نبيلا فأجلسنى على الكرسى الخيزران. ربتُ على فخذ عادل مصطفى الذى قبلنى كثيراً وطال تحديقه لوجهى صامتاً. وربت على ظهرى من جديد. وتوارى بوجهه أقصى يمين القعدة، فطفرت دموعه فجأة فانتزع منديل ورقى من على الطقطوقة الخشب الصغيرة. مسح دموعه وقال مداعباً- (الليلة ليلة فرح يا عم الناس "يامُطراب الليلة فرح الحبيب نبيل. عقبالك يا أستاذ، أشرب يا عرص. قرب الجوزة النحاس من جديد، ٣٠ حجر زيت على مغربى- وسب الدين طال وينعل دين أم الغربة عاالسفر عاالثقافة والصحافة يا قلالات الأدب يا مظاربة. قالها عادل مصطفى. ودارت الغابة البوص من جديد حوالين الشله الملفوفة حوالين الطقاطيق الجريد. إشرب عشان تفتكرنى يا أبو طه.. تفتكرنى أنا بس- آه. وانْسى الزمان اللى فات؟!!

:- (إشرب واحبس وانسى القاهرة الفاجرة،

شربت ١٤ حجر على نار سماسم مشعَّرة وهادية وهاجت النار مع آخر حجر مزنهر وفردت ظهرى على الكرسى وحسيت بنشوة غريبة. جسمى خفْ وروحى صفْت، وصارت تيارات الهواء المنعشة تلفح وجهى المغسول بالصابون "اللوكس". بت أعبث بشعر راسى فى كبرياء وقسوة ضاحكاً على الشاب المراهق الذى سار من أمامنا فتوقف قبلى وقد امتطى حمارة عرجاء نهقت وانتصبت فجأة فى مواجهة صدرى المفتوح فضحكت فى دهشة وقمت موجهاً ياى الجوزة

الـنحاس إلى أسـنانها الغلـيظة المدبـبة- (بخـتك يـا حصـاوى) قالهالى نبيل فرج فضحك الجميع، ودنـا العـريس يترك كرسيه ليقف وسط الدائرة بجانب منقد الفحـم المشتعل. استمرت القعدة ساعة ونصف وشرب عادل مصطفى أكثر من ٥٠ حجـر . وأكـتفى "أبـو رامـى" ونبـيل بعشـرة أحجرة. وانتهت الأوقية الرابعة. واتفقـنا عـلى استكمال السهرة عقب انتهاء حفل الزفاف بصالة "مكسيم"، وقال عادل مصطفى. (بقية السهرة هتكون عند فتحى كوارع فى "الكويت".. ورد "أبو رامـى" والدخـان يخـرج مـن فتحـتى الأنف الضيق- (العربى عصموص بيناديكو يـا أشـاوس)، قمـت أمشـى وحـدى أسـابق الهـواء العنـيد فـى منتهى الخريف المنعش. عـلى الأسـفلت المتساوى أشعلت سيجارة وراها سيجارة فأخرى ملفوفة بالحشـيش ناولـنى إياهـا العـريس قـبل إنصـرافى- أشـعر بنشـوة سـحر. سكْرة متزنة تدعونى لفتح أزرار القميص الحرير فى شارع "محمد على" وقبل "المسلة" وعـند مـيدان الشـهيد اتجهـت إلى اليسـار قاصداً بـار "طمادى لابوست" وعادل مصـطفى اسـتقل السـيارة "الشـبح" مـع العـريس نبـيل ابـن فرج. العربة الشبح يمـتلكها الحـاج "حسـن الـزلاط" جـوز اخت نبيل. الشبح فرت بجانب الجاكت الجلـد الأسـود الموضـوع عـلى ذراعى الأيمن فى شياكة ودلع. مع إنفلات السيارة "القرطبة" من خلفى ظهر الحصى الخشن لامعاً أدنى إطارات الكاوتشوك الغليظة —وشـفت دمـاغ أبـو رامـى خارجة م الشباك بزغرودة عالية لا تصدر إلا من امرأة قحـبة، ونـادى عـلى فـى الطـريق عادل مصطفى وأخرج رأسه من الباب الخلفى للشـبح وقـرب مباحـث أمن الدولة- (ماتطولش يا أبو طه.. وكفاية ربع البراندى تقيل عليك، الله يخرب بيت أمك يا أستاذ يا محمود.. وينادى عادل مصطفى فى شارع الجمهورية (إحنا هنستناك هناك فى "مكسيم")

° ° °

متجلياً أنت أم مسحوراً. أم هى ساعات النوم السبع هى السبب فى تلك الحالة الى تلازمك منذ نزولك من البيت، تبدد الشعور بالخوف ولان القلب بعد الانقباض الطويل- توهجت حواسك وصرت أكثر يقظة وفتوة، على طاولة مستديرة من الرخام الأبيض جاءك النادل فى بار "طما" الخافت الإضاءة على يمين شارع "الجمهورية" الطويل

:- (أجيب لسعادتك إيه يا جنتل، ورمى بطوق فُل فى صدرى المفتوح)

:- عايز بيرة "ستلا" ساقعة، للأسف مفيش بيرة ولا ثلج،

- (أمال عندك إيه يتشرب يا فنجص، ضحك فتدلت راسه فوق الرخام، (براندى. وكله سخن للأسف والمزة "ترمس"

:- (مفيش فستق مملح)

- نبعت نجيب هوى،

تلات تربع براندى سخن وربع فستق، وراقت الدماغ. وإتزن اليافوخ يا أستاذ وشعرت بقوة غريبة تتوغل فى أطرافك، مشيت فى الهواء الطلق السارى فى منتهى ديسمبر. أدنى صالة "مكسيم" بانت مصابيح الإضاءة المتدلية من النحاس الكلاسيكى المُترب معلقة فى خوابير حديدية على طول ممشى "ديلسبس" البازلت العالى. صعدت السلم على صوت الزئيط وفرحة هوانم صعدن الأسانسير فى شلل ومجموعات وبان الياقوت والماس وتوهج بريق الزبرجد والعقيق فى فصوص كبيرة تلألأت تحت لمبات الفسفور الكمثرية والنيون الـ ١٢٠ والـ ٦٠ والأخرى البيضاوية المنتفخة. وأم عبده الكوكس تزغرد زغرودة شعبية صدامة فتطل لها مدام "باكينام قطامش" بسخرية. وتكرر المرأة الزغرودة فى نوبة كيد وبوابة الصالة الرئيسية فى الدور الرابع مشرعة. والمعازيم أغلبهن من السيدات والفتيات الشقراوات بالشيفون القصير والمكس.

وفساتين السهرة السوارية الحرير والجرسيه بكنار لاميه وردى واصله لتحت الركبة وقُرب الأفخاذ البيضاء المتينة المنتصبة على الأحذية القرمزى أم كعوب طويلة. وعربة مصر للسياحة تتوقف فجأة أسفل مبنى "سونى" المُطعم بالألونيوم السميك. الكل يهرول جهة الصالة جالساً أمام الكوشة التى جلس عليها النبيل فرج وبجانبه مالت العروس غادة بنت التميمى لتتناول الكوب الكريستال من عصير البرتقال. الفستان موف بفصوص ألماظ صغيرة وفوقه العباية بيضاء من الشيفون الخفيف والصندل الأبيض لاحم بكعوبه فى السجادة القطيفة الحمراء وبانت أصابعها الصغيرة مطلية بالمونوكير القرمزى. وحانت ساعة الزفة بالشموع ومشت الأصابع النونو خجلانه فوق مشايه عجمى نبيذى امتدت تحت الأقدام حتى بداية سلم الهبوط المواجه للمدخل رقم (٢)، وبدأت فرقة "النورس" مع غناء المطرب طارق ياسين تلتف حول البيست. وخلعت الفتيات الشقراوات أم العيون الخضرة والزرقة- الجواكت القطيفة والفوريهات. بنات من هولندا وقبرص وأسبانيا. تصادف وجودهن قبل ليلة الكريسماس، وتزينت الصالة مع عبور الوفد السياحى الأوروبى وانخرست أم عبده اللوكس وانصرفت باكينام فى هدوء.. قُرب القنال وعلى صفحة الميناء فى بورسعيد أطلقت الزغاريد من جديد وسمعها العابرين فى المراكب الخشب قاصدين البوغاز- الصوت بيبعد ويقّرب والصورة ضاعت من زمان. والفرح شغّال؟!!

فصل ١٣
[تدخل الأصوات]

رأيتني غارقاً في عرقي اتقلب في فراشي وسط الصمت المطبق محاولاً نسيان ما مضى لتأتيني الأصوات من ماض سحيق يخرجني من غفوتي، على صوت الفاجر، أتى زعيق الشامت غليظاً، في صرخة واحدة اخترقت السكون الميت لشاطئ ساحل بورسعيد الطويل ممتداً حتى مقابر المناخ، صرخة الحاقد على مجد عائلة "طلخان" يرتج على أثرها الرمال في الخلاء الموحش في لحظة حنين للغائبين؟!!

(إنزل يا عربي يا براموني.. إنزل يا حسين يا عبد الرحيم؟!! إنزل يا مظراب يابن الوسخة- أبوك اتقتل؟!!)، وتتخلخل التراسينة الخشب فيتهشم زجاجها الأبيض ساقطاً منثورا في "طرح البحر"، وصار شغلي الشاغل الإنصات للنداءات والأصوات المتعددة التي تكرر أسماء المفقودين في نداءات قاسية وأخرى متحسرة تتداخل في جلبة الزعيق فتدنو مخترقة أذني- حاولت التمييز بين الأصوات فصارت همهمات الصدى تلاحقني ليبْرز صوت على عبد الرحيم مع نقرات أصابعه الغليظة على باب شقتي من الخارج.

- إفتح الباب يا محمود. محمود. يا محمود افتح الباب؟!!، فتحت الباب في هلع فدنا يخطو جهة العتب قائلاً في أسى (لقينا أبوك يا محمود. أبوك مات مقتول يا محمود؟!! ولاح لي وجه شقيقي الأكبر يبرز من ضلفتي

حجـرة الـنوم المجـاورة خـرج بسرواله القطنى فنظرته وقد رفت جفونه. وكرر المنادى الخبر فصار يلطم خدوده باكيا منتحبا (يا حبيبى يابا)، واخترقنى صوتاً جهورى انفلت من صدرى خارجاً من حنجرتى محذراً (أفق يا محمود أنت نائم. أنت سكران)، دُرت فى مكانى متحلقاً حول سريرى عائداً لفراشى أدعك عينى المجهدة محاولاً النوم... وعادت الأقدام الغليظة تدق عتبات مدخل العمارة فتدنو لباب المصعد ويأتى صوت المنادى مبحوحاً صاعداً من السلم العميق فى الدور الأرضى نافذاً من باب حجرتى منساباً يسرى فى حواسى وأذنى

(يا ترى هيه دى النهاية ولا البداية يا محمود؟!!)

° ° °

ثمة ملامح متجهمة تطفو فى ذاكرتى. هالات شيطانية تتراقص أمام عينى النصف مفتوحة. روح أبى تتجلى فى قلبى وسريرتى صورته تشد حواسى فتعتلى ذاكرتى. ملامحه المميزة. بشرته السمراء. فتوته. معصمه الغليظ. الحول الظاهر فى عينيه. غَلبه صوته القوى ينادينى آمراً إياى بالنهوض يصرخ فى بغلظة غريبة على سمعى.. أضرب الغطاء بقدمى وأحكم العصابة حول عيناى أتحاشى المنشور الضوئى الرفيع الداخل من شباكى صوب حدقاتى. أتقلب فى الفراش غائصاً فى العرق والمتاهة، أخاطب نفسى فى همس- من أين تأتى الأصوات. وما هو مصدر النداءات هل تأتى الأصوات من خلفى. من أمامى من عن يمينى. أم يسارى أم من داخلى يجوز؟!! أظنها تأتى من خلفى مباشرة من خلف ظاهرى أتت النداءات فاعتلانى الصوت يسبح فى كيانى. يهجم على وعيى فيخترق كيانى كله بزلزلة... (قُتل أو ذبح. أو غرق. أو غُدر به) ليس هذا هو المهم، ما يهمنى تحديداً هو الانصات لمصدر النداء الأخير (يا ترى هيه دى البداية ولا النهاية يا محمود؟!!)

ومن هو الصوت الدافع بهذه المقولة أو تلك التساؤلات. التى افزعتنى فى مرقدى فانتبهت لسقوط كوب الماء الفارغ على البلاطة المشروخة أدنى سريرى.

صرت على يقين كامل ومؤكد بأننى كنت استمع وبنشوة لبشارف سيمفونية لم تكتمل لبيتهوفن.

مؤكد أننى قد رحُت فى غفوة فتركت الجرامافون الموضوع أعلى الترابيز الأربيسك الصغير مفتوحاً فسرت الإيقاعات تصدح فى جنبات الخلاء عبر نوافذ التراسينة الخشبية التى تركت زجاجها مشرعاً،

هل طفى النداء من داخلى. من نفسى أُعنى. يمكن، أم تراها صرخة قهر وخوف؟! !- خوف- نعم.

- ولماذا الخوف يا محمود؟

الساعات بتنفلت فى رهبة. والأعمار تتوارى فانية والأجساد معتلة، وعمرك انقضى فلا تعرف كيف ومتى. أين تراكمت السنون ولاح المشيب- ٣٩ سنة؟!!

هذا كل ما أذكره مضافاً إليه. شكل غرفتى فى سكنى سريرى- مرقدى موقعى من كافة الأشياء من حولى.

موقع الأشياء منى- الصور البارزة من حولى. من نفسى من ذاكرتى.. همهمات التخاطب والسؤال الوحيد عبر زمانى المنقضى هناك وهنا، فى سوهاج - فى بورسعيد . وفى القاهرة. أبوك مات يا عربى فى ٥٦، أبوك انتحر فى ٦٧ يا محمود؟!! رمى بنفسه من الفنار القديم فى "غفلة من عبده الديب"، أبوك غرق بعد ٧٧ مع يوسف رخا ويوسف غرام، رمى نفسه فى الكنال الساعة تلاتة بعد نص الليل بعد ما خرج من قسم المينا تانى يوم ما زار السادات بورسعيد وفتح القناة.. أبوك غايب من سنة ٨٠ يا حسين؟!!.

وعمك إبراهيم أبو حجة هوه الوحيد اللى عارف هوه فين- لأنه شافة وهوه قاعد بيحشش مع السيد البصراطى والمهندس نهاد الإكيابى فى غرزة فتحى كوارع.. اللى جنب فيلة "السادات".

إذا أردت العثور على أبيك فابحث عن نفسك أولاً، أبحث فى نفسك يا محمود؟!!

فصل ١٤
[تداخل الأصوات]

ورأيتني غارقاً في عرقي. أتقلب في فراشي وسط صمت الغرف والأماكن والأمكنة والبلاد محاولاً نسيان ما مضى لتأتيني الأصوات من الحاضر اللابد ليُخرجني من غفوتي،

على الصوت الفاجر- أتى زعيق الشامت غليظاً، في صرخة واحدة اخترقت السكون الميت لشاطئ ساحل بورسعيد الطويل الممتد حتى "مقابر المناخ"، صرخة الحاقد على مجد عائلات "طلخان" وعبد الرحيم والعربى البراموني ويوسف رخا. ويوسف عزام؟!! صرخة إرتجت على أثرها الرمال في الخلاء الموحش في لحظة حنين للغائبين؟!!

-: (إنزل يا عربى يا براموني.. إنزل يا حسين يا ابن عبد الرحيم؟!!

إنزل يا "مظراب" يابن الوسخة- أبوك اتقتل؟!! إنزل يا يوسف. يارخا. يا عزام، إنزلو يا مظاربه ياولاد القحايب،

وتتخلخل التراسينة الخشب فيتشهم زجاجها الأبيض ساقطاً منشوراً في طرح البحر، وصار شغلى الشاغل الانصات للنداءات والأصوات المتعددة التي تكرر أسماء الغائبين والمفقودين في نداءات قاسية وأخرى متحسرة وشامته. تتداخل في جلبة الزعيق فتدنو مخترقة أذني- حاولت التمييز بين الأصوات

فصارت همهمات الصدى تلاحقنى ليبرز صوت عبد الرحيم، مع نقرات أصابعه المخشوشنة الغليظة على باب شقتى من الخارج.

-: إفتح الباب يا محمود. محمود يا محمود- إفتح الباب؟!! فتحت الباب فى هلع فدنا يخطو جهة العتب قائلاً فى أسى (لقينا أبوك يا محمود- أبوك مات مقتول يا محمود؟!!

ولاح وجه شقيقى الأكبر بارزاً من بين ضلفتى حجرة النوم المجاورة. خرج بسرواله القطنى فنظرته وقد رفت جفونه وقت أن كرر المنادى الخبر فصار يلطم الخدود باكياً منتحباً (يا حبيبى يابا)،

واخترقنى صوت جهورى. انفلت من صدرى خارجٌ من حنجرتى الجافة محذراً: (أفق يا محمود أنت نائم. انت سكران؟!!)،

دُرت فى مكانى متحلقاً حول سريرى عائداً لفراشى داعكا عينى المجهدة محاولاً النوم...

وعادت الأقدام الغليظة تدق عتبات مدخل العمارة فتدنو لباب المصعد ويأتى صوت المنادى مبحوحاً صاعداً من بير السلم العميق فى الدور الأرض نافذا من باب حجرتى منساباً يسرى فى حواسى وأذنى: (ياترى هيه دى البداية ولا النهاية يا محمود)؟!!

° ° °

ثمة ملامح متجهمة تطفو فى ذاكرتى. هالات شيطانية تتراقص أمام عينى النصف مفتوحة. نصف مغمضة، روح أبى تتجلى فى قلبى وسريرتى. صورته تتعاظم فى حواسى فتعتلى ذاكرتى. ملامحه المميزة. بشرته السمراء فتوته. معصمة الغليظ. الحول الظاهر فى عينيه- غُلبه.. صوته القوى ينادينى آمراً إياى بالنهوض. يصرخ فى بُغلظة غريبة على سمعى...، أضرب الغطاء بقدمى

وأحكم العُصابة فوق عيونى متحاشياً المنشور الضوئى الرفيع الداخل من شُباكى صوب حدشاتى. أتقلب فى الفراش سابحاً فى العرق والمتاهة أخاطب نفسى فى همس: من أين تأتى الأصوات؟ وماهو مصدر النداءات. هل تأتى الأصوات من خلفى من مامضى. من أمامى . من عن يمينى أم يسارى. أم من داخلى- يجوز؟!!،

أظنها تأتى من خلفى مباشرة. من خلف ظهرى أتت النداءات فاعتلانى الصوت يسبح فى كيانى، يهجم على وعيى فيخترق كيانى كله بزلزله... (قُتل أو ذبح. أو غرق. أو عُدربه، ليس هذا هو المهم- مايهمنى تحديداً هو الإنصات لمصدر النداء الأخير (يا ترى هيه دى البداة ولا النهاية يا محمود؟!!)

° ° °

وما هو الصوت الدافع بهذه المقولة أو تلك التساؤلات التى افزعتنى فى مرقدى فانتبهت لسقوط كوب الماء الفارغ على البلاط المشروخ أدنى سريرى، صرت على يقين كامل ومؤكد بأننى كنت استمع وفى نشوة- لبشارف "سيمفونية" لم تكتمل "لبيتهوفن". مؤكد أننى قد رُحتْ فى غفوة فتركت الجرامافون الموضوع أعلى الترابيز الأرابيسك الصغير مفتوحاً فسرت الإيقاعات تصدح فى جنبات الخلاء عبر نوافذ التراسينة الخشب التى تركتُ زجاجها مشرعا،

هل طفى النداء من داخلى- من نفسى أعني!!. يمكن، أم تراها صرخة قهر وخوف؟!!- خوف- نعم.

– ولماذا الخوف يا محمود، وممن تخاف؟

الساعات تنفلت فى رهبة. والأعمار تتوارى

فانية في غموض وعبث. الأجساد معتلة... وعمرك انقضى فلا تعرف كيف. متى. أين؟!!

تراكمت السنون ولاح المشيب- ٣٩ سنة؟!! هذا كل ما أذكره مضافاً إليه - شكل غرفتي في سكني وثكناتي . سريري. مرقدي. موقعي من كافة الأشياء من حولي. موقع الأشياء مني- الصورة البارزة من حولي من نفسي. ظلالها- من ذاكرتي.. همهمات التخاطب والسؤال الوحيد عبر زماني المنقضى هناك وهنا - في سوهاج- في بورسعيد في القاهرة، (أبوك مات يا عربي في ٥٦. أبوك انتحر يا محمود في ٦٧؟!!

- رمى نفسه من الفنار القديم بعد ما غافل رفيقه عبده الديب، (رمى نفسه في الكنال الساعة تلاتة بعد نص الليل)؟!! بعد ما خرج من قسم "الميناء" تاني يوم مازار السادات بورسعيد وأعاد افتتاح القناة... أبوك غايب من سنة ١٩٨٠ يا حسين؟!!

وعمك إبراهيم أبو حجة هوه الوحيد اللي عارف هوه فين؟!! لأنه شافه وهو قاعد بيحشش مع السيد البصراطي والمهندس نهاد الإكيابي في غرزة "فتحي كوارع" اللي جنب فيلة السادات،

- لأ- في "غُرزة" العربي عصعصوص.. (آه كان قاعد بيحشش في "غرزة" العربي عصعوص..

- إذا أردت العثور على إبنك فابحث عن نفسك أولاً.. إبحث في نفسك ياحسن؟!!

فصل ١٥
[العربى المظراب]

كان ينزع الصور من على ظهر "الكراسته" الحديد.

لقطات وبراويز من ورق مصقول بتوضح تاريخ الزعيم جمال عبد الناصر... صورة فى فلوكة خشب بيلوح بيديه بفخر فيبتسم للكاميرا وقت حصار "الفلوجة" وأخرى بزى عسكرى يخطب فى الأمة ويتوعد إسرائيل ومن ورائها. صورة ثالثة أبيض فى أسود يخطب وسط حشود هائلة فى "ميدان المنشية" ويردد فى صراخ طويل وصوت مبحوح-كادوا أن يقتلوننى بعد أن وضعت فيهم العزة والكرامة؟!!

خرج من ورشة ثلاثة لقسم بناء السفن بالجزيرة الخامسة يجرى ليلحق الحشود التى تراصت فى طوابير طويلة فى انتظار القفز داخل اللنشات "الفيبرجلاس" والفُلك الخشبية الماهوجنى المصنعة بشركة الرباط للشحن والتفريغ، ودنت فالتحمت فى الرصيف المبلول القاطرات الحديدية الجديدة معاون٤، إنقاذ (١)، إنقاذ (٥) الهابطة للتو من أعلى "أزق" ورش الإنشاءات البحرية ولما تعالى الصخب ودوى الهتاف جرى "العربى المظراب" بعد ما دلق آخر قطرة من زجاجة البيرة "الهانكن" البلجيكى والتى تعود على دسها فى قعر الجوال الخيش الصغير المعلق بخابور حديد صدء ببروزين واحد للبيرة والآخر تتدلى منه قُلة ماء قناوى ندية. قفز على المسطحات الصاج الواصلة حتى

حوض الرشمة وقتما دنت الأصوات تخترق الأذن المنصتة دوماً لوشيش ماكينات الديزل وكركرة الرفاس وظهر عبدة فلاش منهمكاً في عالمه الأثير وذهوله المتكرر برؤية حبات التفاح الطافية فوق سطح الماء المالح والحامل لعكارة بسيطة من زيت وشحم سرعان ما تزول فور اصطدام أول صاروخ بحرى بالمركب الصغير المركون بجانب الأذق والذى يملكه "عبده" برخصة جديدة آتته منذ أيام بأمر من حكيمدار المدينة حسن رشدى الذى أُتمر من القيادة المركزية بالقاهرة بتنفيذ الأمر على الفور ولجنونه بالتفاح منذ مولده ورؤيته لأبيه البمبوطى القديم الذى عمل مع الطلاينة والقبارصة اللجريج منذ بداية القرن كأول ملاح مصرى يحمل مهنة "بحرى ومرشد" خارج على المعاش مزاولاً مهنة البيع والشراء للتفاح اللبنانى، لم ينتبه عبده فلاش بأن هذا الصاروخ الذى سقط للتو هو الرابع من نوعه الذى يهوى فى ثوان معدودات.

وهوت الدانه على مقربه من وقفته فانتبه للدم الأحمر الذى طرطش على حذاءه الهاف بوت الهافان فانشطرت حبات التفاح اللبنانى والأمريكانى الأحمر وصارت أشلاء ينز منها الماء سُكر. وهرول عبده مع إطلاق سرائن التحذير الآتية من قلب البوغاز. ومن ناحية قاعدة الشبكة الرادارية فى الكتيبة ٤٨ فى بور فؤاد ودوت صفارات الإنذار على ألسنة رجال المقاومة الشعبية فى حى الشرق وخرجت أنفار الدفاع الشعبى والمراقبة الجوية إلى الشوارع وتركت المخابئ الحصينة المحجوبة خلف محكمة بورسعيد. وبجانب مبنى هيئة قضايا الدولة ببور فؤاد فر العساكر فى اللنشات فرادى ومجاميع فخلع عبده العفريتة الزرقة على الفور وتلاحقت الضربات من البحر والجو وزاد صراخ عمال الجزيرة الذى انضم إليهم العربى المظراب وسحب فلاش الذى هرع أمامه وانطلق يهذى ويسب الدين والملة، وانتفض عمال الرشمة يزعقون فى وجه المدير

أحمد أبو طالب الذى لم يوافق على إنقطاع التيار الكهربائى وفصل الوصلة الرئيسية من "الكوبانية" فى العرب فانقطعت المياه الحلوة عن الورشة بتعمد من أجل استنهاض همم العمال وتركهم لعاداتهم السخيفة فى صيد الدنيس والوقار والبورى، وسمعت المهندس نصر كوارع والسيد "سيد مزيكا" كبير مهندسى الهيئة فرع التخطيط يقول لعمال الخراطة والميكانيكا وسبك المعادن جوه الورشة.

– يا جماعة إحنا اللى قطعنا الميه عمد عشان محدش فيكم يزوغ. القضية مش قضية ميْه دلوقت. وعموماً إحنا على اتصال دائم برئيس القطاع البحرى المهم دلوقت الكل ياخد حذره ويلتفت لشغله، ويرد عبده فلاش. أى شغل يا باشمهندس،

:– (يا عم عبدة إنت مش على قوتنا فى الجزيرة. إنت راجل موسمى وخليك فى حالك ومتعملش ثورى، وزاد غضب عبده فتقدما سوياً وفى صوت واحد قال العربى وفلاش، (كلنا هننزل البلد دلوقتى غصبن عن دين أمك إنت ورئيس القطاع، وخطف المهندس عبد الرحمن أبو طالب العلم الصغير المعلّق خلف مكتبة ونزل على السلالم الخشبية يجرى ناحية المواعين قافزاً فى اللنش الخشب الكبير المخصص لنقل العمال فى الصباح والعودة. بهم إلى باب ٢٠ فى الثالثة والنصف عصراً قفز الجميع فى اللنش وهرع عبدة يقلب فى صندوقه الخشبى الراقدة فى قعر الفلوكة ليخرج مجلة أمريكية تحمل على غلافها صور المتظاهرين فى موسكو أمام مقر البرلمان ومجلس الدوما والحزب الشيوعى الروسى منددين بالعدوان الباغت على الشعب المصرى وصار يلوح بالمجلة ويشير لغلافها فى وجه رفقاءة بالورشة واقترب من المهندس أبو طالب الذى ربت على كتفه فى ود بيّن قائلاً.. (كلنا هننزل البلد دلوقتى يا أسطى عبدة.

سيبك م المهندس سيد، (أنا اتصلت برئيس القطاع من ربع ساعة وقفل السكة فى وشى وعشان كده أنا نزلت، قفز عبده فى اللنش بعد ما ضرب برميل الشحم فى وجه المهندس مزيكا، وبدأ فى الهتاف وخلفه عمال الورشة ورفع العربى المظراب على الأكتاف وصار يردد. إيدن إيدن يا جبان كله هيضرب فى المليان. "جى موليه" الحق عليه إيه اللى جابه عندنا إيه..؟!!

"أيزنهاور" يا فتاك كل الشعب العربى معاك كل الشعب المصرى معاك. وكل بورسعيد وياك.

وقفزو بالمئات من كافة الورش البحرية وصارت اللنشات تجوب الممر الملاحى للقناة والمهندس أبو طالب يقلب فى المحطات الإذاعية داخل قمرة إنقاذ (٥) والمظلات البريطانية والفرنسية بقيادة الجنرال "بوفر" توالى الهبوط فوق المنطقة الشمالية من قناة السويس وتشتبك مع القوات المصرية فى معارك بالأسلحة الصغيرة، عبده فلاش يتقدم الوقوف على المسطح الخشبى أمام كابينه القيادة فى لنش الجزيرة (١) السائر بالعمال وسط القناة وسفن البترول الأمريكية تطلق سرائن متواصلة خارج البوغاز وجهة أرصفة الترانزيت المواجهة لمبنى "سيمون أرزت" باتت جموع الناس من أهالى المدينة ينادون على ذويهم وصوت المدافع يدوى على الشواطئ. وفتحى كوارع السُكرى يصرخ أمام قسم الميناء. ينادى على عبده فلاش فيصل صدى صوته فى فضاء البحر، (يا عبده المدافع بتضرب فى الجميل. فى الجميل يا فلاش

° ° °

ارتفعت درجة الغليان فى العالم. مظاهرات فى مدريد وروما والاتحاد السوفيتى يصدر البيانات ويشارك فى مشروع القرارات ويدين العدوان الثلاثى تحت مظلة الأمم المتحدة الذى شهدت أعنف المناقشات بقيادة "دالاس" شخصياً

الذى كان يبحث عن قرار فورى بوقف إطلاق النار. محمود طلخان اللابد فى مخبأ العرب بجانب محكمة بورسعيد يخرج من مرقدة ويقفز فى عربة بدفورد نقل (القنال ١٦) ويطوف أحياء المدينة مع حسن زنجير وأحمد عثمان والسيد البصراطى وعبده الزامك ورجال لجان الدفاع الشعبى والمراقبة الجوية يمرون على المنازل ومع دخول الظلام واستمرار الغارات الجوية ينادون على النسوة الواقفات فى التراسينات الخشب، (طفى النور يا أم الزوز، يا أم اللول، يا صديقة. يا أم حسن. طفى النور يا وليه) عبدة يجلس على مقهى المعلم ضاحى سلطان فى أول العرب بيطلب شاى "ميزة" ويستدير ووجهة للنصبة ناحية الوابور الوالع بيلف سيجارة الحشيش من النوع الزيت. المعلم ضاحى قاعد على كرسيه أبو فرشة سفنج وحاطط ياى الجوزة النحاس فى فمه وعيونه بتبرق. وحسن عبد الرحيم بيقول لمحمد بخيت المخبر وبصوت غير مسموع- (المعلم مدووش، آه ه متعكنن، (ويعمل إيه الأفيون مع القنابل يا أبو على) الشوارع ضلمة فى أول العرب) وناحية طولون ونبيل منصور الشباب واقف على النواصى وكل واحد مأنظر السيجارة فى بقه. والعيال بتلعب فى العتمة بفوانيس قديمة وشكرى القوتلى رئيس سوريا بيتصل بعبد الناصر والحاج حسن رشوان بيدور الراديو على إذاعة صوت العرب. ناصر يقرر السفر إلى موسكو بعد اطمئنان القوتلى عن أخبار الجبهة المصرية بعد بدأ الهجوم الإسرائيلى. وبنات المعلم ضاحى قاعدين فى المندرة بالملس عا اللحم وبزازهم طلة من فوق المساند الخشب. المراكب تطوف المر اللاحى على أثر الهجوم الإسرائيلى عصر اليوم. يقف عبدة فلاش شبه عارى. لابس شورت أزرق واصل لركبته وحبات التفاح الصفراء تتحرك على سطح الماء المالح. وعمال كوبانية المية يسخرون من عبدة فى نوبة مرح. إلحق يا فلاش. بن جوريون هيضرب لك مركب التفاح. ويرد عبدة الثائر.

على دين أم بن جوريون الكبير. التفاح سارح فى الضفة الأخرى من المر الملاحى ينزوى إلى اليمين ملازماً عيدان البوص وزرعات الهيش المنتصبة عند مدخل "القابوطى". بواخر الشحن التجارية ومراكب البترول التركية والروسية تنكس الأعلام وتتصدر المر الرئيسى بالمجرى الملاحى أبو الكلوح سقط فى الماء المالح جهة الفنار القديم وصار يهذى وتجرد من ملابسه وسبح وصار بعيداً عن اللنشات الفيبر جلاس الخالية بدأ يلطم الخدود ويزعق منادياً على عم حسن عبد الرحيم، (هنروح فين يا عم حسن. نروح فين ياناااااس، دين أبوكم. ودين إسرائيل على دين أمريكا، (يا عبدة عبدوُه. يا فلاش (فين "أبو حجة" والبصراطى).

فين محمود سليمان يا عم حسن؟! وعم حسن يقول يا عالم أمريكا..؟!! ياعم لا أمريكا ولا روسيا، ردوا علياياناااااس، هيه فين الجيوش العربية؟!! (كلها مصالح يا ولاد الزنا يا "مظاربة") يا عربى يا براموني. ولا يا عربى يا عرب يــ بى) عايز أرُوح أشوف عيالى يا عم حسن. وصلنى يا "بلوك". وصلنى يا عربى يا بلوك ينعل دين أمك.. ويطل أبو الكلوح للسماء العالية الذائبة فى الغماق. آه يا "كارخانات" ياولاد الزنا، ماكينات الديزل تكركر داخل المراكب السائرة قُرب الشاطئ ناحية "حى المناخ" الجديد. ومجلس المدينة يتلقى اتصال هاتفى بوصول المقدم عبد الحميد السراج قائد الشعبة الثانية بالمخابرات العسكرية لرؤية القوات السورية التى ستصل بورسعيد بعد ساعات تطبيقاً لميثاق الدفاع المشترك.

° ° °

الحاج محمد عبد الرحيم يرمى بصرة فى سِنارة طويلة من الشعر الناعم بهلب حديد مربع غطس فى القاع مطعم بعجينة من السمن والدقيق الأبيض.

البطاحيش خطفت الطُعم من "البساريا" وفرت فى الغويط وعم محمد بيشد الشعر بقوة والهلب فارغ، قاعد على كوبرى الرسوة اللى إضرب إمبارح ورفع علم مصر وعلقه فى فرجة الزاوية الحديد فى العامود المشطور.. توقفت حركة عبور السيارات المتجهة إلى ورش مراكب الصيد بمراسى "القابوطى والجميل" وبقى طريق "المعاهدة" و"المرشدون" محوط بكمائن قوات خفر السواحل وتدعيمات بسيطة من الداخلية والأمن المركزى. الطائرات الإسرائيلية ترمى بالمنشورات بصور عبد الناصر فى الهواء فتتعالى فى التحليق وتُحط الصور على سطح مرفقة الماء المنساب بتؤدة حاضناً طيور "النورس" و"البشاروش" الباحثةعن فتات الخبز.. مراكب المتظاهرين تتجه ناحية باب ١٠، ١٢، ٨ المواجة لمدخل قسم شرطة الميناء. الخلق فرت فى الشوارع وظهر فى الصفوف الأمامية تلاميذ المدارس، القطار يدخل محطة بورسعيد قادماً من محافظة الإسماعيلة بوجوه كئيبة والأهالى مع الركاب يتوافدون من شارع "عزمى" وعجائز مرض "الجُزام" يطلون من نوافذ مستشفى "الفرمشية" الخاص بالمشتغلين بهيئة قناة السويس وحارة اليهود تخرج عن بكرة أبيها. أرمن وأجريج وقبارصة وطلاينة بكوا على مقهى السجيع ليلة أمس مع رؤيتهم لصور القتلى فى "حى المناخ" و"الجرابعة" و"المناصرة" وشهداء "ك ٥٦" ردار فى آخر كوبرى الجميل الحديد، جنود سوايسة يهبطون بملابس ملكى ويتفرقون قُرب الشاطئ وسط حى العرب وعند البحر جهة المناخ وخلف "النادى المصرى" صوب الثكنات العسكرية، حسن عبد الرحيم يقود رجال الدفاع الشعبى بصفته مراقب جوى وتقفز الأفراد داخل العربات "البدفورد" المتوجهة لبور فؤاد عبر المعدية، والأذان يتعالى صوته من المسجد "التوفيقى" و"العباسى" ومسجد "لطفى شبارة" المواجه للغزل قبابه واطئة محملة بالشباب والأطفال والبنات الصغيرة من

مدرسة "تنيس" و"الواصفية" وقفت على الدرجات الخشبية لفراشه "البحطيطى" دايرن داير وقد رفعن الأعلام المصرية التى لاحت ترفرف مع النسمات الخفيفة بعد الغروب خلف مستشفى "الإنكلستوما"

° ° °

"إبراهيم أبو حجة" ظهر راكب الموتوسيكل "الجاوا". فر من خلف مقابر "الجميل" ومن فوق الكوبرى الأسود الحديد المعلق لاحت ثمة أضواء خافتة تتسرسب من مخارج "عزبة الجرابعة". بان الإجهاد طافياً على وجهه الأسمر البيضاوى وهو يضغط على ذراع البنزين الواقع أسفل مقدمة قدمه اليمنى، سار عكس اتجاه السير ملفوف بالشال الرمادى الصوف حول رقبته وصار جلد السويتر الأسود أبو كباسين يرتجف على أثر استقبال تيارات الهواء التى تلفح صدره وشعره الهائش. العيون جاحظة دامعة ورماد منتهى سبتمبر يطير فى الأجواء ممتزجاً برائحة الدخان الخارج من الشكمان، الحرائق منتشرة بكافة الشوارع قُرب مقابر الأقباط والمسلمين وعند "الكرخانة" وقبل مسجد "صالح سليم" هدأ من سرعته وانحنى بالموتوسيكل راكضاً فى الرمل الناعم صوب ثكنات قوات خفر السواحل. جنود حرس الحدود واقفون بالأسلحة الميزر الـ ٩ طلقات المصوبة جهة البحر فى وضع القنص. الأيادى على الزناد فى وضع استعداد والرمل الناعم يطير قُرب كبائن القوات المسلحة ليخرج الصاغ محمد سامى خضير ضابط الداخلية من الشاليه الأبيض فى زهرى منادياً على عساكرة المنتشرين بكثرة فى تساومع جنود حرس الحدود المحدقين لألسنة اللهب وكرات النار الساقطة وسط الماء المالح وخلف ميناء الصيد القديم. الأساطيل البحرية الإنجليزية والإسرائيلية تطلق قاذفات المدافع والصواريخ من البحر والجو ويدوى صوت أزير الطائرات الحربية المعلقة فى وسط السماء فوق البوغاز

بقليل وتفر الدانات بومضات براقة وكاشفة خلف مساكن المناخ الجديد. على الحمم وألسنة اللهب وأشلاء جثث الأهالى المتطايرة زاد الصراخ وطال الفزع كل أهالى منطقة "صالح سليم" و"البوستة" وأسوار المقابر الرخامية تهاوت لتخرج جثث الموتى مدفوعة أمام كرات النار المشتعلة التى بانت تفر وسط زراعات الصبار والبوص. ألسنة اللهب تطول قبة مسجد سليم، استدار بالموتوسيكل مكلوماً يقصد منتصف طريق الجميل وسط الطريق المسفلت فسمع دوى انفجارات الألغام الأرضية المزروعة خلف النادى المصرى وصولاً للشط المالح، توقف إبراهيم أمام كشك عباس البصراطى وركن الموتوسيكل على ثلاجة البيرة الصاج العريض المطلية باللون الأحمر. داس بحذاءه الكرب الطوبان المائل بفرجات متسعة عميقة ومشى على قدميه حتى وصل لساكن "الحرية القديمة"؟!! رأى وجوه الناس مكفهرة ومصبوغة بصفار كئيب. الدموع تتهاوى من الحدقات والنظرات شاردة والكل يركض صوب البحر سيراً على الأقدام ومعلقاً خلف عربات الإسعاف وسيارات البلوكامين "البيجو الـ ٣٠٤" الزرقاء أم غطاء مشمع رمادى وعربات النقل البدفورد نقل القنال. ونقل بورسعيد تتأهب للتراص فى انتظام عند جراج شركة النيل للنقل النهرى. العائلات تلملم العفش والحُصر والأطشاط ومُلل الأسرة الزان تنفرط عند منتهى شارع "أوجينيه"، وعم عزيز البصراطى يلمح موتوسيكل أبوحجة فيجرى خلفه قاصداً البوستة ومقر قوات الدفاع الشعبى، اصطدم بوجهه المترب فلاح الإعياء والهزال بادياً على ملامح العم عزيز الذى صرخ على إبراهيم وقت أذان المغرب ليسأله عن أحمد الغندور وعبدة فلاش. وقال إبراهيم أبو حجة وهو يشرب من كوز الماء الصدء المتدلى من ظور الزير الملفوف بالخيش المبلول ناحية "غرزة" إبراهيم عصعوص" (مشوفتش سمير زخارى يا عم عزيز. عم عزيز- (حقه سمير مات قولى يا عم عزيز) ولم

يـرد العـم عزيز وقت أن هوت دموعه رغماً عنه متساند على جدار العشة الصاج الـتى تسـكنها "فاطمـة الفواحشية" أسطى الكرخان القديمة بنت العزبة، وسقط عزيـز مـن عـلى الكرسـى القـش فدنـا أبـو حجـة يناولـه كوب الماء البارد مُحلاً بالسـكر القوالـب (سمير مات يا إبراهيم) عبده فلاش جالى من ساعتين بهدومه وبطاقـته. قعـد معايـا عشـر دقـايق ومشى وقال إنه رايح المحافظة يسلم سلاحه الميرى، صـرخ إبراهـيم أبـو حجـة والتفت يبحث هو الآخر عن سلاحه الميزر. عبـث بالكـيس المحـلاوى الكـبير المـركون بالحقيـبة الجلديـة داخـل الصندوق الخشـبى الموضـوع فـوق الفـانوس الخلفـى لـلجاوا عـند منـتهى المقعـد الأسـفنج العـريض. وزئـروا سـوياً عـندما عـاد عـبده فـلاش بالحسـرة ترتسم على وجهه الخمـرى الـرائق وقـد أخـرج مـن حقيبته الهاندباك صور الشهداء والقتلى التى أعلنـت عـنهم حكمـيدارية المديـنة لـيلة أمـس ووزعـت نسـخ منها على مسئولى الـبلدية والحـاكم المحـلى بالمحافظـة فعُلقت على أبواب أقسام شرطة "العرب" و"الشـرق" و"الميـناء" ونقطـة شـرطة الحـرية. وقـدم عـم سـيد الغندور وظهرت الدمـوع مـتحجرة فى عيونه ليشعل سيجارة دومورية بحرى. وقفوا يحدقون فى الصـور الأبـيض فـى أسـود بجانـب ركيه الفحم المشتعل وسط "غُرزة" عصعوص) (تعـرف دا مـين يـا أبـو حجـة، ويـرد أبو حجة مقرباً الصورة من عينيه، (دا. أيمـن الغـندور يـا سـاتر يـارب. يـا مُنجى من المهالك يارب، ودا مين- دا أحمد الـزلاط بـتاع الـنزلة. ودا أمين الغندور، الله ومين الأشقر ده- ياربى لا حوال ولا قـوة إلا بـالله- دا مـايكل، دا مـايكل جـوز ماليـنا- مـايكل الطلـيانى- آه ه ه. يـارب العـباد. وإنـت عرفـت إمـتى. إنت متأكد يا بلدينا. قولى. يا عصعوص. يا عصـعوص. ولاد أخـتك الاتـنين مـاتوا يـا عصـعوص!! وفـين عـبده الديب يا عم عـبده، فـين عـم حسـن عـبد الرحيم؟!! وفين السيد المانسترلى، وحمؤه الزامك.

وحسن البابور ومسعد البولاقى. فين محمد الحديدى يا عصعوص، كلهم ماتوا يا جدعان؟!! أ ه ه ه، وعم مصطفى البرنس يقولى يهود، طب آدى اليهود ماتو مع البورسعيدية فى حرب كافرة، وصار إبراهيم أبو حجة يصرخ حتى وصل صدى الصراخ عنان السماء وطرح البحر وطاف بالعزبة وثكنات الحرية والمناخ والعرب وحى الشرق وجهه الإفرنج، وبات أبو حجة يردد على الدوام ممسكاً بصور الشهداء والقتلى مقربها من عينيه.. (فين عم مصطفى دلوقتى. فين ابن الوسخة الظالم. فينه يقول لى. مين فينا اليهودى ومين المسيحى، مين فينا الكافر ومين الجبان، (جُم أغراب وماتوا أغراب يا مصطفى يا بقلى يا ابن البرنس، من الظالم ومن المظلوم يا ابن الخواجات يا تركى يا ابن القحايب). كانت بطاقة مايكل العائلية مبقعة بالدم الأحمر ومفتوحة على صورته الأبيض X أسود وهو مبتسم بخجل زى البنت العذراء المكسوفة اللى واقفة ورا جوزها قبل ليلة الدخلة بساعات عشان تتصور.

° ° °

كان القباطنة الأجانب مجتمعين بميدان المنشية وفى مدخل حى الأفرنج وعلى ناصية مطعم "العلمين" وقوات إسرائيل دخلت "شرم الشيخ" من ربع ساعة وحسن البابور راكب عربية "دودج" بفوانيس بطيخى، العربية قطعت الطريق على سيارة حكيمدار المدينة عند قشلاق السواحل وزاغت خلف التلال الرملية ونزل من داخلها ضباط من الجيش بزى ملكى. بناطيل قماش وقمصان بيضه فى أزرق ومشجرة وكاكى غامق. سحبوا الأسلحة الرشاشة من الشنطة المنفوخة المحجوبة بمؤخرة السيارة السوداء تحت تعريشة الجوافة الذابلة.. وتقدمت بريطانيا وفرنسا بشكوى إلى مجلس الأمن ضد مصر على أساس أن مصر استولت تعسفاً على قناة السويس خرقاً للاتفاقيات الدولية، والناس الحشاشة

سمعت من حسن البابور القاعد جنب "الديست" قُرب الناصية فى قهوة المعلم "ضاحى" إن عم حسن عبد الرحيم. ساب ولادة وهما بيلموا الغْزال وهرب- وعصعوص كدّب الخبر وقال إنه شافه ماشى يكلم نفسه عند شارع عزمى جنب محطة السكة الحديد، ووصل الدكتور محمود فوزى إلى نيويورك وتوجه على الفور لمقابلة "داج همرشولد" السكرتير العام للأمم المتحدة وقابل حلمى بهجت بدوى اللى موجود فى أمريكا من يومين وأطلعه على اتصالاته مع بعض شركات الملاحة والبنوك. وأهالى حى المناخ والعزبة وسكان حارة سعادة عقدو العزم على عدم ترك منازلهم الصفيح التى تهدمت فى رابع يوم من الضرب القادم من السما والأرض، وكشافات إضاءة مبهرة تهبط قُرب شاطئ طرح البحر فتبدد ظلام الليل فى بورسعيد. و"دالاس" سحب قرار عرض المساهمة الأمريكية فى تمويل السد العالى"؟!

والتذمر ظاهر على وجوه مرشدين القناة الواقفين تحت بارسيسل" واكرى" واسبلندد و"طمادى لابوست بالمئات بعد ما صدر قرار السحب من العمل بالقناة بقصد تعطيل سير الملاحة فيها- ومستر دولار خال "راشيل" شقيقة مايكل يجلس فى حديقة "جيانولا" أمام عمارة "الباب الحديد" فى انتظار حقائب السفر بعدما قرر الرحيل وترك المدينة احتجاجاً على قرار السحب. إبراهيم أبو حجة واقف فى شارع أحمد ماهر أمام قهوة "الشكربالى" بيسأل محمود طلخان الكبير عن عبدة فلاش الذى أصابه الخبل منذ خمسة أيام فصار يمشى فى طرقات حارة "اليهود" ممسكاً بقرعة البوظة من عند سيد سعيد الفحام وعلى الكرسى البامبو الهزار بكافية دى لابوست رأيت محمود بيصرخ ويدافع عن حق قباطنه قبرص واليونان وإيطاليا فى العمل فى الكنال للإشراف على سير الملاحة والكابتن "تيتو" الملاح اللجريجى مش عاجبه طريقته فى الكلام، دفعه

فى صدره على رصيف شارع الجمهورية، وشخر له محمود أمام البمبوطية فاحتدم إبراهيم أبو حجة وجاء فى صف الملاحين البورسعيدية والسوايسة القلائل الواقفون فى صمت يرقبون الحاصل عن كثب، ومصطفى البرنس يخطب فى نرجسيه وبرود ظاهرا.

-: "بقولك إيه يا عم محمود. ماتسيبك من "راشيل" دى دول كلهم يهود مع بعض. وبعدين داخالها عنصرى ابن قحبة. مالنا احنا يا سيدى؟!! ويرد أبو حجة فى غيظ (أيوه يا خويا يهود وعنصرى. وإنت إيه بقى. ابن مين انت يا باش آغا. مالك إنت بعبده فلاش إن كان بيحب "راشيل" ولا عايز يتجوزها حتى، مال دين أمك أنت. وتقول لى موقف وطنى أحه يا خويا. أحه يا "بُرم". وسمعت عم محمود طلخان بيقول فى ثقة وتحدى أمام الجميع،

:- (يا جماعة سيبو عبده فلاش فى حالة.. وما لكم إنتوا باليهود. مالكوا بالأجانب يا صهاينة يا ولاد القحبة، ناس وجيتّ مصر؟!! حبوها بجد وحاربو معانا وعاشوا فى وسطنا. وإنت يا عم مصطفى. إنت مش مصاحب ماريا. حدّ قال لك انت يهودى، (ولا انت تنط عليهم فى إسكندرية وتيجى سكران كل خميس وبعدين تشتمهم يا خوجه) آه يا عرص. دين أمك. باش أغا صحيح، ونادى إبراهيم سكرانه بائع الكلوبات وشريك عم أحمد عمار على أبو حجة بصوت عالى من داخل الكُشك الألونيوم المنصوب تحت بلوكات ممفيس،

-: (تليفون يا أبو حجة. يا أبو حجة تليفون تعال بسرعة، مايكل موجود فى العناية المركزة من إسبوع فى "الفرمشية"؟!!

° ° °

الشوارع مزدحمة بالمظاهرات الأغراب من كافة محافظات ومدن مصر يدخلون المدينة عبر طريق الرشدين الضيق ومحطة القطار مزدحمة والخلق

بـالآلاف مجـتمعون فـي مـيدان عـزمي وعـند بـاب ٢٠، ٣٨، ٣٠، وعـلى طـول الحاجـز السـلكي المـوازي لسـور هيـئة الميناء، والأجانب رافضين السفر بعد ما أخذوا الوعود من السلطات البحرية في القناة بأنهم سيستأنفون عملهم بعد غداً.

و"الجـاوا" تعـاند الـرياح وهواء شتوي يزحف مبكراً وأبو حجة يخترق الضباب ويـده ممـدودة على ذراع الموتوسيكل وصوت الشكمان يقرقع أدنى مؤخرة محمود طـلخان الجالس خلف أبو حجة ممسكاً بخصره قابضاً بأصابعه الطويلة المعروقة عـلى حـزام بـنطلونه المـنفوخ بـالهواء أعـلى المقعـد الأسـفنجي المـنجد بالقطيفة الـوردي. بتـنا نلـف ونـدور فـي كافـة أحـياء المديـنة. طرقـنا عتـبات "أكـرى" المـزدحمة بالعسـاكر وضـباط المـرور المـنهمكين فـي مـنع مـرور المشـاه في شارع فلسطين. دخلنا شارع النهضة وأضاء أبو حجة فوانيس الشبورة الصغيرة اللابدة أسـفل الفـانوس الكـبير الضـارب بـأنواره فـي جـدران شـارع صـلاح سالم. الليل يـزحف والسـاعة تخطـت العاشـرة والمديـنة شـبه مظـلمة في أجواء حي العرب المرئية عن بُعد. عربات الكارو والسوارس وعربات اليد الخشبية أم دنجل سفلى وعواكـس ضـوء معلقـة عـلى بـاب صـندوق الخزينة راقدة بين العجلات الكبيرة الـزاحفة عـلى الأسـفلت بـتؤدة تخرج من "حي العرب" ممتلئة بالفحم متجهمة إلى البارات في حي الأفرنج.

الأجولـة الخـيش الكـبيرة تـرمي على الأرصفة البازلتية في طرقات حافظ إبراهـيم والـبازار وسـوق الـبلدية وخدم كافيه "جيانولا" يعلقون مصابيح كبيرة تضـاء بالكيروسـين عـلى الواجهـات الـزان والأرابيسـك المـددة أسـفل حواجـز القرمـيد الطوبـي المحجوبـة أدنـى المشمع البرتقالي أم الشراشف الدوبار الهابط بعناقـيد العنـب البـناتي والجناكلـيس والفـيومي والـبزْ البلاسـتيكي الأخضـر والأصـفر المتدلي يبرق مع الأضواء الباهرة المنثورة في طرقات "الجمهورية قادمة

مـن السـيارات الأوبـل والـدودج والـبدفورد الـنقل السـائرة بـبطء عـلى الأسفلت الأسود، عربات السوارس بخيول أربع وحناطير بحصان واحد تدق الأرصفة فى شـارع محمـد عـلى ويطـرقع الكـرباج فـى الهـوى قـبل نـص اللـيل ومـع طرقعة الشخاليل والأجـراس المتدلـية مـن رقـبة المهـر الأصـهب بندخل بالجاوا تحت بلوكـات المـناخ وتظهـر الأسـر المهاجـرة بالعفش والعزال الجديد بتجرى ناحية ميـناء الصـيد القديـم جهـة القـاعدة الـبحرية وعـند مراسـى اللنشـات المـتجهة للمـنزلة. ويقف الموتوسيكل فى الظلمة وتنطفى الأنوار كلها ساعة ما زاد زحف الناس فى خوف ناحية البحر وممشاة الموازى للكورنيش

° ° °

الأمـواج تصطخب فى الغاطس وينطلق الرزاز فى الهواء فتدنو الموجات فى قـوة مـتلاحقة قُرب الشاطئ صوب "حى المناخ" المياه المالحة تشق الرمال الصفراء الـناعمة لتنفلـت مـن بين الصخور العالية وتفارق الحواجز الضخمة وتفر لتطير بالأكشـاك الخشبية والكبائن المتراصة جهة ثكنات ضباط حرس الحدود وتقترب مـن الأسـفلت جهـة مسـجد صـالح سـليم. والفنار يدور فى أفلاكه مرسلاً الضوء السـاطع فى الأفق والأجواء البحرية وأسفل الطائرات الحربية المعلقة فى السماء المعـتمة جهـة حدود المياه الإقليمية. البواخر انطفأت أنوارها فى البوغاز لتظهر الطائـرات الفرنسـية تُغـير مـن جديـد عـلى "ك ٥٦" الـردارية بمـوازه كوبـرى الجمـيل الحديدى المعلق فى السماء. كشافات الإضاءة المبهرة تفارق خيمة السماء وتدنـو لـلأرض بمظـلات مـنفوخة قُـرب الـرمال الجافـة وتهبط جنود العدو فى دفعـات مـتلاحقة مختبـئة خلف أسوار مقابر المناخ ومحمود طلخان ينادى على إبراهيم أبو حجة فى نوبات تحذير. يصعد من المخبأ السرى الراقد خلف قشلاق السـواحل وإبراهـيم أبـو حجـة يـترك الشاليه الخالى المخصص لكبار ضباط خفر

السواحل يدير ماكينة الموتوسيكل فى هدوء وينطلق ويركب خلفه محمود طلخان الذى سمعته يقول (يلا يا إبراهيم. سيبك من المراقبة دلوقت. إحنا لازم نروح الجميل (بقالى ست إيام مشوفتش حسن عبد الرحيم.. يلا يا إبراهيم، بسرعة يا إبراهيم، وإبراهيم يرقب ألسنة اللهب الصاعدة من مساكن المناخ وشارع الأمين. شفخانة السواحل ممتلئة بالجثث والدم مغرّق الشوارع على ناصية مظلوم وشارع بنى سويف وعدلى وعند بيت الرمال والناس راكبة عربات كارو ونصف نقل، وشايلة بطاريات صغيرة وبتتسحب فى العتمة وبتدخل الشاطئ من خلف أسوار النادى المصرى ملثمة. وملفوفة الرقاب والوجوه فى جلابيب كتان ودمور أبيض فى كاكى وأنوار البطاريات مسلطة فى الظلمة. الأهالى بتطل فى الميه بعد نُص الليل. ستر وبناطيل الجنود فارغة وطافية تسبح على سطح الماء المالح

° ° °

وعبده الديب يقضى نوبتجيه الليل فى الفنار القديم على البحر يمسك بالميكرسكوب المكبر ويراقب حركة الطائرات من الشرفة المعتمة بالطابق الخامس وكلب الحراسة الولف يشتبك مع كلاب غريبة عوت فركضت صوب السلم الحديدى الخلفى المؤدى لباب الهروب. عواء فى السكون وفلايك صغيرة بتلف وتدّور على الأهالى فى الجزيرة الأولى والثانية. السيد قمصان واقف فى فلوكه خشب ممسكاً بكلوب برتينه بيشّد جلابية رمادى غرقانة فى الدم وأحمد العجيزى ومحمد الكتاتنى بينطو فى الميه- ويسحبوا الجثث الطافية على السطح وبتظهر رجال الضفادع البشرية بتشّد قميص وردى سليم "بهلب" حديد مربوط فى دوبار غليظ ورقبة صبية صغيرة مفصولة عن جسمها بتطف على وش الميه فى ثوان ويصرخ الكتاتنى منادياً على سيد قمصان- (تعالى يا عم سيد. إسحب معايا يا سيد. يا سيد، سيد يحدق فى الماء. يتحسس موقعه فى الوقوف.

يهـبط فـى المـاء العميق. يعانق الأمواج العفية يقترب من مقدمة الفلوكة الأخرى ويطـل فـى هلـع صارخاً بعدما طفت بقية الجثة. الساق اليمنى مقضومة من أعلى الفخذ والبطن الصغيرة البيضاء تخرج منها الدماء فى نافورة صغيرة أعلى السُرّة بقلـيل. الجـثة ترتجف والكتاتنى يقبض على رأس البنت بوجهها ويحتضنها، بانـت الدمـوع متسرسـبة تهـبط للأفـواه المفـتوحة فـى هلـع، وتظهـر امـرأة فى الأربعـين واقفـة عـلى الشاطئ القريب. ركضت مع الصراخ فدنت تغوص فى الماء وقد تخلصت من عباءتها المزركشة وسمعت صدى الصوت يتردد فى أجواء البحر والظـلمة – (يـا عم سيد يا كتاتنى. يا ابو القمصان بنتى. بنتى يا عم سيد. وردة يـا عـم سـيدة "وردة" بنـت جابـر السايح يا ناس، المرأة تغوص فى الماء ملهوفة تقترب من الفلوكة الخشب. تبكى فتضرب الأمواج بكفها الأبيض الكبير الظاهر مـع ضـوء البطاريات الصغيرة التى تجوث فى الماء البارد، الطيور الغريبة تحلق فوق المراكـب فـى جـنون. طـيور خرسـاء أصابها العمى تصطدم بالتلال الرملية والـربى. تـتعالى لتصطدم بركام السحب القاتمة لتهوى مذبوحة فى الغاطس عند الـتقاء نهايـة الخـيمة السماوية بـرزاز المـاء المنـثور الصاعد بجنون من الأمواج المصـطخبة البعـيدة، مـع أصـوات الاسـتغاثة عُدنـا "بالجـاوا" قُـرب كاريـنو "الإيلاندبيـتش" فـتراءى لـنا خـيال جسـد أبـو الكلـوح يـتحرك ناحـية المركب اليونانى القديم المضروب منذ ثلاثة أيام. اقتربنا من وقفة أبو الكلوح فصار يكرر فـى نوبـات جـنون ظاهـرة (الحقونـا يـا بشر. ولادى يا ناس. المراكب. سفرى، (عامـر رايـح روسـيا فـى شـهر سـبعة وراشـيل راجعة إيطاليا. "ماريا" سافرت أثيـنا، محمود البتانونى مات يا أبو القمصان. يا سيد. سيد (عبده الديب انتحر فـى الـبرج) عـبده محجـوز فى الفنار يا ولاد دين الكلب.. ياعبده. ولا يا عبده. عبدو يا فلاش إلحقْ مركب التفاح يا عبده؟!!

° ° °

سحبنا الجوال الخيش من قاع الزريعة وظهرت ازايز البيرة فى قعر الحوض. فتحتهم وشربنا أنا ومحمود فى العتمة وحطينا السلاح الميزر الـ ٩ طلقات فى كتافنا وانزوت السناكى فى الجراب الجلد الملتصق جنب الحذاء أبو رقبة ساعتها جرى أبو الكلوح فى اتجاه المركب اليونانى المضروب. نط فى القمرة وبدأ يعبث بالدفة التى تدور فى الفراغ دون جدوى. المراكب راقد فى رمل كثيف مبتل ونور الكابينة مطفأ وصراخ أبو الكلوح بيزيد فى العتمة- (يابت يا عزيزة.. يا عزيزة بت يا عزيزة- هاتى نجلا يابت وتعالى، يا ميدو إنت آله يا ميدووو. شوف الواد القرد ابن الوسخة.

° ° °

من أعلى برج المراقبة الحديد المنتصب فى رمال شاطئ "الحرية" ظهر الغطاس وقد أمسك براية حمراء مطلقاً صفير عالى. وظهر أهالى المدينة يفرون فى ذعر. الآلاف من سكان المدينة يجرون على الشاطئ الطويل قاصدين العربات النقل الواقفة جهة كوبرى الجميل. رجال وشيوخ "العرب" والأفرنج يركضون خلف النسوة الخارجات من "حى المناخ" و"شارع" "الكرخانة" القديمة والعزبة ومساكن الحرية، أئمة المساجد ممسكين بالميكروفونات وعمال البلدية ينادون على الأسر عبر مكبرات الصوت نداء هام، نداء هام، على رجال مدينة بورسعيد الباسلة -يرجى توجه سكان حى المناخ وشوارع الحرية والعزبة والكرخانة ومساكن الأمين، ركوب العربات النقل المتوجهة إلى مدينة دمياط، على سكان المدينة الباسلة)، دانات الصواريخ المنطلقة من البحر تنفجر قُرب مراسى بحيرة المنزلة. أصوات ماكينات الديزل تكركر فى غلاظة. واللنشات معدة للإنطلاق جهة مدن البصراط والجمالية والمنزلة والعجيرة، العفش

والملابس والأواني ملفوفة في بقج وصُرر محبوكة في ملاءات آسرة بيضاء، ممزقة. ورجال الشرطة يقفون أمام عربات البلوكامين يرشدون الأهالي إلى مسارات الكباري العائمة المؤدية إلى مداخل المراسي

° ° °

طرقت باب الكابينة الخشب في "القابوطي" ولاحت طائرة إسرائيلية تحوم فوق رأسي ويظهر وجه القائد من كابينة القيادة الفضية. وهوى الورق الفضض وحبات البونبون والمنشورات الورقية المكتوبة بلغة عربية ركيكة تتساقط طائرة من خلف الطائرة المحلقة في مستوى منخفض أعلى الملاحات القريبة من مقام "القابوطي". وجرى الأطفال عرايا خلف مؤخرة الطائرة يلتقطون البونبون ويمزقون المنشورات، أخرجت الكاميرا الروسي من جرابها والتقطت مئات الصور من كافة الزوايا في كافة مناطق الاشتباك المشتعلة بالنار والمتلئة بالجثث والمنازل المتهدمة طفت عبر الشاطئ الطويل وناحية "ديلسبس" وعند مراسي الترانزيت وقُرب ميناء الصيد القديم وف حي المناخ وداخل أسوار مقابر الأقباط والمسلمين قبل الجميل وفي ميدان الحرية دُست على الجثث الملقاة وسط التراب وعلى الأسفلت وداخل شفخانة السواحل بشارع السواحل وبني سويف. الوجوة مشوهة يصعب التعرف على ملامح أصحابها، صور نادرة لملابس خالية عائمة فوق سطح المالح تنضح منها الدماء بغزارة، أجساد كاملة ونصفية وبقايا أشلاء ورقاب سليمة برؤوس صغيرة لصبية وصبايا صغيرات السن بشعور طويلة صفراء وعيون مفتوحة. صور لمراكب تجوث في ظلام الجزر ١، ٢، ٣، ٥، ٧ مع حملة مصابيح الغار والكلوبات الباحثين عن ذويهم، وصوت إبراهيم أبو حجة يدوى في المدينة- قرب الشاطئ. وعند ميناء الصيد القديم وفي المناخ ووسط "العزبة" وفي ساكن الحرية بكرر في نوبات

آمرة (إجرى يا محمود. هات ولادك وحصلنا يا أبو الكلوح.. يابتِ يا نجلا، يا عزيزة.. يا عزيزة. ياست صديقة، يا أبو الكلوح نُط فى المركب، وضعت أفلام الصور فى كيس محلاوى ورميت بالكيس فى حقيبة هدندباك ومعاهم الكاميرا الروسى، جريت فى عزبة النحاس وشفت عيال عنتر والسيد قمصان وبنات المعلم ضاحى سلطان راكبين عجلات صينى إسبور ٢٧. كانوا بيتسابقوا فى الوصول ناحية عربات البدفورد النقل وعربات الجيب الروسى والعربيات الدودج ملاكى القنال وبورسعيد وكان الفانوس الصغير الشبورة للدراجة الأسبور الـ ٢٧ اللى ركباها "عواطف" الجميلة بنت الحاج حسن كبير أعيان الحرزات مضروب فى مؤخرة الصندوق الخشب لعربة نقل البضائع بشركة النيل للنقل النهرى، رفضت أوامر حكيمدار المدينة ووقفت خلف العربات النقل ورميت بالحلل والحُصر واتشّون العِزال فى الأرضية وفوق "فرنتونة" البدفورد العالية الزتونى وخلف كبائن القيادة فى عربات المؤن الـ "نصر" والرمسيس، وزاد عواء الرياح فتطايرات الخُرق وألبسه الأطفال فوق التراب وأسفل أحذية رجال الخيالة الواقفون بالأحصنة السوداء وسط عساكر وضباط الشرطة.

الأحصنة تصهل فتدور بالكعوب فى التراب الناعم وتتراقص الزيول فى الفراغ وتهش على بناطيل ضباط الداخلية، وتوقفت عربة بيجو زرقاء ٣٠٤ ونزلت منها "راشيل" بصحبة إبراهيم رخا والسيد البلوك وصاروا يرمون بالأحبال الطويلة الخشنة من أدنى أرصفة مراسى القابوطى لأعلى سقف اللنش المشمع وسقطت ثلاثة من النسوة العجائز وسط القاع العميق لمياه البحيرة ورأيت عم خليل جنزير أبو حسن يسير فى بطء ممسكاً براديو خشبى "فيلبس" تتساقط المياه من عدته وقت أن تعالى وشيش محطاته التى تبث أصوات تلاوة لمحمد رفعت مع أغان وطنية. قفز داخل لنش العمدة المتجه للمنزلة. ودنت مؤخرة

لـنش "هـلال" وتـدلى المسـاعد يُفك "السلب" ويرمى بالعوامات الفلين إلى الركاب بـدءً بالنسـاء والعجائـز وانتهاءً بالأطفال والأمهات الثكالى الجالسات بالأرضية الخشـبية المـزدحمة. ووقف الشباب على أطراف المركب وبجانب الصارى العالى وسبحت اللنشات فى ضباب البحيرة التى تعالت الأدخنة السوداء فى سمائها، مـع السـريان الكثـيف للمراكـب الـتى تلاشـت فـى المجـرى المـائى مـتجهـة إلى البصـراط والمـنزلة والعجـيرة والجمالـية. كـان الأهالى فى المدينة يستديرون فوق الأرصفة الحصى ومن حين لآخر كنت أسمع المهاجرات ينادون على أزواجهم من رجال المقاومة الشعبية ويرد الأزواج فى أوامر حاسمة تكررت على السامعين،

-: (خلى بالك م العيال يا عزيزة... يا حسين، (اللى يسألك عن أبوك فى المجمـع- قـول له هـوة "مسـتبقى" فى بورسعيد. خلى بالك من إخواتك وأمك يا حسين؟!!

° ° °

وعلى الجانب الآخر من البحيرة شاهدت الطفل الصغير وقد بلغ التاسعة، سـحب البسـكلتة مـن على جدار عم أحمد الجاولى اللى فى طولون وأحمد طاهر. ركـب الدراجـة وفـر على طريق المعاهدة المسفلت خلف عربات النقل التى تحمل المهاجـرين وطـل عـلى الأرتـال المنتظرة على أرصفة القيام والوصول، ففى غفلة وقفـز داخـل الصـندوق الخشـبى لعـربة نقـل الوبيليا البوفورد. انتصب يطل من النافذة الحديدية الصغيرة أم سلك شائك وبات ينصت لوشيش ماكينة الغاز التى تكركر فى تؤدة وقت فرار الإطارات الكاوتشوك على الطريق الطويل حدق للمدن البعـيدة المرئـية صـوب مـرمى البصـر الحاد، أشجار السرو تتوارى عكس إتجاه السـير وبـلاد تشـيل وبـلاد تحـط، وحسن البابور ريس العمال فى كوبانية الميه بيسـحب الطبـنجة من عادل أبو الحمد معاون مباحث قسم شرطة العرب. ضرب

طلقتين فى السماء مع رحيل آخر شاحنة بتفارق طريق المعاهدة وحمام عبد المجيد بيسأل "كوتة" القبطان الإسكندرانى الذى ترك لنشه مربوط داخل باب "١٠" :- (يا كابتن. كابتن كوتة- يا كوتة. (مفيش مراكب الليلة دى طالعة قبرص أو إيطاليا)؟!!

فصل ١٦
[بورسعيد ١٩٥٦]

من صغرى وأنا بحلم. ليل ونهار بتخيل نفسى راكب البسكلتة فى طرح البحر وبقرب وأدخل جوه البحر أجرى على الشاطئ الطويل.

أخيراً وبعد إلحاح وبُكى على باب جدو- الصبح وبليل، وافق جدو محمود الكبير على تعليمى بشرط،

:- (علشان أعطيك خبرتى الطويلة واعلمك تسوق العجل.. عليك تسمع الكلام وتكون منتبه. وتسيبك م الالتفات للمراكب السايرة بعيد فى الغاطس وفى البوغاز- (سامع يا محمود).

- سامع يا جدو

° ° °

استسلمت للتعلم. اشترط ٥ ساعات فى اليوم ثلاثة بعد الفجر و٥ بعد العصر، وتنتهى الرحلة مع الغروب- وأنا راكب على الكرسى السفنج المنجد بالقطيفة فوق العجلة الإسبور الـ ٢٧ البناتى..، ورَوحت نمت وأنا فرحان.. كلها أيام وأركب عجلتى الصينى اللى ليها ماسورة ممددة أُدامى.

وفى أخرها فانوس أصفر بينور أحمر- أسرجه بليل فى أول العرب- جنب عم شاهين الفطاطرى وعم رضا "الباطش" بياع العجوة- نفسى أغيظ أصحابى فى شارع "طولون". أجرى واسبقهم كلهم، ولا بلاش نمشى مع بعض

بـــ الليل فـى رمضـان- مـن بعد الفطور وصلاة العشاء. لغاية قبل السحور. نولع الفوانـيس ونحطهـا فـى الصـندوق الـلى ور+ المـتغطى بمخـدع فلـين وحوالـيه الشراشـيب الحريـر دايـرن داير خلاص مفيش عياط تانى، عجل ولاد الخوارف فـى أول العـرب هيبقى عددة ٣١ عجلة. وهنمشى جنب بعض كُلنا.. هنسوق فى الضـلمة جنـب الفنار القديم. ونغيظ عم عبدة الديب ونلف وندور حوالين النادى المصرى. وقُرب مدرسة "تنيس"، وهروح المدرسة راكب البسكلتة بعد أسبوعين.

° ° °

كـان أول مـرة أشـوف جدى وهو بيسحب الدراجة بيد واحدة. شدها وهى مقلوبـة- كانـت متعلقة على الحيطة الإسمنت فى محل عم "جلال الجاولى"، فى حـارة العـدل. مـتعلقة بـالمقلوب- الـوش بالفـانوس ناحـية الأرض الموزايكـو- والطارة الخلفية متشعلقة فى الخابور الحديد المدقوق تحت السقف،

كان عم جلال بيسيب المحل مفتوح عشان خاطرى وخاطر جدى قبلى. كان بيشبك الضـلفتين الخشـب بالشـنكل الحديـد الصُـغير من الداخل ويترك الباب الصاج المثـنى موفـوع فـى جرابه الغويط. يؤذن الفجر فى المسجد "العباسى" فى شـارع "محمد على" ويصلى جدى الركعتان ويدعيلى أكبر بسرعة. ويدعى لأبويا بالستر والفرج ويجرى راجع لأول العرب. يدخل طولون وينادى من تحت وقبل مـا يوصـل بـ ٥٠ شبر. يزعق على عم جلال اللى كان بيحب ينام فى الصيف فى التراسـينة الخشب، يكوع لغاية الفجر. ولما تقرب الشمس ويجى الصُبح، كانت الحاجـة راويـة تصـحيه بشـويش وهـى تقـول: - (إصحى يـا جـلال- يـا جلال إصـحى يـا جـلال، عـم محمـود بيـنادى علـيك يـا راجل- ياراجل الساعة ستة ونص وداخلة على سبعة، ويتقلب عم جلال فوق الكراويتة. والشباك الأرابيسك الصغير مفتوح وطالل على بيوت الهيئة. مرفوع لخارج التراسينة،

:- (حاضر يا هانم.. سمعتك خلاص يا ست راوية قولى لعم طلخان- باب المحل مفتوح. والضلف مواربة، خليه يضرب الشكل الصغير من جوه. وياخد العجلة، واسمع أمى الصديقة بنت عبد الواحد بتضبط المنبة الخشب أبو بندول نحاس أصفر- لتانى مرة. عشان خاطر أبويا.. ننزل فى العتمة. واقف كل يوم تحت تراسينة الحاجة راوية فى انتظار جدى اللى جاى جرى بينادى على عم جلال..

شفت جدى وهو بيسّوق العجلة برجل واحدة. قدمه الشمال على الكفة الشمال. وإيده الشمال على دراع الجادون- وبينط على الكرسى المنجد زى القرد الشامبانزى. كنت بركب وراه لغاية كازينو الغزل اللى عا البحر- فى الإفرنج أدامْ جامع "لطفى شبارة".

ولما تزيد حرارة الشمس الساعة ٩,٣٠ ينادى على جدى. وأشوف البنت "ماريا" الخوجاية. معدية من جنب مساكن ضباط الجيش. تبصبص على جدو اللى نادى عليها. فجتْ تجرى حضناه: (صباح الخير عمو حودة. صباح الخير يا أبوطه أضحك وأشوف وشها اللى زى القمر وجسمها اللى زى اللبن. وبشوف بتاعها فرحان وملفوف فى الجيبة السودة اللاميه وفوقها البلوزة الجرسية البصلى.. جت وقربت حضنتنى وباستنى من بُقى. فانكسفت.. وشميت ريحتها الجميلة اللى زى الفانيليا. سرحت وكنت عايز أشوف بزازها البيضة محطوطة فى إيه... جدو كان بيدوس على شفايفة ويبرق لى. وهى بتسأله عن "عبده فلاش"؟!! وبابا، وتحكيله على آخر فيلم إيطالى قرأت عنه فى المجلة.. نمشى والمراكب بتزعق فى الغاطس وقت ماحطت طيور النورس التلاتة. رجولها على الساتر الصخرى... رجعنا عا البيت وفى السكة سألت جدو. على اسم المخرج الإيطالى- فقال لى. اسمه "دى سيكا" يا أهطل يا عبيط

° ° °

فـى فـندق "أكـرى" فـى شارع الجمهورية سمعت "ماريا" اليونانية بتسب وتلعـن فـى إسرائيل، و"بن جوريون"، تحلقت حول صديقاتها ومعهن خادمات الـبار و"فـرناندو" الإسـبانى راقـص الـتانجو الـذى تـرك صـديقته اليوغسلافية "ناتاتشـا" سـكرانة بالمـرقص فـى "سيسـل" وقفـوا فـى شرفات الفندق. يتطلعون للحشـود الـتى تراصـت فـى شـارع فلسـطين والجمهورية والنهضة و٢٣ يوليو، فـرناندو- يدخـل غرفـته- يفـتح دولاب ملابسـه. ويـنادى مـدام ماريكـا صاحبة الفـندق. سـألها. عـن ماريـا. ويرمى بفستان ناتاشا الوردى على السرير الصغير ماريكـا لا تجيـب. تـتظاهر بـإعداد القهـوة وتنـتظره فـى غـيظ وهـو يـرتدى الـتي شـيرت الأسـود البـنطلون القمـاش الحرير. خرج وهبط السلم تاركاً ماريا وصـديقاتها منشـغلات بـالظل جهـة شـارع الميـناء يرقـبون احتشـاد الجمـاهير منصـتات لصوت الهتافات، ماريكا تبلغ ماريا بسؤال فرناندو. لتجيب ماريا فى غضـب.. (مـدام ماريكـا.. فـرناندو مش مظبوط، فرناندو. بْح. خلاص، فرناندو طـار مـن هـنا مامـا ماريكـا؟!!) وتشـير بأصـبعها السـبابة جهـة ثديهـا الأيسر لتستدير خاطية جهة الفراندة.

° ° °

ركبـتُ الـباص الطـواف مـن شـارع فلسـطين. وقفزت خلفى مدام "ماريكا" تـنظر السفن اليونانية الواقفة جهة البوغاز.. صارت تحدق فى المركب السياحى "فيكـتوريا". الواقـف عـلى سـطحه العـالى السواح اللجريح والطلاينة بشورتات كـتان وتـى شـيرتات كـت.. وتفشـل مفاوضـات مـنزيس فيـثور إيـدن، وتـدوى الهـتافات عـند مدخـل بـاب ١٠، ١٢، وحول شركة الرباط لأنوار السفن تتعالى الأصـوات المـنزيس الهـش الـبش ضـرب مراته بصحن المش. إيدن إيدن يا جبان-

كلـه هيضـرب فـى الملـيان، ظهـر عمـال كوبانـية المـياه- بالعفاريـت الـزرقاء. واصطف حـول سور الميناء الطويل. عمال هيئة قناة السويس ومرشديها القلائل مـن المصـريين يقصـدون مدخـل قسـم شـرطة الميـناء المواجـه لمعديـة بـور فـؤاد مرسـى(٢)، العـرق يسـيل عـلى صدرى مروراً ببطنى منزلقاً لسروالى. الشبورة الكثـيفة تـتعاظم مع بدء الخريف والجو يزداد سخونة والرطوبة عالية. والرياح تـذر بالـرمال الـناعمة لتصطدم بـالوجوه، "صـلاح الكونج يبعث لى برسالة عبر مـدام "ناتاشـا" يؤكـد فـيها ضـرورة انـتظاره فـى الثامنة مساء اليوم عند كازينو "بـالاس" بشـارع ٢٣ يولـيو، عمـال الـرشمة بشـركة القـناة للشـحن والـتفريغ يركضـون ناحـية مدخـل بـار طمـادى لابوست. قاصدين البوسطة القديمة بشارع حـافظ إبراهـيم.. تحلقـن حـول الترابـيزات الخـوص فـى كازيـنو "الغزل" أمام مسجد لطفى شبارة.

ممتنعين عن العمل. متجردين من سترهم الزرقاء الطائر الغريب يحلق فى الأفاق العالية محاولاً اختراق ركام السحب الرمادية نافذاً من الاستار الضبابية. عـلا فـانخفض فعـاود الكـرة متدلـياً الـرأس بمـنقاره المدبب القريب من عيونى- الـيوم الخمـيس وأهداف الإكيابى ألحت فى دعوتى لحضور حفل زفافها غداً فى كازيـنو بـور فـؤاد الـبحرى. حـركة مـرور السفن هادئة. وبوارج حربية تحمل العـلم الأمـريكى تقـترب مـن الغـاطس. الـبوغاز مفتوح لعبور اللنشات الصغيرة لمرشـدون القـناة الأجانب. الفنار القديم يرسـل بمنشوره الضوئى خلف البوغاز.. وعـبدة الديـب يخطـو فـوق رمـال الشـاطئ بعد المغيب فيُرى وهو يهذى مخاطباً نفسه بصوت عال وقت صعوده للدور الأخير فى الفنار.

"ماريـا" تأمـرنى بالذهـاب معهـا لـناظر مدرسـة ألواصـفية" الابتدائـية ومسـئولى مدرسـة اشـتوم الجمـيل "وتنـيس" للاتفـاق على شكل المظاهرات التى

سيقوم بهـا في الغد كافة التلاميذ. بمصاحبة طلاب وطالبات المدارس الإعدادية — "بورسـعيد". وسـعد زغلـول الصـبى يقفـز فـوق البسـكلتة فـى الليـل ويـركض متحلقاً حول الفنار مسلطاً ضوء فانوسـه الصغير جهة المدخل

° ° °

عـبدة فـلاش سـعيد بخـبر زفـافى عـلى أهداف وصار يردد فى كل حين.. (الفـرح دا مـش فـرحك لوحـدك يـا محمـود. دا فـرح الشلة كلها. أول العرب ، والخـوارف. وطولـون. وعمـال الشـحن والتفريغ فى الجزيرة الخامسة؟!! وضع يـده فـى جيـب بنطلونه الجينز "الليدر" وأخرج ٢٥ جنيهاً وصار يردد.. يلا يا باشـا. دا عـربون الـبلوتس.. هتـنزف فـى لـنش الفيـبرجلاس. والنبى ولا الملك فاروق مع فريدة؟!!

زجاجـات الويسـكى المسروق تشون بمخزن الهالك بمقهى السجيع الملتصق بمبـنى الفـنار القديـم بشـارع ممفيس، أحمد البصراطى يُسقط علب البيرة داخل الـثلاجات الخشـب بمخـازن "نـدا" ويلـف زجاجات النبيذ فى الأجولة الخيش المبلولة. ويرميها فى أحواض الرشمة فى الجزيرة الخامسة.

محمـد أبو الكلوح وأبو العربى المُظراب يؤكد أن ما حدث بالأمس فى "أول العـرب"- سـيد ابـن العربان سليل الحرزات غدر "بالتعلب" ابن مصطفى محمود — أراد تخلـيص ثـأره مـن عـين أعيان الخوارف- دعى "التعلب" لتناول الحشيش فـى عـزبة القـنطرة غـرب ونـاوله مائة وخمسون حجراً من الحجم الكبير وكان الحشـيش شـعبى مخلـوط بـبودرة وطحـن جمـاجم . رص لها الأحجار على نار سماسم هادئة وشرب التعلب كثيراً حتى فرغ من الـ ١٥٠ حجر ويتخبط متساندا علـى الجـدران فـى العـزبة. فقـد توازنـه "التعلـب". وسـحب سيد ابن العُربان السـونكى وضـربه فـى بطـنه وقلـبه وقفـاه حـتى أعماه ليأتى بعد ذلك بزجاجة

الفودكا الفارغة ويهوى بها على رأسه فأرداه قتيلاً؟!! وهرب صلاح الكونج فى عربية ربع نقل وصل لبورسعيد ودخل أول العرب يصرخ مستغيثاً به آل الضاحى مردداً (سيد ابن العُربان غدر بالتعلب يا جدى. سيد قتل التعلب يا بلد؟

محمد أبو الكلوج قال لى:- إن المعلم ضاحى الكبير منتظرك إنت وأبوك فى "أول العرب". وإن إبنه العربى- عمال ينضّف سلاحه الميزر.، وولاد الهماص علمو بالخبر وسبتهم قاعدين مع جماعتنا وناويين يدخلو معاناً العاركة...

(سيد ابن العربان مستخبى من إمبارح فى إبراهيم توفيق. فى بيت مجهول.. وسمير زخارى شافو الأربع الساعة تلاتة وهوه طالع بيت "عزمى" اللى فوق قهوة "بشارة" فى نبيل منصور)

° ° °

البسكلتة فرت فى الخلاء على الرمال المبتلة وانكفأ الصبى على وجهه.. صخب وزحام وعربة البلوكامين تتوقف على الطوبان القريب من مقهى الفنار وينزل "حمدى بُكشة" ويسأل عنى "شلاطة" النادل.. سهم نارى وحيد يصعد السماء فى "أول العرب" يعقبه طلق نارى وقت العتاب اللا مُجدى.. الأمواج الصاخبة تصطدم بالصخور وتعاود الانزلاق بهدوء.. عربة السوارس بكابينه مشمع حمراء تطفىء أنوارها وترتكن بمواجهة كافتيريا أبو إسلام.. صهلت الخيول وهبط صلاح الكونج من الكابينة فقمت أترك الكرسى الخوص الواقع بجانب ثلاجة البيرة. نادى على فى حذر وانصت إلينا الزبائن المتحلقين حول الطاولات البلاستيك.. همس فى أذنى فسرت معه ثلاث خطوات للأمام- اتفقنا؟!!- فسحبنى من يدى وركضنا نتخطى الكبائن الخشبية فى طرح البحر. تركنا البحر وقفزنا من فوق السور الحديدى العالى الفاصل بين الشاطئ

ومقابر الجميل. وطارت العجلات الخشبية خلف الأحصنة التى سبقتنا رامحة فوق الأسفلت.

° ° °

على أثر اشتعال ألسنة اللهب العالية من مركب الغاز السعودى "عاليا" تركت الغاطس ودنت من البوغاز ففرت طيور البشاروش والنورس فى سرب واحد طويل- تركت سطح الماء السائر بمهل وتلحقت صارخة فى خفوت صوب لحمة السماء تناطح السحاب، مركب الغاز تعالت بالأدخنة الزرقاء وسرت الرائحة النفاذة تخترق الأنوف. وعادت الطيور فى خرس تصطدم بركام السحب الغامقة. وتهاوى الطيف الأخير لقرص الشمس الخابية فبانت بقعة ما قبل الغروب قرمزية وهاجة تسطع فى دوائر متعددة تتلاشى رويدا رويدا متعددة الهالات التى صارت أكثر أحمراراً تاركة أطيافها الغرائبية طافية فى أطواق حديدية وأسنه رماح وأسياخ حادة بارزة. الطيور تهوى. تتهاوى أدنى صفحة الماء المالح قُرب السفينة وقت أن دوت الانفجارات متوالية منطلقة من جهة خزانات الوقود العريضة الراقدة فى منتصف المركب.. صارت الطيور مذبوحة تطوف بمناقيرها الصفراء واجفانها الغليظة متحلقة حول المقدمة الغليظة للسفينة المشتعلة.

° ° °

فى نص الليل دخلت أول العرب. ومشيت فى "طولون" منتبهاً فسمعت من ينادينى من جهة قهوة "ضاحى". كان إبراهيم أبو سعدة الذى وضع يده على كتفى وتحلق فى موقعه يرقب العابرين. لوح بيده اليسرى ناحية صلاح الكونج الجالس على الكرسى الخيزران أمام شاهين القطاطرى- همس فى أذنه وقت أن مشى " الأكو" النادل على مقربة حاملاً الصينية الألمونيوم وفوقها المشاريب،

أكواب القرفة والحلبة بالحليب والشاى الميزة ملفوفة حول كنكة القهوة النحاسية الصغيرة. مشى متخطياً شارع محمد على قاصداً حارة اليهود منزوياً جهة اليسار سائراً بمحاذاة بيوت الهيئة القرميدية. تدلى بالصينية الألمونيوم ووضعها على الطقطوقة الخشب المستديرة. وقت أن انهمك حسن الشحمة وإبراهيم الجباس وممدوح عسران وحسين الصومالى فى لعب القمار بالكوتشينة البلاستيكية، ولاحت صورة الملك فاروق تعتلى ظهر أوراق اللعب. فاروق جالس على كرسى العرش بزيه الملكى.. وسحبت الكروت المصقولة من أسفل الترابيزة الفورومايكا فارتمى الكارت الشايب أقصى يسار قعده الصومالى تحت رجل الكرسى الخيزران وصعد الشحمة بالولد وقش فصار يزعق مهللاً (المصارى يا حوش يا ولاد القحبة) شخر وتمخط واعتدل فى مقعده وانتصب يرمى بأوراق الكوتشينة. وفر الملك فهوى على الأرض المرصوفة بالبازلت بطول شارع "أحمد ماهر".

وانقلبت الترابيزة. ورأيت ممدوح عسران يلوح بيده. سّب الدين فاهتز نصفه الأعلى بكرشه المنفوخ. ضرب يده فى جيب بنطلونه المهُير الرمادى، جريت على المشاجرة ناوياً على التدخل وفض الاشتباك الذى وصل للدفع بالأيادى فى الصدور. وجرى خلفى مسعد أبو ليلة تبعنى وصار يردد فى حدة:

كلهم أمرتجية... تعالى ورايا المعلم "ضاحى" مستنيك جوه هوه و"العربى". رجعت وتركتهم يتشاجرون أسفل تراسينة أم زوز التى نادت عليهم فرداً فرداً فلم يستجيبوا. تركت التراسينة وعادت وهى تحمل الدلو البلاستيك المتلئ بالماء المخلوط بالجاز. وصبت الماء الوسخ فوق رؤسهم، عدت لمقهى ضاحى سلطان رشوان الكبير وسمعت المعلم يزعق فى المتحلقين حوله فى

غرفة الاجتماعات بالجربين. طللت للصورة الكبيرة أم الإطار المذهب وبرز التابلوة المُعلق فوق السحارة المدفونة فى الجدار الأسمنتى المطلى بطلاء الجير الرخيص: حدقت فى وجه المعلم ضاحى وقد بدا جالساً بجانب الملك فاروق. الصورة أبيض X أسود مكتوب تحتها وبخط بارز- الإسكندرية ١٩٤٨- قصر المنتزة، على يمين الكنبة الاستامبولى وبمسمار قراشولى غليظ مدقوق بميل أسفل السقف الواطىء طفت صورة أخرى أكثر وضوحاً- المعلم ضاحى سلطان رشوان قاعد على كرسى زان منجد بالقطيفة. شنبه مبروم فوق حنكه الواسع والعمة ملفوفة على رأسه البيضاوية الصغيرة، وظهر مبرق بعنية السودة وهو مايل على أحمد لطفى السيد وعلى علوبة وعبد العزيز فهمى. حافظ عفيفى متقدمين القعدة على كنبة واطية منجدة بالحرير الزيتى. تحت البرواز القطيفة الأسود مكتوب بخط النسخ العريض- حفل عشاء- منزل محمد محمود. (حديقة بيت الأمة الجديدة)؟!

زغت ببصرى فى مؤخرة "فاطمة" بنت المعلم والتى ارتجت أردافها المستديرة الملساء داخل العباءة الزرعى- خطت بحذائها الكموش أبو ترتر ودنت تستدير فى الركن الأيمن. تلمُ حزام العباءة فوق سُرتها البضة وتحلقت تدور بصينية القهوة النحاسية اللامعة.. صبّت القهوة السادة فى فناجين غزاوى زرقاء مشطوفة وانكفأت تمديدها اليمنى واضعة إياها أعلى مسطح الطاولة الرخام وفى مواجهة الجالسين من أبناء عمومتها أعيان "الحرزات" و"الهماص" وبيت "بدار" و"الخوارف". نظرت أثدائها النافرة وهى تتدلى خارجة من طاقة الصدر المفتوح فى رحابه وضيق. ليهوى الثدى الأيمن فى كياسه وقد تبعه الأيسر فى جرأة وتحفز بارزاً بالشراسف والندب الحمراء للحلمة المحجوب نصفها فى قعر السوتيان الحرير الظاهر قماطه لابداً فى منتصف الصدر الناشع

بقطرات العرق الذائبة فى نثار البارفان الفرنسى، وسمعت الريس محمود همام يقول فى غضب،

(كيف يا كبير.. وليش يا معلم "ضاحى" كُلنا أنداد والتعلب ولدنا كُلنا. ودمه مسئولية فى رجابنا. أولاد خارفة جرجا. كلتهم شجايج. ويرد أحمد عسران كبير الهماصة- موضوع جتل التعلب ما فيه هماصة ولاحرازات ولا خوارف. رجبه التعلب بـ ١٠٠ رجبه من أعيان العُربان؟!!

وباغت المعلم الجميع بخطفه من يده الغليظة لأصابع محمود سليمان الذى أنحنى على أثرها قبل أُذن المعلم اليمنى، وانصت وقت أن خيم السكون على الجالسين فى الجربين، وربت المعلم ضاحى الكبير على كتف ابن سليمان وأومأ له فى كياسه فانصرف الأخير يسحب صلاح الكونج من يده ليتبعه الآخر كظلة قاصدين حارة العدل

° ° °

وبعد منتصف الليل بساعة وفى الواحدة تماما. تسلل ثلاثمائة رجل من أتباع المعلم ضاحى الكبير. توزعوا على مجموعات أربع وسمعت عواء الكلاب الضالة قُرب ناصية "خضير الخطاط" الطرقات مظلمة أسفل التراسينات الخشب فى شارع نبيل منصور وعلى ناحية شارع أوجينية. مجموعة "الهماصة" جرت فى شارع الثلاثيني. مروراً بطولون وتقدم المجموعة إبراهيم عسران الذى وضع "الجنص" فى جنبه الشمال تحت جراب الطبنجة الـ ٩ ملى.. وخرجت مجموعة الحرزات من تحت بير السلم فى بيت مصطفى محمود وظهر الشوم الغليظ برؤوس مدببة. فروا من الشارع التجارى على نداء رضوان همام الذى رمى بفص الأفيون فى حلقه.. ركضوا قاصدين الهدف متحلقين فى حوارى نبيل منصور نافذين إلى شارع إبراهيم توفيق فى ثوان. واندفعت مجموعة بيت بدار

بمطاوى "قرن الغزال" اللامعة المدسوسة تحت الجلابيب الصوف وفرت مجموعة محمود طلخان بقيادة حسن عبد الرحيم الواقف فى المؤخرة أعلى رصيف مخازن سليمان المحمدى يرقب صغار شباب أول العرب الحاملين للتوابيت الخشبية المتلئة بزجاجات البيرة الفارغة وقد تعلق على أجنابهم الكرابيج المفتولة. وانطلقوا يقفزون من أعلى السياج الحديدى الدائر حول مقهى محمود مهران مقتحمين شارع الشرقية والناس نيام.. كانت عقارب الساعة "الزودياك" تشير للثالثة فى إيد المعلم ضاحى سلطان رشوان الذى ركب السيارة الأوبل السوداء موديل ٤٦ فاطفأ الفوانيس البطيخى البارزة على جانبى اللوحات المعدنية التى لاحت فى أرقامها الفسفورية الأربع- ملاكى القنال. ٠٢٣٤٨ وجاءت الأصوات المستغيثة ترمى بصداها السارى من أعلى طرقعة زجاجات البيرة الفارغة التى طاشت فى قهوة بشارة. وفرت كرات النار المنقوعة فى الجاز تهوى على رصيف إبراهيم توفيق المبلط بالبازلت لتمسك بالأعمدة الخشبية القائمة منتصبة أسفل التراسينات الخشب فى شارع نبيل منصور وإبراهيم توفيق والشرفة الكبيرة الدائرة حول منزل بشارة الواقع فى الدور الأول. جرى محمود سليمان وتبعه صلاح كونج وانسل السونكى البراق من سترة الكوبانية الزرقاء الذى ارتداها محمود طلخان على رصيف سليمان المحمدى- قفز طلخان من رصيف إلى آخر ومن حارة إلى زقاق حتى وصل لدخل الكتان) الفحام صعد درجات السلم فى الظلمة قاصداً باب الشقة فى الدور الثانى. وقت أن صفر له محمود همام وأشار من أسفل بير السلم إلى الغرفة القديمة اليسرى فى الدور الثانى. من على بسطة السلم فى بيت بشارة.

اندفع طلخان وخلفه ابن همام الذى ضرب باب الغرفة المغلقة فى جرأة راكلاً العتب ببوز حذائه الكرب مندفعاً بكتفه الأيسر وسط ضلفتيه نافذاً إلى

السرير المواجـة سـاحباً سيد ابـن العـربان مـن قدمـيه. انـزله من على السرير الحديدى وهوى بالزجاجة الفارغة على مؤخرة رأسه بقفاه ليقابله صلاح الكونج بسـن السـونكى غـارزاً نصـله فـى عـنقه وقت أن حملة محمود طلخان من وسطه رامياً بجسـده مـن الـنافذة الكـبيرة الخشب المطلة على شارع كسرى العمومى.. وطـرطش دم ابـن العـربان ليـنزلق على الحيطان العالية المطلية بالأصفر الفاقع.. أمـام المدخـل الرئيسـى لمدرسـة الواصـفية الابتدائـية. وقُـرب واجهـة "مقهـى الـبحرية" وفـى تمـام الـرابعة إلا عشـر دقائق رأيت المعلم ضاحى سلطان رشوان الكـبير يشعل سيجارته الدانهيل المسحوبة من العلبة المعدن الخارجة من جيب الصديرى الكتان المبطن بالحرير الأبيض. جلس يفرد ساقيه فى الكرسى الخلفى للأوبـل السـوداء. واسـتدار المعلم حسن دردير الجالس على مقعد القيادة فى ثقة وكياسة ينظر المعلم وقت أن انطفأت سيجارته.

مـد يـده اليمـنى بالولاعـة الـنحاس الأمـريكانى ضاغطاً على ذرها الصغير قُـرب حـنك المعـلم ضـاحى الـذى صـار يلـوك فـص الأفـيون بـين فكيه فى تلذذ. اشـتغلت السـيجارة الدانهـيل مـن جديد. وصار ينفث الدخان فى كرات رمادية كثـيفة حلقت صوب زجاج البربريز الخلفى. انصت للقادم من خلف الأوبل يقود دراجته أم جرس دانياً من الباب الخلفى الأيسر. دائراً بذر الجرس مرات ثلاث قائلاً.. (حصل يا كبير؟!!)

° ° °

ليلة حسن الشحمة؟!!

وسمعـته يقـول وقـد جلس منتشياً بسكره. (ومالى أنا ومال التار اللى داير بين ولاد خارفه جرجا فى بورسعيد. وبين "سيد ابن العُربان"..

آل إيـه سيد غدر بالتعلب فى ليلة سُكر فى القنطرة. شرق واتحدى كوم بـدار والخـوارف والهماصـة و"الحرازات"... والمعلم ضاحى سلطان الكبير يزُق محمـود طـلخان عـلى سـيد وسـيد ينقـتل بـأيد محمـود وصلاح الكونج بعد نص الليل.)

محـروق ديـن أم ده عـلى ده.. (كـلهم بـتوع حشـيش)؟!! ومعرصـين على نسـوانهم. ونسـوانهم سـارحة بعِـلمهم؟!!– صـارت عـيونه تبرق فى محجريها يهـز رأسـه جهـة اليسـار فاالـيمين فتـتدلى لأسفل فى شبه ترنح وقد قبض على كـوب القهـوة اللـى عـا الـريحة. بأظافـرة المتسخة وبدا وهو جالساً تحت التندة القماش الهابطة على يافطة شاهين الفطاطرى المضاءة بالنيون أشبه ببرُص عجوز فانزوى فى ركن قصى خائفاً يحتجب خلف ستار هش، هرش شعر رأسه المفلفل المدهـون بالفيزيلين الرخيص فدنت أصابعه الطويلة الرفيعة تدعك خصيته باعداً بـين فخذيـه ممسـكاً بقضـيبه فى حركات لا إرادية هائجاً يهذى مكرراً ما قاله عبر الدقائق المنقضية،

– مالى أنا ومال دا كله.. وبدا وكأنه يكلم نفسه فى وعى. سارحاً فى ما رآه عـبر لياليـه الطويلـة المنقضـية فـى أول العـرب جالساً على كرسيه الخوص ليل نهار يرقب بنات المعلم ضاحى فى الرواح والمجىء. يتلصص عليهن عبر النوافذ المواربة ضلفاتها محدقاً فى صدورهن النافرة ورقابهن اللحيمة المنتصبة فى رغد طافحـة بالشـبق والشـهوة والغوايـة.. لابـدا عـلى مقعـده فـى انـتظار لحظـة الانقضـاض. دون هـدف يحيا. بلا مأوى بلا بيت. أو شقة. أو حتى غرفة قديمة بالـيه فـى جـربين يـنام فـى طرقـتها. صـار يرقـب غـرفة الغـندورة "فاطمـة" الهايجـة، وخايفة م الحبْل؟!! كما يقول لنفسه فى كل حين وعبر كل نظرة إلى جسـدها الرجـراج المثير. دائماً ما كان يرقب خطاها حركتها وقت بزوغ وجهها

مـن الشـباك الخشب فى غرفة نومها المطلة على شارع طولون.. ووجهها المشرب بحمـرة ربانـية وقـت تدلـيها مـن الـنافذة كـل ليلة بعد منتصف الليل. وقت أن تخـرج بأصـابعها اللـبن الملسـاء ولـتفرد ملابسها الداخلية المبلولة على الأحبال البلاسـتيكية. وتخـرج بـبزازها اللى زى المانجو السنارة.. تحط الكلوتات جنب بعـض فـى أول صف. الإسود جنب العنابى وبعده الزتونى والأحمر متدلى جنب البرتقالى فى الآخر،

-: (ومـالى أنـا ومـالى التعلـب وابـن العربان. يابتِ القحبة- يا شرموطة.. المهـم ليلـتك إنـت يـا حسـن يـا شـحمة- البتِ فاطمة والشرخ الأحمر الضيق فى وسـط قالـب اللـبن الملفـوف فـى حريـر غـرقان فى ريحة هياج، ويقتحم جلسته محمد يوسف رفيقه فى لعب القمار والكوتشينة فى حارة اليهود،

-: آه.. إنـت جيـت تعـالى، حـدق فـى هيئـته فرأه يدعك عضوة فى نشوة فاقترب يجول ببصرة جهة شباك فاطمة. ضاغطاً على شفته السفلى موبخاً إياه.. (يـاد إيـه الـلى إنـت عاملـه ده- آه لـو شـافك حد دلوقت يا ابن القحبة- واللهى العظيم كانوا يفشخوك؟!!

سـحب له الكرسـى البلاسـتيك. وأفسـح له ممـر صـغيراً ليعـبر الطقطوقة الصغيرة جالساً بمواجهته على رصيف دكانه عم محمد شاهين الفطاطرى،

-: عارف ياد يا محمد يا ابن يوسف.

أهـو مفـيش حـد فـى المندرة العلوية لشقة الكبير إلا بناته التلاتة.. سحر وخديجـة والهايجـة فاطمـة.. وآه مـن الـثلاثة يا ابن يوسف)؟!! نتف.. لحمة ملبسـه ولـبن مسـكر وإندلقـوا عـلى بعـض، وأنـا جعـان يـا ابن الفقرية. نسوان تـزّحف ١٠٠ راجـل عـلى سرير واحد.. اربعتاشر سنة. وأنا شايفها فى الراحة والجايـة. مـن الجـربين للمـندرة العاليـة الكلوتـات الحريـر تحـت الملس البنى

مَـره وتحـت العـباية التركـى مرات. وساعات تلاقى فاطمة شايلة صينية القهوة للمعـلمين.. هأهـأ. هأ. واللباس البرتقالى الستان تحت الفستان اللاميه الأزرق.. آه يا عرصات يا ولاد القحبة؟!!

° ° °

(آه- اعتـبرتها مأموريـة "بوسـتة" زى مأموريـات الكـنال- ومالـه اشتغل "هجـام"؟! نـياك بأجـره. المهـم معرصـشـى على أمى الغلبانة اللى مش عارف أأكلها لقمة نضيفة،

(- آه كانت ليلة يا ابن يوسف؟!!)

صـحيح طلعـت بعشرينايه. لكن إرتحت. وفرّغت السيل. الهم الثقيل اللى كـان فـى ضـهرى بقالـة ١٤ سنة (كان زمان المعلم ضاحى سلطان الكبير هريينى ضرب على قفايا).. أهو دلوقتى مرمى فى مكتب المخدرات وبيحققو معاه

كنت عارف إن أول العرب مشغول بالعاركة اللى هتدور عند قهوة بشارة. وإن محمـود طـلخان مـش موجـود، والمعلم ضاحى مستنى فى الأوبل السودة عند مدرسة الواصفية؟!!

بيمضع الأفيون هوه وابن الدرديرى. وبعد ماراحت له البشارة بربع ساعة — [قفـزت مـن عـلى فرشـة خـالد عـبد اللطيف داخل من شباك الحمام. كان نوره مطفـى. مشـيت فـى الصـالة المنورة. ومن الصالة لغرف البنات عِدل. لقيت سحـر حاضـنة خديجـة عـلى السـرير السـفارى العـريض وفاطمـة؟!! فاطمـة كانـت نايمـة لواحدهـا بـتوْحوَحَ عـلى فرشـه السرير الزان. شُفتها بتتقلب على الملاية الكتان البيضة وكلوت أحمر متعّلق بين فخاذها والدنيا نور. طفيت النور بعد ما جـدّدتِ هدفـى. كانـت المطوى القرن الغزل فى إيدى اليمين بتلمع. هويت فوقها وسـحبت اللـباس مـن بـين فخاذهـا وإيـدى الشـمال عـلى فُمهـا. أنـتِ بوجـع—

مصرختش. غرزته في الشرخ الغويط وأنا نايم على ضهرها بالطول.. كُنت حاسس إن البنت صاحية وعارفه مين إللى راكبها. (لكن مش عايزة تقوم)؟ وعشان أأكد وصية المعلم وتتم المأمورية بدقة فتحت قرن الغزال وعطيتها بشلتين بين فخاذها وواحدة من وراها؟!! ساعتها إتألمت بجد. وكإنها بتلومنى على جرح السلاح؟!!

-: (عارف ياد يابن يوسف.. (لما دفسْت شبشب الحشيش فى لباس سحر، سمعت صوت أنفاسها.. كانت الريحة حلوة. والبنت كانت نشوانه وبتحلم ورجليها الاتنين كانوا مفتوحين على فُرن قايد نار؟!!

– (آه يا ولاد القحبة يا ملاديم)،

° ° °

-: وحكى مع نفسه وهو سكران حتى طالت الساعات فانقضى الليل على رصيف عم شاهين القطاطرى. ولم يدرك حسن الشحمة أن محمد يوسف قد نام على كرسيه منذ ساعات. ولما أذن الفجر رمق ابن يوسف حسن وحدق فى عيونه المفتوحة ورآه فى سكرته نشوان يهذى وعينه تطل وتنظر شرفاتهن فى خدر ولذة.

متناسياً جليسه المتعب الذى سحب كرسيه البلاستيك وتكوم غافيا يشخر بجانب الدِست ممدداً تحت نصبة المقهى التى أقفلت أبوابه الأمامية،

فصل ١٧
(عطوان أبو حجة)

ذهبت لعم حسن زنجير "غرب الملاحات". توقفت بالعربة الجيب على بعد ٣٠ متر من جراج النقل. وحسب الاتفاق تركت موتور العربة دائراً. دُست على الذر الأوسط البارز على يسار الدركسيون منزوياً فى نهاية الطابلون أسفل البربريز الأمامى. أضأت النور العالى الشبورة للفوانيس الأمامية ثلاثة مرات مصوباً مقدمة العربة جهة الباب الصاج المُغلق. وعندما رأيتهم يتحركون كالأشباح ماريين من خلف العنابر الصاج- أطفأت محرك الجيب فأضاءو أنوار البطاريات الصغيرة مرتين حسبما اتفق، نزلت من السيارة متخفياً فى زى عمال الكوبانية الرمادى. بنطلون واسع مشدود بحزام جلد مشقق وفوقه سترة بأزرار نحاس وحذاء كِرب بنعل زلط. خطوت للأمام اتبع المكان المعلوم خلف الجراج الرئيسى ونادى حسن زنجير بكلمة السر (الدار مِندار) فاستدرت أسحب الأجولة الخيش والبطاطين المدفونة فى الرمل أسفل سعفات النخيل- مشيت أتبعهم فتوقف سيد الزامك فجأة وتقدم ناحيتى هامساً: (أوعى يكون حد شافك وانت جاى). يلا اعتمد على الله. عم حسن لف لك السلاح فى بطاطين صوف. تعالى، مشيت خلفه قاصداً المخزن العمومى. قفزت من أعلى الربوة الرملية فقفز حسن زنجير وإبراهيم أبو رواش وحمدين الزامك داخل السرداب الطويل المؤدى لغرفة الزخيرة، رفعنا الأسلحة والذخائر الحية ورمينا بطلقات الرصاص فى

القاطف فحملناها سوياً فى هدوء. كان القمر بدراً فى اكتماله. لاح محجوباً خلف ركام السحب الرمادية السائرة ببطء وقد انتشرت النجوم من حولها بازعة، وضعنا الأجولة والقاطف فى الصندوق الخلفى المغطى بالمشمع الميرى المموه. فدنا حسن زنجير يربت على كتفى قائلاً.. خلى بالك من نفسك يا بطل. رجال المخابرات مراقبين خط السير. لو حصل مكروة لا قدر الله. سيب العربية فى الرمل وارجع البلد بسرعة، سامعنى يا "عطوان"؟! (سامعك يا عم حسن).. يا عطوان، إنسى إن اسمك أبو حجه، أول ما توصّل كتيبة المناخ. خليهم يبلغونى فى اللاسلكى وكلمة السر هيه هيه(دار مندار)

أدرت محرك الجيب وانطلقت قاصداً السور الحديد العالى الموازى لمعبر المرشدين. أطفأت أنوار الفوانيس الأمامية فسرت فوق الكثبان الرملية على الأنوار الصغيرة للفليشر الصغير. قلبى منقبض والجو حار والرطوبة خانقة فى أغسطس، عُدت أتذكر أسم قائد المقاومة الشعبية فى منطقة المناخ والذى أبلغنى به حسن زنجير والذى سيكون فى انتظارى خلف مقابر الأقباط فى المناخ، الاسم تلاشى من ذاكرتى. طمس أنفلت من وعيى. بتُ فى حيرة تنتابنى الهواجس مردداً فى نفسى والعرق ينزلق من وجهى سائلاً فى صدرى مقترباً من جلد بطنى مبللاً فانلتى الداخلية القطن.. (ماذا سأفعل لو صار الحال هكذا. ولمن سأسلم السلاح وبمن سأسترشد فى هذا الليل. العربة تسير فى الظلام غائصة فى الكثبان الرملية الناعمة. الوقود أشرف على النفاذ ومدخل معدية بور فؤاد مازال بعيداً. عمال القناة يخرجون من ثكناتهم المنزوية خلف مخازن شركة الإنشاءات البحرية. العساكر الإنجليزية يزحفون جهة لنشات هيئة قناة السويس. يتحركون فى طابور واحد طويل قافزين فى بوارج حربية صغيرة ترفع الأعلام المصرية، الدركسيون ينفلت من تحت يدى فيدور المقود فى الفراغ

وقت أن زاغ بصرى فى حشود الضباط الفرنسيين المتأهبين لاعتلاء العربات "النيفا. إطارات الجيب الأمامية تخرج من الرمل مصطدمة بالطوبان العالى. المحرك يتوقف فجأة وقت أن صعد مؤشر الحرارة إلى النقطة الحمراء، أوقفت العربة وهبطت متعجلاً أترك مقعد القيادة بالمقود لتصطدم رأسى بالقائم الأيسر الملتصق بفتحة الباب. رفعت الكبوت ودلقت الماء البارد فى الرادياتير الفارغ فتطاير رذاذ الماء الساخن يهوى على صدرى ووجهى، ضربت رأسى بيدى ودعكت عينى وانكفأت عائداً إلى كرسى القيادة خلف الدركسيون. أجفلتُ للحظات مائلاً برأسى على المقود فجاء من خلفى طارقاً على الباب الأيمن، سحبت السُنكى وتركت المقعد دائراً حول العربة متحسساً خطاى فوق الكثبان الرملية قافزاً فى بطء وخفة فاراً خلف العربة صارخاً فى الظلام ممسكاً بالسنكى فى يدى اليمنى وأصابع يدى اليسرى تحوط زناد الطبنجة، قلت صارخاً أرقب ظلة المتحرك كشبح متحلقاً حول العربة (من أنت. كلمة السر انطق . إرقد. أركض، خطا للخلف مبتعداً عن الرمال قافزاً فوق الطوبان فاراً للأمام كاشفاً عن وجهه الخارج بارزاً أمام الكبوت وصار يردد فى ثقة وبصوت هامس (دار مندار دار مندار) ، حسن زنجير؟! قلت وأنا أتبع ظله مهرولاً فى الصحراء. (من انت)؟!! (دار مندار)- (أنا حسن عبد الرحيم يا أبو حجة. الدار أمان- سحبت الطبنجة الميرى من الجراب مصوباً الفوهه جهة رأسه. فصار يردد بصوت مبحوح -: (أنا حسن عبد الرحيم يا أبو حجة. أنا مرسال المناخ- مقابر الأقباط يا بنى آدم، انتصبت فوق الرمال الناعمة أطل لملامحه ناظراً لهيئة مظهر وجهه الأسمر مصبوغ بالشحم اللزج المتحلق حول صدغيه وأسفل عيونه السوداء الصغيرة التى لاحت تبرق فى ظلمة الخلاء وقت احتجاب القمر. قلت:.. اقترب، ودنا يضحك قائلاً فى هستيرية. (ياراجل حرام عليك وقعت قلبى. دنا

ناحيتى قاصداً الباب الأيسر للجيب فظهر البلل الكثيف يفترش حجر بنطلونه الكاكى هابطاً حتى منتصف أفخاذه الضامرة، قلت فى يقين إركب يا عم حسن، قفز بجانبى فادرت محرك الجيب قاصداً المعدية مطلاً فى خبث أنظر ملامحه بدقة متتبعاً نظراته المتلصصة لوجهى كل حين، مع التفاتاته المتكررة تحت فانوس السقف المضاء أعلى خصلات شعره وصوب الحاجبين السوداوين الكثيفين لاح الحول الظاهر فى عنيه الضيقتان.

الناظران بننيه السوداوين أقصى يسار الحدقتين على الدوام أظهر الكارنية الميرى لقوات الدفاع الشعبى فرأيت المسطور. حسن محمد عبد الرحيم، مراقب جوى، ورحت فى ضحك متواصل أنحنى جهة مدخل معدية بور فؤاد (٣) المتوجهة إلى الضفة الأخرى فى بورسعيد. انير الفوانيس الأمامية الكاشفة لفواصل المعابر الحديدية طارقاً العتبات الصاج قائلاً فى ود.. (على فكرة يا عم حسن. أنا أصغر واحد فى إخوات أبو حجة.

* * *

١٩ سنة وأنا أحاول النسيان دون جدوى. الصور كئيبة والليال صارت هوس، صار الطنين فى أذنى مثل جحيم يخترق عقلى وذاكرتى كل ليلة، الطرش أصاب أذنى اليمنى فصرت باليسرى اتلقى زن إطارات العجل الخشبى الغليظة التى تسرى فتدهس ذاكرتى وتُهز كيانى، ماكينات الديزل تدور فى المراكب وأنا الجالس قريباً من الشط كل ليلة- البحر يوشوش والموج يهج فيصطدم بصخور الفولاذ المتراصة فى ساتر طويل يمتد بطول الشاطئ بداية من قاعدة وتمثال ديلسبس واصلاً حتى كوبرى الجميل الحديدى المُعلق قبل قرى "المناصرة" والجرابعة قبل عزبة البرج، حسن عبد الرحيم الواقف كل ليلة فى منتصف الليل خلف التبة الضخمة الراقدة خلف مقابر الأقباط يرقب الطائرات

التى تحلق بغته فتحوم حول موقع الدُشم- قُرب الخابى. أعلى شبكات الرادار فى ك ٥٦ المطلة على البحر. يبدأ فى تحريك أذنيه مع الصوت المفزع الآتى من السماء يجول بعينيه منصتاً يرقب الهاوى من سماء سوداء هابطاً بعشرات المظلات المنفوخة صارخاً من خلف الساتر المحطم هابطاً يقفز زاعقاً، إجرى يا إبراهيم. إجرى يا أبو حجة، ويجرى أبو حجة وسمير زخارى ومصطفى برهان وأحمد البلوك والسيد الجمالية حامل الذخيرة الملفوفة فى بطاطين صوف رمادى، ويطلق الرصاصات على أهداف وهمية تسقط على الأرض فجأة فيصعد صدى المقذوفات من أعلى الكثبان الرملية. وتكثر نوبات التمويه وتضليل العدو المغير بطائراته.

نستدير على رشق الرصاصات الحارقة التى اخترقت صدور الرفاق من خلفنا. وتهوى راجمات الصواريخ الآتية من البحر منطلقة من السفن الحربية الواقفة على بعد ٢ كيلو خارج المياه الإقليمية بساحل بورسعيد المتوسط، وتشتعل النيران فى مخازن الخشب عند عزبة الصفيح- وينقلب الليل نهار بوهج كرات نار فرت فى الخلاء لتكنس مؤخرات القوة ٣ مشاه الآتية زحفاً من (رأس العش). الصواريخ تصطدم بالسواتر الرملية فيسمع دويها ويتعالى مع صرخات الفزع والتكبير فى الرؤية الشبه ضبابية والتى زادها دخان الحرائق سواداً..

° ° °

صرت إسحب جثث الجنود ورأيت الأجساد وقد تقطعت وبانت كأشلاء ونثار دموى تبعثره الريلح فوانيس عربات النقل والسرفيس تفر على الجسر البعيد، و"سمير زخارى" يضرب قرص اللاسلكى المتنقل بعنف مردداً (آلو ٣. مشمش. مدد مشاه فى مقابر الأقباط، مدد مشاه مناخ. آلو

مشمش يوسف رخا من الدفاع الشعبى ينادى ألو مشمش حسن عبد الرحيم ينادى؟!! وتنفلت الشظايا عن قُرب فيصرخ حسن باكياً هلعاً وقت أن طارت الساق اليمنى لسمير زخارى فهوت فوق الحصى فتبعتها رأسه والتى رأيتها تفرُ بدمها منفصلة عن جسده وطرطش الدم الأحمر فى سيل- هبط فوق الصبار الجاف المزروع بجانب المدخل الرخامى للمدافن؟!!

– (آلو مشمش. قيادة؟!!) الطائرات تحلق فى مستوى منخفض- الطائرات بنجوم سداسية تقترب من مدافن الموتى. تصعد لتحوم وتتحلق من جديد حول شبكات الردار مسلطة أضوائها المبهرة قُرب رؤوسنا وأعلى العربات الجيب، حسن عبد الرحيم ينزع السونكى من الحذاء أبو رقبة مفتوحة وينكفئ أسفل ستار الأدخنة رامياً بجسده داخل العربة الجيب الكاكى- اطفأ أنوارها وأدار المحرك وفر يرقد أسفل أشجار السرو.. آلو مشمش. الشظايا تتطاير فتصطدم بإذن ابن عبد الرحيم الذى لم يشعر بها فركض يزحف ممدداً على الرمال الناعمة موجهاً فوهه السلاح فى وجه الجنود المندفعين قاصدين مخابئ جنودنا وقت أن سقط المظليون فى دفعات متلاحقة منقضين بالسناكى اللامعة على رقاب ورؤوس قوات الدفاع الشعبى، أطلقت تسع رصاصات دفعة واحدة فهوى الجنود الشُقر ولاحت عيونهم الزرقاء تخرج من محاجرها تضوى كحبات الكريستال المشطورة.

° ° °

عبر الأثير. ووقت تقليبى فى محطات الراديو الترانزيستور الصغير سمعت همهمات الزعيم جمال فى بورسعيد وفى بورسعيد؟!! (فى بورسعيد دفعت الأهالى ضريبة الدم)، وتغيب الموجه على تردد آخر، وتفر السكان من الكبائن الخشب فى طرح البحر فتتسلق الأشجار وقت أن نشبت

الحرائق فى المنازل فظهرت الجدران المثقوبة طافحة بهوات كبيرة تسطع وتضوى تحت ضوء القمر، على صوت الشخاليل وطرقعة الحوافر والسياط التى هوت على ظهور الخيول، بانت عربات السوارس الكبيرة بكبائنها المشمع يقودها رجال يرتدون سراويل زرقاء وآخرون بجلابيب يتحلقون حول المواقع وقرب الجسور الأسفلتية وحول الدُشم الحصينة التى تهاوت. رأيتهم يرفعون الجثث مكومة فى صناديق خشب موضوعة داخل الحناطير السائرة فى صمت، ويسحب ابن عبد الرحيم المنديل المحلاوى ويلفه حول أذنه ويطير المنديل قافزاً أدنى حوافر الحصان، (آلو مشمش ٣)، القوة تنادى- الجثث بالآلاف صرنا نلمُ بقايا الأجساد. جمعنا العيون المضروبة فى مقاطف قديمة وقت أن صرخ أبو حجة مذهولاً، آلو مشمش؟! ب- آلو مشمش؟.

-: توجه إلى شفخانة المناخ- إقصد جمعية الرفق بالحيوان فى شارع السواحل وبنى سويف فى حى المناخ. حكرقوطة؟!!

جريت لاصعد عربة عبد الرحيم الجيب. حملت الكاميرا الفوتوغرافية متوجهاً إلى الشاطئ من جهة مسجد "صالح سليم"، قصدت بلوكات الجميل المتراص بطول الشاطئ حتى مدخل الفنار القديم وجدت الجثث طافية على سطح الماء المالح. فوق الرمال.حول مراكب الصيد بالميناء القديم ذو الأسوار الواطئة. الأهالى تصرخ قُرب الفلك المتوقفة عن الصيد وحول أحواض الزريعة القريبة من ثكنات ضباط خفر السواحل. الصبايا تفر والنسوة تولول والأطفال ترمى بالخشب الحبايبى والماهوجنى ومسطحات الألواح "الفورومايكا" تسبح فوق السطح المالح. الغواصون يقفزون فى الأعماق ببزات أسفنجية منتفخة، جنود القوات البحرية القلائل يرمون بالإطارات الكاوتشوك ويقفزون فوق قطع الفلين المستديرة. بسحبون الجثث الطافية وبقايا الأجساد. بطون منتفخة وأخرى

مبقورة وثالثة طافية بأمعائها في أشكال حلزونية ودائرية تتحلق حولها الطيور الغريبة، تقضمها. تنقر فيها، أسماك البساريا تلتهم الأشلاء الدموية. الصراخ يصل عنان السماء، ظللت حولى محدقاً فى الأمام والخلف وعلى يمينى ويسارى. دعكت عينى الدامعة نظرت فى الأفق الغائم- لا ليل ولا نهار ولا شمس ولا ظل، دخان أسود . وضباب ومشاعل مرفوعة فى ظلام البحر وأعلى المراكب السائرة فى بطء، صور الزعيم مرفوعة على الأكف فى كل مكان بطول الشاطئ والكورنيش اتيه من خلف المقابر وبطول الحاجز الصخرى الممتد إلى مالا نهاية، عجلات الحناطير وعربات السوارس بخيولها الأربع تدق رأسى وتقترب الأقدام التى تدوس فى الأسفلت. ويتسلل الدم من مؤخرات الصناديق الخشبية. من أجنابها. تمشى وقد حملت جثث الموتى مكومة فى طبقات تتخطى منتهى الصندوق المرتفع المطوق بالحديد المتحلق بأسياخ ملفوفة حتى مؤخرة الحصان الذى تدلى برأسه وقت إنفراج الأقدام سائرة جهة طريق المناخ، إلتفت على هدير الغضب وسط المشهد الجنائزى وقت أن هرع كافة سكان المدينة- فى "حى المناخ" و"أول العرب" و"حى الشرق" و"طرح البحر". و"حى الأفرنج" قُرب المعدية خروجاً من شارع فلسطين مروراً بمساكن "الحرية" و"ناصر" وسمعتهم يرددون متحلقين حول العربات التى تحمل الشهداء متجهة إلى مبنى المحافظة فى شارع "٢٣ يوليو"، (علشان كرامتك يا مصر وعزتك يا زعيم بيموتو كل المصريين؟!!)، الدم سائل فى الطرقات يعبر طريق "الكرخانة. وشارع الحرية وجسر العدل المؤدى لطريق فلسطين الموازى للبحر وشارع الميناء، وتضرب الخيول أقدامها قُرب مدخل الباب الرئيسى لجمعية بورسعيد للرفق بالحيوان فتفر الأحصنة من مرابطها مجروحة من عند الظهور وتسحب داخل الحظائر، وتلف الأجساد- وبقاياها فى أجولة من الخيش،

° ° °

دلقت زجاجة الكينة البطل الحديدية فى جوفى وفردت ذراعى فى هواء ديسمبر. شمرت أكمامى وخلعت الأفرول الأزرق الخاص بعمال الكنال وبكيت —بكيت على مرأى الحشود المتراصة والتى قفزت تعتلى المبانى المطلة على الفناء المزدحم بالرؤوس والأقدام.

دُرت أقلب فى ملابس قديمة فارغة. ألبسه داخلية برائحة عرق محببة إلى نفسى. رائحة زكية قريبة من أرواح الرفاق ومن رحلوا غرباء. غرقى. وقتلى وباحثين عن ذويهم، رأيت الدم الأحمر القانى قد صار قاتما. مصبوغاً بزرقة غريبة. فتشتُ فى جيوب بناطيلهم. ستراتهم الزرقاء هوياتهم. وطال بحثى فرأيتنى غير مدركاً بأن الملامح قد تلاشت

° ° °

فصل ١٨
[مالينا ومايكل وجاك]

كانت معذورة زوجة "عبدة اللوكس" الملاح فى الكنّال وقت أن ردت بعنف على الست "زوز" أم عبدة الطلياني (إبنك مهوش بتاع نسوان ياولية. عبده فنان يا مرة. واللهى فنان؟!!

وترد أم الطلياني والأسى ملىء عينيها،

(فنان- آه فنان يا ختى- (دا الواد مخاوى واتلحس "بالبتاع"). أقول إيه بقى. ربنا يسامحها "مالينا" الشرموطة هى السبب فى كل اللى حصله؟!!

° ° °

ولأنها كانت تجلس وحيدة فى التراسينة فى انتظار الزوج طلت فى السماء وهى متجسطنة على الكرسى البامبو. ونزلت الدموع من عينها لما صارت تحدق فى البعيد- شارع الكارخانة القديمة وطريق "الأمين" الطويل المؤدى للبحر من جهة المناخ.

حيها القديم ومكان ميلادها وطفولتها وصباها وعزها ومجدها الضائع فى التسكع مع العساكر الإنجليز فى حوانيت الرذيلة، زمان فى الحرية، صارت تتذكر ما حدث فى شبابها وحبها "لجاك" الضابط الإنجليزى. اللى عرض عليها الجواز فى أول ليلة نامو فيها سوا فى غرفة "قدرية" النتافة، يومها قدرية دعت ليها باستمرار العلاقة "بجاك" والوصول للزواج، صفية مرات عبدة

اللوكس صارت تتذكر الآن ورغم مرور سنوات طويلة، كيف سمعت الموسيقى الكلاسيك لأول مرة وهى فى أحضان "جاك". وصارت تردد فى نفسها (كان بيحبنى فعلاً كان معارض شغلى فى الكرخانة) ودعكى كل ليلى فى سرير شكل، بعد شهرين من علاقتنا ببعض رفض ذهابى للمصح القديم اللى اتبنى أيام الملك فاروق فى بور فؤاد.. يومها قطع الرخصة وضرب طبيب النسا التركى فى صدره لما حَب يكشف عليا وحط إيده على بزازى وقلى إقلعى الكلوت مَرة؟! ! يومها جاك أخذنى فى العربية الجيب الميرى وهرب فى المعدية قبل المغرب. وقعدنا نمشى سوا ونلف وندور فى شارع فلسطين وجنب قسم "المينا" وقفت العربية ومشينا على رجلينا لغاية "قطارية" بياع الكاساتا، طلب اثنين. ومشينا نلحس والكريمة تسقط من بُقى وأضحك وأقول- إمتى هنسافر يا جاك وجاك يقول. (لما نقابل بابا صفية)

صفية استدارت بالكرسى وبدأت تتحسس موقع سكنها الجديد فى العزبة. وكل الشوارع خالية أمام عينيها وطلتها واصلة لغاية الميناء وعمارات الخواجات فى "حى الإفرنج" مرصوصة على الضفة الشرقية للقناة، كانت أيام جميلة يا صفية. صحيح. كل الأيام الجميلة ولت واللى جاى كله سوء، صارت تقلب فى أزرار الراديو "التليمصر" الخشب ومحطات تروح ومحطات تيجى، وكل الأغانى المسموعة بتزيد من وحشتى، وبحس بغربة مع الأغانى الشعبية وأتذكر هواه وعشق جاك الغريب "لبيتهوفن" أيام جميلة ياريتها طالت.. والباب يدق بعنف والضلمة بتزحف عاالبيوت فى "حى العرب"- وسى عبده اللوكس بينادى من بير السلم كأنه طفل خايف.، والحاجة "صديقة" قريبة من التراسينة المواجهة لشقتى بتنادى على أفتح للراجل- (يا صفية.. يا صفية وطى الراديو وقومى إفتحى لجوزك يا وليه، ويدار الجرامافون فى مكان

بعيد وسماعات موضوعة فى الخلا ومكتبة زان موضوعة فى شرفة أرابيسك والرمل أصفر وناعم والعشاق بتجرى ناحية البحر فى بلدنا ويسرى صوت الموسيقى فى حنان وعزوبة ونغمة فلوت بتتعالى وأحس بالكرسى الهزاز بيتحرك من مكانه. بيطير وتطير معاه ذكرياتى القديمة وتنكشف سيقانى فى الهوى وأشعر بنشوة سحر وتنفلت حمالة صدرى اللى دلدل قبل الأوان. وعبدة اللوكس يدخل مكشر زاعقاً..

– (يا وليه إنتى نايمة ولا إيه)؟!!

بفتح الباب وكأنى فى سكرة والراجل يقول

– (الولية اتجننت)

أردد فى نفسى وهو ممسكاً بكيس البرتقال الشموتى، فاكر ليلة فرحنا يا عبدة،

– فاكر يا صفية. ودى ليلة تتنسى،

وفين راحت "مالينا" يا عبدة؟!! وفين جاك دلوقت؟!! راحو فين الطالينة؟!! (معذورة مالينا يا صفية) كان من حقها يكون لها راجل. لكن عمرها ما كانت شرموطة ياسى عبدة؟!! وعبدة اللوكس يقول فى حيرة:– (إيه اللى فكرك بيهم دلوقتى يا وليه يا فلتانة يابتِ الجزمة)

• • •

– كنا فى صبيحة ٥ يونيو. كان عبده لساه مولود وعنده ١٢ يوم. ومايكل راسه وألف جزمة ماحد يزف "زوز" إلا هوه وفى عربية "كاديلاك" دفع أجرتها يومها مقدماً للحاج "خالد الإكيابى" ولما رفض الحاج خالد، بَعت ١٥ عربية بيجو سبعة راكب. وسى عبدة اللوكس لبس البدلة الشركستِن بالحمالات وتحتها كان القميص أبيض حرير ببابيون نبيتى، كان مر ٣ أسابيع على زواج

مالينا من مايكل، البنت كانت طاليانية من صقلية عندها ١٧ سنة وزى القمر. أتولدت فى ليلة خريف على مركب جدها التركى "عثمانو بورهام" ونزل "بلوتشى" أبوها القبطان اللى كان شغال فى البوسفور. ولما حبت تيجى بورسعيد جت عن طريق بيروت مع سمير زخارى سنة ٥٦، فاكر يا عبدة؟

:- (فاكر طبعاً،؟!!

عم عثمانو بورهام إندفن فى مقابر الجميل في نوفمبر سنة ٦٩ يومها بكاه محمود سليمان البتانونى. ومحمود طلخان الكبير. والمعلم ضاحى سلطان اللى كان لسه عايش. الله يرحمه؟!!.. مكانش فيه فى الحب والموت والحرب فرق بين مسيحى ومسلم ويهودى. كلنا بنى آدمين بس الفراق قاتل. والصحبة ونس ودفا.. فاكره يا "زوز". فاكرة يا صفية.. فاكر ياسى عبدة. (فاكر طبعاً)؟!!

– معلونة الحروب ومعلون الحنين. والله يرحمه جمال عبد الناصر؟!!

:- الله يرحمه.. آه. والله ماعارف. (أسِب ولا نسامح وننسى؟!! ملعون الحنين..، ويدخل عبده اللوكس الحمام. وتقف "صفية" و"الزوز" مرددين فى نفس واحد، ويظهر وقد استند على الجدار المتآكل،

– الراجل له ٢٠ سنة ماشى برجل واحدة!! (يعنى هوه لوحده يا ختى) أهو عمك "فرهود" ماشى بعين واحدة وذراع واحد من ٧٣،

– إنت فين يا عم حسن يا عبد الرحيم؟!!، حاسس كأنى المركب بيفارقنى، المركب كان كبير صار سفينة سياحة غريبة تتعملق. تزعق على ضفة غريبة وبعيدة، السفينة راكب على سطوحها كل الأحبة القدامى، "عثمانوبرهام" ومالينا" بنت بلوتشى "وجاك" الطلاينة والقبارصة واللجريج والفرنساو، وأصحابنا اليهود اللى هاجرو من زمان. السفينة بتزعق نص الليل فى ميناء بعيد مجهول. بتطلق سرينة فى الظلام وتمخر عباب البحر تتخطى

حاجز الأمواج، بتسافر بعيد. صوتها بيضرب فى اليافوخ. بيشدنى من عقلى وبيأخذنى الصوت وأجرى على ضفة موازية. أجرى أجرى، والموج يتعالى ويصطخب. ضفافى تتوارى والسفينة تركض صوب آخر البلاد؟!!

فصل ١٩
أهداف الإكيابى

إسمى أهداف الإكيابى. من أسرة غنية. سليلة حسب ونسب، إتولدت فى بورسعيد. وبابا خالد ولد فى دمياط ورحل مع جدو "الإكيابى" الكبير سنة ٢٠ لمباشرة تجارة الينا فاتورة وقماش الحرير والساتان المقصّب اللبنانى والمصرى، بابا قابل ما متى "ثريا الجمال" فى معدية بور فؤاد، شافها وهى راكبة عربة السوارس، يومها ماما ثريا كانت راجعة من عند جدتى وعشقها من أول لقاء صنعته الصدفة. وتقابلوا مرة ثانية فى عمارة "الساجيرية". كان طالع يعرض الكتالوجات الجديدة للخامات الكلاسيك. كانت قصاصات اللاميه والترفييرا والجرسيه والكتان الأزرق والحرير الأبيض والروز والفوشية والأسود مع الساتان المقصّب ملفوف مع الخامات العتيقة المستوردة من بيروت وغزة. الكتالوجات كانت براقة، بغلاف مصقول ومُجلد مطبوع عليه الورد بلدى مزخرف بلون نبيذى ظاهر. يومها بابا دخل الأسانسير فى غفلة من البواب اليونانى "مناخلى" أو "مناخوليا" كما أكدت لى الجدة بعد ذلك فى حضور العم يعقوب تاجر الفحم "بحى العرب" الجديد، ولما انطرق باب الشقة فى الدور الأخير المطل على قبة هيئة قناة السويس. فتحت أمى الباب الزان البيج أبو ثلاث شراعات. ضحكت وأخذتها الدهشة وهى تطل فى وجهه محاولة مطابقة ملامحه بالأوصاف التى بُلغت بها من قبل إدارة المحل. وكان الواقف أمامها،

شاب أسمر طويل ضحوك وأسنانه بيضة. كان خجول وانتظر ربع ساعة حتى سمحت له بالدخول لعرض بضاعته، ولأن الماما ثريا من أصل تركى، خافت تدّخل الولد الرسبشن. أو غرفة الجلوس، وفضِل الولد الأسمر زعلان وحزين.. الولد اللى عرفت بعدين إنه بابا، انتظر المدام ثريا حتى نادت على العم أحمد عجيبة الجنايني الذى سحب الضيف من يده وجالسه فى غرفة المسافرين- وغضب يومها بابا ورفض الجلوس بصحبة الرجل الغريب الذى لم يعرفه ولم يسمع عنه من قبل- ولم يوافق البابا على فتح حقيبة "العينّات" إلا مع خروج الجنايني وإحضار عصير المانجو المثلج مشروبه المفضل مقدماً بيد مدموزيل ثريا الجميلة البيضاء أم العيون الزرق والحنك النون أبو شفايف وردى...، كان أجمل يوم فى حياة ماما وحياتى من بعدها. وياريت دامت الأيام السعيدة؟! !

° ° °

كان أجمل وش شافته ماما ثريا وأحَنْ مخلوق اتولد فى حياتنا كلنا، زمان ومضى. كانت المراكب فيه كثيرة بتشيل ستان وحرير لبنانى. والأحبة من كل مكان فى العالم راكبين فلايك،

من خلف أتواب اللاميه اللى بترفرف ومن وسط التل والحرير الأبيض طل وجهه البهى خالدُ شفيف جَن جنون "ثريا الجمال" ولم تستطع صبراً فاخترقت المحظورة وانفلتت الرغبة البكر المكبوتة من بنت عذراء أصرت على التلاقى المشروع والزواج منه،

:- (بحب خالد يا بابا ومقدرش استغنى عنه. بحس إنه اتخلق عشانى)

وانطلقت الضحكات من التراسينات المواجهة فخجلت ماما وراحت فى بسمة طويلة صامتة بريئة، وأمرها جدو بدخول غرفتها، وقصاد شقتنا العالية فى

"المساجيرية" ومن التراسينة أم المشربية ماهوجني أنصت وحدق المراقب عن كثب، وظهر في الحياة الجديدة كوسيط، فرع آخر من الشقاوة.

العم إبراهيم الحلاج صديق جدو في بورصة القطن، وتحدى جدو خالد. وصار الأخير يطل ويحدق خلسة من خلف الستائر الحمراء المواجهة لغرفتنا. راقب خالد تحركات ثريا في الرواح والمجيئ ليل ونهار، يصعد للدور العاشر ويلوح بالقصاصات والشراشف والبواقي والفضل الباقية من فساتين العرض بالإيتليه القابع خلف كافية "دى لابوست طمه" . بدأ النداء على ثريا هامساً في وسط الليل فزاد مع الأيام جنوحاً.. علا صوته. وغمزاته وإيماءاته عبر التراسينة وفي ليالي الصيف وقبل وبعد الغروب وبدأ القص في الشغل الجديد "البلاسية" وقدوم الكتالوجات الطلياني والفرنساوي. سواريه وماتينيه وتشطيب العراوي والزراير والأساور للتاييرات الخريفي أم كوله كتان سيمون ودراعات شفافة بأزرار الماس عند المعصم. وصارت ثريا تراقب خالد وهو يدير الإتيلية، كانت تخرج بالبشكير م الحمام على البلكونة، تنشر الفوطة البوستيج المبلولة فيضاء مصباحه الكيروسيني الخافت في النافذة المقابلة والأعلى نسبياً بيارده واحدة، وبعد الحادية عشر مساءً ومع الهدوء النسبي في ممرات شارع فلسطين، تمشى ماما ثريا جهة التراسينة وقد ظهرت منهمكة في طي الملابس الجافة ونشر المبتل. واليقين ثابت بالمراد، وفي منتهى شارع فلسطين الطويل ومع خروج عمال "الرشمة" من باب ٢٠ وانصراف القباطنة القبارصة واللجريح من أمام قسم شرطة "الميناء" مروراً بعتبات النهضة البازلت متسكعين على أرصفة بار"سيسيل" يبدأ خالد في مغازلاته.

° ° °

كان مغامر مثل لاعبى السيرك، ثلاثة "أتواب" من الحرير القرمزى تنفرد هائشة. وعلى صراخ عم إبراهيم الحلاج يبدأ خالد فى عقد الأطراف ببعضها البعض، "التوب" طوله ٣٠ متر- يربط طرف الأول بالثانى ف الثالث حتى يبلغ شريط القماش الحرير ٩٠ متراً. ويتأكد من متانة العُقد بالشد عليها والكز عليها بأسنانه متأكداً من عدم إنفلاتها وقت التدلى. يقوم بعد ذلك بسحب الطرف الأول من قماش الحرير ويلفه حول سور التراسينة الحديدى ذو الخابور الطويل المثبت بأرضية الشرفة الرخام. خمس لفات فى دوائر من نثار القماش الحرير الذى يتدلى فيرفرف محلقاً كل ليلة بين العمارتين حاملاً جسد المُحب الولهان الطائل معلقاً فى ثنايا القماش وقد انبثقت حدقاته المحجوبة خلف خامات الحرير والكتان واللاميه عبر ليال عديدة تأكد فيها الجنون وشهوة التلاقى وحب المغامرة فى الطرق على نوافذ المحبوبة ثريا الجمال، توالت المحاولات فى القفز عند كلاً منهما ليتقابل بالآخر. وزاد الوله البيتوتى عند الانثى الحنونة فارتسمت معالم فريدة وجديدة على طريق الأمال. خفقت قلوبهما سوياً فى انتظار يوم الوصال المعلوم طمعاً فى طرق أبواب أخرى فى الحياة تنجلى من خلالها معان الحواس والأنفس والأرواح والغرائز المدفونة خلف سياج البراءة والعفة والشفافية الطاهرة. شعر ثريا طويل واصل حتى منتصف الظهر. عيونها زرقاء صافية جسدها مثير وشهوانى. بشرة بيضاء قريبة للشقار ولحم طرى ذو إحمرار ربانى مصبوغ بعزة وطلاوة وسته وعشرون عاماً انقضوا من عمر البنت ثريا بنت الجمال وهى تائهة فى تفسير علاقتها بجسدها المثير وفرط غرائزها اللابدة تحت الجلد وفوق النهدان الطافيان بحلمتين حمراويين مرشوقتان على شجرة أرز مزروعة عبر ممر القناة. وقفت أمام المرآة الكبيرة داخل غرفة السافرين وطلت لبهاء جسدها الذى راق للعاشق

الوحيد وزاد تحديقها لعالم ومواقع الفتنة عبر الليال الطوال المنقضية فى السهر والسهاد والتساؤل عن جدوى العلاقة المتشابكة بين مغزى الأحلام ورموزها كل ليلة. وذلك الولع الدائم بارتداءها الحرير، صارت تحدث نفسها سراً وعلانية. فى خطوها. فى غرفة نومها. فى سريرها المخملى تقول:

:- [كل ليلة وقبل الفجر تحديداً. بشوفه بيتسحب من ورايا وأنا واقفة أمام دولابى أبو مرايات كبيرة، بيبص على ضهرى وأنا عريانة.. يقرب بشويش ويغطينى بعد مايبوسنى فى قفايه وشفايفى، يطفى النور ويسحب على جسمى العريان الكبرتايه الحمرا.. وأقوم الصبح بريحة تانية فى بُقى. وعرق ريحته غريبة بيدوخنى. وشاب أسمر نحيل بيسرح شعرى الطويـ يـ يـ يل الواصل لحدّ كعوب رجليه الحمرا، كنت ببكى وأنا قايمة أبص على البلل اللى بيشبه السحلب بريحة الفانيليا، ماكنتش خايفة ولا خجلانة وأنا ببص فى المرايه من جديد والطرحة البيضة مفرودة على راسى وطفلة زى الورد بتنادى فى الصبحية (إفتحى الباب ياماما أنا غادة.. ياماما!!!.. أنا مريم، ولعى النور ياماما أنا أهداف؟!!)

° ° °

لم تكن صرخات الحرير كل ليله هى السبب.. ولا تلك البقع الدموية التى طُبعت على بروز شباكى بعد ما سالت من ضهره النحيل. ولا قفزته الأخيرة بعباءة الساتان التى هبطت على شرفاتى ليلة أمس الأول، ولا حتى قبلاته الحارة فى النور كل ليلة والذى يعقبها الصعود للنوم فى شرفاته فى الدور الثامن.. حتى شكاوى الجيران وصراخ العم "أحمد عجيبة" وزعيق المذعور "ماناخوليا" حارس عمارتنا لم تكن سبباً مباشراً فى كل هذه الأحداث التى تطورت وتلاحقت وتناقضت صور ظهورها..

صورة الحلم كادت أن تتحول إلى كابوس بعد هذه الحادثة الموعودة فى تلك الليلة الفائتة، بدأ لقاءنا فى الغروب فبعد أن وضع إصبعيه داخل فمه وأطلق صفير عالى حلق قُرب النافذة. هبطت مسرعة لنلتقى فى المر المضاء بمصابيح الغاز على جانبيه حتى مدخل الأسانسير وانطفأت الأنوار فجأة وقت أن قبلنى خالد فى الظلام فدق قلبى بقوة وتراخى جسدى وطفت البهجة والسعادة تلوّن بشرته السمراء الجميلة سار يقفز منتشياً فتباعد واستدار للخلف قاصداً الخروج من مدخل العمارة. ترك رائحة عرقه تعبق الأجواء من حولى وذهب فى نشوته وبقت رائحة رضابه فى فمى قعدت دائخة استند على الجدران الصلبة أبحث عنه فى الظلام. قصدت مدخل الأسانسير وقت أن زادت نداءاتى عليه فسبقنى صاعداً إلى شرفته بسكنه أعلى الدور السابع. قبالتنا. قصدت شقتنا فدخلت باب الأسانسير منتشية فوجدت العم أحمد عجيبة يمشى فى منتهى المر صامتاً. أظنه قد رآنا، حيانى فزاد خجلى واستدرت أغلق باب المصعد وقت أن خرج عم مناخلى مذعوراً فى ظلام الطرقة وبات يردد. كده برضه ياست هانم. استر يارب أغلق الباب خلفى وقد أضاء شمعة طويلة بلهب عالى وعندما انطلق المصعد صاعداً لأعلى سمعته ينادى على خالد بغضب. دخلت الشقة ولاحٍ خالد يلف ويدور فى شرفات الدور العاشر أعلى مسكنه بطابقين رأيته مسكوناً بنشوة مفرطة، غير من موقعه فعلق أطراف قماشه الحرير فى الخوابير الصلبة ناحية الطابق الأخير قرب السطح إلتف بعباءة مصنوعة من الساتان وصار معلقاً فى الشريط الساتان الطويل.

تراءى لى سكران. مخموراً تجتاحه غبطة فريدة لم اتعودها من قبل وصار قلبى يواصل الدقات التى ازدادت قوة تحولت إلى هلع وباتت أطرافى ترتعش. خفقه أخيرة من القلب أحسستنى بنذير شئوم. وقت أن طار خالد محلقاً فى

الأجواء الخالية بين العمارتين الأعلى نسبياً. طللت فى سماء غائمة تنتشر فيها نجوم قليلة خافتة بعض الشىء. وقت أن حط على شُباكى محجوب الوجه كله ونن عيونه السوداء يبرق فى الظلام، صرخت وتذكرت أن باب الشقة مفتوح وتهاوى خالد على جدارى القريب من نافذة الحمام فكادت العُقد أن تنفلت وقت أن دنا بظهره فاقداً التوازن مصطدماً بالأسياخ الحديدية الطويلة المروحية الفاصلة بين شرفتنا والشرفة الأخرى الموازية لموقعنا فى السكن وانفتح جُرح قديم على صوت ماناخوليا الزاعق من أسفل فهرعت أجرى مذعورة قبالته وقد انفتحت كفوفى بذراعى تستقبل جسده. مددت يدى ألف أصابع يدى اليمنى حول خصره وأسحبه بيدى اليسرى، لينزلق كالطفل بجانب مرايات البلكونة الصغيرة.. خطا ببطء مقترباً من التسريحة الكبيرة بغرفة نومى وطاف فى الشقة صامتاً وقد ألح على أن أنير ذر الكهرباء داخل الحمام- فعلتُ على استحياء فظهرت ملابسى الداخلية المعلقة بالمشاجب خلف الباب الزجاجى الغامية وقد تراصت فى دوائر

° ° °

ماذا رأى فى عيونى عندما تلاقت النظرات وطال التحديق فظهرت لهفتى عليه وقت أن زادت نشوته. وهل كانت نشوة حقاً.. هل كان خالد سكران. هل كان فرح بوجوده معى فى غرفة نومى لأول مرة، وماذا سيفعل أبى النائم منذ ساعتين فى غرفة المسافرين على غير العادة.. ماذا سيفعل بابا لو استيقظ الآن فجأة ورآنى نائمة فى حضنه الدافىء غير خجلانه من رؤية خالد لكلوتاتى الحرير المبتلة...

-: (غلطانة يا ثريا... كان لازم تحكى لبابا عن الحلم اللى شفتيه النهاردة الفجر؟!!. نعم كان يجب أن تحديثه بصراحة ووضوح رغم

إصراره الدائم عل الرفض. وعدم موافقته على طلب خالد الصريح والمتكرر بالزواج منك .

° ° °

(العم مناخلى)

أتى فى الصباح الباكر وعلى غير عادته ليطرق باب الشقة، شقتنا. وفتح بابا الشراعة: (فيه إيه يامناخلى. خير)

:- [يا بيه ماينفعش اللى بيحصل كل يوم ده...

-:...،... أيوه يا بيه سى خالد؟!!، يا بيه الناس بتتفرج علينا كل يوم وكل ليلة. من الشباك ودا رايح جاى فى الهوى زى جنود المظلات، ويطيب للحاج خالد السماع، فيقول وبعدين يا مناخلى،

:- ماتوافق يا بيه ونجربه. الواد جدع وهيحافظ على ست "ثريا".. (يا بيه الفلوس مش كل حاجة وخالد مستقبله كويس

° ° °

كنت ببكى وأنا شايفه العم أحمد عجيبة بيشيل البرواز الذهب من أعلى الجدار السيمون فى شقة "المساجيرية"، ووقف بابا خالد يدارى الحزن ساعة لما ظهرت صورته وهو واقف في إتيليه النهضة بيسّلم على السيدة "ميلانى" قرينة السير "مايلزلامبسون" السفير البريطانى كانت واقفه بجانبه الملكة "نازلى" والده الملك فاروق وزينب هانم قرينة مصطفى النحاس باشا، وهبطت الوجوه الراقية الصافية من داخل البرواز وأُسند التابلوه الكبير على الحائط الخشبى الهش فى انتظار نقله للسكن الجديد بحى العرب؟!!.. نزلت اتكىء على الداربزين الحديد المغلف بالزان وقت أن دوى صوت المذيع فى الراديو ليعلن اتفاق الضباط الأحرار... اتسندت على السور الحديد الطويل هبطانة وخايفة...

الله يرحمك "آنَا نازك شهبندر" تيته كانت دايماً تقول- [بُص بنت أهداف. مس دايماً تدوم الأيام السعيدة. وعسان نسوف بريق الألماس الحر لازم نعرف الفالصو... إسمع أهداف، عسان نزيل السواد. لازم نسحب شوائب ونسيل رايش، تتكلم بحكمة وأسى والدموع نازلة من عنيها، وهى بتطل للمراكب السائرة فى المجرى الملاحى للقناة. يخوت بتروح ويخوت بترحل. ومراكب جاية من الضفة الشرقية وأنا واقفة خلفها في التراسينة الفامية وبنلمح سوا مركبتين اتنين- "مراسينا" التى تحمل الملك فاروق بزية البحرى ومعاه صديقته اليهودية "نيكول" "ومراسينا" بتتجه للضفة الشرقية بحراس من جنود مصر بزى عسكرى كاكى. والـ "بلوتس" "**polots** اليخت التركى الزجاجي رائح قُرب الطابيه وبيميل على قاعدة تمثال ديلسبس فى نزهه ليل أخير. وبتظهر الملكة "فريدة" ووصيفاتها جميلات القصر ويُطل القمر فى السما الشفافة قبل الغاطس فتقول "آنَا نازك شهبندر" وقد استدارت ناحية القمرة ملتفته تحدق فى المدى البعيد عند ضفاف أخرى،

-: [بص بنت أهداف. إنت لازم تتزف فى الـ "**polots**". سامع بنت؟!

أقفز على السلم الطويل المفروش بالمشاوات الأصفهان والدواسات العجمى حزينة.. أخرج من بيتنا الجميل القديم فى عمارة الساجيرية، أمشى فى شارع فلسطين بعد الغروب بساعات أصعد لشرفات سيمون أرزت الخالية المطلة على القناة عند منتهى شارع "أوجينيه" أطل بحسرة من خلف الزجاج المشروخ المُترب فأرى المراكب خشب قديمة وصغيرة وجنبها الفلايك بتشيل عمال وصعايدة ومهاجرين بطواقى "شراقي" غامقة وعمم وكوفيات سودة فى أبيض فى

أخضر ملفوفة حوالين رقاب معروقة والوجوه السمرة المنحوتة مجهدة والقلوب مخطوفة، (الله يرحمك أنّا نازك شهبندر)،

-: [مش كل المراكب بتحمِل مُنى.. ساعات كتير بتشيل مآسى وأوهام ومصائب بشر عيونهم ضيقة زى الفلسطينيين الكتير اللى جايين من هناك عابرين القناة والمجرى الملاحى فوق مراكب خشب بتدّخن ليل ونهار؟!!

فصل ٢٠
[أحلام مالينا؟!! — عبده الطليانى]

كل يوم نفس الموال — ؟!!

أمى صديقة تصحى م النوم وتخَلّص غسيل المواعين.

تلبس الجلابية الكستور اللمونى وتدخل عليا أوضتى تزّعق وأنا نايم فوق السرير السفارى.

:- (يا واد قوم شوف خالتك "زوز"- يا واد خالتك تعبانة، يا واد قوم يا واد- وله يا كيمو. يا واد قوم الساعة حداشر وبقينا الضهر..

° ° °

أقوم من النوم مفزوع، وساعات أقوم فرحان ومزأطط، بالذات لما تكون ريحة الجلابية نضيفة وريحة الأومو بتهف من ناحية صدرها، آكل فول وطعمية ومش بالطماطم مع "أم الخلول" الحادقة. وأشرب الشاى واللبن بعد الفطور.

° ° °

خالتى زوز زعلانة منى عشان بعاكِس عبدة.

وكل يوم أمى تصالحها وتقول- الأتنين أكتر من الإخوات سيبيهم هما يتخالصوا مع بعض،؟!!

الست زوز ساكنة بعد بيتنا بشارعيين، بيتنا فى "العزبة" وهيه ساكنة فى حارة "سعادة"؟!!

° ° °

نزلت ساعة العصارى وشافتنى خالتى "الزوز". ولقيت "عبده" راجع من "حارة اليهود" زعلان؟! أصل عبده ابن خالتى بيحب يلعب "قازوز" مع أصحابه فى "حارة اليهود"..؟!!

° ° °

خالتى سلمت عليا وباستنى من خدى وقالت لى (روح يا "كيمو" نادى على عبدة ابن خالتك" خرجت من الجربين اللى ساكنة فيه خالتى- لقيت عبده حاطط إيده على خده وقاعد يعيّط؟!!

° ° °

سمعت أصحاب عبده ابن خالتى زوز ماشيين فى أول العرب بيقولو ، عبده الطلياني ابن الزوز بيحب مالينا بنت بلوطشى.. مالينا بنت بلوتشى هيه اللى مهووسه بعبده من يوم ما مات روبرتو جوزها فى الحرب؟!!

عبده قعد على الحصيرة الخوص فى مدخل الجربين، اتنقل من عاالحصيرة وإترّكن على الحيطة يُفك رباط الجزمة "الموريتان".

° ° °

الواد شلاضيمو اللى ساكن تحت مِننا عمّال يعاير ابن خالتى كل يوم.. شلاضيمو ابن فوزية الدلالة-كل يوم يّطلع إشاعة جديدة على ابن خالتى "زوز" -: (قعد هوه وابن سيده النتافة و"ميشو" ابن قدرية الدكر" جنب فرشة البطيخ بتاعة عم حسن "المستبقى" وفضل يحكى حوالين العيال الصيع،

-: (شفتوا اللى حصل إمبارح بلّيلّ فى "حارة اليهود" (إيه إيه اللى حصل يا شلاضيمو،

-: (إمبارح بلّيلّ شفت عبده ابن الزوز زانق مالينا فى العتمة جنب كنيسة مارمينا فى شارع محمد على؟!! (مالينا طلّعت بزازها من السونتيان وعبده قعد يلحس فيهم؟!! مالينا فردت شعرها على ضهر عبده ابن الزوز واستخبّتِ فى قميصه لما شافتنى معدى؟!!

° ° °

عبده قاعد حزين فى مدخل الجربين ولما شافنى جاى حط وشه فى الأرض، ولما قلت له مالك يا ابن خالتى. عيّط وقام يلبس الجزمة الموريتان.

° ° °

عبدة بقاله يومين بيلف ويدور فى "أول العرب". بيقعُد فى "حارة اليهود" لغاية الفجر، ومالينا ليها ٣ تيام محدش شافها فى الحارة، خالتى الزوز قلقانة على الولة.."

عبده معدش بينام فى البيت، عمّال يدّور على شلاضيمو ابن فوزيه الدلالة.

° ° °

عم ضاحى سلطان يعرف بموضوع "عبده الطليانى" ولحسه لبزاز مالينا "أمى "صديقه" شافت عم ضاحى قاعد هايج فى أو العرب- كان قاعد بيزعّق لحمدى بكشه معاون مباحث العرب، حمدى بكشه مترّقد لابن خالتى بقاله يومين، عم حسن المستبقى؟!! سمعه بيقول للضاحى،

-: الواد ده لازم يتأدب يا حمدى بيه.

° ° °

حمدى بكُشه راكب البوكس وبيدّور على الريس "فرهود" جوز خالتى" الريس فرهود بيرجع م الجزيرة وش الفجر، طول الليل بيشيل إشوّله فى صوامع "شركة الشحن والتفريغ"؟!!

° ° °

خالتى زوز قاعدة فى المندرة حزينة، ربطت الأرطة السودة فوق شعرها الشايب وفضلت تعيّط؟!!

وكل نسوان "العزبة" سمعوها بتلعن حمدى بكشه "تسب "قدرية الدكر" وسيدة النتافة وفوزية الدلالة.

° ° °

دخلت على خالتى "زوز" الجربين، كانت طلة من الشباك الحديد الكبير المفتوح عا الشارع وعماله تزّعق ساعة مادخل الريس فرهود،

-: شُفت يا فرهود- حمدى بكُشة بتاع النسوان عايز يلبس ابنى كمبلزون أحمر ويزفه،؟!!

(طب وحياة شيبتى دى (لأ أقلّعك بلبوص وسط العزبة يا حمدى.. ليك معايا يا يوم يا عرص،

- آه لو أشوفك ياما لينا؟!!"

- خالتى الزوز هاجت م الغيظ، قامت تضرب الأطباق المشطوفة والمواعين الوسخة برجليها، نادى عا البت باتعه بنت خالتى،

- "بت يا باتعه.. باتعه ردت فى زهق ساعة ما كان باب الكبانية مفتوح، (أيوه يا امه،

– (يا بت ردى الباب يابت..، ردى الباب ياباتعة لغاية ماجى... (يا فضيحتك يا زوز؟!! يا خيبتك يا عبده ياابن فرهود، تعالى ورايا نشوف ابنك يا فرهود؟!!

٭ ٭ ٭

شفت فوزية الدلالة بتزعق على خالتى قبل المغرب نادت عليها فى وسط العزبة : (إلحقى ياست زوز عبده ممسوك فى قسم العرب من إمبارح، يا ست زوز إلحقى ياست زوز يام عبدة، إلحقى.. حمدى بكشه قلع ابنك بلبوص وعايز يزفه فى أول العرب شفت خالتى بتجرى. لفت الأرطة السودة على راسها ودخلت قسم العرب وجرى وراها الريس فرهود.

٭ ٭ ٭

رأيت عبدة ابن الخالة جالس مقرفص فى غرفة الحبس مع السوابق، حط إيديه على صداغة وفِضل يعيّط، ولما دخل عليه الضابط النوبتجى سأله:

– اسمك إيه بالكامل يا عبدة؟

– (عبده فرهود السيد البرامونى

:– أمال إيه الطليانى دى؟!

– دا اسم الشهرة ياباشا.

٭ ٭ ٭

الريس فرهود زق باب مكتب ظابط المباحث. ولقى حمدى بكُشه مولع سيجارته الكنت. وعمال ينفخ الدخان من مناخيره. الريس فرهود قّرب لقعدته. وطاعلى جزمته عايز يبوسها. بكشه زقه فى سِدره وفِضل يقول بص يا ريس فرهود (دى المرة التالتة لإبنك ولإما الزفة دلوقتى. أو مباحث الآداب عِدل، وانتوا عارفين بقى.؟!!

- وعمل إيه عبده يا بيه عشان كُل ده،

(فعل فاضح فى وسيله مواصلات عامة.

(إبنك يا سيدى حط إيده على ضهر الدكتورة منال بنت القزاز وهيه راكبة الباص الطواف فى شارع "أوجينيه".. كان عايز يمسك بزازها؟!! وانكفأ الريس فرهود للمرة الثانية جهة حذاءه،

- (طب عشان خاطر ربنا يا حمدى بيه، دا ابنى الكبير وبلاش فضايح.. مستقبل الواد يا باشا؟!!

:- (آه مستقبله- مستقبله مع النسوان والهلس) أخرج بره يا راجل يا عرص، (يا محمود يا عطيفى زفوه. قلعوه بلبوص. وخرج الوليه الوسخة دى برة،؟

وتلتفت الست الزوز على الشتائم لترد فى جرأة

- (والنبى ماعرص إلا انت واللى خلفك- وزفه. وجايلك يوم قريب يا خول؟!!

° ° °

- ٥/٢٢ (سنة كام يا عبدة)؟

- (سبعة وستين يا عم محمود؟!!

قصدى سبعة وأربعين ياعم محمود؟!!

° ° °

وعادت الأم تجرى هاوية فى شارع محمد على. خلعت حذائها البلاستيك وضربت على صداغها. وطفرت الدموع من عيونها السوداء الوسيعة. وبان الوجه الخمرى المكرمش وصارت تهزى بعبارات الأسى المتزجة بالنحيب، مشت فى شارع "الجمهورية" الطويل حاسرة الرأس. منكوشة الشعر تطل لأسراب

النوارس عبر هالات الشمس المتوهجة المسلطة على جبينها العرقان، عقدت رباط الطرحة الممزقة تحت القفا. صرخت فى الظلمة كانت الساعة٢ بعد الظهيرة

° ° °

ركبت معدية بور فؤاد تتبع نداء النداهة.

سرحت تائهة تنزل على التلة الشرقية لبحر بور فؤاد هناك؟!!

° ° °

فى وهج الشمس ساعة العصارى. وقبل الغروب لاح ظل الليالى البعيدة، أيام الفرح هناك؟!!

وعشه خُص قريبة، وعبدة نايم هناك حزين، وأيام بتعدى فًى سواد وأنا طلة قبل الغروب سرحانة أجتر اللى فات. والذكريات القديمة؟!!

عبد اللوكس؟!! بالبدلة الجبردين وعروسته زى القمر واقفة على شط الملاحات (وصرخة فى العتمة يوم ٥ يونيو)

– تعبت من العيشة لوحدى والمشى الطويل، (يا حبيبى يا بنى؟!!) أصوات بتنادينى من ورايا..؟!!.. بتهمس ودانى، وأنا طلة للخلف فى شوارع "بور فؤاد" أقول لنفسى، يا بتِ فوقى ومتحزنيش، (ربك كريم يا زوز) عطشانة؟!! يا ابا، الصوت بيسرى فى ودانى وأنا رايحة فى التوهه؟!! بعيد وأزيد فى اللى فات؟!!.. وعربية كاديلاك بيسوقها مايكل فى خمسة يونيو مايكل بينادى عاالمعازيم.. بينادينى، (ياست زوز)؟!!

– يا عمو هسن. يا أبدو رهِيم، يا حسن؟!!

– فوقى يا ست زوز؟!!، (عايز خطيبتى تركب جمبى يا بشر.. وعم حسن يضحك قبل النكسة بساعات.

- "مالينا" ركبت جنب مايكل. وازدانت مقدمة "الكاديلاك" بالفل والياسمين.. (إصحى يا خالة)

الزفة بدأت؟!!-

- نادى على عبده يا ست زوز؟!!

الشمس حامية فى بور فؤاد.. الناس بتبص لى.

ناس بعرفهم، بيعرفونى. لأ. بعرفهم.

- إصحى يا ست زوز؟!!

وتتحرك أم عبدة جوه العشة البوص. مدّيت راسها ناحية الضفة الشرقية غرقانة فى كابوس؟!!

° ° °

والناس فى "حارة اليهود" تقول، (زوز إتجننت؟!!

- شافوها ماشية بتكلم نفسها فى بور فؤاد ربنا معاها.. وتبكى فوزية وسيدة.

وشلاضيمو حزين.. وكيمو واقف جنب "قسم العرب" بيسأل على ابن خالته- حزين عا الطلياني، خايف من الزفة.. والريس فرهود بيجرى فى "أول العرب". بيترجى المعلم ضاحى، (إلحقنى يا معلم. هايزفوا الواد.. أبوس رجليك يا كبير، الولية طفشت.. زوز طفشانة ليها يومين

° ° °

وأم عبدة تتقلب على الرمل الأصفر جوه العشة البوص، وصوت من جواها بيقول-

- مبروك يا أم عبدة يتربى فى عزك..؟!

جالك ولد يا ست زوز.؟!!

- بعد ١٢ يوم بتباركولى يا جيران الهم؟!!
- الله سميه عبدة الطليانى يا ست زوز -
(الواد وشه أحمر وشعره ناعم شبه السياح الطالينة"؟!!
- فيه شبه منك يامايكل. (عقبالك يا مالينا)
- عقبالك يا "مالينا" انتى و"مايكل"..؟!!

° ° °

وينفخ الريح فى صحراء الرمال الصفراء وترتج الذاكرة لتعود المخيلة تجتز، الشمس تُغرب عن عينيه والصور تتلاحق- والصوت طنين فى ودانى؟!!

... صور الزفة في الكاديلاك، طلة مالينا البهية، شبكة الأصابع البيضة ف إيد مايكل الماشى قُرب العربية يوم ٥ يونيو؟!! والفرحة مش سايعانا، والريس فرهود بيدور بالبيجو خمس خمسات على صرخة المولود- وعبده نايم على سدرى جنين، بيطل للزفة وسط العزبة- ومايكل بيسيب العروسة الجميلة. ويرمى البُرنس القطن فى حجرى،

- الكلاكسات بتزن فى ودانى- وطلعات أمريكانى بالبيجو، ومحاولات كثيرة من أهل العزبة. وفرحة بالمولود؟!! وصرخة المولود؟!! وسقطة الراجمات من الطيارات العالية - ؟!! وسريان الأزيز عمداً، وانفراط الولد والأهل واللمة- وفرهود اللى بيصرخ فوق الرمل الناعم- وطيارات بتضرب الجسور عند مطار غرب القاهرة؟!! وأهالى العزبة بتفر فى الشوارع فى "الجمهورية" وفلسطين وفى "بور فؤاد". وفى المناخ واللوا اللى ساكن عا البحر. جنب شبكة الردار. واسمع انفلات الشظايا، (اسد ودانى).

وتعدى العروسة قاصدة المعدية سارحة جنب ديلسبس. وطيارات إسرائيل بتحلق. وتهوى الشظايا على زفة العروسين. ومايكل اللى راح-؟!! يصرخ بالطالياني. ومدرعة "سينتورين" بتمر عا الرمل: بتلف فى الفراغ وتصوب فى "الكاب" و"أبوصوير" والبلاح؟!!

° ° °

ونسوان تعدى جنب العشة الخُص؟!!

"وشلاضيمو بينادى حزين -،

:- (إصحى يا خالتى زوز- يا خالتى زوز . العزبة مقلوبة يا خالتو؟!!.. (عبده هيخرج يا خالتو زوز؟!!

° ° °

معذور عبده ابن خالتو زوز. كان طال ياني؟!! صبح مفضوح؟!!

- شُفت عبده إبن خالتو زوز لابس كلوت حرير وكمبلزون جرسيه. ملفوف بطرحة كُرمبى. واقف على الحنطور والصول عبد الله الأكتع واقف وراه. بيدارى وشه من الخلق اللى واقفين فى السكك يتفرجوا. وحمدى بكشه ضابط المباحث مولع سيجارته وواقف جنب الصولات والأومباشيه.. وعيال العزبة تقول- شد يا حاج حريز الجحش. عبده الطليانى بيحب اللحس هاتوا مالينا والبت سكينة. أصل صاحبنا بزازه سمينة، ومالينا تبكى وحيدة فى بلكونة البلوك ١٥ الواطية اللى فى "حارة اليهود"

° ° °

رأيت الصول عبد الله وقد انتهى من مهمته.. كان قد طاف بشارع محمد على و"أوجينية" ساحباً لجام الحصان واقفاً على الحنطور هابطاً وسط بلوكات

العـزبة زاعقـاً فـى الأطفـال المتحلقين حول عبده ابن الست زوز، وقت أن جرت فوزية الدلالة بالعباءة الصوف ورمتها فوق جسد عبدة.

° ° °

مالينـا قعـده طـول الليـل فـى التراسـينة- سـرحانة. بتفـتكر جوزها اللى سافر من زمان بعد الإصابة، (وركب نفس المركب اللى جابو)، بتبكى على عبدة اللى إتولد قبل الفرح بـ ١٥ يوم؟!!

° ° °

– البسـكلتة كانت صينى، إسبور ٢٧ والدنيا كانت ليل. ومالينا ماشية من سـاعة الغروب، كان الفستان إسود لاميه والكلوت تحته فرنساوى محذّق. وإنت ابـن ١٤.. وسـايب أمـك وأبـوك نـايمين فـوق بعـض عـلى سـرير حديد مصدى، والبنـت "لُبـنى" الهايجـة بنـت الخـال (بتسـيب سـريرها الواسـع فى عمارات الهيـئة فـى بـور فـؤاد). وبـتدخل عند ماما؟! عمتهـا- الست زوز- تاكل وتتمدد عـلى سـريرك يـا عبدة؟!!.. (لُبنى نامت ساعت مارخّت، مطرت. والدنيا برد. وانـت هايج؟!! وهايم فى النثار الناعم اللى بيطير على ضفاف البحيرة.. (لُبنى إتقلبت فى السرير.. طفّت النور؟!!

° ° °

الدنـيا بـرد وإنت راقد تحت السرير. ولبنى مقلوبة، بتتمدد على ضهرها فـى فرشـتك. والكلـوت سـاتان إسـود. محـبوك عـلى الفخـاد البيضة، (الكلوت بسـتارة والـبطن طلـة فى شبق. والفخاد مفتوحة. وزغب أصفر وناعم واصل لحد السُرة، (تـيار هـوى مجـنون بيهـب مـن بـره الشبابيك). خرجت أزحف فوق الفـراش جنـبها- رفعـت الغطـاء الثقـيل. وسمعـت أمى اللى بتنادى فى العتمة. والكل نايم

-: (مشوفتيش ابن عمتك يا لُبنى وانت جاية من بور فؤاد؟!!

° ° °

- معذور يا طلياني؟!!

- لأ. إصحى يا عبده انت مجنون.. انت سكران يا عبده،، وزوز بتصرخ بعد نص الليل..،

- واد يا عبده- إيه دايا واد:- (إنت بتعرى بنت خالك؟!!

- لازم تُخرج من بيتى يا نجس؟!!

° ° °

وكل ليلة يدخلوا يناموا- فى السرير الحديد المصدى.. ويسيبونى بره هايم على رمل الشط.؟!!

- كل ليلة بيسحب البسكلتة الصينى من جنب الشاليه وحيد بيمشى قُرب كباين الصفا فى عزبة سعادة يرمى اليانك فى صندوق "الحاجات" ويربط البسكلت فى الفاراندة المزروعة بالبونسيانا، و"مالينا" قاعدة فى التراسينة بتشم الهوى وتطفى اللمبة القلاووظ أم ضوء ضعيف، (بتخرج بالبشكير المبلول على إكتافها والموج بيضرب فى الصخور، فى السواتر الحديد. وهيه ماشيه فوق البلاط الناعم. رجليها حافية والهوا بيلفح ودانى البردانيين- وهيه بتنظر المراكب اللى ماشية من بعيد، وأنا بنصت لوشيش المية.

بقَرب للكابينة، وأقول فى نفسى وهى واقفه،

-: يا ترى بتكلم مين. بتنظر مين.. أتسحب على طراطيف صوابعى. واسمع عسكرى الدرك اللى صاحى يقول- مين هناك؟!!

° ° °

الليل طويل قُرب الفاراندة. وماليـنا بتشوفني واقف سرحان، سحبت البشكير ونزلت على السلم الحديد. وقربت من وقفتى،

-: شايفاك من بدرى آبده. أبده. إنت ولد خلبوص، (آبده- تعال آبده، وافتكرت رحلات الشقاوة فى الصيف اللى فات افتكر كلام "شلاضيمو" و"كيمو". و"كريم" و"سرحان النـنوس"؟!! و"محمد الأوزه" و"ميدو عساكر" "ونصر جربندياية" و"سمير الحمامصى". وإبراهيم الحلاج البرىء، واللف بالعجل الإسبور فى العزبة ونور الفوانيس في الليل والدنيا ضلمة. وجادونى معدن غليظ والفانوس فسفورى. وإبراهيم الحلاج قاعد ورايا وإحنا بندور على الرصيف البازلت قُرب الملاحات في بور فؤاد. وننزل فى بور سعيد عند قسم "الميـنا" ونمشى فى شارع فلسطين كتير. وكل يوم نشعلق العجل جنب قاعدة ديلسبس.. وإبراهيم ياخد عجلتى ويجرى فوق الطريق المرصوف عند مينه الصيد القديمة (لسه فاكر كل شىء).

– لسه فاكر ميدو الفصيح لما قال لى.

-: (اصل مالينا بتزعل منك. عشان كل يوم بتجيب معاك كل سكان أول العرب؟!!

– بتحبك إنت يا عبده..

– وبتحبك يا ميشو؟

– لأ بتحبك إنت يا عبده، أصلك بتفكرها بجوزها

(أصلك شبه مايكل يا عبده، بتحبك يا عبدة وبتحب خالتى زوز وإسأل شلاضيمو؟!!

– طب إنزل يا ميشو. هات العجلة هنا

وإستنانى عند الجامع. ساعة وهجيلك

ماليـنا بـتطفى لـبه التراسـينة. وأنـا بتسـحب عـلى طراطيف صوابعى فى العـتمة بدخـل الجنيـنة الواسعة.. بدور على الدرابزين، واسمعها وهيه بتتكلم من جوه شقتها،

– زعلانـه مـنك آبـده.. (هقـول لماما زوز وبابا فرهود،؟!! تفتح الشراعة ودموعهـا نـازلـه عـلى خدودها وعينى فى الأرض من الكسوف. بمشى خطوتين واقعـد على الفوتيه الأزرق فى غرفة المسافرين. وأشوف بقعة دم صغيرة ناشفة.. أشـوف شـعرها المـنكوش.؟ والبيـت المظـلم، وهـيه بتسـحب الملايـة البيضـة م الكومودينو وتفـردها بالراحة على اكتافها الملسة، أطبطب على ضهرها وأشوف رجلى وهـيه بترتعـش جـوه الشـورت الكـتان الأزرق، كانـت بتـتدور زى الأم الحنونة. أبص فى وشها وأضحك وهيه بتحاول ترضينى؟!!

– آبده. إخلع الشورت وتعال.. خُد حمام وتعالى بسرعة. هناكل سوا سوا.

° ° °

عـا الحصيرة الخوص. قاعد فى مدخل الجربين حزين. عمال افكر فى اللى راح– والـلى جـاى والـلى حصـل. والـزفة، وحمـدى بكُشـة وغُلـب أمى الحاجة "زوز". والـريس فـرهود الـلى غايـب؟!!، وصـياد عجوز بيصطاد خلول. ماشى بـيجر رجلـيه التقـيلة ومعلـق الشـنطة القمـاش عـلى أكتافه، والشيخ يرتل فى "العـزبة"؟!، الشـيخ صـوته عـالى، بيصـحى الـلى نـايمين فى "حارة اليهود".. صوته الجميل بيقول

– هـل أتـاك حديـث الجـنود. فرعون وثمود؟!! وماليـنا زمانها بتستحمة تحت الدوش

° ° °

أضـاءت الشـمعة الأخـيرة فـى الشـمعدان الـنحاس ذو الأربع دوائر ومنقد،
وتمددت عـلى الحصير ملـتحفاً بالسـماء مستسـلماً لـلهواء فغفـوت على صوت
التلاوة

رأيـت العجائـز تـأتى هـرولة من قِبل جسر متهدم. رأيتهن سائرات قُرب
مقهـى صـفيحى مملـوء بالـرواد. ونـادل وحـيد يـنادى على أمرأة جالسة تغفو.
تتـثاءب. تغفو، تلتحف بالأجولة الخيش وتتمدد بجانب الأقفاص الجريد وسط
ثمار البرتقال البلدى وأبو دمُه،

– ومشـترى غريـب يوقظهـا. يسـألها عن البرتقال السُكرى فتصمت. فيلح
فـى السـؤال لتـنهض تلملم خـرقها مـن خلـف أشـجار الليمون، تقصد الطريق
العمومـى، تشير لعـربة بدفورد رمادى. العربة تطير فوق الأسفلت وهى تمشى
فـى عُجلة تتوسط الجسر الطويل، تركض صوب الصلصلة. منصته لوشيش وابور
الجـاز البعـيد. المحجـوب عـند امـتداد الجسـر، تقلبـت فـى الفراش الحصير.
فصرتُ أكثر إنصاتا للتلاوة- (والتين والزيتون. وطور سنين. وهذا البلد؟!!،
عدت أسأل نفسى فى يقظة.

:– إلى أين تأخذك التلاوة القرآنية وما هو فحوى النص الكُلى للآيات.
أيهـا الطـير المسـافر عبر الأزمنة- من مكان لمكان ومن مدينة لأخرى. ومن
بيت لبيت ومن قرية لقرية- فسِّر للصبى المندهش مغزى الرسالات؟!!

قمـت أجـرى طائـراً خلـف الـنوارس. تاركـاً الفـرش الحصـير. محلقاً فى
فضاءات البحر قُرب الفنار. ارقب القرص المستدير للقمر.

أحُن إلى ثكنة مالينا القديمة.. أدنو من غرفتها. أتذكر ما فعلته معها أمى.
الست زوز.. اقـترب مـن سـريرها الخـالى. أربتُ على صدرها النونو أبو حلمة

حمـرة، يدى تدور فى الفراش الخال وصوت أمى يسرى فى أذنى يزيد من اساى وقت أن زعقت صارحة فى وجه مالينا.

– مـش لاقـيه إلا ابـنى يـا مـرة يـا حايكة؟!! يا صفرة يا بنت الكلب. يا يهـود يـا ولاد القحبة، أجرى فى الخلاء هابطاً السلم تاركاً المسكن القديم راكضاً صوب العزبة أنادى فى جنون،

– ماليـنا.. ماليـنا. ماليـنا- أنـا عـبده يـا مالينا (أنا عبده الطليانى.).. أنا عبده المولود على إيدك يا مالينا.

° ° °

ثلاثـة شهور قد مروا. منذ أن خرج الطليانى من قسم شرطة العرب. ثلاثة شـهور وماليـنا غائـبة.. ثلاثـة شـهور والسـت زوز حزيـنة عا الجميع.. ثلاثة شهور. وثلاث سنوات وثلاثين، أربعون عاماً قد مروا ومازالت الأصوات والصور والذكرى باقية؟!!

فصل ٢١
قضية المعلم ضاحى؟!!

لم أكُن أنوى الذهاب إلى هناك.

ليس لأننى خائف مما سألاقيه من عقوبة جراء ما فعلته بالأمس لسيد ابن العُربان. ولا لتلك الهواجس التى صارت تلازمنى منذ فجر اليوم وعقب رؤيتى للدماء الغزيرة التى سالت فى الشوارع على أثر ارتطام جثته بالأرض فور رميها من النافذة الكبيرة بالمنزل.. ولا لتلك الكوابيس والتخيلات التى طاردتنى فاقلقتنى فى فراشى بمسكنى بثكنات "الحرية" فى الطابق الأخير.. ولكن، ما حدث فاق كل هذا، كُنت قد عُدت من منزلى بعد آذان العصر مباشرة. فبعد أن فشلت كل المحاولات فى سبيل النوم، قمت وعقب ساعة واحدة من تمددى، نزلت من البيت قاصداً "أول العرب". دخلت "الحميدى" من شارع "نبيل منصور" ناوياً التوجه إلى قهوة المعلم "ضاحى".. وفى أثناء مرورى أمام مطعم "أبو سمرة" بائع الفلافل– فوجئت بمحمد عطيفة. كبير المخبرين بمكتب مكافحة المخدرات جالساً على الكرسى "القش" وأمامه الطقطوقة الإستانلس ينادينى فى حزم مشيراً بيده اليمنى قبل موقع "محمد بخيت" مخبر مباحث شرطة العرب الواقف على رأس الكمين المنصوب منذ الصباح على ناصية الحميدى ونبيل منصور. وتحلقت العساكر فى اضطراب وقت أن زعق عطيفى

يـنادى بخيـت الـذى جـال ببصـره يفـتش فـى المكـان رامقـاً إياى منفذاً الأوامر الصادرة من عطيفى بغضب،

:- (هـات الـوادده يـا محمـد. هـاتوا ابـن الشرموطة)؟!! وهرول بخيت مسـرعاً ليركـض فـى اتجاهى. قفز من فوق أقفاص التفاح فوجدتنى وقد تسمرت قدمـاى فـوق بـلاط الرصيف المحفور. أنقض على عنقى من خلف ضارباً يده من الأمـام فى وسطى ماسكاً إياى من حزام بنطلونى الجينز ليسحبنى للخلف مقيداً ذراعـاى حـول ظهـرى بالكلابشات الحديد- جرنى من دُبرى فى غُلظة مجرجراً قدمـاى فـى الأرض ساحباً إياى جهة الصندوق الخلفى لعربة البلوكامين الزرقاء البـيجو الـ ٤٠٤ وتحلقت العساكر حولى فى دائرة محكمة ليفكواو ساقى حاملين جسـدى من الوسط وقت أن تشابكت أياديهم تحت مؤخرتى ليدفعون إياى داخل "البوكس". وصعد ابن بخيت من خلفى ليلف الكلابشات من جديد حول يداى.

° ° °

وقـد تحلـق حوله- وأعلى الرصيف البازلت المربع بناصية نبيل منصور. ٢ مـن ضـباط الأمـن العام وإدارة البحث الجنائى وبعض مخبرين مكتب المكافحة.. نظـرتهم وهـم يفترشـون رصـيف "محمـود الـنخُ" العـلاف وقـد تمددت أقدامهم بُقـرب الأجولـة الخـيش المتكومة أسفل الحاجز الخشبى الحبايبى المتحلق حول الدكانـة، ولاحـت ملامح الـنُخ" الصعيدية وهو يرتدى الجلباب السكروته المقلم بـالطول ليـبرز قفاه الغليظ الأسمر مائلاً جهة اليمين وهو يُهش الذباب بالمنفضة الخـرق المشرشبه.. عفّ عليه الذباب الأزرق واقفاً على شعر راسه القصير محلقاً حـول عينـيه فصار ينفض التراب الناعم فى زهق. حدقت عن قرب فطفت ملامح عطـيفى المخـبر وقـد ارتـدى البـنطلون المُهـير الـرمادى والقمـيص الفـان هـاوزن الأسـود.. جلـس مضـطجعاً وقد اندفست مؤخرته الغليظة فى حشو القش المنتفخ

ابصرنى عن بُعد فاستدار يرمقنى وانا أخطو باتجاه فرشة فواكة الحاج صلاح الصفتى، وتناول كوب الماء من وسط الصينية. فارتجت الطقطوقة الصغيرة.. فجأة التفت على كرسيه واستدار بوجهه المفلطح ومشى فسمعت رنين الهاتف عالياً فى مطعم أبو سمرة ونهض المعلم "النُخ" يترك المنشة الخُرق. ويستدير قاصداً رفع سماعة التليفون السوداء. وهرول خلفه "عطيفى" متعقباً خطاه منصتاً للطالب وقت أن ترك "النُخ" السماعة لعطيفه فرفعها على أذنه اليسرى فى عجل. صار ينصت للمتكلم لتهتز رأسه وتميل جهة اليمين فاليسار فى حركات لا واعية.. وطالت الدقائق حتى سُمع عطيفى وهو يقول فى حزم (حاضر يا فندم. حاضر. عُلم يا فندم أوامر سيادتك. حاضر. كله تمام يا افندم، كان المتحدث هو العقيد محمود الجباس رئيس العمليات فى البحث الجنائى. والذى شرح تفاصيل المأمورية فى ثوان. محدداً خطة الهجوم على المذكور!!! ووضع عطيفى السماعة وقت أن سمعته يردد.. (عُلم سعادتك وإحنا فى انتظار الأوامر الأخيرة بعد مكالمة السيد الحكيمدار

° ° °

وبناءً على الاتصال المباغت من مكتب الأمن العام فرع بورسعيد. هجمت ضباط المديرية وإدارة البحث الجنائى بمعاونة مكتب مكافحة المخدرات وضباط مباحث قسم شرطة العرب.. رأيت الكلاب المدربة تلهث فى صوت خفيض وقد طوقت من رقابها بأحزمة جلدية غليظة لتسحب عنوه من قبل الضباط الصغار. وترجل ثلاثة من أكبر اللواءات العاملين بإدارة البحث الجنائى بالعاصمة، قفزوا فوق رصيف "النُخ" الذى فُزع لرؤية البزات السوداء وقد برقت النسور والسيوف المتقاطعة فوق اكتاف مرتديها.. مرت الخمس دقائق عصيبة. وصارت الأهالى فى أول العرب- وعند طولون وتقاطع الحميدى مع نبيل منصور فى ذعر

وقد انتابتهم دهشة مباغتة. توقفت حركة المرور بالشارع وسدت نواصى الشوارع والحارات بسواتر حديدية. ومنعت النسوة من العبور وصار زعيق ضباط شرطة العرب ملفتاً. فوقف الأطفال يتحلقون حول جنود الأمن المركزى الذين هبطوا من العربات الكبيرة المصفحة وصاروا يدبون الأرض بالبيادات السوداء فى نوبات إحماء- وانطلقت عربات الشرطة المصفحة فاندفعت تطوق الحى كُله- من جهة شارع أوجينيه. مروراً "بالثلاثينى" وتقاطعه من نبيل منصور وحول شارع كسرى مروراً بمداخل شارع محمد على ومدخل الحميدى المتقاطع معه. وجهة ناصية مقهى الشكربالى" وشارع الشرقية وحارة العدل.

صارت العساكر تقفز من صناديق العربات الكبيرة التى تحمل الجند متوجهة إلى مطعم سلطان رشوان، متحلقة حول خمارة "سعد فانوس" الذى أغلق أبواب البار وهرول قاصداً حارة اليهود نافذاً من ممرات بيوت مرشدين هيئة القناة.. رأيت المقدم محمد الشريف رئيس المنطقة الشرقية لإدارة المكافحة يجرى ناحية مقهى المعلم ضاحى والذى تراجع رواده بكراسيهم للخلف محدقين جهة الجربين. الأكو النادل يخلع المريلة الدبلان الملفوفة حول وسطه، يجرى جهة الجربين يزعق على المعلم ضاحى ومحمود همام فى ذعر مردداً. يا معلم، يا معلم. إلحق يا معلم- كابسة يا معلم، سحر تترك النافذة وتتوارى عائدة للمضيفة وقت أن هبط أحد الصاغات بزيه الميرى الأسود. ملتفاً حول عم محمد شاهين الفطاطرى- ساحباً الأكو من قفاه مكمماً فيه بقوة. شاهين الفطاطرى يضرب كفاً بكف. ومحمد الشريف ينسل قافزاً جهة باب الجربين. طرق الباب بقوة منادياً فى نوبات تخدير- سلم نفسك يا معلم. (أول العرب) كله محاصر.. دقيقتان وخرج المعلم ضاحى من باب المضيفة صارخاً فى بناته.. اللائى تراجعن للخلف جهة باب غرفة النوم يسحبون الأرواب الحرير

ليضعونها على اكتافهم- برقت عيناه فى غيظ. فطفا الجبروت ممزوجاً بهيبة وجرأة وجسارة مفتقدة. حدق وبصر. طل للجموع المحتشدة من الضباط والأهالى المنتصبين فى ذهول مدققين النظر لهيئته وردة فعله- ولاح جلبابه البُنى الصوف الطويل محبوكاً حول جسده الرفيع الطويل ليبرز الصديرى بالقيطان الساتان الأبيض مشغولاً ومطرزاً بخيوط حريرية لامعة. ضرب يده بأصابعه اليمنى داخل جيب السيالة فأخرج الساعة الزودياك من مرقدها. حدق فى العقارب فى غيظ. ودنا فوق الرصيف الموزايكو يعبر العتبة الرخام سائلاً محمد الشريف فى ثقة..

– "خير يا محمد بيه؟!!

وتدلت السلسلة الذهبية من "الزودياك" لتنفرط على صدره العظمى الغائص فى الشعر الأبيض المنتصب يفترش صدره وادنى رقبته النحيلة، وانسل ضباط مكتب المكافحة قاصدين غرف الجربين، فتشوا المضيفة وغرفة البنات اللائى تراجعن للخلف جهة الشيفونير. واندفع القدم محمد الشريف وخلفه امرأة طاعنة فى السن احضروها معهم من المديرية، وصارت المرأة تفتش فى أدراج التسريحة والكومودينو والشريف يقول فى جهامة،

– "يا نبويه" فتشيهم تفتيش ذاتى؟!!

نبوية تغلق باب غرفة البنات وسحر تصرخ فى ذهول، مختبأة أسفل السرير الحرير أبو ناموسيه. لتسحبها نبوية بقوة من قميص نومها ضاربة بأصابعها لباسها الحرير الأسود، تلوك كفها فى قسوة وقد انفرط على مرأى الواقفين بلفائف عريضة من القماش الكتان المسرفل- ناولت اللفائف لمحمد الشريف الذى صرخ فى المعلم (ضاحى) بغلظة

– حشيش فى لباس بنتك يا معلم؟!!

الطبول تدُق فى الخارج- والنسوة العجائز فى "أول العرب" يرقبن المشهد عن كثب زاعقين فى النوافذ الأرابيسك طالين من التراسينات الخشب هائشات الشعر، هاهو المعلم "ضاحى سلطان رشوان" الكبير؟!

يطأطأ رأسه رامياً بساعته السويسرية فى جيب الصديرى. ساحباً أطراف شاربة الكث المبروم. خافضاً رأسه مطلاً جهة الأرض يرقب خطاه الزاحفة فوق حُفر الموزايكو"

ركب عربة البلوكامين الزرقاء ودارت السرينة القلابة فصارت ترسل إشاراتها الضوئية المتماوجه فى خفوت ودون كلاسكات خارجة من أول العرب قاصدة شارع محمد على.. انزوت يسار مقهى الشكربالى المطلة على بيوت الهيئة. لتركض نحو مكتب المكافحة

° ° °

على صوت محمد بخيت المخبر والأتى من غرفة الضابط النوبتجى. مشى اليوزباشى محمد عتوت مقترباً من غرفة الحبس الانفرادى. دانياً من أذن المعلم "ضاحى" الواقف خلف النافذة الحديدية الصغيرة الملفوفة بالسلك الضيق منصتاً فى كياسة سامعاً إياه فى شغف.

-: (متقلقش يا معلم- سحر بخير؟!!

والمديرية كلها واقفة على رجل من إمبارح،

ورد الكبير ليعقب فى ثقه،

– يا عتوت. قول للعيال يستعجلوا محمد أبو القاسم وعزيزة عصفور المحامية.. الجمعدة طالت يا عتوت؟!!.. وشرف أبوى ما هو فالت من إيدى محمد الشريف،؟!!

رمى بفص الأفيون تحت ضرسه. وأحكم لف العباءة حول عنقه فتدلت أطرافها الحرير تهبط خلف ظهره الضئيل والمنحنى نسبياً

° ° °

على كرسى زان بُنى منجد بقطيفة زرقة رأيت المعلم ضاحى يجلس فى صمت، خمسة دقائق وهو ماكثاً بمكتب التحقيقات واضعاً ساقه اليسرى فوق اليمنى فى ثقه مشعلاً سيجارة من أخرى يتناولها من علبة الدخان الاستانلس المربعة الموضوعة أمامه على الطقطوقة النحاس- رمى العُقب فى المنفضة وانكفأ فى تؤدة وكياسه يسحب لفائف الطومباق من الحُق النحاس المستدير العميق. وضع لفائف الطومباق ستة وقام بلفهما فى خابور طويل متناولاً ورق البفرة الشفاف من الجيب الصغير الأيمن فى الصديرى، لف الورقتان الشفافتان حول رقائق الطومباق المتساوية فبللهما بطرف لسانه بمهارة. ضغط بأطراف أصابعه الطويلة على الحشو. برم الخابور من أعلى وأسفل وقام بغلق العلبة الإستانلس البراقة ليشعل سيجارة الطومباق بلهب الولاعة "الذيبا" المفضضة. سحب نفس طويل واعتدل فى جلسته فنظر الباب المطروق فى تروى، وانفتحت الضلفة اليمنى للباب الكونتر المدهون اسُطر مموهه، واندفع المحامون العشرة فى هيبة وشموخ مقتربين لقعدته متحلقين حول كرسيه. سلم على محمد أبو القاسم وعزيزة عصفور وبشرى عصفور وعبد النعيم عبد الحليم ووليم عبد الملك الذى هم باحتضانه وتقبيله رابتا على اكتافه النحيلة مردداً- بسيطة يا كبير.. ودلف إبراهيم رشدى بحقيبته الهاندباك، "السون سونيات" المنتفخة بالملفات والأوراق، ودخل محمد الشريف قاصداً كرسيه ممسكاً بعصا من الأبنوس، فنظرة المعلم ضاحى فى صمت وبان الشرر يتطاير من عينيه السوداوين

الضـيقتين. وضرب المقدم محمد الشريف على المكتب بكلوة يده فبادره محمد أبو القاسم بالسؤال

– (عايز اعرف إيه السبب فى القبض على موكلى يا محمد بيه؟!!،

– وماعرفتش من المعلم ليه يا سيادة النقيب؟!!

وهاج المعلم ضاحى وصار يزعق فى جنون مردداً .

– جُـلى إنـت يـا محمـد يـا شـريف، مسـكتنى بُطـربه حشـيش وانـا معرفش؟!!

بشرى عصفور تهمس فى أذن المعلم

– الموضـوع ملـوش علاقـة بـابن العربان يا معلم ضاحى الموضوع- المخدرات اللى لقوها فى لباس الهانم سحر؟!!

اعـتدل ضـاحى فـى جلسـته غارقـاً فـى عرقه وطفا جبينه العريض الأسمر يضـوى بنـثار العـرق الدانـى لحاجبـيه الوجنـتان ممصوصتان يبرز من أسفلهما الفكـين العظمـيين الهـابطين قُرب ذقنة الصغيرة البيضاوية الغائرة بندبه قديمة محفـورة بطـول العـنق ممـتدة حـتى أدنـى الرقـبة المعروقة الملفوفة بشال أبيض بانـت أطـرافه لابـدة أسـفل أطـراف العـباية نهـض يبرم فى شاربه الكث ناظراً لمحامـيه مدققاً النظر صوبا عزيزة عصفور وأبو القاسم اللذان وقفا مستندان على ظهـر كرسـيه منـتظرين حديـث محمـد الشـريف الذى بدا يطل فى دوسيه قديم سحبه من الكومودينو الصغير الموضوع بجانبه،

– (بقى دى عامله تعملها يا معلم؟!!،

وعـيون المعـلم تدور فى محجريها محاولاً الوصول وعبر تحديقه الدائم فى وجهــه الشـريف إلى مـا تخفيه الأقدار- محاولاً الاستماع إلى السبب المباشر الذى مـن أجلـه تم القـبض علـيه فـى هذه الساعة، متسائلا فى نفسه عن مصير ابنته

سحر الذى لا يعلم عنها شيئاً منذ أن خرجت من غرفة نومها بقميص نومها الحرير.

– عارف إحنا جبناك ليه من بيتك فى الوقت ده يا معلم، (قوليله يا أستاذة عزيزة، ورمقته عزيزة عصفور بنظرة متوجسة وصارت ترقب المعلم الذى انفتح فيه بابتسامة ساخرة فظهرت أسنانه الصفراء تتوارى خلف الشفتين المصبوغتين بزراق خفيف،

وزاد توتر الضاحي والصمت يخيم على مكتب التحقيقات منذراً بسكون بيّن يسبق العاصفة– دهس عُقب السيجارة بنعل حذاءة البنص اللامع وانتصب زاعقاً فى وجه الشريف،

– أظن من حجي اسمع سبب وجودى إهنا

:– (ماتزعلش يا كبير.. إتكلم يا عطيفي. وابعت هاتلى نبوية عشان الأساتذة يسمعوها، هات الحرز يا عزيز.

° ° °

عاد يسحب كرسيه بجانب البوفيه الصغير– الملحق بمبنى المكافحة– نادى على سيد شمعون فنهض مسرعاً.

– أأمرنى يا معلم ضاحي– (تحت أمرك يا كبير)

– اعملى جهوه سادة فـ كوبايه يا سيد.

وهات لى كوباية مى ، رمى بفص الأفيون فى حلقه. وارتشف القهوة وراح يجترز منه الماضي– بدايته فى أول العرب "قدومه مع أبيه سنة ١٩٠٣. طفولته. صباه. شبابه علاقته "بالنحاس" و"سعد زغلول"؟!! علاقته "بالملك"؟!!، دورة فى المقاومة الشعبية– تاريخه الحافل الملىء بالإنجازات. دفاعه على أهله وذويه وعشيرته. "أهل سوهاج" الذين قدموا لبورسعيد مع

والدة الحاج سلطان الصديق الشخصى للنحاس باشا. رفيق سعد زغلول الدائم. ضيفه فى منزله لقاءاتهم المتعددة مع فخرى عبد النور وعبد العزيز فهمى فى سوهاج والقاهرة. وبورسعيد. حفلات العشاء فى قصر عابدين، دمعت عيناه فتوارى ينكفأ ماسحاً دموعه بمنديله القماش، وقف شامخاً فى طرقة التحقيقات ليضرب الكرسى بقدمه. رامياً بكوب القهوة قبل الحائط الأسمنتى مهرولاً جهة مكتب محمد الشريف وقت أن ركضوا محاميه فى ذيله متعقبين خطاه، اندفع يضرب يده فى صدر الشريف قائلاً فى جبروت، وصلافه،

-: (يعنى إيه حشيش فى لباس بنتى.

يعنى إيه، يعنى إيه يا مخاصى يا ولاد الزنا.. آحه، شخر. وتمخط ومد ذراعيه مطوقاً محمد الشريف من عنقه محكماً قبض يده حول رقبته قائلاً فى جسارة ،، نسوانكم سارحة بعلمكم وتتهموا أسيادكم وأسياد البلد بالفُجر.. (كس دين أمك يا محمد يا شريف، (دينك ودين اللى جابك إهنه)؟!!

° ° °

مشى بتؤدة تعتليه الشيخوخة المباغتة الذى إرتسمت على ملامح الكبرياء والفتوة وقت أن سارت بجانبه عزيزة عصفور المحامية تحوطه من وسطه النحيل متحلقة بذراعها الأسفل البض حول ظهره. مشى قاصداً الغرفة المنزوية بجانب مكتب سلطان الباشكاتب.. ورأه سلطان فجرى يسنده من الخلف، سأله المعلم ضاحى. عن غرفة سحر؟!!

ورد سلطان فى حياء،

- موجودة فى الحفظ والصون يا معلم، (قعدتها فى مبيت الضابط النوبتجى).

مد يده يناوله جنيهان. دسهما فى يده فى ود، فقال سلطان العتال،

- (خيرك علي وعلى أبوى يا معلم. شده وتزول يا كبير،

° ° °

طرق الباب على ابنته، كانت سحر قد تمددت بساقيها فى الركن البعيد المنزوى فى آخر مبيت الضابط النوبتجي. غطت جسدها بملاءه بيضاء وقت أن شف قميص نومها عن أثدائها النافرة، اقترب من السرير السفارى فسار فى ظله محمد بخيت المخبر- فنهره ضاحى. قائلاً:

- غور ياوش الفأر- (بتى وعايز إنكلمها كلمتين يا عرص) خرج بخيت وتمهلت الست عزيزة عصفور فى خطاها.

ونهضت سحر واقفه تستر جسدها. تلفه بالملاءة البيضاء حاجبه ثدييها بالقرطة السوداء، طفرت الدموع من عيونها الجميلة الوسيعة فبللت الخدود الريانة.. ارتمت فى حضن أبيها تلعق وجهه. تقبل رأسه تحتضنه فى خجل تلف ذراعيها حول رقبته المعروقة. تردد فى حنو وخجل مصحوبا بالأسى.

- (غصبن عنى يابا. حقك على يا ابا..

صُعب على مهانتك (بهدلتك يا كبير)

كان لازم اتصرف يابا.. كلنا فداك يا بويا. أغور أنا وتعيش انت مرفوع الراس يا ابا؟!!

احتضنها وربت على اكتافها البضه ساحباً الملاءة على جسدها الفائر قائلاً..

-: إنتى اللى حجك على يا بنيتى. ماتزعليش يا نور عينى. أنا اللى استاهل يا سحر؟!!

واستدار قاصداً باب المبيت ليتوقف صوب الباب الموارب. قائلاً:

- (مسيرى اعرف مين اللى عمل الفضيحة دى فينا.. (متخافيش يابت. كلهم كلاب. عارصات ولاد جحايب،

سحب العباءة الصوف من فوق اظهره ورمى بها ناحيتها. فالتقطتها واضعة إياها فوق نصفها العلوى.

° ° °

على أثر المكالمة التليفونية التى وصلت من مقر رئاسة الجمهورية فتلقاها مدير إدارة البحث الجنائى قبل لحظات من ترحيل المعنى ضاحى سلطان رشوان، وابنته سحر إلى سجن الاستئناف بالعاصمة والتى اعقبها الدهشة والخيبة والوجوم الذى ارتسم على وجوه الكافة من ضباط وجنود إدارة الأمن العام ومكتب مكافحة المخدرات وقسم شرطة العرب بمحافظة بور سعيد.

هلل أهالى المدينة من البورسعيدية والسوهاجية أبناء خارفه جرجا. على الظهور المفاجئ للمعلم ضاحى سلطان رشوان مطلاً من النافذة الزجاجية الكبيرة فى مكتب محمد الشريف والمطلة على ميدان المسلة وشارع الفرات، ورأيت عمال كوبانية المياه. وعمال هيئة قناة السويس وهيئة الميناء وجمع كبير من القباطنة بمصاحبة حمالى الحقائب فوق السفن السياحية محتشدون بشارع محمد على بداية من شارع كسرى ومروراً بالحميدى وكنيسة مار مينا ونواصى أوجينيه وسعد زغلول وصولاً لمبنى المحافظة. تجمعوا منذ فجر اليوم التالى قُرب المحكمة. ولاح وجه المعلم ضاحى من داخل مكتب محمد الشريف، قفز على مكتبه الكبير وهوى بالعصى العاج ضارباً زجاج النافذة المغلقة بمكتب رئيس المكافحة الذى شوهد يختبأ جهة البوفيه.. وخطا المعلم ضاحى ليدوس مكتب الشريف بحذائه اللامع خارجاً من الباب الرئيسى للمحكمة وخلفه جمع من المحامون، ومع مسار الأحداث التى توالت متلاحقة رفع ابن سلطان،

الكبير؟!! على الأكتاف متوجهاً في عربة مرسيدس إلى مقر النيابة مهيأً لاستكمال التحقيقات في التهم المنسوبة إليه؟!!

رجعت في الليل زهقان. قصدت "أول العرب". كان نفسي أشوف أوضتها. الغرفة اللي بتنام فيها؟!! سريرها. هدومها، الدنيا ضلمة في شارع طولون. وأنا زهقان. قرفان، الشوق هفني لرؤيتها.. ١٣ سنة وأنا بشوفها كل يوم في حال. كان نفسي أشم ريحتها. ريحة عرقها. ريحة بُقها. ريحة هدومها.. اتسحبت على صوابعي قاصد الجربين، عرفت بكل اللي حصل للمعلم ضاحي؟!! واللي حصل معاها؟!! الست "زوز"؟!! أم عبدة الطلياني حكت لي على كل شيء. قالت لي- كانت فضيحة يا بني. كانت جُرسة. ربنا يكون معاهم، خافت على أبوها؟!! محمد الشريف كان متربص له. (البنت بتحبك يا عبدة.. صدقني يا عبدة.. بتحبك؟!!

سِبت الست زوز ومشيت زعلان أفكر فيها- يا ترى عاملة إيه دلوقتي يا سحر؟!!. (نفسي أشوفها).

رُحت سِكرت ومشيت اتخبط في أول العرب، حنيت للمكان. قلت أطل على سريرها- أدخل الجربين. إتسحبت على طراطيف صوابعي ودخلت الجربين- مكنتش خايف، دخلت من طولون ومشيت في الجربين الطويل اللي تحت السلم بدرجتين. عدّيت في نهاية الطرقة. سِبت غرفة الولاد والحاجة ونزلت بسطة السلم الرخام اللي شكل لحم الهوانم، شُفت العجب- على يمين غرف الولاد والحاجة. عرفت غُرفة البنات من ريحتها؟!!. الباب كان دايماً موارب. وشباشب ملونة على الأرضية الباركيه. الشباشب زنوبة- بمبه واخضر زرعي وبرتقالي وأحمر وزتوني غامق- وكأن لكل ليل شبشب، على الجانب. وناحية السرير- شباشب الشتا أشبه بخُف مصنوع من ريش القطط

الشيرازى- (وكأنك حبيت، كأنك حنيت للريحة الفايحة على وش الباب فوق العتبة، كنت بتشمشم وتقرب رقبتك تحت السرير النحاس أبو ناموسية. كان لامع وعمدانه بتضوى. الناموسية كانت بيضة وإنت بتطل للخف الشيرازى وتشم ريحة الصوابع دفيانة وبيضة فى لون الشمع، بتتلفت وإنت مكفى على وشك ومُطل للشماعة الزان أم بروز موزعة من أعلى لأسفل وعا الأجناب- فى عامود أملس متعلق عليه الروب اللاميه الأبيض الملفوف على عضم الخشب، حزام الروب اللاميه متدلى برباط صغير من الحرير الأسود الغامق أبو زغب- وكأن المنتصب ليس الروب أو الشال- بل هو فاطمة أو سعاد؟!!

لأ. هى سحر؟!!

سحر بلحمها الأبيض المشدود من فوق الكِتاف وهابط ومرخى فى حياء وسط صلابة الضهر، كأنها واقفة وعطياك الأرداف الرمر- بتنظرك- شَيفاك وبتّلف فى دلال..

بتلف لها انت فى جرأة، وقماش الكمبلزون الجرسيه داخل لجوّه والكِنار عريض تحت السّرة وادنى الهوة المشعرة بزغب أشقر خفيف، والبتاع؟!!- نايم ودافى تحت الكلوت الأسود اللبنانى الخفيف- كنت فاكرنى نايم؟!! كنت فاكرنى سكران. يقظ وبتحرك فى بيت السيد العضو- غرف البنات فاضية. غرفة المعلم. الحاجة مش موجودة، ريحة الحشيش بتفوح- ريحة العرق سباء؟!!

ريحة المعلم بعيدة. ريحة الحيطان بردانة. ريحة سحر عريانة؟!!

فصل ٢٢
ماتوصلت إليه التحقيقات فى قضية السيد العضو؟!!

رأيتهم مجتمعين بغرفة المداولة الصغيرة الملحقة بسراى نيابة العرب- ظهر القاضى محمد الأطرش ثائراً وقد تحلق حوله عضوا اليمين واليسار وظهر أوسطهم محمد حراز وكيل النيابة الذى بدا غاضباً غير مقتنع بما قاله القاضى بغرفة المداولة- مال برأسه فى زهق جهة القاضى قائلاً

:- (يا فندم سعادتك عارف إن دى مش أول سابقة للضاحى. وبعدين دا كده بنته هيه اللى هتشيل القضية. ويرد محمد بك الأطرش كبير القضاة فى بورسعيد.

:- (يظهر إنك مش واعى للظروف اللى بتعيشها البلد يا حراز؟!!- إحنا فى حالة حرب؟!! (ودا راجل بتاع الحكومة وشغال مع السلطة؟!!- فوق يا حراز. إنت مدرتش بالاتصالات التى جاية م الرئاسة؟!!

وتعالت أصوات الصراخ والزعيق والهتافات المدوية. الآتية من الشوارع المجاورة مخترقة نوافذ بهو المحكمة الرئيسى نافذة من أسوار المبنى العتيق محلقة بطول الطرقات المفضية إلى ميدان المسلة وشارع حافظ إبراهيم بامتداده ومدخله الرئيسى. سكان أول العرب وضواحى طولون والعدل وإبراهيم توفيق ونبيل منصور يقفزون من فوق الأسوار الأسمنتية العالية. وقفو بامتداد السور

طالين للنوافذ المفتوحة فى سراى نيابة العرب مرددين فى هتافات مدوية غاضبة،

– معلم ضاحى يا شريف.. هيروح فين منا الشريف ضاحى يا نصير الغلابة. والله لنحو لها لغابه، مجلس أمه ومجلس هيبة. والله دى مصر دى بقت خيبة، مصر يا أمه . مصر يا هيبه عُمر الضاحى ما يصنع عيبه، رجال بجلابيب وعمم وبناطيل وأفرولات زرقاء مطبوع عليها شعار هيئة قناة السويس. وشركة الشحن والتفريغ، صبايا صغيرات ممسكات بأطراف جلابيب أمهاتهن السوداء المتربة. صبية صغار يرمون بالدراجات البخارية والدراجات الأسبور الـ ٢٧ بجانب حيطان القنصلية الفرنسية.

° ° °

فى سراى نيابة العرب دخل القاضى محمد الأطرش متوسط عضوا اليمين واليسار السائر على جانبيه. جلس على كرسى زان بيج عالى. عدّل هندامه وصار يسحب رباطه العنق الحمراء لأسفل فارداً إياها على الأزرار اللميع لقميصه الحرير اللبنانى الأبيض المحجوب نصفه الخلفى أسفل جاكت البدلة الشركستين الزرقاء. فتح الزر الأوسط للجاكت وصار يطل فى هيبة وشموخ محدقاً بخبث لـلجالس قبالته رافضاً الخضوع لجنود الحرس، وتلاقت عيون الضاحى بنظرات محمد بك الأطرش فضحك فى سخرية مطأطأً رأسه لأسفل فى حياء بيّن وكان المعلم ضاحى قد رفض الحضور لسراى النيابة بمفرده فتحلق حوله محاموه. زعق فى وكيل النيابة الذى دخل الغرفة منزعجاً للزحام صارخاً فى وجهه المعلم. وانتصب المعلم واقفاً بجلبابه البُنى. سحب العمامة على قورته. وأشعل سيجار الطومباق. وبات يضرب المكتب القريب فى عنف مردداً

بإصرار.. (يا سعادة البيه. يا محمد يا حرار- أنا مُصر على حضور رئيس مكتب المكافحة.. لو سمحت يا اطرش بيه؟!!

واندفع المقدم محمد الشريف يطرق غرفة التحقيقات. خطا كعادته مختالاً كالطاووس وقد أمسك بعصا الماريشاليه واضعاً إياها تحت إبطه الأيسر، الضاحي تزداد ثقته في نفسه وقت جلوس المحامون بجانبه- سحب نفس من سيجارته. نفث الدخان في قرف وصار يجول بعينيه السوداوان البارقتان. وضع ساقا فوق ساق. وصار يُخرج الدخان من منخاريه في كبرياء مراقباً حركات محمد الشريف الذى بدا مضطرباً. متوجساً- مندهشاً بتلك التطورات المتلاحقة والتى بددت أركان الجريمة الكبرى؟!!

حمدى بكشه رئيس مباحث العرب يطرق الباب فيستأذن بالدخول لحضور التحقيق ليعترض المعلم ضاحى مردداً: - ملكشى أى صفة للحضور يا حمدى بيه القضية مخدرات وانت-؟! وينفعل بكُشة هازئاً:- إنت تخرس خالص يا كلب ياداعر.

- ما كلب وداعر إلا أبوك يا عرص؟!! (وانا طالب حكيمدار المدينة يحضر دلوكيت).. كلم حسن رشدى يا محمد بيه يا ابو الجاسم؟!!- (وأنا مش هتكلم أى كلمة إلا ما يخرج البيه بتاع النسوان وقتها بان حمدى بكُشه غاضباً يقول فى إنفعال موجهاً حديثة لمحمد الشريف متجاهلاً القضاة.

-: إثبت عندك يا محمد بيه. إثبت كل اللى قالو المتهم فى محضر الجلسة.

وانفعل القاضى محمد الأطرش وبدا الاضطراب واضحاً على وجهة وهيئته. تناول كوب الماء وشرب. وقام بوضع الكوب فارغاً على الشانون القريب. استدار معتدلاً على كرسيه الزان. صائحاً فى هياج وثبات.

-: إطلع بره يا حمدى. طلعو بره يا عسكرى واقفل الباب؟!!

ونظرة الضاحى وقت أن فتح الجندى باب المكتب وهم حمدى بالخروج.. ليردد المعلم فى نفور وزهق صائحاً فى غطرسة وجبروت- (مارس مهامك يا اطرش بيه. وإلا ورحمة أمى- أطلب رئاسة الجمهورية دلوكيت؟!

فوق الأدراج الثلاث الموضوعة بجانب المكتب سحب كاتب الجلسة ملف القضية تالياً عريضة الاتهامات.. دفس رأسه فى الدوسيه الأحمر وقام ينتزع الاستيكرز الرمادى الفاصل بين الوقائع وخط بالقلم الفلوماستر الفسفورى- (قضية المخدرات الكبرى) وقرأ بصوت مسموع وقت أن تلاقت الإيماءات الدالة الطافية فى إشارات تحديق وهمس ومراوغة وإعراض بين المتهم ضاحى سلطان وفريق الدفاع، وانزوى الضاحى بكرسيه يميناً خارجاً من دائرة النظر المباشر لوجه محمد الشريف الطالل فى دهشة وكياسه وقد صار الشرر يتطاير من عينيه عبر الباب الموارب.

° ° °

:- السيد ضاحى سلطان رشوان

ما هى علاقتك بقصر الرئاسة؟!!

- (السؤال دا ملوش علاجه بقضيتنا يابيه؟

طب يا سيدى.. موجه لسيادتك تهمة الاتجار فى المخدرات إنت وبناتك. مع تسهيل ترويجها فى كل مُدن الجمهورية. واتخاذ مقهاك الكائنة بأول العرب جهة طولون . ستار جمعت من خلاله الصبية وقمت باستغلالهم فى ترويج الحشيش. هذا بالإضافة- استعانتك ببناتك. فاطمة وسحر فى التمويه لإخفاء نشاط الإتجار اليومى والمستمر. متخذاً من سكنك فى الجربين مقراً للتخزين والبيع أحياناً

-: (ليس لبناتي علاقة بنشاطى)

- التحريات التى قامت بها منطقة الشمال وقائد مكتب المكافحة. بتؤكد إنك بدأت فى الاتجار والترويج للمخدرات من ٤٢ سنة، أى بداية من سنة ١٩١٤.. أى منذ رحيل المغفور له والدك الحاج سلطان رشوان.. قُل لى إذن،

- كيف بدأ نشاطك؟ (وما هى علاقتك بالملك فاروق. الملك السابق للبلاد؟!!

وقال الكبير فى ثقة وبعد أن رمى بنصف سيجار الطومباق تحت نعله،

-: (علاقتى بفاروق كانت عشوائية.. واسألوا مصطفى بك النحاس لو عايش.. هوه اللى عرفنى بجلالته سنة ٤٨؟!!

-: إذاً. إنت متورط بالقيام بتوصيل مخدر الأفيون والحشيش إلى القصر الملكى على مدار ثمانية أعوام.

- (يا فندم هوه عاد فيه ملك أو جصر، وبعدين فاروج مكانش بيحشش. الراجل كان بيحُطّ الأفيون فى فناجين الجهوة.. ولما كان بيجى مبسوط شوى- كان يرمى الحشيش فى منجد الفحم الفضة. كان بيشمه وبس؟!!

-: (كيف ومتى بدأت علاقتك بالنحاس باشا،

-: (فى منزل محمد محمود فى عزومة العشا فى بيت الأمة الجديد. والعزومة حضرها حافظ عفيفى وعبد العزيز فهمى وأحمد لطفى وعلى علوبه وأنا اتعزمت كأحد أعيان جرجا- كعضو بمجلس الأمة- ساهم فى الجُرب بين أهالى الجنوب فى سوهاج والقصر الملكى- الملك كان بيحب بورسعيد. كان يعرف أبوى.. والنحاس باشا ومحمد محمود كان ليهم الفضل فى تأكيد وجودى أنا وناسى فى بورسعيد.

-: وما هى علاقة السيد فخرى عبد النور بك.

وهل كان يعلم مصطفى بك النحاس بإتجارك فى المخدرات؟

ضحك المعلم ضاحى ضحكة صافية بدا على أثرها وجهه أكثر إحمراراً. نهض رافعاً رأسه للسقف فى كبرياء فلاحت ندبه الذقن المحفورة فى المنتصف تطفو بمحاذاة شعر شاربه الكث المبروم على الأجناب.. طاف بصباعه السبابة الأيمن يمسح أطراف شاربه بعد أن تجرع كوب الماء بأكمله، وقال فى ثقة وتروى.. يا بيه الشعب كله بيحشش، ليه بتسموها تجارة.. المسائل كلُها كيف؟!! (وعلى فكرة يا اطرش بيه فخرى بك عبد النور كان ليه دور كبير فى أول زيارة جام بها النحاس بيه لجرجا- لما عزم سعد زغلول وزير المعارف لسرايته فى جرجا سنة ١٩١٠.

ه :- وما هى العلاقة بين مقر تجارتك فى بورسعيد ورجال مجلس الأمة - خاصة أهالى جرجا؟

هه :- (يا محمد بيه- كل الأعيان بتوع جرجا تركوا أراضيهم وبيوتهم فى سوهاج ونزلو بورسعيد- وقهوتى فى أول العرب كانت هى المقر للجميع. أعيان وغُربا، ولاكانشى حدّ معترض ساعتها. لا من القصر الملكى. ولا حتى من الملك نفسه- دا حتى الملكة نازلى زارتنى هى وفريدة فى بيتى فى طولون. وإتصوَّرت مع بناتى؟!!

وهاج المعلم ضاحى شاعراً بالإجهاد من كثرة الأسئلة الموجهة إليه من قبل القاضى ووكيل النيابة الذى صار يعقب على كل نقطة قائلاً فى سخرية. (تهريج؟ دى مش محكمة، دى غُرزة؟!!

ونهض المعلم ضاحى تاركاً مقعده متحلقاً حول المكتب البيضاوى الموضوع وسط القضاة، صار يزعق فى غضب مردداً على مرأى ومسمع الجميع ناظراً لمحمد أبو القاسم المحامى شذراً قائلاً فى غضب محدقاً لمحاميه.. (ماتتكلم يا

محمد بـيه يـا ابو الجاسم. اتكلمي يا عزيزة هانم يا عصفور. إتكلم يا أفوكاتو.. جو ليلهم مين اللي كان عم ينظم المقاومة الشعبية في البلد؟!! (مين كان بيدافع عـن بورسعيد ضد العدوان.. مين كان بيحرك شباب المقاومة في أول العرب وفي الحي . في البلد كُلها..

وطفرت الدموع من عينه رغماً عنه.. فصار يرفع عكازه في الهواء مشيراً لوجه القاضي محمد الأطرش في صلف وكبرياء،

قائلاً :- لازم كلكو تعرفوا إنتوا بتتكلمو مع مين

(اسمع يـا أطرش بـيه. اسمعوا يا هيئة الدفاع يا سيد يا وكيل.. يا هيئة الهجوم- ضاحي سلطان رشوان راجل متعلم. مش صايع أو حرامي.

لازم كُلتكُم تعرفوا إني اجدم عضو في مجلس الأمة؟!!

وعلى صرخة كبير القضاة السيد/ محمد الأطرش. سمعت النطق بالحكم بصوت جهوري انتفض على أثره كل الحاضرين؟!! وقت أن نودي على القاضي من خارج غرفة التحقيقات للرد على المكالمة الآتية من رئاسة الجمهورية؟!!

° ° °

١- يُخلى سبيل السيد/ ضاحي سلطان رشوان من سراى نيابة العرب فوراً. على أن يحضرو على الفور أيضاً السيد مندوب مكتب مكافحة المخدرات شرق. والسيد رئيس مباحث قسم شرطة العرب وذلك لاستكمال التحقيقات مع المذكورة سحر ضاحي سلطان رشوان. مع ضرورة وجود الحرز. وكافة رجال الضبطية. ٢- يمنع منعا باتاً استدعاء المذكور ضاحي سلطان رشوان من قبل أية جهة قضائية. أو تنفيذية وذلك لتأكد المحكمة النهائي والفاصل من عدم ثبوت أية أدلة قد صدرت في حق السيد المذكور باتهامه بالتجارة أو ترويج المخدرات. ٣- على السيد وكيل نيابة العرب- الفصل في الوقائع وشهادة الشهود الذين

قاموا بالقبض على المذكورة (سحر ضاحى سلطان رشوان) وهى التى ظهر لعدالة المحكمة تورطها وإدانتها بحمل وإخفاء مخدر الحشيش داخل ملابسها الداخلية؟!!

° ° °

وزعق المعلم مهللاً وقُرب وجود محاميه الذى تحلقوا حوله يقبلونه- قال ضاحى فى فرح (:- يلا يا ست عزيزة. جه دورك- شِدى حيلك.. لازم بتى تبات فى بيت أبوها الليلة دى..،

° ° °

سمعت طلقات المدسسات الصوت تطير فى سماء ميدان المسلة وحول محكمة بورسعيد دبت الخيول العفية الأرصفة البازلت بحوافرها وصارت تصهل وتدور بأقدامها فى حشائش النخيل الكثيف المزروع مفترشاً المسطح العريض الدائر حول المبنى ممتداً حتى شارع محمد على.. وخرج المعلم ضاحى شاهراً عكازه المدبب فى وجوه الأهالى.. وقت أن تجمعت تلاميذ مدارس الواصفية. "وتنيس" و(أشتوم الجميل) الابتدائية فى طابور واحد طويل رافعين الأعلام المصرية منددين بالاحتلال. مطالبين بخروج قوات العدوان الثلاثى، رأيت محمود يجرى فوق الأسفلت العالى الموازى لطريق "المسلة". وتوقف فجأة ليسأل عباس الدمرداش بائع الكاساتا بكافية قطارية والذى تصادف عبورة قاصداً مبنى المحافظة.. وسلم محمود على الدمرداش فى عجالة وهم بسؤاله عن "ماريا"؟!! وقت أن اخترقت أصوات التظاهرات الشرفات العالية فى شارع الجمهورية وممفيس والنهضة... وسمعتهم يرددون فى نوبات استنكار... ايزنهاور يا فتاك. كل الشعب العربى معاك؟!!.. "إيدن" "إيدن" يا جبان كُله هيضرب فى المليان.؟!! جى موليه الحق عليه- إيه اللى جابه عندنا إيه..؟!!

° ° °

رأيت المعلم يمشى فى كبرياء مشعلاً سيجارة الطومباق. رامياً بفص الأفيون تحت ضرسه. هاشاً الذباب الأزرق عن فمه... يبرم شاربه الكث فى تروى. نافثاً الدخان من فتحتى أنفه طالاً لزرقة السماء البعيدة. مستنداً على عكازة البنى المحروق. ضارباً مؤخرته الصفراء الصلبة صوب حذائه الأيسر اللامع، وانتصب جسده النحيل عفياً. مخرجاً ساعته الذهبية "الزودياك" السويسرى من جيب الصديرى. محدقاً للعقارب الرفيعة التى تدور فى بطء وسط الميناء المنير.

أغلق الساعة بقرص الغطاء البلاتين المستدير، دمعة تفر من عينه اليسرى. دمعة واحدة سالت فتوقفت داخل الندبة المحفورة فى منتصف ذقنه النابتة.. لوك الفص تحت فكه. وقُرب المتحلقين من حوله على رصيف المدخل الخلفى للمحكمة وقتما احنوا رؤوسهم فى خجل ودهشة فرحين ناظرين صوب كعوب حذائه الكرب اللامع اللابد فوق البلاط الموزايكو.. توارى. وتلاحقت الدموع تتهاوى بعيداً عن أعين الغرباء. قريبة من عروق رقبته الرفيعة الطويلة... واعتدل فى وقفته يضبط هندامه ويغطى اكتافه النحيلة بالكوفية السوداء الصوفية... وانسحبت العباءة الجديدة ولاح رباطها الساتان العلوى يتحلق حول عنقه.. استدار صوب الطريق العمومى بشارع المحكمة المؤدى لمبنى المستشفى "الأميرى" ليضرب أصابعه فى دكة لباسه الأبيض الطويل. ساحباً عضوه الذكرى فى هدوء. ضارباً رشاش بوله على الجدران الخلفية لمبنى المحكمة العتيق.

° ° °

فصل ٢٣
(الصوت المهاجر)

ورأيتني واقف في عرض شارع طويل مسفلت والوقت بعد منتصف الليل بساعات. نظرت بوعى لكل العمارات المتراصة على جانبيه. قديمها وحديثها، دققت في كل الطرز ودخلت كل الغرف وشاهدت الأسرة عن قرب، ولأن الشارع كان ساكناً وكما تعودت عبر سنوات عمرى المنقضية فى الترحال والتنقل من مكان إلى آخر ومن بيت إلى ثكنه ومن غرفة إلى مرقد آخر، قلت أطل فى ساعتنى وأتحسس وقفتى وأتسائل فى نفسى- أين انت الآن يا محمود؟!! وفى أى الأزمنة تحيا وفى أى مكان تقيم. وفى أى بيت تسكن وعلى أى سرير ترقد وفى أى مدينة، الساعة تقترب من الثالثة وأربعون دقيقة والبيت قديم. وها أنت وقد استيقظت بعد غفوة طويلة- كنت مُجهداً كالعادة فنمتُ ومرت الساعات فلم تُحصيها، وفجأة تقلبت فى فراشك- كنت ظمآن، فهل هذا هو سبب صحوك فى هذا الوقت؟ ناديت على مرافقيك فى الدار فلم يرد أحد- فانتبهت على عقارب الساعة التى تدق فتركت الفراش منساقاً للأصوات الآتية تخترق أذنك تُشدك من ذاكرتك لتقوم فتتحسس موقعك؟!! شكل الغرفة هيئة السرير لون الفراش. مدخل البيت وكيف كان!! وكانت الصالة والإنتريه ودقّه المنبة فى غرفة النوم القريبة، بيتنا القديم؟!!

صورة أمى وحيدة فى الإطار الأسود فوق الجدار المشروخ وخطوة جهة غرفتها الخالية المظلمة والتى كانت فى السابق وعلى الدوام مضاءة ومبهجة- وموعد قديم يُضبط المنبة ببندوله النحاس على ميقاته، ويضرب المنبة معلناً نداء الخروج فى انتظار الذهاب إلى هناك؟!! تهبط درجات السلم فترى وأنت تتساند على الدرابزين في إعياء فتسمع من يقول من الجيران وقت نزولك (من ساعة ما هاجروا وهو دايماً على دا الحال)؟!!

وبتنزل الشارع وإنت مش مظبوط. غفلان، وكأنك نائم فى نفسك منذ مائة عام..

وتمشى فى نفس الشارع الطويل المسفلت وتطل على نفس البيوت ويزعق صوت البواخر رغم ابتعاد الميناء وإنعدام محطة الوصول.

ودوار الأزمنة وتبدل الأمكنة وتواصل المشى فى الشارع وحيدا وتردد فى نفسك- (زمانهم جايين تانى)؟!! ويناديك صوت أمك "صديقه بنت عبد الواحد عبد العزيز).

وتترك الأسفلت وتجرى ناحية البحر من تانى وتقفز فى لنش خشب وتوجه الدفة ناحية الغاطس ويطفو وجه "فتحى كوارع" فى ليلة رأس السنة التى توارت، ومن وسط السهام والشظايا المنطلقة من الأعيرة النارية من الـ ٩ ملى بتبتهج مع زعيق البواخر فى البوغاز وترى القبارصة والطلاينة والملاحين المصريين ومرشدين بورسعيد واليونان وتطير مع نوافير لنشات "المعاون"١، ٢، ٣ ويخوت "فيبرجلاس" تطوف فى مواجهة قبة القنال وصناديق ويسكى مسروقة من الأجانب بيجرها "سُنقر" العتال على رصيف نمرة ٣ فى باب عشرة ترانزيت و"خالد اللول" بيغوص فى مراكب البحيرة قُرب الفجر وتدور ماكينات الديزل ويتعالى الوشيش فى بحيرة المنزلة والجرابعة وبحر

"القـابوطى" ومفـارق المـالح مع الحلو وقت الشفق والوهج وإحمرار قُرص الشمس وغـروبها وقت بزوغ مصابيح الكيروسين وتحاول الخروج من الغفوة وتتقلب فى الفـراش فيلهـبك الصوت الغريب وتصحو على طرقه الملهوف على بابك الخشب المتهالك هـناك؟!! وتفـر مذعـوراً من فراشك الأثير ملبياً النداء (قُم يا محمود. أبوك مستنيك بره يا بنى!!). يا محمود.. يا محمود. قُم يا محمود،

و"كأن اللى خلف مامتش"!!

ولأن الأمثال لا تروق لك. بل لا تعتقد فيها أصلاً.

تـندهش للرسـالات وهمهمـات الأم الصـديقة، كنـت غـرقان عـلى سريرك القديـم فى غرفتك الخالية، الغرفة ضاقت والعرق زاد وصار السكن بحرافها جر السـاكنين فسـبحت وحـيداً فـى الديـار فمـررت "بطـلخا" وقابلـت "أم سـعد" المسـافر للعـراق وشاهدت "صـابرين" وهـى تحـدق للقمـر الأبيض المستكين فى رقدتـه فجلسـت عـلى فخذها تسألها عن سعد الغائب هناك فى بغداد منذ عقود ويـأخذك التـيار فـتحنُ لشـوارع قديمة. جديدة، وحارات قديمة جديدة، لتطفو روحــك عاريــة قِــبل المــنزل رقــم "١٨" لحــارة ســعيد شــارع "الــبازات" عائلة...؟!! للكائن...؟!! بلوكات المهجرين؟!!

وتسـأل نفسـك من جديد وقت صفير الرياح ووقوفك أدنى شرفاتهن... هل يعـيد الـتاريخ نفسـه؟!!.. تبحـث عـن الهـانم "ثـريا الجمـال" والحـاج "خالد الإكـيابى" وغـادة الإكـيابى، ود. غادة السنان تلقى عليك تحية العاشقة وقت أن أُغلقـت أبـواب سـيارتها "الفولكـس" القديمـة. الجديـدة، أهـداف الإكـيابى وصرخات الحرير. ومراكب اللآميه وساتان وبفته وجرسيه فوشيه...

(الـلى خلـف مامـتش يا محمود.. قُم يا محمود.. إستيقظ يا ابن طلخان...

(إصحى يا محمود انت سكران انت سكران؟!!

فصل ٢٤
(ريم)

١٤ سنة مش طوال؟!! (لكن انفلتو)،

من يوم ما جيت من بحرى وقعدت على نيلهم، تركت بورسعيد واستقربى الحال فى القاهرة؟!!

(الخمسين سنة فاتو وكأنهم حلم جميل. كابوس؟!! مفزع (خمسون عاما من الأساطير؟!!)، عم محمود طلخان الكبير ومحمود الابن، ضاحى سلطان رشوان والعربى ضاحى ابنه، والحفيد رفعت العربى ضاحى سلطان رشوان- (أول العرب)؟!!- طولون والحميدى؟!! والمناخ شارع فلسطين الطويل نركب الموج الأبيض، نطل بأسى لعمارتنا القديمة. ونتحسر على مجد "باب الحديد"؟!! أطول عمارة فى "حى الأفرنج" "إنضربت فى ٦٧ ساعة النكسة، السهام النارية المطلوقة فى عرض القنال كانت بتعجب السياح القبارصة، والطلاينة بتفتح أزايز الويسكى "البلاك هورس" و"الجون ووكر" فوق المراكب البيضة العالية فى رأس السنة اللى مرت من زمان- نفسى أعيش نفس الليالى الماضية- نفس الليلة تحديداً، واسمع تصفيق الأهالى فى بورسعيد يوم إعلان قرارات التأميم، ومحمود القائل يومها:- (مشاعر الكبرياء الوطنى ما بتفرق بين مسيحى ومسلم ولا بين عربى وغربى... كانت أيام؟!!

فينك يا عم محمود يا طلخان؟!!

مقاومة شعبية. وثأر. وبرطمة بسبع لغات مع كل الخلق اللى يعرفه واللى مايعرفوش.

– وتسألين نفسك ويدك على المقود (ماحدش شاف ناس بنى أدمين، (لماذا أصبحت الحياة هكذا- كيف كنا- وأصبحنا... وسار الخراب والعفن فى كل شبر فى أراضيكى يا مصر، كل يوم نفس المشوار (الطريق واحد)؟!! والمسالك مختلفة- والأسفلت ممتد فى كورنيش المعادى. الضاحية التى كانت جميلة يوما ما.. (كم تمنيت وجودك يا محمود لتشاركنى الرؤى لنبحث سويا عن تفسير لتلك التناقضات، المكان الوحيد الممتلئ بالخضرة فى شارع ٩. والخلق من كل جنس ولون، أجانب ودبلوماسيين. وزنوج وبربر ونوبيون، وصيّع وحسالات وخرق باليه تدفن وجوه الطبقات الشعبية والأخرى التى كانت وسط السراديب مظلمة والأطفال عرايا تلقى فى خلفية المشهد محجوبة خلف الفيلات البراقة الفارهة التى تتحرك فيها الوجوة فى حذر وصمت وقد اعتلتها الجهامة واللامبالاة،

طفلة معلقة خلفى بصالون "الأوبل فيكترا" الخضراء، تخفت الإضاءة ويتأرجح السرير الصغير الموضوع داخل الحقيبة التركى المتوسطة المفروشة بمرتبة سفنج مزركشة. ويتدلى وجه "ريم" الجميلة آخر العنقود (البنت واخدة عيون محمود كلها بنارها وشقاوتها وملامحه الجامدة. بريقها الأخاذ فى النن والحدقات الواسعة، لم يتغير فيها شيء البتة. صورة مصغرة من محمود وقت مولده وفى صباه وبقية الأيام التى انقضت من عمره. أحدق فى وجهها خلفى محاولة التدقيق والبحث عن ثمة فوارق، بشرتها بيضاء وشعرها أصفر هائش وعيونها ثلجي.

وخصلاتها دايماً تطير مع الفتح المفاجئ لنوافذ بابى أو نوافذها الخلفية الفاميه، جاءت ريم كما تمنيت. صورة جميلة بديعة ممن خلق. ولما صارت الأمور عادية بالنسبة لى أسوه بأى أم فى حالتى تنجب للمرة الثانية. اعتدت على مراقبتها. سنة ونصف وهى تشرق بهذه الابتسامة العجيبة، ودارت أيامى معها ومع تلاشى كل التفاصيل الحميمية من سكتى تأكدت بأن الأمل كُله يكمن فى الآتى، أفكر فيها فتضحك كثيراً. وكما تعلمون، فضحكة الطفل فى العموم لا اعتراض عليها، بل هى تكون بداية السعادة الحقيقية لمن انجبتها... ولكن الجديد. بل والمدهش فى أمر "ريم" إنها لا تضحك مثل الأطفال الآخرين.

فهناك ابتسامة ثابتة لا تفارق وجهها المحمر دوما.

ابتسامة شبيهه بتلك الطافية فى صور ملتقطة فى بورتريهات فوتوغرافية مصورة لأطفال الميكى ماوس التى تُلزق على العلب الكرتون لحليب البودرة (بيبى لاك). أو "سيرى لاك" أو تلك الوجوه الرغدة التى توضع على العُلب المصقولة للعب الأطفال المستوردة- باختصار فى ضحكة "ريم" دهشة واستنكار وغرابة بتبعدها عن الطبيعة البشرية التى تخُص الأطفال فى عمرها- عشرة شهور وهى على نفس الحال، تستيقظ قبل قيامى من فراشى بساعة. تجلس وسط سريرها الصغير القطيفة السيمون- ترقب رواحى ومجيئى. ترصدنى وقت ارتداء ملابسى. تحدق فى وتنظرنى وقت اختيارى لألوان ملابسى الداخلية التى تتغير يومياً عند كل صباح وقبل نزولى من بيتى لتطل إلى ملامحى مدققة فألحظ فى ملامحها ثمة استنكار مجنون. بل خارق للمألوف والعادى- وعندما اسحب مفاتيح السيارة من أعلى الكومودينو أراها وقد ترجرجت فى سريرها الصغير وتعددت محاولاتها فى القفز بقربى وكأنها قد أعدت نفسها وتهيأت للنزول هى الأخرى سارحة بأناملها الرقيقة على خصلات شعرها الذهبية،

وعند وضعها بجانبى على المقعد الأمامى الأيمن- تصرخ ولا تهدأ إلى مع رفعها إلى سريرها الخاص الصغير المعلق فى المقعد الخلفى. لا تكتفى بالتمدد على ظهرها. جبارة فى رفضها ذلك الوضع معبرة عن رفضها ببكاء حار ووجه ينزوى لليسار أوتوماتيكياً رافضاً النظر لوجهى- وفى هذه اللحظة على أن استوعب الرسالة وافهم المغزى وسبب إعراضها- أقوم بثنى جسدها لتجلس فى السرير نصف ممدة ونصف منكفئة. على شكل زاوية- أقدامها تتمدد لآخرها وظهرها الأبيض العجينى مسنود على المخدع الصغير أبو كسوه حرير بيضاء. وينهض وجهها ثابتاً منتصب خلفى مباشرة، لا يرى فى المرآه التى أمامى ولكنه منزوى فى يمين المقعد نسبياً- وكأنها قد أعدت نفسها لترقُبنى وقت القيادة، مع دوران الموتور يزيد صخبها ويتصاعد فى حركة كريشندو، وفى أثناء القيادة أراها بنفس الابتسامة الثلجية- تحدق من عليائها لأقدامى الموضوعة على الدواسة وكأنها تتأكد من تمام بدء السير فى القيادة مؤكدة على دورها فى كل حين فترمى بنظرات جسورة واثقة تؤكد التحفز على الانطلاق وزيادة السرعة كعادتى فى القيادة كل صباح فى هذا الطريق الطويل الموازى لكورنيش نيل المعادى. كنت كثيراً ما ألمحها تحدق فى من خلف مصوبة نظراتها لزجاج البربريز الأمامى وكأنها كاميرا مثبتة على شاطئ بحر فى زاوية واحدة ولقطات قريبة متعددة الرؤى مجهدة- كثيراً ما كنت أخشاها بل أخاف على نفسى من رقدتها هذه كنمرة شرسة تتأهب للانقضاض خاصة مع تهدئة السرعة أو مع الانحناءات لليمين أو اليسار وكأنها ستطير على الفور وتترك مرقدها وتجلس على مقعد القيادة وتزيحنى جانباً وتضع هى يدها على المقود وتنطلق إلى مالا نهاية؟!!

وهـا هو القدر قد أعلن ميقاته فحدث اليوم ما كنت أخشاه واتوقع حدوثه، ولكـن المشـهد الحاصـل قـد فـاق كل توقعاتي. انفلتت العربة الهواندى البيضاء. عـربة الشـرطة تجنح فى الطريق المقابل وتخترق عرض الشارع وتهوى مصطدمة برفـرف سيارتى الأيمـن وهـى فـى كـامل سرعتهـا- احتشدت بكل ما أوتيت من قـوة ضـاغطة بقدمى اليمنى الحافية على ضاغط الفرامل لتطير "ريم" الجميلة من سـريرها الصـغير وتحُط بمؤخرتها الصغيرة على الكرسى الأيمن بجانبى واضعة أصـابعها الـنونو عـلى المقـود خارجـة من ابتسامتها الثلجية أكثر خبثاً لتضحك مجلجلة ساخرة كصبية فى الثالثة عشر من عمرها؟!!

° ° °

وفـى هذه اللحظة تحديداً. كنت قد استعدت ما كنت أفكر فيه منذ دقائق. غائـبة فـى دهشـة وحـيرة أردد فـى نفسـى مذهولة- هل كانت البنت تعدُ نفسها للقـيادة بمـا يـتفق مـع الحـياة الآتـية، وهـل هـى حقاً قد أدركت اللاجدوى فى مسـارات طـريق الأم المـتعرج الطويـل؟!! والـذى أقطعـه يومـياً للوصـول لـنفس المكـان؟!! بتُ أقول فى أسى، (أين انت الآن يا محمود...، وكيف كُنتِ فصرتِ فأصبحت يا غادة يا بنت السنان؟!!

– (كـان لازم تعـرفى إن عُمـرك ماهتنسـيه. كنتِ بتسمعى عن أبوه من ٣٠ سـنة، و٣٦ سـنة من عمرك وعُمره، كُنتِ واقفة فى كل محطاته وشاهدة عليها، بـل شـاركتِ فـيها وطُـرح السـؤال المحـورى فصرتِ انتِ القضية وهو الإجابة، وخمسة وعشرين سنة انقضوا فى كوابيس؟!!

وبتُ اجتر الليال التى توارت- هناك؟!!

عُدت لذكـرى لياليـنا الجميلة- كُنتِ فاكره أن خروجك من بورسعيد سنة ٧٩ كـان هـو الحـل فـى الـبعد عـنه، (أبـداً)، - غادة مبعدتش عنك يا محمود.

(كدابه يا غادة لو قلتي كده، كدابة يا غادة. (إصحى يا دكتورة) الحادثة وضغطه الفرامل رجرجت دماغي، وخمسة وعشرين سنة على الرحيل؟!!

وبنتقابل بالصدفة على الطريق- (هوه فى المينى باص وأنا راجعة على بيتي مجهدة. نازلة من كوبرى الملك الصالح. وطلة العاشق القديم من خلف نافذة المينى باص، طلة الحسرة يا محمود، (كُنت فين يا محمود. وأنا رحُت فين- رحُتِ فين يا غادة؟!!.

(شوفتك فى المينى باص وشوفتنى وكنت عايزة أصرخ وانادى وسط الزحام فى الإشارة، الخميس والدنيا زحمة.. وأنا راجعة بتأمل الخلق من فوق الكوبرى وانت قريب من عنيه. قُرب الجنين لروح أمه، ناديت عليك يا محمود..؟! سمعتنى. شوفتك يا محمود في زحمة الركاب. جوه الباص. شوفت خجلك القديم وانخراس لسانك، قلت هتنزل يا محمود، (الدنيا من غيرك خراب. رحُت فين يا محمود. ومن جاء بك إلى هنا- أتيت لعاصمة الضياع بقدميك، ورأيت "ريم" من نافذتك العليا.. انتظرتك كتير يا محمود؟!! وإنت هناك- وتلت تيام وانت هنا، وتليفون البيت بيِْرن فى كل ليلة، (يا ترى هوه)، كان لازم تسيبى العربية يا غادة وتنطي وراه فى الباص (طُظ فيكى يا غادة يابنت السنان)،

كان هوه محمود أبو ضحكة صافية وبشرة سمرة، وتليفون أخرس ورقم قديم زى ماهوه- ونا مستنية من وقت الرجعة بعد المغارب حتى الفجرية، ويقول آلوه، وأقول آلوه، وابكى ويبكى، و"ريم" تطل في ملامحي وتقول بابا، "بابا"؟!! (داد. داد)، ويدخل بابا الحقيقى؟!!- وتهلل ريم. وأحُط السماعة ويعدوا الليلتين طوال وأنا نايمة فى الفراش غريبة وجنب منى الزوج غريب-

وإنت بعيد يا محمود، بعيد- وقريب، طُظ فيكي يا غادة وفى جوزك أستاذ الجامعة البارد.

* * *

وتنطلق الأوبل فى المشوار اليومى المتكرر وهى تسخر من نفسها. تتعجب. تحاول البحث عنه، تفتح صفحات الإنديكس القديم وتحدق فى أرقامه القديمة.. تفتش عن طريق. عن طريقه للتواصل، وتواصل الفرار على الطريق الخافت الإضاءة. قُرب أعمدة الكورنيش الصدئة. المياه راكده ورائحة الصنن تفوح وصفحة النيل سوداء- ومحمود قريب بعيد؟!!

ونفس المراكب الغارقة والآذان العالى والصوت المزعج لأجراس الكنائس، ولا أحد فى طُهر محمود، الشيخ يقيم الصلاة فلا أحد يتهيأ للسجود، الخلق يتزاحمون على مرمى بصرك والأردية غامقة جهة الكورنيش. والنسوة العجائز يفترشن النجيلة المبلولة المبدورة فى طين لزج، والقضية، السؤال المحورى؟!!

-: (قضية محمود أمن قومى يا ست غادة؟!!)

- أمن قومى أم أمن دولة يا محمود، أمن دولة أم أمن دنيا يا محمود!!، وأهداف تحدثنى عبر الهاتف.

- (محمود مقبوض عليه يا غادة)، محمود غايب عن بورسعيد من زمان يا دكتورة،

رميت السماعة وبكيت. وتأكدت بأن الخبر صحيح مش إشاعة، لفيت ودرُت حول نفسى.

سرحت فى سنين طويلة فاتت هناك؟!!

على شط بورسعيد الطويل و١٥ سنة جهة الطابية وقعدة ديلسبس فى ليالى الجمعة. والعشاء جمبرى وسبيا محشية بمرق البصل المدعوك فى الفلفل

الأسود.. أبكى بحرقه- إبكى يا غادة، ملعونة الدموع. ملعونة المواقيت يا محمود. ملعون نزولك القاهرة. ملعونة أحلامك وأحلامى. ملعونة الأوبل والباص، ملعونة الغربه- محروقة القاهرة الفاجرة، ملعونة الشهور العشرة اللى فاتت فى البحث عن مكانك؟!!

° ° °

الدموع تنهمر من عيونى وأنا رايحة أدور عليه؟!!

كُنت فاكره النيل هيبلعنى فى سواده.

كُنت فاكره إنى هانسى فى الغروب.

كُنت فاكره أن الظلمة فى شرفات المعادى

ليل الخميس هتحجب القمر اللى سارح فى السماء عصر الأحاد فى بورسعيد، ولساكى يا غادة فاكرة. فاكره ونسه الفنار لما دار عند البوغاز

° ° °

الريح بتعوى قُرب النوافذ و"ريم" نايمه فى سريرها الصغير، وطرقه ملهوفة على باب شقتى فى شارع ٩. وبيدخل عم إمبابى البواب ويسلمنى جواب، وبجرى على صوت الرنين اقفل الباب وافتح المظروف بسرعة، واعرف خطه وعنوانه، وعشر شهور ببحث عن مكانه؟!!

فصل ٢٥
[عبده فلاش]

جلس على الأريكة الخشبية المركونة أمام الأنق. كان قد طل فى ساعته التى أشارت عقاربها تقترب من الثانية عشر وعشر دقائق وبقى عشرون دقيقة على نفاذ وقت الراحة المخصصة لعمال "الرشمة" بالجزيرة الخامسة التابعة لشركة الشحن والتفريغ، وصل إلى سمعه نداء السيد البصراطى من أمام مكتب مدير الورش. م. عبد الرحمن أبو طالب فعاد يقلب فى صفحات الجريدة البريطانية.. كان يحدق لسطور العناوين مندهشا محاولاً فك طلاسم المفردات المكتوبة باللغة الإنجليزية محاولاً استخدام مهارته الخارقة فى ترجمة الكلمات انتبه على عنوان الجريدة عقب فتحه للصفحة الأولى وانتبه إنه لا يجيد إلا الإيطالية واللجريجية.. ضحك فى نفسه وتذكر العم "ميدان" بائع الصحف فى شارع كسرى "بأول العرب" والذى تعود على أن يحجز لعبده. كافة الصحف الأسبوعية التى تصدر بلغات أوروبية عدة.. خاصة الإيطالية منها واليونانية. وأحياناً ما يُبقى له صحيفة "اللوموند". ليقرأوها سوياً فى المساء بقهوة "الضاحى". طل للعناوين فى دهشة. وبدا متابعاً تراص الحروف فى دقة.. وضحك وتعالت ضحكاته مردداً فى نفسه- (الله يخرب بيتك يا "ميدان"؟!!(مالى أنا ومال الإنجليزى) هأ هأ.. كادت عيناه تخترق الحروف مطلاً فى "الأوبزرفر" متوقفاً يتطلع فى دهشة للعناوين الرئيسية. ولتلك الصورة

الكبيرة التى تُظهر آلاف المحتشدين أمام مقر مبنى "الدوما" الروسى. ملامح أوروبية مختلطة. روس وطلاينة وإسبان وأمريكان وزنوج. يهللون فى غضب مطالبين بخروج العدوان الثلاثى من مصر. مطالبين المجتمع الدولى بوقفه حازمة تجاه ممارسات العدوان على شعب بورسعيد الأعزل، والتفت فجأة يطل شذراً لتلك المراكب الشراعية السائرة بمهل تحمل صناديق التفاح اللبنانى. عاد يطل فى الصفحات مدققاً فى العناوين والصفحات. فتح الصفحة الثانية وانتبه لتلك التقرير المطول المكتوب بالخط الأسود العريض. (شكاوى متعددة تقدمها الجاليات اليهودية فى لندن وإسرائيل وأمريكا وروسيا. تدين طرد اليهود من مصر بقيادة عبد الناصر ورجال ثورة يوليو؟!! ورمى بصفحات الجريدة فوق التزجه الحديدية واستدار ملهوفاً ينصت للنداءات المتكررة الآتية من أمام مكتب المدير. سيد البصراطى. يضع إصبعيه فى فمه ويصفر. يدنو ناحية عبدة الواقف أمام الأنق صائحاً وقد تحلق حوله غالبية العمال بصحبة والفنيون بالورشة. محدقين فى وجهه ساخرين. ضاحكين على تلك النداءات والتعليقات الساخرة.. وسيد يكرر فى صياح ساخر وله يا عبدة. إنت آله يا عبدوه، عبده يا فلاش ويلتفت عبده ناحية البصراطى ملوحاً فى غضب زاعقاً

:- إيه يا بصراطى. ما تلم نفسك يا منزلاوى يا ابن القحبة إنت هتهيّج العمال عليا ولا إيه.. ما تلم نفسك يا عرص؟!!

ويتراجع فلاش للخلف فى دهشة وامتعاض. يعود لقراءة السطور فتأخذه متاهة الأحرف الإنجليزية الغريبة عن ثقافته، وسيد البصراطى ينادى من جديد فى سخرية مفرطة.

– إلحق يا عبده يا فلاش. إلحق آله. إسرائيل هتضرب لك مراكب التفاح...

كان صبره قد نفذ فجرى خلف البصراطى على ضحكات العمال

- : مـا تـلم نفسك يـا عـرص يا ابن القحبة.. (إسرائيل مين آله يا خول. والنبى ولابن جوريون نفسه يقدر ييجى هنا؟!!

ويستدير مودعاً الأذق ناظراً للعمال فى قرف.

ساحباً عقد الفل من المسمار الحديدى المدقوق فى باب كابينة المعاون (٣) — اللنش الجديد الخاضع للصيانة والمرفوع على الأذق فى الحوض الأخير. علقه فى عنقه الأسمر الرفيع ومشى مختالا زاهياً يقصد الصال الكبير المربوط فى مؤخرة الجزيرة، صار يحدث نفسه كالمخبول، وبعدين يا فلاش. وبعدين فى ولاد الزنا دول- وتتكرر العبارات الساخرة فى نداءات متتالية تأتى من قبل العمال سارية فى خفوت متبوعاً بالصدى..

ولـه يـا عبده.. إلحق آلله إسرائيل هتضرب لك مركب التفاح- ويسمع الضراط العالى من خلف ظهره وقت أن التفت فى غضب يصيح ناظراً لسيد البصراطى المحتجب خلف مكتب المدير.. (شايفك يا بصراطى يا عرص شايفك يا ابن الزاينة. هتلمنى قهوة الضاحى وتلمك بليل فى أول العرب؟!!

° ° °

دخل العنبر المخصص لعمال الرشمة. هم بفتح "الكراسته" الحديد ووقف أمام دولابه فاتحا ضلفته خالعاً التى شيرت الأحمر "الماركوبولو" مُعلقاً إياه فى المسمار المدقوق فى ظهر الضلفة اليمنى. جلس على الأريكة الخشبية نصف عارياً وبدا منكفئاً يفك رباط حذاءه الكلاركس ابو رقبة، طل محدقاً لصفحة المرآه المواجهة المعلقة فوق جدار العنبر الصاج داخل إطار من الكرتون لترى السلسلة الجنزير الفضية وقد تدلت من رقبته. انتصب يرقب هيئته مختالا يدعك صدره المكشوف ماراً بأصابعه فوق حلمة ثديه الأيسر فى عنفوان ظاهر

مـردداً بـين نفسـه يرقـب الشعيرات الطويلة السارحة فى منتصف صدره واصلة حـتى رقبته، (والنبى وسيم وجنتل من يومك يا فلاش.. ولا "كلارك جيبل" فى مجـده)، وسـحب علـبة الفـيزيلين فقـام بفـتح الغطاء ليغوص بإصبعيه الوسطى والسـبابة متـناولاً الكـريم الناعم اللزج الذى ذاب فى كفيه العريضين. هم بدعك رأسـه مدلكـاً فـروة الشـعر الهـائش المفلفـل، ارتدى قميصه "الوينجز" السيمون المكـوى فـتخلص مـن شـورته الكـتان الواصـل أعـلى ركبـته ليسـحب بـنطلونه الكـاوبوى عـلى خصـره مطوقـاً وسـطه بتوكه الحزام الـ "لي" المشدود فوق ادرار البـنطلون النحاسـية.. أغلـق الكراسته. ومشى يودع جنبات الجزيرة تاركاً باب العنـبر مفـتوحاً، قصـد المرسـى الأيسر يطل على لنشه الخشبى الراقد فوق سطح الماء.

حدق لعقارب ساعته. كانت قد اقربت من الواحدة. نصف ساعة باقية على موعـد الانصـراف. نظـر صـناديق الـتفاح الفارغـة المكومة فى قعر اللنش وداخل كابيـنة القـيادة. اسـتدار فـى موقعـه يرقـب العـاملين. قفـز داخـل اللنش وادار الماكيـنة فـانطلق بـتؤدة يـنزوى جهـة اليسـار قاصداً المر الرئيسى للقناة. وضع إصبعيه فى فمه وأطق صفير عالى جهة السفينة العالية الراقدة وسط المر. ووصل إلى سمعـه الـنداء الآتـى من بعيد فأطل برويه يرقب المراكب العابر. جـهة ورش الإنشـاءات الـبحرية مقتربـاً بااللـنش جهـة اليسـار ملوحاً بيديه يشير للواقف بزى القباطنة الأبيض قُرب غرف التشوين.. ولاح وجه الكابتن "وليم توسكانى" يضـوى بإحمـرار تحـت أشـعة الشمس الملتهبة.. وزعق الكابتن وليم يرطن بلغة إنجلـيزية سـليمة وقت أن مـال عـبده فـلاش بالدفة ليسير فى محاذاه السفينة السـياحية "إكلـيل لاورو" جـنح يميـناً لـيقف أسـفل الصارى العالى المنتصب فى مؤخـرة المركـب وبـان اللـنش لابـداً بجانـب الـرفاس الكبير الراقد بعرض المر

المالح، وسمعت وليم يقول: انتريه ابده انتريه. أجين. ستوب. ستوب ابده فيرى فيرى جود، مضبوط.. فيفتى مينتس. عاد كابتن وليم يدخل غرف التشوين ليعود فى ثوان وقد أمر مساعدة القبرصى الواقف بالشورت أن ينزل بالسلم الحديدى مقترباً للنش الخشبى، عبده يتأهب للصعود. وتظهر كراتين التفاح وصناديق الويسكى البلاك هورس والبلاك ليبول التى أُعدت للنزول وصارت فى متناول يده. وصعد فلاش يعتلى درجات السلم الحديدى الصغير المتدلى من مركب السياحة. تناول كراتين التفاح. واستدار المعاون القبرصى يحمل صناديق الويسكى فى هدوء هابطاً بها داخل اللنش الخشبى. وتحلقت الفتيات الشقراوات حول البيسين العميق الهابط فى منتصف السطح العلوى بالدور الأخير، نظرت للسفينة العملاقة فى دهشة وأحسستها كمدينة العجائب المتحركة وتحلقن الفتيات الشقراوات حول حمام السباحة وقُرب الصارى المنتصب يحمل البنديرة الأمريكية التى صارت ترفرف فى الفضاء محلقة أعلى جدائلهن الصفراء، لفتْ الفتيات ودارت ترقب المشهد عن كثب. عيون زرقاء وثلجية. تحدق فى خبث من بين الأفخاذ العارية التى تراصت فوق ظهر السفينة لتجول فى صمت ودهشة فى انتظار دخول البوغاز، وانطلقت السفينة تزعق. ودوت السرينة العالية فدار عبده بلنشه جهة اليمين قاصداً المرسى الجانبى فى باب ١٠ ملوحاً بيديه للقبطان وليم مردداً بلغة إنجليزية بترت حروفها وقت هياج الرياح.

- (ثانك يو مستر وليم. ثانك يو.. ثانك يو مستر توسكانى) فيرى فيرى جود. أفترتومورو.. اوبن أفتر تومورو كاش مانى إيجبشيان، أفترْ تومورو. ايجبشيان مانى (نواينتين باوند وليم).

وكابتن وليم تتجهم ملامحه فيصيح فى غضب أعلى السفينة،

– (نـو. نـو نو مستر ابده. نو إيجبشيان مانى، نوباوند، ناينتين دولارز–(اوكيه)، اوكيه مستر عبده–، (جُد) جُد أبده، باى أبده.. ثانك يو،

(اوكـيه. اوكـيه ولـيم)، ودار يخترق ممر القناة بالعرض مردداً فى نفسه. كُس أمـك مسـتر ولـيم.. "فونكولـو"– كلفـتى إنـت مستر وليم.. وطاف بأطراف أصابعه اليمنى يمسح العرق النازل من قورته.

° ° °

دخـل أول العـرب يطرق عتبات مقهى الضاحى، سحب الكرسى الخيزران وانـزوى بالـركن الأيمـن أسـفل الجـراما فون مستمعا لصوت الشيخ سيد درويش الـذى صـار يـردد فـى شـجن وتـوق أنـا هويت وانتهيت، وعبدة يردد من خلفه صائحاً

– وليه بقى لوم العزول يا مشمش؟!!

كـان قد عاد من كافيه قطاريه بعد أن التقى "بماريا" وتناولا الكاساتا سوياً وانصـرف أتـياً لـلمقهى لمقابلة كابتن توسكانى وحسن زنجير الذى دخل صائحاً يرمق عبده فلاش عن قُرب منادياً على صالح النادل فى سخرية

– هـات يـا ابـنى الجوكـر لـما نشـوف اخـرتها مـع الكابتن، نهض فلاش يسـحب كرسـيه. ودنـا صالح بالترابيزة الفورومايكا واضعاً إياها وسط الجالسين لتنتصـف الـركن الأيمـن أسـفل صورة المعلم ضاحى الموضوعة فى البرواز الزهبى المعلـق على يمين الجدار لتطفو صورة الزعيم جمال متدلية من السقف فى برواز كـبير ولقطـة أبـيض فـى أسـود بـالحجم الطبيعى ترصد ملامحه وهو يخطو فى كـبرياء مبتسـماً ممسـكاً بأبـنائه خـالد وعبد الحكيم، وتحلق رواد المقهى حول الترابـيزة. وجلـس فـلاش يفـر أوراق الكوتشـينة وبـدا عـم حسن جنزير جالساً قبالـته وقـت أن صـاح فلاش فى نوبه سخرية وعلى مرأى ومسمح رواد المقهى..

(يـلا يـا كـلاب، عمكـم عـبده جه. وناوى يقطع أبو الجنازير النهاردة، وحسن زنجـير يـنظره فـى غـيظ معقباً، (هتلعب. مش عايز كلام كتير؟!، عبده فلاش يصيح فـى سـخرية مهـلـلاً (تعـالى يـا صـالح شـوف الحرافـيش يشـربو إيـه.. (صـاحبك مُظراب يا ابو صالح). حزم أوراق الكوتشينة بعد أن وضع الأوراق فوق بعضـها فـى تـراص متسـاو. بـدأ فى التفريق معدداً ١٤ كارت معقباً، بص يا عم حسن السرقة بفورة. والغالب معزوم على حفلة ١٢ فى سينما ماجستيك"؟!!

– اتفقنا يا جنزير،

– وعرص اللى يرجع فى كلامه يا فلاش.

– اوكيه مستر "جنزر"

أوكيه، يلا يا سيدى

وبـدأ فـى سـحب الأوراق تـباعاً مـن الحـزمة المائلـة وسحب عبده الكارت الأخير مردداً. (آخرك إيه يا حسن،

– ملك؟!!

– ملك، ملك مين يا راجل يا قُفة. الملك خلع من زمان.

– (طب ولد دنيرى يا سيدى)

ورمى حسن جنزير بالبنت الحمراء قائلاً. نفلتك يا سيدى

– وادى الـ ١٤ كارت يا "ظرْب" (والجوكر عايم يا جنزر؟!)

وبدأ فلاش فى الصياح ساخراً ينادى على صالح.

– (تعـالى يـا ابـنى طـوّق الطقطوقـة. هـات الطبشور يا صلوح. وهاج حسن زنجـير واستشـاط غضباً وقت أن تفرقت أوراق الكوتشينة فوق الترابيزة، (غيره يا معلم)

– إيه انت جاى سُخن يا فلاش، (١٤ كارت من التفريق)

- نار يا عم جنزير. نار

ورنا إلى سمعه صوت الشيخ سيد وهو يقول. احبه حتى فى الخصام؟!
وعبده يعقب ورائه مردداً.

- وبعده عنى يانا س حراام،

على دخول محمود طلخان مقتربا من ترابيزة اللعب بدا وجه جنزير غائصاً فى العرق الغزير.. عبده فلاش يزئط ويهلل منادياً على محمود وتعالى يا سيدى شوف صاحبك الخواجة؟!!

- إيه ، صاحبك مزنوق يا فلش.

- آه.. وبدأ فلاش يضرب قرصه الترابيزة بكلوة يده، فى هياج وقتما تسللت أصابع جنزير من أسفل الترابيزه لتسحب الجوكر من الإسكارته ورمقه فلاش بخبث صائحاً.. (عندك. فتشوه. حرامى؟!! (إطلع بالجوكر يا كلفتى)" راحت عليك يا أبو على، وعم حسن يمسح عرقه بالمنديل الأبيض وقد صار منفعلاً

- ماتحضرنا يا سى محمود، ومحمود طلخان يقول،

:- من حقه يا عم حسن. راحت عليك. السرقة بفورة ووقف فلاش ينادى صالح.. (تعالى يا ابنى شيل البطل وميعادنا حداشر ونص فى شارع الجمهورية؟!

دخلت مقهى الضاحى فى تمام العاشرة ورنا لسمعى صوت حسن الشحمة المبحوح وهو يحكى لرواد المقهى وسكان "أول العرب" من "الخوارف" وعمال الميناء والبمبوطية ما حدث بالأمس أمام سينما ريالتو، حسن الشحمة يقف بصحن المقهى وقد تحلق حوله الأصدقاء يستمعون بشغف وإنصات ضاحكين فى سخرية متخيلين ما حدث بالأمس أمام دار السينما فى شارع الجمهورية.

وتـراءى لى الشحمة هـاذراً يسخر وقد تعالت ضحكاته مواصلاً الحكى فى زئيط وجلبة عمال الكوبانية.. قال حسن وقد استدار مُلتفتاً ينظر ناحية "الشكربالى" مترقباً وصول عبده المباغت مسهباً يرمق صالح النادل الذى إنهمك فى نفخ النار دانياً من الفحم المشتعل

:- دى كانت ليلة جاز يا صالح؟!!

-: رُحنا عشان ندخل حفلة ١٢. قصدنا سينما ماجستيك. ولما وصلنا لهناك. عبده فلاش غيَّر رايه وقال لعم حسن جنزير. (أنا مبحبش الأفلام الأمريكانى، وبعدين أنا اللى غالب يا "جنزير". أدخل الفيلم اللى أنا عايزه وفى أى سينما.. عم حسن قال له،

- إحنا كُلنا هنشوف "المواطن كين". وبعد ما اتفقنا على "المواطن" أنا وهوه ومحمود طلخان. دخل عبدة يطل فى الأفيشات المعلقة عا الحيطة.. ولما لقى "سارقوا الدراجات" بتاع "فيتوريو دى سيكا" مكتوب تحت منه العرض القادم. شخر للمدير، وضرب قاطع التذاكر. وقعد يزعق للمدير ويقول له، إنتو شويه نصابين. عشان انتو الأسبوع اللى فات كنتو كاتبين تحت فيلم "سارقو الدراجات"؟! الأسبوع القادم. وآهو عدى الأسبوع يا ولاد الحرام، وانا جاى علشان أشوف الإيطالى.. ومنت، لقيت عبده خلع البنطلون ووقف باللباس والجزمة أم رقبة والسلسلة نط زى القرد وشد الراجل من شباك التذاكر. وقعدت الستات تصوّت من التراسينات الخشب وفلاش يسحب ازايز البيرة و"السيدر" (الفاضية ويضربها فى وش المدير اللى خاف على نظارته النظر وجرى فى شارع حافظ إبراهيم؟!!

وأفاض حسن فيما حدث بالأمس ورأيت عمال الهيئة وكوبانية الميه يضربون كفاً بكف. راحوا فى ضحك متواصل وصاروا يتساقطون فى نشوة

مستندين على الترابيزات الفورومايكا والطاولات الصغيرة الخالية ممدين على الرصيف البازات وحسن يزئط في سخرية مردداً:

– الله يخرب بيتك يا فلاش إنت ودى سيكا؟! ، واستدار من جديد ملتفتاً يترك صحن المقهى مطلاً في البعيد جهة مقهى "الشكربالى" يرقب العابرين صوب ناحية محمد على وحارة العدل محدقاً في الراكض في غضب قاصداً مقهى الضاحى ساحباً حسن جنزير من ذراعه كالطفل التائه ودخل عبده فلاش ينادى صالح في حزم مردداً

– هات "يا صلوح" الجوكر الجديد، على قهقهات رواد المقهى من زبائن أول العرب. جرى عبده فلاش في ذيل حسن شحمة الذى صارت عينيه دامعة من أثر الضحك. وتعقب أثره مراقباً خطاه وانفلاته من وسط الجموع عند فرشه عبد الرحيم الفكهانى، سحب نصف البطيخة المكسورة من فوق العربة الخشبية وهوى بها على رأس حسن الذى فر مذعوراً يمسح سيول الماء الأحمر الدانى لصدره مبللاً ملابسه، وعاد ينزوى أسفل الجرامافون متجاهلاً حسن زنجير الذى اختلى بصالح في ركن قصى قريب للنصبة وصار حسن يجتر أسطورة المهندس "فرديناند ديلسبس". صاحب فكرة حفر قناة السويس وتحلق عبدة الفحام وعم حسن عبد الرحيم الفكهانى وشاهين الفطاطرى حول طاولة زنجير الذى صار يؤكد في حكى متواصل:–

:– (آه. ما هوه فرديناند اللى قال كده.. قال لك دى لعنة وهتصيب المدينة عن قريب؟!!

كانوا خلاص انتهوا من حفل الافتتاح. مشت "أوجينيه" وزادت الديون على الخديوى.. وجدى سمع ديلسبس بيحكى للأجانب.. أن بورسعيد. هتشهد حدثين مفزعين.. لإما تغرق. لإما تتحرق؟!!

وعم حسن عبد الرحيم يقول معقباً

- تمام.. تمام.. انا معاك يا زنجير؟!!

ويقطع عم شاهين الحديث قائلاً

-: بس "تنيس" مش هيه "بورسعيد" يا حسن، "الفرما" هيه بورسعيد.

- يا عم شاهين- ما هي بورسعيد. هيه تنيس وجزيرة الفرما وعبدة فلاش يترك كرسيه ويقترب من طاولة جنزير هازئاً، يردد في سخرية ملوحاً بيديه في تعجب،

- (ماحدش يسمع كلامه.. دا راجل مُظراب"؟!!

(والنبي مظراب، وبعدين أيام الخديوى مكانتش بورسعيد بقت بورسعيد، دا ساعتها مكانش فيه إلا "حي الإفرنج" و"أول العرب"؟!!

وسمعت إزيز الطائرات المحلقة يسرى في أذني دانياً من قبل شارع محمد على وأنخفضت الطائرات الحربية تعبر أجواء "أول العرب" قادمة من جهة البحر، حلقت في مستوى مرتفع وبانت تفر قاصدة ثكنات المناخ صوب ك ٥٦ الردارية.

° ° °

وظهر الريس حسن البرشة كبير مُعلمي "الرشمة" وقد مشى قاصداً الحوض الرئيسي رقم واحد- تحلق ينظر "للمواعين" الفارغة مستنداً على الأزق الخالي المواجه لورش الخراطة، وصاح ينادي على صبيه خالد الأهتم،

-: ياد يا خالد. إنت آله يا خالد يا ابن الجزمة كانت الشمس قد انتصفت السماء الصافية، فصار يهرش شعره محدقاً للمركب الكبير- "المعاون خطير" المرفوع فوق الأزق الأوسط في انتظار طلاءة، سرح وقف تائهاً يجتر ماضيه العريق، و٤٩ سنة خبرة في شركة الشحن والتفريغ، ريس على على ٣٠٠ عامل

وفنى ومهنى، بدأ العمل بالوراثة أبا عن جد.. دخل الورشة بالجزيرة الخامسة سنة ١٩٠٣-وقتها كان صبيا فى العاشرة جاء به أبوه بعد أن أوصى به جدة الريس إبراهيم حمودة البرشة فاستقبله الريس متولى الكومندان السابق فى الجزيرة الخامسة وعلمه المهنة بحرفية ومهارة، ١٥ يوماً وكان حسن البرشة قد أتقن. فنون الصنعة- تقشير الرشمة من على ظهور ومؤخرات المراكب. ثم البدء فى لحام الأماكن المثقوبة. لنقل الماعون بعد ذلك إلى أحد الأرصفة الفارغة لرفعه على أذق أعلى وأكبر حجماً لإعداده للطلاء. بدءً من طبقة السلائون التى تفترش المركب بداية من قعره ومروراً بأجنابه وظهره ومؤخرته التى تم تلقيطهم بطبقات كثيفة من الجمالكة والقار، ليعد المركب بعد ذلك للطلاء فى طبقة أخيرة من البوية اللاكيه حسبما أتفق، عاد ينادى صبيه خالد الأهتم. مركزاً اهتمامه على إعطاء الأوامر لساعديه من الفنين والعمال المتحلقين حوله يرددن فى خنوع،

- يا ريس حسن- ميعاد المعاون فى التسليم آخر الأسبوع وحضرتك لسه مقلتش هنبدأ إزاى وعاد يزوغ ببصره بعيداً باحثاً عن خالد الأهتم صائحاً فى مساعديه.

أمال الواد مجاش النهاردة يا عنتر

ويرد عنتر الكيال الذى ظهر مشغولاً يدفس قدمه الأيمن فى الحذاء البلاستيك الواصلة رقبته حتى ركبته، وخرج عنتر الكيال يضرب الماء المالح بقدمه اليسرى بعد ما تكون فى عدة حُفر عميقة قريبة من أدنى السير الأيمن للأذق"

لف حسن ودار يرمى بعقب سيجارته الدانهيل داخل الماء مشى جهة الرصيف المخصص للمواعين الكبيرة المعدة الرفع. فظهرت العفريتة الزرقاء وقد

إلتحم نصفها الأسفل بمؤخرته الغليظة الدانية جهة أفخاذه. ليرى جمع العمال وقد راحوا في ضحكات مكتومة محدقين لأفروله يرقبونه من خلف وقد اقترب من مؤخرة "معاون خطير، ليضرب يده في ظهر الكابينة الخالية بعد ما قفز لأعلى صاعداً من الخلف. وانسحب اللنش في يده كفرخ البط المذعور وقت أن قام عماله بدفع الونش اليدوى أسفل الرفاس"

ونادى من جديد وصاح في عماله يسأل عن خالد الصبى.

وقتما دخل إلى الحوض عبده فلاش الذى سار بعنجهية يتخطى وقفته مردداً: – (فرحى النهاردة يا ريس وانت أول المعازيم.. وتجاهله البرشة وصار ينادى من جديد: – ياد يا خالد ياابن الجزمة؟! (ياد ذق الونش من ورا أه يا ولاد الزنى يا صيّع.. عبدة يلتفت يجول ببصره حول الرصيف الثالث باحثاً عن خالد الذى لم يحضر إلى العمل اليوم لسبب غير معلوم.. يقترب من الريس حسن رامقاً إياه من خلف متنقلاً بعينية يرمق مساعدى الريس المنهمكون في دفع اللنش من الخلف ضاحكين بسخرية منصتين في دهشة لما يقوله عبدة

– ياد ذُق (يا ادا المعلم جاى تعبان النهاردة، وحسن يلتفت مستديراً للخلف في غضب ينظر عبده فلاش شذراً ليسحب العتلة الحديدية من مرقدها بجانب الرصيف المبلل. قفز وقد أمسك بطرف العتلة يجرى خلف فلاش الذى صار يضحك يرمح جهة مكتب المدير. مردداً في مرح: – إلحقنى ياباشمهندس المعلم جاى هايج علينا النهاردة؟!!

– وعاد البرشة ينادى على خالد. والعمال يضحكون بهمس خائفين بطشة مراقبين خطى عبده فلاش الذى عاد بهدوء خلف المعلم ليقفز داخل الكابينة وقد صار يصيح في هياج مداعباً الريس حسن مردداً في أجواء الجزيرة وعلى الملأ. وصوب مساعديه.

- سيبكو منه- (صاحبك مظراب يا عنتر؟!!)

إضرب ياد العتلة فى الرفاس

وعنتر تطيش من يده العتلة لتصطدم بمؤخرة الريس حسن الذى هاج وماج. وصار يشخر ويسب الدين والملة رامياً بسكينة المعجون على الأرض جالساً على طرف سير الأذق دافساً البلمة فوق شعرة متأملاً صفحة الماء السائر فى تؤدة مقترباً من الأرصفة والأحواض.. ودنا عبدة مداعباً إياه- مالك النهاردة يا ملك؟

- سبنى دلوقتى يا فلاش.. إبعد عنى ياابن الوسخة

- يا معلم خالد مجاش النهاردة أخته عيانة...

ضحك فى وجهه وصارت ملامحه اكثر بشاشة. أشعل سيجارة الدانهيل - ودنا وقد تمددت أصابعه اليمنى- سحب عبدة من كفه الأيسر فى حنو ليجلس بجانبه خاطباً ودة قائلاً فى هدوء وتروى

- ياد يا ابن المتناكة.. (لما أكون جاى الصبح مقريف إبعد عنى)

- سلامتك يا "كومندان"- وبدأ يربت على كتفه فى حنو.. المهم يا كومندان- أنا مستنيك النهاردة فى الفرح يا كبير- وإنت عارف بقى).

- يعنى دى الأخيرة يا فلاش.

- يارب ياكومندان- ما أنت عارف. (كان لازم أجيب واحدة طيبة تساعد أمى فى شغل البيت.. ما انت عارف- البيت فاضى علينا من يوم ما مات أبويا يا معلم حسن؟!!

مبروك يا فلاش- وهجيلك طبعاً يا عرص- وهشبعك بعبابيص؟!!

ونهض عبده فلاش يسير بعنجهية صوب مكتب المدير متخطياً الأرصفة والأحواض صائحاً فى سرور.

- النهاردة فرحى يا حوّش.. (النهاردة فرح عمكم فلاش يا أوباش... وكل حناكيش الجزيرة معزومين فى صالة مكسيم..

- وسمعتهم يرددون فى رجاءٍ مصحوباً بمرح

- يارب تكون الأخيرة يا فلاش،

- (الحق ياااد يا فلاش. "بن جوريون" هيضرب لك مركب التفاح؟!! وينطلق الضراط خارجاً من أفواه عمال الجزيرة الواقفين فى الممر الطويل المؤدى لمدخل الإدارة (كس أم بن جوريون الكبير؟!!

مصطفى البرنس يدخل على فى بار "إسبلندد" أزاح حاجز البارافان واتجه ناحية طاولتى ينظرنى فى غيظ واستفزاز- رمقته فى حذر متابعاً إياه وهو يسير جهة البار الرخام منادياً على المناويشى النادل الذى رمقنى فى ذكاء وتوجه ناحية طاولته الأخيرة المنزوية بالركن الأيمن فى آخر صالة اسبلندد.

- تشرب إيه يا مصطفى باشا،

سأله المناويشى وهو واقف شبه منحنى أمام الطاولة

- إسمى البرنس مصطفى يا حيوان، (يظهر إنتومش عارفين بتتعاملوا مع مين يا كلاب؟!!

وسمعته فتركت المظروف السميك من يدى واضعاً إياه على الطقطوقة الزان الصغيرة ناهضاً فى غضب أمشى باتجاه طاولة مصطفى البرنس ليصيح فى المناويشى النادل مستعطفاً إياه يرجونى بألا أتدخل عدت أجلس على ترابيزتى وصرت أتحدث فى صوت عال قاصداً استفزازه عن بُعد، استدرت برأسى جهة مجلسه وصرت أقول للمناويشى. وعينى تنظر البرنس فى تهكم وسخرية راغباً فى مضايقته والاشتباك معه،

:– مش تشوف يامنشنش الباش أغا مصطفى يشرب إيه؟!!–، (لا مؤاخذة يا برنس أصل الناشيرى ما يعرفش إنك جاى م الإسكندرية مُجهد؟!! ربنا يكون فى العون يا برنس، كنت قد تأكدت من تلك العلاقة التى صارت تربط بين مصطفى البرنس و"ماريا"، فهما يتقابلان إسبوعياً فى شقته فى "جليم"– وأبو حجة أكد لى بالأمس أن مصطفى بينط عليها؟!! ومش لواحده. وياريتك ما تظلمش "ماريا" يا فلاش؟!! (حاول تعرف من محمود). محمود هيحكيلك ظروفها كلها.. "ماريا" ظروفها صعبة. وتعتبر عايشة لواحدها يا فلاش؟!!

– وأنا أرقب الباب الخارجى "لإسبلندد" فى إنتظار دخول محمود طلخان، تجاهلت مصطفى البرنس الذى لم يُعقب على تلميحاتى الصريحة. بل لم يلتفت أصلاً، طلبت بيرة "ستلا" مثلجة بعدتنا ولى لكايذر الروز بيف الساخن الذى أحضره لى المناويشى من محلات "سان جورج" فى شارع البازار وعدت أتجاهل طاولة البرنس الذى صار يشرب "الجوون ووكر فى نهم" هابطاً برأسه فى قرصه الطاولة الرخامية، إستدار بكرسيه يجلس مطلاً للحائط الأخير وقد صار ظهره ف وجهى. عُدت أفتح المظروف من جديد. قارئاً سطور الرسالة الجديدة الذى أرسلها لى حمام عبد المجيد من الإسكندرية؟!!

– [من حمام عبد المجيد إلى صديق عمرى عبدة فلاش.

تحية طيبة وبعد

فى الأول أنا بهنيك على صديقتك "ماريا" الجميلة اللى إنت بعت لى صورتها. (على فكرة "ماريا" شبه بطلة فيلم "أكبر سيرك فى العالم"؟!! بتاع سيسيل دى مى– على فاكره يا فلاش؟!! الفيلم اللى شوفناه من أربع سنين فى سينما "ماجستيك" أنا وإنت وعم حسن زنجير– بعد الثورة بيومين؟!!

المهم يا فلاش إنت واحشنى جداً.. ووحشنى حفلات نص الليل فى سينما "ريو" و"ريالتو" و"الحرية" "وكوزموغراف".. [عبده- ياريتك تفكر فى موضوع السفر كويس.. عمك قال لى إنه هيبعت لك دعوة عشان تسافر له إيطاليا؟!!

المهم يا عبدة- عايز أعرفك إن السيد الغندور فتح محل جديد للأسماك فى بحرى.. ووصانى أبلغك إنه محتاجك وياه ضرورى لإنه مش هيلاقى "سلاطيرى" أحسن منك؟!! وأنا بلغته إنك أهم حد فى الدنيا بيجيد طهى الأسماك البحرية وهو عايز يمشّى المحل- كابوريا وجمبرى وجاندوفلى ومُحار- أو سيبيا ذى ما بتقولوا عليها عندكم فى بورسعيد.

المهم يا عبدة- أنا وصلنى خطاب من عم فلاش الكبير؟!! الخطاب بتاريخ قديم- يظهر إنه إتأخر فى البوستة لإنه بتاريخ ٢٣ يوليو؟!!

المهم يا عبدة.. [فلاش الكبير ساب مرسيليا وسافر صقليه مع صديقته الإيطالية "اورنيلا" عمك فلاش بيحب التفاح والسيما زيك يا عبدة؟!!

بّعت لى صور فوتوغرافيا أبيض X أسود.

لـ ٣ مخرجين طاليان إنت بتحبهم- (فيتوريودى سيكا وفيسكونتى وفيللينى؟!!

-عبده يا فلاش يا ريت أشوفك فى إسكندرية فى أقرب فرصة- الإسكندرية كلها بتسلم عليك من "عامود السوارى" و"العصافرة" وكامب شيزار" لحد "العجمى" و"جليم"... عبده (نفسى تيجى تحضر معايا العرض الأول لفيلم "نهر بلا عودة" لوليم هولدن ومارلين مونرو- عبده يا فلاش- الفيلم هيُعرض من بكرة فى سينما مترو.. أنا بحب مارلين مونرو أوى يا فلاش زى ما إنت بتحب "جوليتامازينا" ومارشيللو ماسترويانى؟!!

عبده يا فلاش أنا اشتريت كاميرا سينمائية أنتيكة صنعها إيزنشتاين بنفسه؟! !- وأحب أعرفك إنى لقيت صورة جديدة، "لألفريد هيتشكوك"؟! الصورة كانت فى مجلة الكواكب. واللقطة جايباه وهوه واقف خلف الكاميرا وسط جندول طويل ماشى فى نهر فينسيا؟!!

– عبده- أنا حضرت ليك غرفة بسرير لوحدك وياريت أشوفك قُريّب؟!!

أغلقت المظروف وصرت سارحاً فى ما ذكرة حمام عبد المجيد عن عمى؟!! —وتعجبت لغامراته التى لا تنتهى وتلك الأسفار العديدة التى صارت نتاجاً طبيعياً لمثابرته الدائمة فى تحقيق كافة أحلامه. بل خيالاته التى دائماً ما تتحول إلى حقيقة، نظرت الطاولة البعيدة فى آخر البار- كان مصطفى البرنس قد أفرغ زجاجة الويسكى فى جوفه فصار ثملاً يهزى فى همس بين مطأطئاً رأسه التى دنت من مسطح الطاولة الرخامى لتنكفأ بجبينه متدلية بين كفيه.

° ° °

"إيدن" يشير إلى أنه سوف يطلب من رئاسة الأركان إعادة دراسة خطة الغزو؟!! لأن الأصدقاء الفرنسيين يرون أن يكون المجهود الرئيسى لعملياتهم العسكرية المشتركة موجهاً إلى بورسعيد؟!! وليس الإسكندرية- ما دام هدفنا هو قناة السويس؟!! مظروف بريدى على صينية صغيرة من النحاس المطروق تأتى به مدام ماريكا لتقدمه إلى "ماريا" التى انتصبت فى تراسينة فندق "أكرى" المطلة على القناة وصارت ترمق حركة المراكب جهة باب ١٠ وقت أن إنطلقت المرشدون القبارصة فى غضب مندفعين صوب مدخل قسم شرطة الميناء مقدمين احتجاجاتهم لدى القنصل البريطانى الذى تصادف مرور موكبه الأتى من مقر هيئة قناة السويس مخترقاً شارع فلطسين؟!!

وسمعت إبراهيم أبو حجة يصيح فى وجه المهندس عزت عادل مطالباً إياه بالتريس فى تنفيذ قرارات التأميم- وعزت عادل يعده بنظر القيادة السياسية فى القرار الذى وجب تنفيذ اليوم ١٤ سبتمبر.. إبراهيم أبو حجة يزعق فى غضب

– يا كومندان- حرام عليكو- كده كل المرشدين هسيبوا البلد- ودول مالهمش علاقة لا بالإنجليز والفرنساو ولا حتى الكلاب بتوع إسرائيل.. ميمى أبو الكلوح وسيد البصراطى والعربى البراموانى يقودون المظاهرات المندفعة خلف موكب القنصل البريطانى الذى اندفعت سيارته من بين الحشود لتلزم الطريق الأيمن بشارع الجمهورية قاصدة فيلته الواقعة قُرب ميناء الصيد القديم.. مدام ماريكا تجلس. على كرسيها القطيفة خلف البارافان الأرابيسك سحبت حقيبتها الصغيرة من داخل الشيفونير الماهوجنى العتيق وصارت تقلب فى صورها القديمة التى تجمعها بجدها "بابا أندريوس" فى دلفى سنة ١٩٠٣م ماريكا وضعت ساقا فوق ساق فانكشفت أفخاذها الشقراء وبانت عارية من أسفل الجوب البلاسيه الكاكاوى الضيق، مسحت على شعرها الأصفر وصارت تطل فى المرآه المواجهة. تعدل هندامها ناظرة لخصلات شعرها القصير ترمق قصة الكارية البديعة التىتزيين جبينها بحاجبيها. ولاحت بلوزتها الكاكاوى القطنية المطعمة بحبات العاج الصغيرة المنثورة أعلى صدرها الكبير تضوى وتزداد بريقاً مع إنعكاس الضوء الآتى من الباب الرئيسى المفتوح مرشوقاً فى بقع ضوئية على سطح الكولة السيمون،

وتنجح مساعى شركة قناة السويس فى إقناع الحكومة الفرنسية بإعطاء الأولوية للسيطرة على منطقة القناة وإلا فإن مرافق القناة قد تتعرض للتخريب فى اللحظة التى يبدأ فيها الغزو من اتجاه الإسكندرية؟!!

* * *

ماريا تدعونى لتناول الكاساتا فى ريستوران "جيانولا السويسرى"..
جلست فى مواجهتى تبكى متأثرة بتلك الإشاعات التى يروجها إبراهيم أبو حجة عن علاقاتها المتعددة بالملاحين القبارصة. وسفرها المتكرر إلى الإسكندرية والإقامة الشبه دائمة فى شقة مصطفى البرنس الجديدة فى "جليم"،

حمام عبد المجيد يهاتفنى من دمياط ويؤكد لى حضوره بعد نصف ساعة على أكثر تقدير خاصة وإنهم قد سلكوا الطريق الجديد المتفرع من "عزبة البرج" -بعد أن سُد الطريق العمومى الواصل بين دمياط وبورسعيد نتيجة اندفاع الأمواج الصاخبة وانفلاتها من بين الصخور والسواتر دانياً للأسفلت، ماريا تبكى وتفكر فى السفر. تُخرج صورها القديمة الملتقطة مع عبدة فلاش ومحمود طلخان. تطل وتحدق- تنظرها فى أسى وقد تركت الكومودينو مفتوح. ومشت بغرفة خالها تتجول مطلة لملابسها المعلقة فى الدولاب الزان القديم، سحبت حقيبتها الكبيرة من فوق الدولاب الصغير الموجود بغرفة المسافرين. وأنصتت فى حزن بين دانية من التراسينة الخشبية المطلة على الميناء ترقب حركة السفن التى لا تهدأ صوب البوغاز ووسط المر الملاحى وقرب باب ١٠ المزدحم بحركة المرشدون الأجانب الواقفون على الأرصفة فى انتظار سفن الركاب اليونانية التى ستقلهم إلى بلادهم بعد دقائق، محمود طلخان ينتظر عبده فلاش أمام مخبز "سان جورج" ظهر قلقاً . مشدوهاً يقضم أظافره فى توتر واقفاً على الرصيف البازلتى بشارع البازار. عبدة فلاش ينزل من التاكسى الأوبل مودعاً حسن البابور الذى جلس بجانب السائق وقد ارتدى البالطو الإمبريال الأسود وعَدل من وضع البلمة على شعره المنكوش مخاطباً عبدة فى ثقة- مؤكداً موعد الليلة فى صالة "مكسيم"

- خلاص يا عبدة- (هجيلك النهاردة الفرح. (بس إعمل حسابى فى الويسكى؟!!) وتنطلق السيارة "الأوبل"- أجره القنال- فرت على الجسر الأسفلتى فى شارع "أوجينية" قاصدة مدخل "الجمهورية" من جهة شارع "رمسيس"، فلاش يمشى فى ثقة دانياً من مخبز "سان جورج" وقد ظهر المعلم مرقص بجلبابه الكتان الأبيض ينادى على محمود الواقف بعيداً عن الرصيف فى انتظار قدوم عبده، عبده فلاش يدخل شارع البازار من جهة "سوق البلدية"، أرى انسحاب معظم المرشدين الأجانب من عملهم وخاصة القبارصة واللجريج وتحدث الفاجأة التى لم تكن متوقعة على الإطلاق- ولم يتوقف سير الملاحة فى القناة وإنما استمر على حاله الطبيعى وكأنه لم يحدث شيء. فقد كانت مصر مستعدة لهذا الاحتمال وجاهزه له.. فقد اخطرنى الريس حسن زنجير بأن الإدارة المصرية قد تمكنت خلال الأسابيع السابقة من استعادة عدد من ضباط البحرية المصرية ودربتهم بسرعة على عملية الإرشاد كما استقدمت عدداً من الضباط البحريين وتعاقدت معهم بصفة شخصية من إيطاليا وإسبانيا؟!!، مارياً تقف وحيدة على رصيف باب ١٢. نادت على خالها مستر دولار الذى ركض صوب رصيف عمارة "الباب الحديد". وبات يزعق ويصيح فى لهفة منادياً على مصطفى البرنس الذى قفز فى المركب الفيبرجلاس المتجه لشركة الرباط وأنوار السفن، عم مرقص ميخائيل يقف بمدخل المخبز وقد أمسك بالمنشة المصنوعة من ريش الطاووس واستدار يهش الذباب الواقف على "فتارين" المانجا أوونه- نظر للشوارع فى صمت يرقب حركة العابرين فى ازدحام شارع "سعد زغلول" متجهين لمدخل الميناء عبر المشى الجانبى الأيسر المؤدى لقسم شرطة الميناء، صار يصيح فى جنون منادياً على محمود طلخان الذى

سحب فلاش من يده ودنوا سوياً يطرقون باب المدخل الرئيس لمخبز سان جورج، محمود يحتضن العم مرقص ميخائيل ويبكى متسائلاً.

- واخرتها إيه يا مقدس مرقص؟

- هنسافر يا ابني- بلاد الله واسعه. (وأنا قلقان)؟!!

الأوضاع في مصر مطمنش؟!!

عبده فلاش يحدق في البرواز القديم المعلق على الحائط خلف المعلم مرقص الخباز، يقرأ الكلمات المكتوبة بالجريجى أسفل الصورة الأبيض X اسود الكبيرة.. ويرقب ملامح المقدس مرقص داخل الصورة وقد انتصب واقفاً بجانب القنصل اليونانى ممسكاً بالمنشة مرتديا جلبابه الكتان الأبيض المطرز بالستان المشغول في دوائر وحلقات فوق الصدر- الصورة موضوعه فى برواز ذهبى عريض وعمال مخبز سان جورج متحلقين حول القنصل اليونانى جهة اليمين ليظهر طربوش المقدس مرقص بذره الأحمر منتفخاً فوق رأسه الصغيرة.. ولاحت عيونه السوداء الصغيرة بتبرق صوب وجه الرائى المدقق فى تاريخ الالتقاط وتحت الأحذية المتدلية من أسفل البرواز قرأ فلاش التاريخ القديم.

مخبز سان جورج للمخبوزات الأفرنجى. ١٩٠٣م (بحضور سعادة القنصل. "بابا نيكولاى فاوانيدس" أفتتح مخبز.....؟!!

عبدة فلاش يحدق للصورة فى مشهد وداع وقد ظهرت الدموع تسيل على وجنتيه مقتربة من فمه المفتوح فى بله، خرجنا لشارع سعد زغلول وقصدنا فرشه "أبو رواى" بائع الصحف. طللنا في عناوين الأوبزرفر والأهرام.

وجاءت العناوين تحمل الكثير من الأبعاد المقلقة... خطتان جاهزتان لغزو مصر؟!

عرضت لجنة التخطيط الفرنسية الإسرائيلية خطة كاملة وافق عليها "بن جوريون" و"موليه" لهجوم ضد مصر يبدأ بعملية خداع على الجبهة الأردنية لمجرد تحويل الأنظار وفيما الكل منشغل بالأردن ينطلق الهجوم على مصر وتكون البداية فيه ضربة جويه ضد سلاح الطيران المصرى؟!!

مشينا سوياً نعبر ميدان المنشية متجهان إلى قسم شرطة الميناء- صوب مدخل معدية بور فؤاد قُرب المر الملاحى- نرقب الصيادين العجائز وقد رموا بالصبر فى سنانير الشعر الحريرى الطويل الغارق لابداً فى قعر القناة والمجرى المائى المالح السائر بتؤدة تحت شعاع الشمس الحارقة. راقبنا طيور النورس والبشاروش التى انتفضت مذعورة تاركة الأرصفة الخرسانية المتعددة المتراصة بطول الضفة الشرقية.. فرت الطيور فى صمت. حلقت عالياً بالألاف وطارت فى الفضاءات العالية القريبة من الخيمة السماوية الذائبة فى الرماد تضرب بمناقيرها الرفيعة لحمة ركام السحب الكثيفة السائرة فى بطء.

ديسمبر ٢٠٠٥

طول عمرك وأنت ترى نفسك جيداً. تعلم قدراتك. ولكن كثيراً ما ترى هذه النفس عدة أنفس بعشرات الأرواح والأمزجة، هوائى بطبعك. تكره الرتابة وتزرع الأحلام...، كأنك مُخرج... وأنت فعلاً مُخرج.. سينمائى. ورغم انك قد تخرجت من معهد السينما منذ ستة عشر عاماً من قسم الإخراج إلا إنك لم تُخرج فيلما واحدا يوحد ربنا.. ولكنك كثيراً ما تتذكره؟!!. تذكره بكل خير معدداً صفاته الحسنة كان عظيماً. صلباً. فتوه. جاسر وضحى بالكثير، مازلت تتذكر خطاه مجتراً بطولاته. تاريخه السارى فى روحك يرسم خطاك. يصبغ دمك. يمتزج به. يطبع إنطباعاتك وحكمك على الأشياء؟!!. فى كل موقف وحدث. عند الحزن ووقت البكاء ووقت الضحك والعبوس بل والعبث كذلك.. ورغم كل هذا إلا أنك مازلت متأكدا بأنك أنت؟!! أنت.. إنت محمود.. محمود بس. محمود محمود طلخان. إبن الريس محمود طلخان الكبير "بتاع" المقاومة الشعبية.. "المستبقى"؟!! فى بورسعيد من ١٩٥٦م ولكنك لم تدرك حتى. الآن. هل كان لسوء حظك. أو لحُسنه إنك مازلت تنتمى إليه. إلى الأب. ابيك يا محمود... محمود محمود طلخان؟!!

° ° °

على أثر صوت المنادى المفُلس "بتاع" موقف العربات البيجو. والقومسيونجي أحياناً. العربى هيصة". والذى رأيته وسمعته ينادى بلهجة بورسعيدية أصيلة.

:- مصر. مصر. مصر واحد. واحد مصر يا بشر. تساهيلك على عبادك الحيارى يا أبو خيمة زرقة.. ينعل دين أم "المرج" واللى ودانا هناك؟!!

تتلفت فتلتفت تسمع فتشاهد ما يدور مع "العربى" بجانب كُشك الكارته الألمونيوم وركض ثلاث بنات بصحبة الأم بعباية سوداء وصندل لميع وطرحة جرسيه وآب عجوز يجر فى أقدام مرتخية. ويقترب "هيصه" حتى يصبح فى مواجهته.

:- مصر يا حاج.. اربعه.. يُعرض الرجل صامتاً ويواصل المشى فتجرى الزوجة وتسحبه من يده بعنف- يا راجل إركب بقى عذ بتنام الصبح حرام عليك. هنركب المرج وناخد المترو لشبرا، تظهر علامات الاشمئزاز والقرف على وجه الأب ذو الوجه الخمرى والذقن النابت بشعيرات بيضاء. تجره من قميصه " الفان هاوزن" الأزرق وتدفعه بعنف داخل الكرسى الأخير. ترفع الكرسى الأوسط المتحرك وتأمر البنت الصغرى بالجلوس بجانب أبيها ويعود المقعد الأيمن لموقعه فتدخل الابنة الكبرى أم البنطلون الاستريتش الأسود والبلوزة اللاميه التركواز. تنكفئ فتظهر شراشف الكلوت الأسود الطافح أعلى استك البنطلون الهابط لأدنى السُرة تقصد المقعد الأول فى يسار الكراسى الوسطى للبيجو السوداء الـ ٥٠٤ تفرد سيقانها فى الدواسة. فتزيحها الأم بعيداً فى زهق وتجلس بجانبها وقد أمسكت بكيس بلاستيكى كبير مملوء بالملابس "البالة". وتنزلق دستة الصابون اللوكس البامبه والأبيض فتضرب أصابعها الطويلة البيضاء فى الدواسة المشمع وتعود وقد كومت الكيس واغلقت فوهته واحكمت

وضعه فوق فخذيها وصارت تنفث وقد زاد وجهها المستدير إحمراراً وانسلت الطرحة هابطة من فوق رأسها وبانت خصلاتها الصهباء الطويلة تتدلى فوق العيون الزرق المتطلعة بتربص لقفا السائق المتعجل دخل الراكب الخامس متثائباً فجلس بجانب الأم واغلق الباب بقوة واندفع اثنان من المحجبات فى الكرسى الأمامى وهم السائق يغلق بابه بتروى فتتلامس الأجساد الباردة غائصه فى دفء التكييف المفتوح مع إغلاق النوافذ الزجاجية للأبواب كافة، خرج عن الطوبان وقصد طريق الرسوة فاستدرت تحمل حقيبتك وتمشى بعيداً متعمداً البعد عن كافة السائقين الذى يعرفونك جيداً. متحاشيا التحدث معهم وتتذكر وقت أن هممت قاصداً الانصراف من الناحية الأخرى. تلك النظرات الملتصقة المحدقة لجسدك وهندامك ومظهرك وما ترتديه من ملابس. تلك الفحوصات المقصودة والخبيثة من "محسن الأقرع". و"محمد التوارجى" و"محسن زعتر" زملاء شقيقك الأكبر على فى مهنة القيادة... تودع القبلات الزائفة والأحضان الباردة التى تتكرر فى افتعال كل مرة تعود فيها لبلدتك لتزور أهلك وتلتقى بأصحاب الطفولة.. تسأل عن ابيك؟!!

فتقابل من صاروا تجاراً يسافرون إلى تركيا وقبرص وهونج كونج وتايوان والصين. أصحابك فى الطفولة.. إيهاب الضاحى إبن العربى ضاحى سلطان رشوان الذى صار عضواً بمجلس الشعب.. تقف فى الخلاء تنظر للعربات السائرة فوق الأسفلت وتنتظر سيارة خالية تقلك إلى بيت أختك "هالة". وتتوه وقت الغروب وهياج رياح ديسمبر وشرفات مغلقة إلا من تراسينة واحدة بمشربية أرابيسك مطعمة بصدف وعنقود عنب أخضر فاتح معلق أسفل فانوس سهارى فى بلكونات مساكن مبارك. وتدمع عيناك فجأة. وتشعر بوحشه ويعود طيف الرجل الذى سافر منذ دقائق. تتذكر أبوك. نظراته. هزيمته إعراضه.

جسارته. خنوعه؟!!. علاقته بأبناءه وعلاقته الحميمة بك أنت دوناً عن كل الأشقاء إناث وذكور،... (بتحبنى يا بويا.. بحبك يا محمود، (مش هاتقول لى تانى إنت فقرى واتولدت مع النكسة يا محمود،

-: (لأ يا حبيبى. طب دا أنا هسيب لك انت العباية السودة. والطبنجة الـ ٩ ملى.. والبلمة الأمريكانى. وكل الطواقى الإيطالى

- والميزريا أبا.. مين هياخدها... وطواقى الصوف الشراقى،

-: (على يا محمود. أخوك الكبير يا حبيبى.. يلا روح ذاكر. أقرأ كتير يا محمود.. واسمع الراديو. بس نام بدرى،

:- وانت رايح فين يا ابا..؟!!

- (انا مسافر يا محمود. مسافر. بس متخافش. هجيلك.. اد كده بتحبنى يا ابنى.

- (إنت روحى يا بابا...

مشيت بعيداً عن موقع مطعم أخى "على" الشقيق الأكبر. وفرت عربة هونداى نورس أبيض فى أزرق وقت أن ناديت

- فاطمة الزهراء يا اسطى؟

تركب بجانب السائق وتتذكر أنه اليوم الثالث والعشرين من ديسمبر ذكرى العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ على بورسعيد التى كانت فصارت وأصبحت... آلاف العمارات الجديدة تتراص على جانبى الطريق. وتأخذ من السائق فكه ١٠٠ جنيه. وترى طيف سيد ابو شامة من خلف زجاج البربريز فتحسبه حُلم. وتتأكد من ملامحه مع التفافه حول العربة قاصداً بابك تهبط بزجاج الباب الأمامى وتمد يدك بالسلام ويبكى الرجل بصدق ككل مرة.. ابن العزيز الغالى حمد الله على السلامة يا سعادة الباشا؟!! تخجل وتدس العشرة جنيهات

الورقية فى كفه فيقبض عليها أبو شامة فى خجل متعمداً عدم مشاهدة السائق لما يدور فى فرجة باب الهونداى الوارب الذى انفتح فى ثوان بأصابعك انت التى وضعت علبة مصقولة تحمل أقراص الفيتامين المقوى العام. وتنخفض رأسك رويداً رويداً وقت أن صارت نظراتك تحدق لظهر أبو شامة الكثيب وجسده الهزيل وركبتيه التى ترتعش.. وتطير الهواندى فوق الحصى وتتدلى البالونات فى السماء الرمادية قرب مصانع "قوطة" وهيئة الاستثمار والتقسيمات القديمة لمصانع "أديب جبرة" بأسوارها العالية. السهام النارية تتوهج فى الأفق وازيز الطائرات يتعالى فيخفت. ويسرى الهواء بالغبار مع قرقعات الرعد والبرق قُرب ركام السحب التى تعتلى ضفاف البحيرة وثكنات قوات الأمن المركزى قبل "القابوطى" وعساكر بزى اسود تلبد خلف أسوار واطئة.. تتذكر عمك "حسن جنزير" أبو سيد أبو شامة. وترمى بحقيبتك فجأة فى المقعد الخلفى فينظر لك السائق بتعجب. وقت أن علا صوتك منبهاً إياه

-: (ياريت تمشى براحتك عشان المكان مار وحتهوش قبل كده، ويقول السائق العيوق

– آه فاطمة الزهراء. هو الجنتل ساكن هناك جديد، ويتدلى عقد الفل من عنقه الأسمر وتظهر هويته مع لهجته الحادة التى تؤكد أصوله الصعيدية فى لكنه صار لها وقع مريح على سمعك وقت أن إلتفت يمينا فاستدارا كتفيه العريضين فى انسجام.

– هوه حضرتك بورسعيدى. ولا من كايرو.

– لأ. بورسعيدى. والجد والأب صعايدة من سوهاج م الخوارف. "بيت حماد"

– (واضح يـا جنتل)، ولك زمان مجتش بورسعيـ يـ يد، وتتمدد الأحرف على لسانه فتنفرج شفتاه ويتسع فمه فتظهر هوه الزور ببلعومه ليؤكد،

– يعنى أدخل من البحيرة يا ابن الحلال. ولا أُخش من الزهور على طووووول،

:– كيفما ترى. اختر ما يناسبك بتُ أحدق بدهشة واستغراب. عمارات جديدة عالية واقفة على التشطيب. مساكن صفراء مهجورة بمبان ستة أدوار وسبعة وثمانية وعشرة وخمسة وأطباق هوائية موضوعة بالآلاف على أسطح بنايات وعمارات خالية. الطائرات الهيلوكوبتر تسير فوقنا والسماء واطئة وزراقها عائم فى بياض خفيف لتدنو السحب الضبابية بغيوم فيقول السائق وقد حدق فى مرآته وبات ينظر لى فى اهتمام، أصل النهاردة عيد بورسعيد لقومى). كل سنة وسعادتك طيب، وتتدلى البراشوتات بعيداً قرب مراسى "القابوطى" وجنود المظلات بالعشرات يقفزون من الأعلى فيهطبون على الأرض المالحة. انظر فى ساعتى بعد السابعة والدنيا ليل بعد العشاء ويُشدنى منظر الوحشة فى الخلاء البعيد فأخرج برأسى من زجاج مبلل بالشبورة الكثيفة. واسأل السائق الذى انهمك بوضع شريط كلاسيكى فى كاسيت السيارة. عن أشياء عديدة مختلفة ومتباينة وتتعدد إجابات الرجل دون أدنى اهتمام ظاهر من ناحيتى. اكتفيت بهز رأسى لأسفل عند إضافة معلومة جديدة أو طرق موضوعات أخرى تاركاً نفسى منساقاً تشدنى جوانياتى. روحى ونفسى وحواسى وذاكرتى. بل وحتى جسدى. كثرت الأسئلة من نفسى إلى نفسى وغابت كافة الإجابات وانهمك ظاهرى فى الظلل فى البعيد– عند مساكن القابوطى "ومنزل قديم لأخى الأكبر كان راقداً هناك؟!! وليال عديدة نمت فيها سعيداً فرحاً قريباً من مقام الشيخ "القابوطى" الذى لا أعرفه إلا بأنوار مقامه الخضراء الدانية من صحن

الخلوة الصغيرة التى تسمى مسجداً، وانتشلنى من ذكرياتى واختلاط أطيافى الحسية وأمكنتى القديمة بالصوت الرتيب الدافع بوشيش الماكينة ومحرك السيارة التى تسير بمهل، إنت عارف يا بيه كل حاجة بتعملها الحكومة دلوقت جديدة أو قديمة تخليك تشك فيهم وفى نفسك وف الأيام. يعنى إيه مثلاً، (عساكر بمظلات تنزل دلوقت على الأرض)؟!!. دى الدنيا ضلمة كُحل يا بيه والأرض مالحة وإيه علاقة بتوع السمك فى القابوطى به اللى حاربوا فى٥٦. إنت عارف يا بيه. أنا ليه ٣ ما توفى الحرب ٢ فى ٥٦ والكبير خالص مات فى الثغرة، تجهم وجه السائق وبكى فدارى وجهه وظل فى طريقه المتعرج فصمت ورأيته يتناول منديل ورقى من علبة ورقية مصقولة مرسوم عليها بنطلون كاوبوى أزرق. ولاحت لى امرأة عجوز تتحرك على يمين مسار العربة- قُرب المساكن المنخفضة التكاليف. سحبت بطانية رمادية قديمة ونشرتها على برميل فارغ من الصاج مرمى فى العراء. تذكرت أيام الهجرة فى البصراط والجمالية وطلخا وابى الغائب دوماً. ابى "المُستبقى" فى بورسعيد وأمى المسافرة على الدوام لتتابع تجارة الخضر والفاكهة. المرأة تجُر ساقيها فى الحصى والطين. والمياه المتسخة غاصت فى حفر ممتلئة بالقاذورات على طول مدخل المشروع المنخفض التكاليف. الشوارع خالية إلا من كلاب جربانة تعوى وقت سماع أزيز الطائرات التى حلقت فوق مصنع "برسيل" وقت هطول المطر واستمرت تهطل بغزارة حتى وصلنا لبداية مدخل شارع الإمام عبد الحليم محمود وسط منطقة الزهور قلت للسائق الشارد منذ ركوبى.. وإنت منين أصلاً، أنا مولود فى "العجيرة" فى الدقهلية، بعد البصراط بشوية. لكن أبويا بورسعيدى، أنا ابن "سمير الغصناوى، تعرفه. يمكن لو سألت أبوك أكيد هيعرفه. أبويا إتجوززى ناس كتير غصبن عنه فى الهجرة اتجوز واحدة فلاحة فقرية بنت دين كلب، لا

مؤاخذة يا بيه. أصلى أنا ما بحبش الفلاحين أبداً، اقترب التاكسى من مسجد "الصالح" وصار السائق يردد على مسمعى أسماء المشروعات السكنية الجديدة التى بُنت فى بورسعيد وخاصة فى منطقة الزهور هذه وخلفها قريباً من حى الضواحى وعمارات "بنك الإسكان" التى كانت آخر حدود العمار فى بورسعيد التسعينات. صارت العمارات الخالية ممتدة فى صفوف طويلة واصلة حتى الطرف الأخير من بحيرة المنزلة- أكثر من ٥٠ مشروع وستمائة ألف وحدة سكنية ويزيد. وغالبية الملاك وكذلك المستأجرين من خارج المدينة. والتشطيبات لوكس وسوبر لوكس ومتوسط الدخل ومنخفض التكاليف وإيواءات. توقفت السيارة فجأة فى الطريق فقلت لسائق الهونداى دون مقدمات، بنزين دا يا اسطى ولا إيه، واللهى ما عارف يا بيه. ثوانى لا مؤاخذة يا بيـ يـ يـ يه، دى العربية جديدة يانااااس، مع جلبة الباعة الجائلين وسط أكشاك الخضار والفواكة والحبوب وعلف الماشية وقُرب المشكاوات التى تتدلى فوق أفرش المانجو الهندى و"السنارة" و"الزبدية" و"بيض العجل" و"الألفونس" و"البلدى" و"التيمور" و"الفص" و"البلدى" و"السكرى" والتى تزدان تشكيلاتها الهرمية فوق عربات اليد المركونة تحت الطوبان وسط "حى الزهور" الغائص فى أنوار اللمبات الفلورسنت والكمثرية القلاووظ المعلقة فى الأسلاك البيضاء أدنى شرفات عمارة ٣، ٤ منخفضة التكاليف. نزل السائق غاضباً مستأذناً إياى بالنزول من العربة ومشاركته فى دفعها للأمام حتى محطة البنزين القريبة من مكتب "عنتر" سمسار المفروش. أخرجت الخمسة جنيهات من جيب البنطلون ووضعتها فى كف يده الخشنة وقتما سمعته يردد فى استياء (والله يا ابن الحلال ما عملت بـ جنيه م الصبح" دس الورقة فى جيب السوتير الأزرق "الوتربروف" وطل فى وجهى مطأطئاً رأسه محدقاً فى أسى، (ما تخليك معايا

يا ابن الحلال.. همون واوصلك، لأ بالسلامة انتْ وربنا يصلح حالك، يا عم الدنيا بتشتى وإنت باين عليك مش وش بهدلة يا ابن النااااس، ولا اقول لك، معاك ربنا يا جنتل اعتمد على الله.

انت حُر يا عيوووق،

سحبت الحقيبة من المقعد الخلفى ونظفت الوسخ العالق بأطراف البنطلون فهممت بإخراج منديل ورقى من الهاندباك وقُمت بمسح الحذاء وفررت وقت هطول المطر فى زخات متلاحقة وسط قرقعة ركام السحب وطيران الملابس القديمة المبلولة والمنشورة أعلى أسطح عمارات "الزهور" والتى صارت تهوى مع هبوب الرياح الشتوية التى اخمدت تيارات البرد الكاسحة.

* * *

على ناحية أخرى مواجهة لمسجد "الرازق" وقفت اسأل بائع البرتقال، مساء الفل، أهلاً. مساء الفُل يا ابن الحلاااال (بصُرة ولا بلدى ولا شموتى ياريس). بانت الطاقية الشراقى السوداء الصوفية المبللة مدفوسة فى رأسه الصغير وعظمتا وجنتيه البارزتين وفمه الصغير الموارب بشفايف مصبوغة بلون أحمر متخثر ضارب فى الزراق القابض بلحمه شفته السفلى على فلتر السيجار الكيلوباترا المزنوق بين أسنانه الأمامية الصفراء. سحب نفس آخر ونفث الدخان فى البرد واقترب يكلمنى آهه، ما تلاغينى يا عم. عايز آه ه، ضحكت فاستطالت الحروف وتمددت على لسانه وقت النطق، (شكلك غريب مش كده برضو، آه، بفهلوة ابن سوق حدق الرجل فى هيئتى فزاد صمتى مطلاً بعمق إلى رداءه الأنيق. القميص الكاروهات الأزرق فى لبنى ظاهر فوق الفانلة أم رقبه الصوف السوداء الصاعدة حتى الذقن النابت بشعيرات كثيفة على الصدغ الأيمن المحجوب نصفه خلف ياقه الجاكت الكاوبوى الواقفة منتصبة حول العنق

واصلة حتى منتهى شعر الرأس عند القفا الضامر نسبياً، قال البائع: لا مؤاخذة يا ابن الحلال إنت مين وعايز إيه، (أنا عايز مساكن "فاطمة الزهراء") آه. يا رااجل طب مش تقول كده م الصبح- أمرك غريب ب، بُص يا سيدى، وألتفت وترك فرش البرتقال واضعاً كفه الأيسر على كتفى الأيمن وظهرت امرأة بدينه تقترب من الثلاثين لفت ودارت حول العربة الخشبية والتصقت بثمار البرتقال وصارت تقلب فى الحبات بعنف وغلظة ضربت أصابعها الطويلة فى قعر الرصة الهرمية وبانت مؤخرتها الغليظة المحبوكة تحت العباءة السوداء تتعاظم وتتراجع للخلف وقتما انثنت المرأة للأمام فهبطت بثدييها المتكوران فوق كيمان الخيار الأخضر، واستدار البائع بغتة على سقوط الثمار من أعلى أسفل المسطح الخشبى دانياً إلى الأرضية المبلولة المسلفتة منزوياً بجانب العجلات الخشبية اللابدة بجانب الرصيف وصرخ الرجل ينهرها فتراجعت خطوتين للوراء، أرقب الحاصل وقد راح البائع فى نوبة هياج وغضب لاعنا البيع والشراء وزبائن الفلس فى هذه الليلة الوحلة، يا ست غورى بعيد عنى. مش بايعلك، أنا حر. إنتى مش عاجبك الكيلو بجنية وكمان عايزة تنقى. روحى يا ختى هاتيه م "البازار" بثلاثة ونص. والنبى وبالأدب. إعتمدى على الله يا ختى. يلا ياغندورة، أيوه يا فندى. لا مؤاخذة، بص يا سيدى.. إنت بورسعيدى الأول. آه، حدق من جديد فى ملامحى. مش إنت اللى كُنت بتزُق التاكس من شوية عند عنتر السمسار، آه. (سواقين ولاد زنا. ما عالينا- انت هتمشى من هنا على طووول لآخر الشارع لغاية ما توصل لآخر أطراف البحيرة - يا جدع البحيرة. بحيرة المنزلة عارفها ولا لأ، عارفها. آه ه، وتنك ماشى على طول لغاية مقلب الزبالة الكبير- عند مساكن "الصفا والمروة"، آه، عارفها - وبعد يـ يـ ين تدخل يمين- أول ست عماير وتكسْر شمال. بعدها على

طوووول عمارات فاطمة. (معايا يا ابن الحلال ولا هتلّوش. واللهى باين عليك هتلّوش؟!!

:- لا. (أنا هاخد تاكسى أحسن)، تانى (إنت حر)

° ° °

تركت بائع البرتقال عازماً على المشى على الأقدام حتى وصولى لمساكن "فاطمة". بت استرجع وصفاته ونظراته الفاحصة لهيئتى وملامحى وما ارتديه من ملابس ظلله الحاذق والعميق لوجهى. علامات التساؤل والتشكيك المحيُرة والتى طفت بها نظراته كالسهام تخترق جسدى وتفتش فى أصولى ومدى علاقتى بمكانى والمدينة الذى شهدت ميلادى وطفولتى وصباى. مشيت والحقيبة فى كتفى الأيمن. بردان وأقدامى ترتجف. سرت بعيداً عن الونس متعمداً الالتفات للخلف كل حين ناظراً للضوء البعيد الآتى من عربات البلبلة التى تتوارى من خلفى وأنا المطل لسماء زرقاء غامقة. لاحت عربة خشبية زرقاء منزوية على الطريق الطويل وبدا بائع الفشة والكلاوى والسمين يضرب بالساطور الصغير اللامع فصوص اللحم الأحمر الساخن المرمى بجانب السجق أسفل مصباح الكيروسين العتيق المبهر المتدلى من بطن السقف المشمع الأصفر المفروش على العربة الخشبية الصغيرة ذات العجلتين الراقدة أعلى الربوة الرملية قُرب ضفاف البحيرة. زاد إنهمار المطر فانتابنى شعور بيّن بالنشوة والفرح. نشوة الهارب من قيود المظهر وعيون الغرباء فى مدينتى متحرراً من نظرة السائح التى تلازمنى منذ هجرتى القسرية إلى القاهرة؟!!

ترجلت. وتمهلت فى خطاى فوق أسفلت وحصى مبلل- قُرب ضفاف البحيرة التى كانت يوماً- مراسى للمراكب ولنشات الركاب الذين كانوا يقصدون "المنزلة" و"البصراط" والجمالية... كلب يُجر فى ساقه المبتورة. يركض

بيمناه النحيلة- يطل في ضعف ووهن ظاهران. يحدق في وجه الرائي العازم على الوصول لمساكن "فاطمة الزهراء" مودعا الجلبة والزحام قُرب أرصفة محلات العلافة والزهور والخضروات والفواكة الذائبة في أضواء النيون، الشرفات المفتوحة تتوارى خلف ظهري. تبعث بنور مبهر. تبعث بدفء أسرى. وأنا أواصل السير مطلاً للخراب الراقد على طول المدى. الذى كان يوما ما ضفافا طافيه بالجمال على مدى البصر، جندى بزى ميرى يعدل من هندامه. يضبط سلاحه الميرى مصوباً فوهه السلاح جهة الأشباح في الظلمة. الجندى يتوجه ناحية المعسكر البعيد الرايض عند مدخل مبنى قوات الأمن المركزى بجانب ثكنات قوات حرس الحدود- تراسينة خشبية تُفتح فجأة فى مشهد مباغت. مجنون. حُلمى. التراسينة مصنوعة من الأرابيسك المطعم شبابيكه بصدف. فوق فتحات النوافذ بانت السواتر الحمراء من القرميد الذى يعتليه رقائق الطوب الحرارى المثبت فوق خوابير حديدية مرشوقة داخل المُسلح وفتاة شقراء بشعر مبللول تطل من فتحة صغيرة- تطيل النظر محدقة فى جنبات الشارع الطويل الممتد إلى ما لا نهاية واصلة أبعاده المرئية حتى آخر الضفاف، أتوقف على مقربه وألفُ بجسدى كله ناظراً حولى متحسساً موقعى فى الطريق مطلا لشرفتها. محلقاً أهفو إليها فى توق ناظراً لهيئتها. متابعاً إياها مدققاً فى محلامحها أرقب إلتفاتاتها داخل البلكونة- وأعود للخلف ٢٠ خطوة. لترانى البنت. تنظرنى وحيداً.. وأراها واقفة بمفردها. تفرد شعرها الطويل فى الهواء. تنفضه فى عشق وقد دبت المشط النبيذى العضم فى الخصلات الصهباء. دنت وقد هامت بعيونها تخترق هالات الضوء الخافتة متدلية برقبتها الساحرة. تمدن فمها الصغير النونو وقد برزت الشفايف الحمراء كالنبقة. بلا روج تدلت بأصابعها المبلولة- أخرجت الملابس الندية. وهمت ترفع الطبق الأحمر

البلاستيكى فوق السور ليظهر نصف صدرها الأيمن مترنحاً بجانب الأكتاف اللدنة الظاهرة من تحت شراشف الكمبلزون الأسود. وتهاوت الكلاوتات حمراء وسوداء وبيضاء. وبرتقالية متدلية منشورة فى صف طويل خلف قمصان النوم الحرير والساتان واللاميه المرشوقة بمشاجب خشبية على امتداد المناشر الخمس التى تطوق جانبى التراسينة. خطت فى جنون ودهشة لترمى بنصفها الأعلى خارج أسوار البلكونة. وأنا أحدق فى الجمال والسحر وقت الصمت المطبق وسكون الشوارع. حسى يدفعنى لنزوة ليست جديدة على نفسى. تهتز خلجاتى فأشعر بهياج غريب وتوق فالت- اقتربت أدنى الشرفة. أقف أسفل البلكونة. أشير بأصابعى وقت أن رأتنى- ضحكت وجرت للداخل غابت دقيقتان ثم عادت وقد وضعت الإشارب الروز أبو خرز أسود على شعرها فطارت شراشفة تهفو لأذنها اليسرى الصغير متحلقة حول العنق الشفاف المتلئ نسبياً. تراجعت للخلف خطوتان واقفا عند منتهى الرصيف القابع تحت النافذة. خارجاً بكارت صغير من محفظتى مدوناً به رقم تليفوناتى فى القاهرة وبورسعيد. رامياً به فى شرفتها وقتما تقدمت تتدلى برأسها قابضة على الكارت الطائر محتضنة إياه بين نهديها.. دونت تليفونها المنزلى ورقم الموبايل، ظللت فى الورقة بعد أن نزعت المشبك، ورأيتها تُهم بإطفاء لمبة التراسينة. هابطة بوجهها المستدير. تراءى لى طابعا الحسن لابداً وسط ذقنها البديع.. زادت فى الدلال والغنج فلاحت غمازتى الوجنتين يعتليان صدغيها فى فتنة، قرأت المسطور بالورقة الصغيرة.. شكلك وحركاتك غريبة.. بس دى مش أول مرة أشوفك.. اسمى أهداف؟! !- ليلتك سعيدة يا دونجوان الليل- صرت منبهراً بالجمال والجرأة.. وزاغ بصرى فى بانوراما المكان ارقب كافة الشرفات البعيدة. محدقاً لزرقة السماء هابطاً أرشق نظراتى صوب المشاجب. كان النهد الأيمن قد

سكن فوق الأسوار الحديدية للتراسينة الواقعة فى الدور الثانى، مشيت فى الطريق المتلئ بالحصى. اجتر متذكراً أيامى الماضية هنا- فى هذا المكان- من ٢١ سنة. طرقت بأقدامى العتبات وكان المكان خالياً. موحشاً. تذكرت شكل وموقع الخارطة يومها فى العام ١٩٨٥.. وعربة إسعاف تفر فى الظلمة. وشقيقتى الكبيرة فاطمة ممددة على السرير الأسفنج. داخل إسعاف الطوارئ. وأنابيب المحاليل معلقة على الرافعة الحديدية متدلية بجانب خرطوم الجلوكوز. وفاطمة تصرخ. تستغيث. تردد فى مناجاه وقد أمسكت ذراعى وأنا القريب لمرقدها فوق السرير الصاج... هموت يا محمود... خلاص مش قادرة. كبدى مطلع نار. جنابى يا محمود.. خايفة عليك يا محمود.. غطينى يا محمود بردانه؟!!

قلت فى نفسى وأنا سائر فى الطريق الطويل- ولماذا تتذكرها الآن يا محمود.. لماذا فاطمة دائماً. فهى الوحيدة التى تتذكرها وقت السعادة. والحزن. وقت الفرح والجنون. وقت الوحدة.. وقت الاشتياق. سرحت مطلاً لخيمة السماء أخاطب نفسى بصوت مسموع- لماذا لا تأتيك الأحزان إلا فى أوقات الغبطة والحُلم.. وتنفلت دمعة عزيزة. بعيدة ساخنة. تُخمد رغباتك وجنوحك. تبتر مشاعرك فيعود الشوق كامناً بداخل نفسك.. ملامح فاطمة تقتحم مخيلتى طوال مشوارى، لماذا فاطمة.. تقول لنفسك وانت تملك عشرات الإجابات هل لأنها هى التى تولت تربيتى منذ صغرى، هل لأنها قد قضت نصف عُمرها فى السهر بجانبى. ترعى شئونى فى مرضى وقت طفولتى. وقت هجرتنا الأولى. والثانية والثالثة.. هل لأنها قد ولدت فى نفس يوم ميلادى. ١٩٦٧/٥/٢٢م وقبل نزولى للحياة بخمسة عشر عاماً.. هل لأنها الوحيدة التى كانت تخفف عنى مزلتى عندما كان والدى يعايرنى بمولدى قبل النكسة بثلاثة عشر يوماً.

تعددت الأسباب تنهش فى ذاكرتى ورأسى تصعد ليافوخى تبرك على وعى مقيدة حواسى.. عُدت اسأل نفسى فى وضوح.. ولماذا يا محمود؟!! لماذا تفوق معزتك لفاطمة شقيقتك الكبرى على كل حُبك لشقيقاتك الأخريات.. لماذا تُحن إليها فى كل وقت تفضلها على كل البشر.. ولماذا تذكرتها وقت أن دققتُ فى ملامح أهداف- فتاة التراسينة الليلة؟!! فهل تشبه أهداف فاطمة؟!.. لماذا كل هذا يا محمود. كل تفاصيل حياتك الماضية تُجتر فى لحظات. فى مشوار بسيط. تيارات البرد تزيد ورياح الشتاء هائجة. ترمى نسائم ظاهرة بانتعاش يُخفى رطوبة خبيثة تنفذ فى مساماتك. تنخر عظامك النحيلة، سرت أطل فى المدى المظلم بمحاذاة ضفاف البحيرة انظر حطام السفن القديمة الراقدة فى البعيد وسط المياه الضحلة... ثمة صراخ يدوى فى السكون. أصوات استغاثة مصحوبة بارتطام وصفعات. دنوت فى السكون مقترباً للمرسى القديم، وتراءى لى مجموعة من الأنفار يتصايحون.. عمال صعايدة بجلابيب قديمة تحلقوا حول بعضهم وصاروا يتشاجرون. وقت أن هم أحدهم بسحب بُرش من الحصير الممزق. جره عنوه فانفلت من بين أصابع الرجل الآخر العجوز الذى صاح فى جنون واستماته

-: (واللهى ماحد هينام عليه إلا أنا يا صابر) كان الرجل هو الأكبر سناً واقصرهم قامة. ربع ومد ملك وعلى رأسه عمه من الصوف الرمادى. جرى بالبرش فجرى خلفه زملائه الفواعلية. تاركين مقاطفهم فوق ارتال القمامة اللابدة حول شركة عثمان أحمد عثمان للمقاولات. وظهرت جلابيبهم الممزقة المنحسرة فى الرُكب مصبوغة برتوش الأسمنت المطبوعة على الظهور وفوق الأكتاف اللحيمة.. ودنت عربتا المرسيدس والإسكانيا يحملان الأسياخ الحديدية وشكائر الجبس. قدموا من الطريق الجانبى فتخطو مفارق الطرق

قاصدين الباب الرئيسى للمخزن الخشب. وصارت أنوار الإسكانيا المبهرة ترمى بالضوء فى الأجواء المقفرة. لتنكشف معالم طريق جديد. قديم. تغيرت خارطته. مفرداته ومعالمه. علاماته المميزة.. تسأل نفسك وانت تقترب من موقع المشاجرة مراقباً ما يحدث عن كثب، من أين أتوا هؤلاء . إلى أى البلاد ينتمون أولئك العمال- من سوهاج. أم من قنا. ام هم من أهل بورسعيد المنسيون... هل هُم غرباء مثل أبيك الذى تبحث عنه منذ مولدك. الرجل الطويل يسحب الكوريك بقوة مندفعاً خلف صابر، يقبض بأصابعه الغليظة فوق مؤخرة الماسك الخشبى الغليظ. ويطفو زنده المفتول غليظاً مع برقه الضوء المُسلط القادم من قبل العربة المرسيدس. وتتذكر الأيام الأخيرة لأبيك. زنده. ومعصمة الغليظ القوى أصابعه الطويلة. أنامله الداخلة إلى فمك تُطعمك وقت تناول وجبه الغذاء. ترميك بحبات اللوز المفلوق ومعالق الفريك والسنيبر الخارجة من برام اللحم الساخن. كُنت تلتفت وتنظره وقد تدلت يداه فى حوض غسيل الفواكة بسوق الجملة. يشطف يداه بالصابون متخلصاً من بقايا المرق والحساء.. وتسأل نفسك فى الجلبة. ووقت صراخ الفواعلية الراكضين فى الخلاء.. أين أبيك يا محمود.. كيف كان. وصار فأصبح- وهرعت تنهض على أثر انفلات المعاول وانفراط المقاطف.. صابر يهم بسحب عرق من الخشب الزان.. ينهج. يهزى مقطوع الأنفاس يهوى على جسد الصبى الصغير المتعلق فى طوق جلبابه الدبلان... ورأيتنى وقد اندفعت فى الوسط محاولاً الفصل بين المتشاجرين رابتاً على اكتافهم جميعاً. ونزل سائق اللورى وقد أمسك ببطارية صغيرة فى يده اليمن، زعق فى الجميع بجرأة مردداً فى صياح- (إيه يا جدع إنت وهوه. محدش مالى عنيكم. بهدلتو الراجل معاكم.. يلا إنت وهو. كل واحد فيكم يروح لحاله..، وانسل الرجل الجهم خارجاً من خلف الهيش. فسمعت من يصرخ مستغيثاً

– (أوع يـا صـابر– حاسـب يـا صـابر– اوعـى يا ابن الكلب؟!!.. حاسب يا موسى. إجرى يا موسى،

– وينفلت الفـأس ويهـوى من بين الأكتاف راشقاً فى ظهر موسى زخارى قصير القامـة ذو العمامـة السـوداء المتربـة الذى حاول التراجع للخلف مستنداً على صدر الصبى. انغرس الفـأس فى ظهـره وزاد الصراخ وتعالى فى الخلاء. وسمعت من يقـول فى هذيان وقد قدم من خلف الشكائر الفارغة الملقاه بمدخل المخزن الرئيسى.

:– (جتلـته يـا صـابر. عشـان إيـه. بـرش. بـرش يـا ابـن الجحبه– فرش حصير مخـرم.. جريـت، جريـت وقـد اعترانـى الرُعب فتبددت نشوتى. ذهب حُـلمى الهـش فـى توافـق لم يـتم. ولن يتم. وليلة طويلة يعلم الله متى ستنتهى. تهـزى وانـت تلهـث فى الطريق الطويل الممتد. قاصداً المساكن. "فاطمة الزهراء" ويقـابلك جـندى حـرس الحدود الوحيد. ويُسلط فوهه سلاحه فى الفراغ. يرقبك عن بُعد. عن قُرب. يدنو منك محدقاً فى ملامحك. ناظزاً لهيئتك قائلاً فى فزع

:– (فـيه إيـه يـا باشمهـندس. بـتجرى لـيه.. جريـت مـن أمامه فتبعنى للحظات محاولاً إيقافى.

– خـير يا باشمهندس.. (إنت فيه حد بيجرى وراك؟!!) برزت ملامحه – قريـبة. بعـيدة. مميزة. محفـورة فـى ذاكـرتى؟!!– بروز عظام وجنتيه. برقة عيـنه اليسـرى الخضـراء. ذكـرنى بملامـح "دسـوقى"؟!! زوج اخـتى الكـبيرة فاطمـة. عشـرات الصـور تقـتحم مخيلـتى، اجتررت كل صور الشقيقات. ملامح أزواجهم بتُ أسأل نفسى ويُلح على السؤال..

– من هو القاتل ومن المقتول؟!!

مـا هـو السـبب المباشـر للقـتل، فـرد الحصـير.. الـبُرش المهـترئ- أم هى الغُـربة باتـت تـأكل أرواح البشـر فتنفلـت الأعصـاب وتطـيش الرغـبات وتكـون الأجساد هى الضحية لتصعد الأرواح فى الغيوم،

– وانـثى التراسـينة الأرابيسـك.. أهداف أين هى الآن. هل تعلم شيئاً مما حـدث؟!! هـل تعـلم أنـك غريـب أنـت الآخر. تستعيد نظراتها فى وعى نادر. تحديقاتهـا لـنظرة عنـيك. هـندامك لهفـتك. الأسئلة القابعة فى نفسك. روحك توقك. جنونك. أحلامك الغريبة المرسومة تصبغ خطاك. حركاتك وقت الحديث. والإيمـاء.. والـتحديق سـوياً. فـوار طموحـاتك المـتعددة. المؤجلة. القابعة بُحزن محجوب خلف طلات الونس والأسى الخارجة من عيونك.

° ° °

صـعدت مـنزل "هالـة" شـقيقتى الصـغرى، وبمجـرد دخولـك سـألت عـن فاطمـة؟!! اخـتك الكبيرة. فقالت هالة، إنها بخير.. جوزها سافر من ٨ شهور راح ليبـيا- هيشـتغل نجـار.. (أنـت تعـلم- دسـوقى نجـار بـاب وشـباك، حضن هالـة بارد. ليس كحضن فاطمة، التلفاز "الباناسوتيك" موضوع فى الصالة وبنات هالة- مروة ومريم وصفا يشاهدون البرنامج الكوميدى على الـ **M.B.C**.

"طاش ماطاش"؟!!. وهالة تقول لك فى برود

– اتأخرت كتير.. (أنا مستنياك من خمس ساعات،

:– تُهـت يـا هالـة- ٥٠ ألـف عمارة. و١٠٠ مشروع. المساكن فى بورسعيد بقت كتير.

وتسـتدير ضـاحكة.. (مـا هو إنت بقالك زمان مجتش هنا قعدتك فى مصر نسيتك المكان؟!!، (دلوقت بقى فيه بورسعيد تانية خالص يا محمود..

– إنت عارف ماما هتاخد سكن فين؟

– فين إن شاء الله

– فـى عمـر بـن عـبد العزيـز. يعـنى تلـت سـاعة مـن هنا فى الميكروباص (احضرلك الحمام)

– لا. أريد أن أرى نشرة الجزيرة،

– أنا بتفرج على "طاش ماطاش" أصل ممدوح جوزى بيحبه أوى؟!!

– واخبار ممدوح إيه

– بـيقول إنـه جـاى عـلى عـيد الضـحية. بـيقول إنـه مـش هيسافر تانى– السعودية بقت زى مصر. ويمكن أقل كمان. بيرحلوا العمالة المصرية من هناك..

– ألم تسمع عن السعودة؟

– سمعت.

وقلـت فـى جدية. ولكن. يا ترى ممدوح هيقدر يوفر ليكم حياة مستقرة لما يرجع

– أنـا قلـت له يُحـط الـ ٥٠ ألـف اللى وفرُهُم فى مشروع تاكسى. وآهو لو إحتجنا نرخصه القاهرة. تبقى إنت تشوف لنا الموضوع ده. اهو معارفك كتير،

– مالك يا محمود. الله. (إنت عنيك مدمعة ليه)

– فين أبويا يا هالة؟

– أبوك جوه..؟!!

وخـرج شـقيقى الأصغر أحمد من الحمام. احتضنى وقبلنى. كان قد سمعنى اتحـدث مـع هالـة، قـال (ابـوك يظهـر نزل يصلى، قلبت على "طاش ما طاش" كانـت النشـرة الإخـبارية قـد انتهـت فشـاهدت الجـزء الأخـير مـن مسلسـل (الطـارق)؟!! ويُعجـبك تـيتر الـنهاية كـثيراً وتـلحظ التناغم الرائع بين الصور المتحركة والموسيقى التصويرية للمسلسل... وتبحث فى اللقطات الملونة عن مجد

ضائع؟!!، مجد عائلتك. واشقائك. فتوه ابيك الذى لم تره منذ عشرون عاماً تدخل الحمام وتنزلق فى البانيو الوثير وتغوص حتى رأسك فى رغاوى الشامبو والصابون. ويسترخى جسدك فتنظر بغرابة لأقدامك. جسدك كله تحدق فى خصيتك. سيقانك الذى ضمرت. أفخاذك العارية التى بان زراقها وعروقها النافرة وتتمدد أناملك بالأصابع حتى ساقيك،

خرجت وشربت القهوة السادة. التى تفضلها. وتنزل لمقابلة أصحابك. أصحاب الطفولة والصبا. تقف مشيراً للتاكسى لتسحبك جسارتك وتجرك أقدامك بوعى حتى موقع الجريمة؟!! وترى جسد موسى زخارى ممدداً. مفروداً على الطاولة الصاج وسرينة عربة الشرطة بجانب عربة الأسعاف تدويا كالرعد، عربة الأسعاف تصمت وجندى حرس الحدود يشير بأصبع السبابة إلى مكان المشاجرة ويقول لضابط المباحث الذى تحلق بزيه الملكى، (كان فيه واحد غريب واقف من أول ما اتخانقو).

وتتراجع للخلف وقت سماع حديث العسكرى الواقف قبل مدخل البحيرة، وعزمت على نسيان ما مضى، وعُدت لشرفة أهداف فى حنين باغتك ورأيت أنوار التراسينة وقد اطفأت. وقفت لساعتين فلم تظهر البنت، رأيت الملابس تهتز مع الرياح العابرة فى الأجواء الليلية، وتقول فى نفسك فجأة.

– ولماذا (صورة شقيقتى فاطمة.. ولماذا تقتحم ذاكرتى الآن، وعلى الدوام، وضعت يدى على قلبى وسمعت النبضات عالية. ثمة سخونة مفرطة تغوص فى أحشائى. رعشة فى ركبى. رجفة فى أسنانى، أشتاق للنوم وحدقاتى مفتوحة على إتساعها. ورغبة عارمة تجتاحنى. تثير غريزتى. أشعر بهياج جنسى غريب. لفيت ودُرت حول نفسى (حول منزل الجميلة أهداف. تائهاً أنا اجتر

ملامحهـا. شـكلها. لـون بشـرتها جمالهـا. جـنونها. شـبقها الغريزى المباغت. تذكرت ملامح شقيقتى فاطمة؟!!

قلـت لمـاذا ولـماذا الآن. تحـاول مطابقـة أوصـافهن ملامحهـن- أهـداف وفاطمـة.. تقول فى نفسك وفى مس جنونى. تحركت على أثره الأصابع فى يدك فصرت تطرقعها فـى عبـث ودون وعى- وهيه شبه فاطمة فى عمرها- زمان؟!! لأ. فاطمـة كانـت أجمـل وأكـثر براءة. (فاطمة غلبانة)؟!! فاطمة عيانه، فاطمة أخـتك مريضـة يـا محمـود. فاطمـة مين. فاطمة من- فاطمة اين- فاطمة حدثتنى منذ عشرة أيام من خلال تليفون الجارة المسيحية "تريز". فاطمة قالت لى يومها —أنـا تعـبانة أوى يـا محمـود، خايفـة لحسـن أموت. خايفة عليك وعا العيال يا نـور عنـيه، فاطمة كانت تشتكى ولأول مرة فى حياتها. فاطمة شديدة. جامدة. صـلبة فاطمـة مـش حـتموت، فاطمـة مريضـة مـن زمـان يـا جماعـة وإنـتو متعرفوش؟!!

صـرت أهـذى. أفكـار متناقضـة مخـتلطة بأوهـام وتخـيلات غريبة اعتلت يـافوخى. رأسـى زادت سخونة. وعرق غزير سائل من شعر رأسى. روحى يقظة وشـاعر بـالهواء يخـترق جسـدى. يخـترق ضـلوعى يسـرى فى أطرافى يدعونى للجرى دون هدف.

الجـرى إلى آخـر الـزمان- فاطمـة كـان عندها السكر أضيف إليه الكبد منذ تسـعة شـهور.. مـرض الكبد ظهرت أعراضه متأخرة. فاطمة مريضة بالكبد منذ ستة أعوام.

– عندى السكر من زمان يا محمود. (وأنا معرفش).
– يا حبيبتى يا طومة- أمى انت يا فاطمة. نور عينى،
– إنت اللى ربتينى يا طومة يا شريفة.

أين ذهب عودك. طلاوته. جمالك. طلاوة صوتك عذوبته، ذهبت ملامحك يا فطومة؟!! تسأل نفسك في سيرك وحيدا. لماذا لكل هذا التحديق في وجه بنت تراها. رأيتها لأول مرة.. هل لوجع الوحدة دوراً.

- هل مازلت تبحث عن رفيق للطريق...

هل لتشابه الملامح فقط، (لا فاطمة كانت أجمل بنت في الدنيا.. لكن الغُلب والقهر وضعف دسوقي كانوا السبب في الهزيمة؟!!

- نجار باب وشباك. (خاب) دسوقي. ترك الديار وذهب إلى ليبيا وصارت هي بلا عائل؟!! - مثلما ذهب من قبل إلى دمياط وفشل وإلى البصراط وفشل وإلى المطرية وفشل إلى طلخا وزهق وصار وقتها يطل للوحات المعدنية المعلقة بمؤخرات السيارات "البيجو" الـ ٥٠٤ ويحزن شاعراً بالأسى حالماً بالعودة مستسلماً للحنين الذي أكل روحه الضعيفة- عاد يومها. وعزم على السفر من جديد.

فذهب إلى اليمن وفشل؟!!

- يمكن دسوقي كان ضعيف؟ (مش سبب كافي)

- يمكن لأنه وحيد. يمكن لأنه شريف، يمكن لكبرياءة السبب المباشر في الفشل. يمكن كان مغرور مستبد. يمكن ويمكن. يمكن حاجات كتير، أكيد الدسوقي كان ظالم- وجبروته هو الذي أوصله لهذه الخاتمة؟!!

١٨ سنة نهايتهم بؤس وعدم،

ومحمد الزيني يصطدم بي وأنا واقف منتظر الميكروباص

- أهلاً محمود. أزيك يا باشا. (يا قليل الأصل)، احتضني وبكى بحرقة.. يخص عليك. بتيجي بورسعيد ومحدش يشوفك- (زي الغُربا)، آه يا ندل،

قُلت: (أبداً والله يا زيني. لكن انت عارف. ظروف العمل فى القاهرة- شغل ليل ونهار. فاطمة تعبانة يا زيني، وأبويا- ابويا مش عارف أشوفه.

- حمد الله على السلامة. (النسوان خدتك منا يا قرد)، نظرنى فى ترحاب وقال شارحاً

- إنت عارف أن "سعيد" أخويا يسكن فى "الصفا والمروة"

- آه. اللى مسكوا فيه شبكة الدعارة.

- يا سيدى، (انت عارف الشقة هنا بكام)

- بكام

- بـ ٤٠ ألف جنيه الـ ٢ وصالة- والثلاثة وصالة بـ ٧٠ (المحافظ الجديد طرح كل المشروعات السكنية بسعر استثمارى عشان يفتش الناس؟!! عايز يقول للحكومة إن لسه فى بورسعيد فلوس كتيرة، وأخرج من جيب السويتر الجلد البُنى قطعة سوليفان بيضا وقال لى. (حشيش بلجيكى؟!!- إنت طول عمرك مُرزق.. يلا يا باشا،

ذهبنا سوياً للعرب وقابلت إيهاب الضاحى ابن العربى ضاحى سلطان رشوان. وشاهدته عن قُرب وهو يسخر من الأهالى فى الدايرة.

كانوا بيطالبوه بتقديم استجواب عاجل لمجلس الشعب. عن تلوث المياه فى بورسعيد. عن السمك اللى بيموت فى بحيرة المنزلة- كانوا بيلحوا فى استجواب آخر يقدمه ابن الضاحى يسأل فيه عن حرمان الكافه من عمال وفنيين بورسعيد من العمل فى مشروع شرق التفريعة،

- ياعم إيهاب انت أقرب واحد لينا. إنت ابن الدايرة. وإحنا كُلنا عاطلين عن العمل،

ركبت مع الزينى وقلت للسائق. نطلع على غُرزة العربى عصعوص والزينى قال لى. لا. (حنروح الصفا والمروة الأول) السائق قال (مش هروح هناك.. أنا أسف يا جنتل إنت وهوه) نزلنا. ومشينا فى الزهور. وقابلنا عبد الله بالصدفة، (عبدالله ابن حلال. واد جدع. مش مُظراب، واضح. وصاحب صاحبه – أجدع حد فى الدنيا يفهم فى المخدرات. ركبنا تاكسى بيجو سوا. وكركرت الماكينة. وتعطلت العربة- كانت موديل واحد وسبعين- تقفيل المانى. لكن الفرنساوى لا يُعلى عليه.. يلا يا فرنساوى. السائق يقول بجد- يُقسم بأغلظ الإيمان- واللهى فرنساووى يا ناس- (إيه يا ابن الحلال. إنتو جايين تشتغلونى.. يخص على كده. عاب. عيب عليكو (إيه الحكاية آمال- إنتو محششين ولا إيييه دفعنا البيجو من الخلف- يلا يا فرنساوى، وانطلقت الفرنس. وظهرت العمائر الجديدة فتولى عبدالله الجميل يشرح فى إسهاب مصنفاً المشروعات وقت أن تدخل السائق العيوق فى حديثنا دون استئذان،

– عارف يا جنتل.. (واللهى العظيم تلاتة. وحياة اللى جمّعنا من غير معااد).. والحروف تطول على لسانه فى لهجة بورسعيدية أصيلة–.. (بورسعيد دلوقت بقت قد زمان ست مرات آه- كُنا ٢٠٠ ألف بقينا حوالى مليوووون، (وحوالى تلات تربع المُلاك أغراااب. (آه واللهى أغراب يا ابن الناس. استغفر الله العظيم)

– عارف عندك حوالى نُص مليون من البصراط والجمالية والمنزلة- وإشى من طلخا والزقازيق. والمنصورة والشرقية- وحاجة وسخة بعيد عنك.

– دا حتى تُجار القنطرة العتاولة- إشتروا شقق ليهم وللعيااال،

عُدنا لمشروع "الصفا والمروة" وتركتهما يصعدان للمعاينة وصرت أمشي، أجول ببصرى. أنظر شكل الشرفات ومن بداخلها. أطل فى الهيئات والملامح. سحنات غريبة.. فلا حين بصحيح. وشوشهم صفرا،

عربة كارو مقلوبة وسط الشارع المُترب. ومياه ضحلة- وحمار راقد فى مدخل مدينة الحرفيين. الحمار ضعيف- مسكين. قدمه اليمنى تغوص فى جُرح حديث دامى. الجُرح أحمر. والذباب يتحلق حول خياشيم الحمار المسكين. نظرت لوجه الحمار كثيرا. نظرت فى نفسى- لهيئتى. انصت لدقات قلبى للهثى. لإجهادى. لشقائى.

ورش سمكرة ودوكو. وكهربة سيارات زعيق وصراخ. (هبدورقع) شواكيش تضرب راسى دون رحمة فى تواصل- جراجات فارغة- عربات مركونة فى الشارع. كلاكسات على الفاضى والمليان- فرح قريب. والكل سكران والراقصة تتمايل فى غنج. عارية. وشيئها طافى- وارم متأهب بشفتين غليظتين. يعوى على. تركته ينبح، وهرشت عضوى فى خجل وقت أن استدارا الزينى وعبدالله. الدخان الأزرق يسرى فى كافة الأجواء. وأنا شبه مترنح خدر لذيذ يسرى فى أعضائى. أقدامى ترتجف. سيقانى، مشاجرة فى عمارة قريبة ينظرها الزينى- سباب وشتائم متبادلة بين بواب وسكان جدد. البواب يقول فى صلف وشراسة- كُل شقة هتدفع ١٥ جنيه مقدم، وهتدفعوهم كل شهر. ومليش دعوة بالأنابيب ولا الطعام الأكل والشُرب مش هشيله لحد (اللى مش هيدفع مش هيدخل الأسانسير)

جرى الزينى وتدخلت معه محاولاً إقناع البهجورى صديق سعيد شقيق الزينى:- (إطرد البواب دة يا أستاذ بهجورى- إضربوه يا سعيد.. روحوا قسم الشرطة.. (يا أستاذ بهجورى عليك وقسم الشرطة- حرر محضر بالواقعة.

الزينى يقول: (واقعة إيه، دا ينضرب ويطلع دين أمه هنا. (إنت نايم يا أستاذ ولا إيه- لأ . فوق. إحنا مش أساتذة ولا مثقفين. الزينى ضرب البواب. وأنا كملت عليه وذهبنا مع المهندس أحمد غانم، وعبدالله يقول- خلاص يا أستاذ. [اللى إنت قلته دا مهم- طالما انضرب خلاص، وتمزق جلباب البواب. الجلابية بوبلين رمادى، وقال قائل تصادف وجوده بجانب مطعم الفول- يا عم (اضربو دين أمه. وأم اللى جابو هنا- الحكومة سايبه الشعب ياكل فى بعضه..؟!! لسه فاضل إيه تانى- إسحلوه وبلاش بواب خالص- أما صحيح حكومة ظالمة وشعب جبان.. يا عم صلى عا النبى (هيه بقت بلد- بورسعيد دى كانت زمان؟!!

عُدنا فى عربة ميكروباص نجلس خلف ١٤ راكب. ٣ واقفين عا الباب و٢ ظهر السائق و٢ فى أجنابى. و٣ فى ضهرى وممنوع وضع الأرجل على المسند أو حتى المقعد المواجه، وفى الطريق لحى العرب- قُرب "أول العرب" اقتربت ظهرت اللافتات الجديدة بخط أسود. معلقة بمحاذاة الأرصفة وبطول الشوارع المتكسرة.

الأسهم تشير لحى الزهور الجديد. "على ابن أبى طالب" و"عمرو بن العاص" عمرو بن عبد العزيز. "عمرو بن الخطاب" مساكن اللنش. مساكن الظلط. عمارات الطوب الأحمر. ذر زاره. خلف الحرش.. الشوارع غائصة فى مخلفات المبانى. الروائح كريهة. وعبد الله يسخر ضاحكاً وقت أن نظرته وجُلت محدقاً فى اللافتات مشمئزاً من تلك الروائح العفنة.. قال فى سخرية. وقت أن فغرفاه بابتسامة عريضة ملأت وجهه الأسمر اللطيف- عارف يا أستاذ- (ناقص يعملو مشروع جديد. باسم العربى عصعوص اللى بيخدم علينا فى "المخانة"،

وعقب يضيف فى جديـة.. إلا صحيح- (إحنا هنحشش فـين الـنهاردة- لازم نقوم بالواجب مع الأستاذ.

بقولك إيـه يا أستاذ (إنسى دراما الحياة)؟!! وخليك.. إنت النهاردة فى ضيافة ونس الجوزة النحاس؟!!

- ويرد الزينى مبتهجاً: - (آه. واضح إن صاحبك جاى شنقان عا الآخر،

فـرملة مباغـته تـزحف عـلى أثـرها العربة التى تُقلنا. ويصطدم اكصدامها الأمامى بمؤخـرة العـربة الميرى الـ زل ٥٧.. ضحكت بصوت عالى وقت أن قال الزينى: - يلا يا سيدى هنحارب؟!!

(شمّر يا خُول إنت وهوه،

- إيه.. قُلت إيه يا أستاذ (نشوف عصعصوص) ولا تحارب.

- لأ. هنشوف الجماعة فى قهوة مهران

- السهرة النهاردة- صباحى والحشيش بلجيكى

° ° °

- (يظهـر إن الشـتا قـرر أن يسـتعيد فتوّته ومجده القديم الذى حسبناه قد تلاشى بلا رجعه؟!!

عـبارة فصيحة رددهـا محمـود طـلخان الـذى شـرد. ومـال بعـيدا بعينيه الحمراويـتين فظـل يـنظر بغـرابة ودهشـة متحسـراً، كانـت النسـاء البدينات. محجـبات يسـرن عـلى جانـبى الطـريق حاجـبات بمؤخـراتهن الغلـيظة النوافذ الصـغيرة الضـيقة فـى شـوارع بورسـعيد جهـة الأمـين- وشـارع نبـيه الموزايـان ممـتدان بطـول حـى المـناخ بدايـة مـن طـرح البحر وحتى ضفاف بحيرة المنزلة- أخمـرة وأحجـبة وعـيون متسعة سوداء كحيلة تندب فيها الرصاصة، فتشتُ عن انـثى واحـدة فـاردة شعرها خلف الظهر. بنت بقُصة. بكاريه على الحاجب. بـ

اللاجرسوه، نظره صريحة، واحدة غاوية- جريئة. شبقة.. بنت كانت هايجة؟!! والغالب- أو الواضح الكل بقى كده، مشينا نحكى على مدار ٤ ساعات. ترجلنا فى مساكن "ناصر"؟!! القديمة. شاهدنا الأطلال والخراب مساحات خلا. البيوت القديمة إنشالت- زاعت فى غمضة عين. (لم يعدلها أثر..) ظلمة فى المكان خواء وخلاء وصمت يتحلق حول قصر ثقافة بورسعيد المضاء بالنور الباهت.. عبد الله يقترب منى. يلحقنى وأنا المطل أنظر "الغُرزة" البعيدة، نصبة شاى. جوَّز نحاس. مرميه فى برميل ماء النار الأزرق العميق. محمد الزينى أبطأ. تمهل فى خطوته، دنا يرمقنى متابعاً ردة فعلى، يحدق فى البعيد المرئى. ثمة أشباح لكائنات آدمية تتحرك فى الظلام، ومحمود يقول هامساً.. يظهر صاحبك داير عا "البانجو" و"شارب البانجو لا ينجو" ، والزينى يعقب فى مرح- وراس من غير كييف. عايزه قطع السيف،

– (وإدينى يا معلم- (إدينى فى البَلَم- علشان انسى الألم؟!!

– (أمال إنت سرحت فى إيه يا أستاذ..؟!!،

السكيعة خرجوا من الخُص البوص يترنحون عن بُعد،

– ومحمود يسأل فى حزن- (هيه مش دى مساكن ناصر القديمة)؟!!

– أيوه يا سيدى. سيبهالله.

– مش حسن علام كان ساكن هنا زمان؟

– زمان بقى، (هدوها كلُها.

– هيطلع مكانها أبراج لشركة استثمار عقارى أصحابها من القاهرة،

شردت. وسرنا صامتين نقترب من النور الباهت. عربات الشرطة راقدة بمحاذاة رصيف قصر الثقافة أربع عربات. ومحمود يسأل فى إلحاح،

– هوه حسن علام من يوم مسافر أمريكا مجاش ولا مرة. ويرد محمد الزيني، (هوه إنت لسه فاكره. ياعم محمود (هوه اللى بيسافر من مصر بيرجع تانى.

– حسن أخد الجنسية خلاص (اشترى فيلا فى بروكلين؟!!

طفرت الدموع من عينيه. وتذكرنا آخر مكالمة جاءت من حسن كنا سنة٩٤. هاتفنا فى المساء عند رجب الكومى فى "أول العرب". سأل حسين عن أمه. واستفسر عن الشقيقات الثلاث. وطلبنى بالاسم. أنا عايز اسمع صوت محمود؟!!، يومها جريت بسرعة ورفعت السماعة. وجاءنى صوته من بعيـ يـ يـ د.

وقال لى حسن يومها:–

– اذيك يا محمود– (أنا شُفتك فى الفضائية المصرية. شفتك إتكلمت يومها كثيراً (بس أنا مفهمتش حاجة من اللى إنت قلته كله؟!!.

– إلا قول لى يا محمود– إنت صحيح درسَت الإخراج السينمائى، وظل يومها يتحدث فى عجالة على مدار ربع ساعة. وأضاف يومها..

– إلا البرنامج كان اسمه إيه؟، (على فكرة يا محمود. إنت وشكْ فوتوجونيك.. يا عم محمود

– (ياعم سيبك من الإخراج ومثِّل أحسن؟!!

وظللت شارداً اجتر آخر مكالمة منه.. أرنو إليه وقت أن ختم حديثه (بالسلامة يا محمووود. وكأن نبرات صوته كانت تؤكد الجنوح.. الفرار بتوقه خارجاً من جلدة.. (إبقى خلينى اسمع صوتك يا محمود.. سلام يا مُخرج؟!!

وأنا أجتر ما قُلت يومها. وكأنه قد حدث منذ لحظات فمازال سارياً فى أذنى:–

– أمك عيانه يا حسن– (ما تحاول تيجى ولو أسبوع واحد. إطمن عليها
– وفصل الخط؟! ! عُدنا للصمت. نترك مبنى قصر الثقافة صوب ظهورنا..
وسمعت عبدالله يهذر. يكلمنى بخبث ظاهر متنقلاً بعينيه جهة محمد الزينى
– (يظهر صاحبك هيموت فطيس،
– آه. هيروح ضحية للنوستاالجيا؟! !

° ° °

ذهبنا لغُرزة العربى عصعصوص الذى قابلنا بترحاب شديد. شدنى من يدى وأجلسنى على أقرب كرسى من الخيزران وقال لمحمد الزينى.

–: الأستاذ كان ملعلع الأسبوع اللى فات فى مشوار الحياة اللى بييجى بعد السهرة.

– أيوه يا سيدى ما هو بييجى والناس مساطيل، سحب الصبى الجوزة وعُده التخديم. واقترب النادل بثلاثة أكواب فارغة وثلاثة كنكات نحاس صبّ القهوة السادة لى والمضبوط للزينى وعا الريحة لعبد الله. قرب الجوزة النحاس بالغابة الطويلة من حنكى وهمس فى أذن الزينى قائلاً

– حجرين عا الماشى إصطباحه لغاية ما ترجعوا. (تمام يا عرب) خُش عا الأستاذ.. وسع يا جدع للمخرج،

وضحكت الزبائن وبانت الشربية المنزويين أسفل بلوكات ناصر الذى تهدمت كلية فلم يتبقى إلا بعض واجهات المحلات الصغيرة الواقعة بقُرب سوق الحضار القديم الذى تحول لوكر للإتجار فى البانجو وحبوب الهلوسة. وقرب الغابة من فمى فأخذت نفس طويل على صدرى وانتشيت بالدخان الكثيف الصاعد يضرب يا فوخى ضممتُ أصابع يدى اليمن وسددت فمى وبت أرقب الدخان الكثيف الخارج من منخارى.. ونظرت الأصدقاء بود ودنا النادل

يخترق الكراسى فقلت له فى صفاء.. غيّر ميه الجوزة يا عباس، حجر والثانى والثالث وسادس عشان الأستاذ. وصار النادل يخطو فى بطء ممسكاً بالجوزة من قعرها وقد اقترب منى فى أدب ممسكاً بالماشة الصاج، ولاحت يده اليسرى تروح وتجئ بمصفاة النار، أطل لعينى الدامعة وقال فى تأدب.

– كده ستة أحجرة. أجيب كمان حجر ولا كفاية، ونظر يدى اليمنى ترتعش وقد دخلت أصابعى تجوث فى جيب بنطلونى الجينز. سعلت وبصقت مرات ثلاث وقمت بمسح البصاق بقدمى فلاحظ النادل لمعان حذائى النبيذى فقال

–: أجلاسيه يابا شادى. هيه لسه الحاجات الاسبشيل بتنزل البلد.

– (آه. أصل دى إسباااانى، ومع حشرجة صوتى وانحباس الكلمات فى حلقى ضحك الزينى فربت عبدالله على كتفى ففرت نتف العرق فوق عروق عُنقى رغم برودة الجو وسريان الهواء الشتوى نافذاً لأذنى وأجنابى. وأصلاً لأصابع قدماى. ساد الصمت وجالت عنياى فى المدى المحيط بالمقهى. الخلاء موحش. والظلام يخيم على أطراف المكان حاجباً الحركة الديناميكية المريبة التى تدور فى الخلاء البْعيد. قُرب مدرسة سعد زغلول الإعدادية. قلت فى نفسى متذكراً ما مضى، (وكنت هنا طالب صغير أيام الإعدادية يا محمود، الناضورجية يتحركون خفية فى أرض امتلأت بالقاذورات. ماء وسخ تفوح منه رائحة العفن، الزينى يرمقنى بتريث. ويقول لعباس النادل

– (كفاية الأستاذ كدة. غير مية الجوزة.

وهات له قهوة سادة تانى،

أحسست بجسدى يرتخى. مفاصلى تؤلمنى.

والناضورجية يدوورون حول المقهى. يتحلقون حول النصبة هامسين فى اذن العربى عصعوص بكياسه وحذر مطلين للجالسين أمام التليفزيون يشاهدون

الفيلم العربى "ثرثرة على النيل" المعروض على قناة "روتانا". خرجوا متفرقين يسيرون فى الخلاء متهامسين يحدقون فى منتهى المدى البصرى. صوب الخلاء الذى يلف غُرزة عصعوص. يرقبون المارة فى هدوء بإيماءات وحركات متفق عليها- وتتوقف عربة مرسيدس. قدمت من شارع الأمين مخترقة مساكن "السلام السريع" وجرى أحدهم ناحية السيارة. لتتوقف أمامه مباشرة عربة أخرى فولفو. وثالثة شبح بيضاء تطفئ نورها المبهر فجأة.. وجرى عباس النادل وقد أمسك بعدة لفائف من السوليفان. اقترب من سائق الشبح

– مساء الفل يا كومندان

– مساء العناب

– حشيش ولا بانجو. (آه، وحدق عباس فى وجه السائق

– إفتكرت سعادتك يا باشا. إنت بتاع الإفرنج

– تمام.

– عرفت المطلوب. (حضرتك عاشق للبَلم.

– تمام- هات ٥ X ١٠٠ ، بانجو، وتسلل من كان يقود الفولفو تاركاً باب السيارة مفتوح. عابثاً فى جنبه الأيسر ماداً أصابعه اليمنى يحجبُ الطبنجة الـ ٩ ملى المعلقة فى كتفه اقترب يهمس فى أذن عباس،

– يا عبس- عايز حشيش. (بس مش عايز حاجة شعبى؟!!

– والـلهى زيت كله يا باشا. وعايز مغربى أجيب لك ونزل من كان يركب بالكرسى الخلفى فى المرسيد الـ ٢٠٠ السوداء. لاح يتوكأ على عصى من الأبنوس. قفزفى بطء دانياً من جلستنا يحدث المعلم عصعوص،

– مساء الفل

– مساء الفل يا ابن الحلال يا بركة.

– عايز قرشين زيت. (عندى ضيوف من الإسكندرية

– هوه لسه فيه زيت يا جنتل. و(اللهى كان من عنيه،

فيه مغربى. إيه رأيك؟

– حلو

– طبعاً. مش مخلّط،

صاروا يتناولون لفائف السوليفان فيما بينهم وعاد عبده "تربنه" يقصد الكشك الخشبى الراقد خلف نصبه الشاى التى يزعق تحتها وابور الجاز الكبير الراقد أسفل الديست النحاس الأحمر المتوهج. وأتانى صوت الوشيش من جهة الدلو الكبير المملوء بالماء الساخن. انتشيت وأحسست بثمة دفء يسرى فى أوصالى. ووقف محمد الزينى. وضع يده فى جيب بنطلونه البييركاردان القماش. أبرز ورقة من فئة الخمسة جنيهات. دسها فى كف تربنة" وخمسة أخرى رماها لعباس الخادم النادل ونهض عبدالله يخرج ورقة بخمسين. ثناها ووضعها فى كف العربى عصعوص قائلاً:

– كل سنة وانت طيب يا معلم... واستدرنا نمشى فقدم عباس الخادم صائحاً فى بهجة،

مسح على شعر رأسى رابتاً على كتفى منحنياً يسحب الجوزة النحاس نافخا فى الرماد المتحلق حول الفحم المتوهج. مشيت مؤتنسا بالصحاب سرت فى الوسط. وعاد ابن عصعوص يركض من خلفى دانياً يسألنى– (على فكرة يا أستاذ. (انت صعيدى أصلاً)

– آه. صعيدى. من أول العرب؟

والزينى يقول: – إيه يا عصعوص إنت نسيت زباينك؟ ورد عصعوص فى وعى وحنكة الملم بأصول زبائنه القدامى وتاريخهم الطويل معه.

– لأ. أبداً والله. (بس أنا عرفت إنه ساب بورسعيد من زمان وعايش فى القاهرة دلوقتى.

(آه يعنى أنت سوهاجى؟

– من الخوارف يعنى.. مساء الفل يا باشا.

يعنى العربى ضاحى وقهوة ضاحى سلطان الكبير ومجلس الأمة زمان– ياه... نوّرت يا باشا. (طب ياريت تسلم لى عاالواد رفعت– إيهاب الضاحى؟!!

على صوت عربة التاكسى التى توقفت على مقربة وأطفأت أنوارها الأمامية تحت عامود الإنارة الصدء قال عبدالله لعصعوص،

– بلاش صاحبك رفعت ده. أصل الأستاذ مابيحبوش من يوم ما دخل مجلس الشعب (تصبح على خير يا عرب؟!!)

وكأن التحديق والطلل صارا شغلى الشاغل– بانت كل الحقائق فى عمرى الفائت تجتر الأحداث والمواقف والصور الحميمية والتى تجلت الذاكرة الواعية فى استعادتها. فى دقة متناهية– تذكرت تاريخ طويل مضى. عاصرت فيه أحداثاجسام ٣٩ سنة كأنهم دهر؟!!

أحياناً ما أشعر بأننى قد عشتُ ٨٠ عاماً– أو ١٠٠ عام، العربة البيجو تطير على طريق الرسوة المسفلت والذى مشى السائق فيه بإلحاح ورغبة منى. لشمّ الهواء النقى الأتى من ممر القناة. رأسى تدور والسائق يلف طارة الدركسيون ناحية اليمين. يضرب النور العالى فى الأفق. عبدالله يشعل لى سيجرة مارلبورو حمراء. يسألنى

– جاى كام يوم.. (وأخبار أبوك إيه يا أستاذ؟!!) الهواء ينفذ من شباك العربة المفتوح داخلاً فى صدرى وأنا ألفُ الكوفيه حول عُنقى فى عجالة، جسدى يرتعش. وثمة خنقه تطفو لصدرى بغته. خنقة كئيبة تسحب روحى

بالتدريج.. الزينى يرمينى بقطعة شيكولاته "باونتى" ملفوفة فى ورق مفضض ومصقول. والسائق يجرى على الطريق مشعلاً سيجارته الكليو باطرة. يرنو إلى حفيف الورق المفضض. يميل برأسه إلى الخلف ناظراً الزينى قائلاً فى أسى،

- حدّ يصدق يا بشر.. كل الشيكولاتات اللى كانت مغرقة بورسعيد. بيصنّعوها دلوقتى فى جبل على

- أه فى دُبى

قضمت قطعة الشيكولاه فساحت فى فمى ففتحت الزجاج بجانبى من جديد. وبتُ أنظر الشجر اللابد أعلى طوبان شركات الاستثمار. أتوه. أتوه واجتر وتأخذنى النشوة المفرطة التى جعلتنى اهتز فى قعدتى داخل العربة، صرت أتمايل على صوت المطرب الشعبى الذى ردد فى حزن.

- يا جارح القلب اسمعنى. بلاش يا عمرى تضيعنى. والزينى يصيح فى نوبة تجلى (هلاّ هلاّ يا ادلعدى،

- وحاسب يا زينى. حاسب يا زينى من دى ودى. وأقترب السائق لشارع محمد على فأبطأ من سرعته. ودنا يسير بمحاذاه كنيسة الأرثوذكس هبطا سوياً. وطلب الزينى من السائق توصيلى لمقهى البرنسيسة فى "البازار"،

° ° °

وعند إلتقاء "محمد على" بشارع "الثلاثينى" اخترق أذنى الصوت الزاعق للراكض خلف السيارة فى فرح ينادى: - يا أستاذ- يا أستاذ- يا أستاذ محمود.. (يا محمود يا طلخان).

أوقفت السائق بالعربة وأمرته أن يتمهل.

ركن بجانب مساكن الهيئة.. وأتى عبده فلاش يجر فى ساقيه. عابراً حارة العدل دانياً من زجاج نافذة العربة الـ ٥٠٤. وبرزت أصابعه الطويلة بيده

اليسرى متحلقة حول عود القصب الطويل. الذى رفعه عبده عالياً وهبط بُعقله الغليظة يكسرها على رُكبه النحيلة، هرول ففتحت الباب ونزلت احتضنه مقبلاً إياه ليرمى بعود القصب فوق شبكة البيجو، أشعل سيجارة كليو باطرة. فنظرته أرقب خصلاته البيضاء الموزعة على شعره فى كثافة دانية من سالفه الأيسر. متحلقة حول شاربه الكث وذقنه النابتة، وعنفنى عبده فلاش وطفرت دموعه وصار يهذى فى أسى وضيق.

– يعنى عشرة الـ ٢٠ سنة راحت هباء

وتذكرت آخر لقاء جمعنا ١٩٨٤ فى ورش الشحن والتفريغ بالجزيرة الخامسة، وقال عبدة فلاش

– إمبارح الزينى كلمنى عا الموبايل وقال لى إنك هنا من بليل– (إيه يا عم. هيه كايرو خدتك مننا ولا إيه ، وقلت محاولاً التخفيف عن نفسه.

– أبداً يا عم عبده. أنا عمرى ما استغنى عنك (دى عشرة عمر طويل)؟!!

– (شفت يا أستاذ)

– خير يا عم عبده؟

وعاد يبكى

– مالك يا عم فلاش – خير

– شفت العرص ابن الضاحى

– مين إيهاب.

– (أيوه الزفت ابن الوسخة قريبكم يا أستاذ وصار يذكر فى ما حدث معدداً مساوئ حفيد المعلم ضاحى سلطان رشوان.

– (الواد من ساعة ما نجحناه فى انتخابات مجلس الشعب وهو ما بيعبرناش. (تصدق). كل العمال والموظفين بتوع شرق التفريعة قبض منهم واحد

واحـد يـا أسـتاذ. دا حـتى مفيش ولا واحد منهم بورسعيدى أصلاً، (عموماً مش حطول عليك يا أستاذ. أشوفك بليل فى الشاليه؟!

وعُدت أكـرر عـبارات عـبدة فى فرح. صرت فى نفسى استعيد طريقته فى نطـق الحـروف- اسـتطالتها وقـت الـتفوة. مخـارج المفـردات وقـت خروجها من فمـه. كأنهـا سـيمفونية سـاحلية نـادرة. مـتفردة. لا تخـص بشراً إلا أبناء هذه المديـنة.. آه. آه. آه ه ه. أمـاااال- مـاهو شـرمووووط. مـا هـو تربـيه مـرة يـا أستااااذ، إصحى يابوص،

- لا مؤاخذة يا أستاذ- (أنا عارف إنه جاريبك، (يلا هنتكلم بليل)،

ودعـنى. وتخطى الجسر فلاحظت ثمة أناقه باقيه من مجده الضائع هناك —فـى مشـواره الطويـل، حدقـت فـى ملابسـه الشـتوية وهـو يطـرق عتبات حارة العـدل. وسـار يهـنكر فـى طولـون وصـوته يجـلجل صائحاً وقد عاد يمسك بعود القصـب مـن جديـد. كـان قـد مـصّ نصـف العود وانزوى فى الحارة منتصباً أمام خـرابة الخرتيـت مطوحـاً بنصـف العـود الآخـر فـى انقـاض الخلاء. مع الضوء الأحمـر لإشـارة المرور المنتصبة أمام المدرسة الواصفية؟!! لاح ظهر عبده فلاش النحيل غائصاً فى الجاكت الكاوبوى "الليفايز". كان قد اقترب من بيت عم حسن الشحمة وبدأ فى الصفير واضعاً إصبعيه الوسطى والسبابة فى فمه الواسع ليبرز لسـانه الأحمر الطويل متدلياً من مرقده.. واوقفنا بائع الفل على ناحية الواصفية ورجـانى أن اشـترى بعد أن رمى بالعقد فى حجرى. ورأيت جده حسن الشحمة وقـد هرمـت. اخترقـت الـنافذة الأرابيسك فى التراسينة الخشب المتحلقة حول جانبى العمارة القديمة وصارت تصيح فى خرف.

- (يـلا يـا الـه يـا ابـن الدايخـة.. روح له هناك عا الفرش. عمك الشحمة هناك يا فلاااش،

رأسى دارت واجتررت زمنا طويل مضى. العربة تدور فى شوارع بورسعيد- وأنا أطل للنوافذ والشرفات القديمة. البيوت الخالية. الوجوه الغريبة الذى لا تعرفنى ولا أعرفها. استعيد بانوراما الأمكنة القديمة. أحدق فى فيلا "أوجينيه". ويتدخل المخرج؟!!

يصرخ فى داخلى فى نفسى- من نفسى ودون وعى منى تنفلت الأحكام العقلية الواعية وتستدعى ما فيك مع أصحاب الطفولة والشباب- جمعتهم فى الهول الكبير داخل فيلا "أوجينى" خلسة أدخلتهم من الباب الخلفى من شارع "صلاح سالم" الذى استبدل اسمه ووضعت اللافتة الكبيرة باسم الزعيم جمال عبد الناصر بدلاً منها. ودخل عبده فلاش البلاتوه- الكاميرا مثبتة فى بان ترقب حركة الحياة وما يدور فيها- قديماً وحديثاً ومعاصراً، حسن علام يسبق عبده فلاش فى الدخول. وتبعهما محمد الزينى والقُدس. وصار ميمى بمفرده عاجزاً عن صنع شيئاً يخصه وحده فى المشهد الطويل، طارق بسكوته والبرديسى يتحدثون بالإنجليزية والطليانية. وعلى مرأى الوجوه الغريبة عن المدينة أضيئت الكشافات من الإسبوتات الهابطة من السماء. وانفتحت ماكينة الدخان لترمى بظلال السواد العدمى فى خلفية المشهد.

ولاحت وجوه الغرباء كئيبة وقت أن انكفأت خلف الكاميرا أحدق فى دلالة المشهد. باحثاً عن رفيق وحيد وسط المحتشدون أمام الكاميرا فى بلاهة العدسة مكبرة والرؤية آنية ترصد مشهداً حسبته حميمى فحلمت بتصويره. بإخراجه منذ زمن.. ورغم اعتراض الخديوى الجالس على كرسيه المهيب فى التابلوه الذهبى المُعلق على الحائط الرمادى.. إلا أن عبده فلاش قد ظهر يصيح فى لحظة فرح حُلميه. خارجاً من خلف سحب الدخان مردداً

- عايزين نعيش يا سعيد باشا؟!!

ويضحك سائق البيجو الـ ٥٠٤ على عبوثى وجهامتى ويصرخ فى منبهاً.

– إيه يا أستاذ.. (إنت رُحتَ فين. قهوة البرنسيسة يا أستاذ،

نزلت وسألت على الكابتن نصر قنديل. فقالا العربى العايق وجمال البيِّه فى نفس واحد.

– لسه مجاش يا أستاذ (أصله النهاردة عند نسايبه فى بور فؤاد، ويدخل المقهى كابتن سنجق ضارباً كفا بأخرى مردداً فى ذهول- لا حول ولا قوة إلا بالله؟!!، التفت على جموع الرواد التى احتشدت فجأة أمام محل الحاج محمد المصرى السماك وصاح فى حزن،

– الكابتن عوض مرزوقه مات النهاردة يا جماعة؟

(الحاج سيد متولى بلغنى من شويه.

وأصابنى الخرس فخرجت من "البازار" متوجها لكافتيريا "جسطن" الذى قابلنى أمام فُرن الشوى البلدى:- البقية فى حياتك يا أستاذ، الكابتن عوض مات- (ياريت تحضر الجنازة معانا بكره.. (ولا انت مسافر؟!!

جريت فى امتداد السوق القديم أعبر الكيمان المتلثة قُرب سوق اللجريج قاصداً حديقة "فريال" متوجهاً لمنزل الحاج سيد الملاح- رفيق عمر الكابتن مرزوقة. محاولاً التأكد من صحة الخبر. خاصة وأنه قد سبق وترددت إشاعة مشابهة فى الماضى- منذ ٨ سنوات. وكان فحواها يومها- أن الكابتن عوض مرزوقة قد تناول ٣ حبات من الفياجرا وضاجع أربع بنات روس واشترط عليهن قبل اعتلائهن أن يقمن بفرد خصلات شعرهن الطويل على عيونه بصدره، جريت فى ذهول أصعد لشقة الملاح. ليبلغنى الخادم. بأن الحاج سيد قد ذهب لحضور الاجتماع الأسبوعى للغرفة التجارية. استدرت أقصد المنزل القديم للكابتن عوض والتى تحيا فيه الزوجة السابقة طرقت الباب فخرجت المرأة

بشعرها الهائش سألتها عن الكابتن ولم أخبرها بشيء وسمعتها تقول في نفور
— روح شوفه عند أخته الكبيرة ساكنة عند باب ١٢.. مريت بحلواني "جيانولا" السويسري ورأيت الكراس خالية وعرفني عم منصور البربري وقال لي في غرابة

– شوفه في بيت أخته الصغيرة في طرح البحر؟!! هويت في طرح البحر. وتذكرت المدخل الخشب في منزل الشقيقة الصغرى.. ضربت الجرس ٣ مرات الباب مغلق. لا صوت لأحد. دفعت الباب بكتفي في قوة فركضت برأسي أهوي في الممر الطويل المؤدي لغرفة النوم في أقصى اليمين. ولاحت ملامح الكابتن عوض مرزوقة. وبان وجهه المميز بإحمراره ونحافته وبروز عظام الوجنتين. الوجه غائص في عرق غزير. كابتن عوض متجرداً من كافة ملابسه حتى كلوته الجيل الشورت الأبيض استدار وطفت مؤخرته تضوى تحت أنوار النجفة الكريستال. ظهر نصفه الأسفل وقد انفردوا انثنى بركبتيه لابداً أسفل مؤخرة المرأة اليونانية الشقراء متحلقاً بذراعيه النحيلتين حول بطنها واثدائها النافرة. وبرقت العيون الزرقاء في وجه المرأة الشقراء التي همت تنتصب. ترمي برأسها للخلف لترى جدائلها الصفراء وقد انفردت بالخصلات الطويلة تحجبُ وجه الكابتن بصدره. وانهمكت تلحس في عنقه القصير الرفيع فوق الملاءة الفيروزي المفروشة على السرير الحديد.

° ° °

الجو مُظلم قُرب كازينو "الأيلاندبيتش" وانت تتذكر وتجتر وتحدث نفسك هامساً. هائماً على الشاطئ الطويل تردد، كم من الأعوام مرت وأنا لم أزر هذه البقعة القريبة إلى نفسي، خلف قرية النورس "الجديدة" والذى قال لي الزيني إنها ليست بجديدة. فقد بُنيت في بداية تسعينيات القرن الفائت؟!!

"طفت بالمناطق المجاورة ورأيت الكثير من القرى السياحية الجديدة تفترش الشاطئ مطلة على البحر المالح فأيقنت. بل تأكدت بأننى لم آتى إلى هذا المكان منذ زمنا طويلا. ١٢ سنة تقريباً. أو يمكن ١٣- ١٤- لأذكر، لا يهم، المهم ما قاله عبدالله وقت أن رأنى أحدق فى حسرة مأخوذاً بالدهشة وقد زاد طللى فى بانوراما المكانة.

-وكأنك تتطلع لمدينة ميلادك لأول مرة من طرح البحر، ستة قرى جديدة. منهم. "الفيروز" و"الباتروس" و"مرحبا"؟! والكروان- وعشرات. بل مئات محلات التيك أواى والبيتزا والكنتاكى. محلات مجوهرات وانتيكات وتحف صينى وبراويز تايوان. ولعب أطفال مصرى رخيصة، وقطعة الأرض الوحيدة الخالية فى الرمال. صار رابضاً فى موقعها ممشى حديدى صدئ. يسير عليه عشاق البانجو مقتربين أعلى الكثبان الرملية يطلون لصفحة الماء. عُدت أتذكر الكازينو القديم- ليالينا فيه. سهراتنا أحلام عُمرنا جميعاً عادل مصطفى البرنس وشقيقه. أحمد بريزيو. محمد الزينى وعبدالله وطارق بسكوته وابن البرديسى ومحمد القُدّسْ ونبيل فرج- حتى حمادة عبدالله كان دائماً ما يأتى بصحبة شقيقه ناصر العائد من أمريكا.. همت اتطلع فى ذهول. ونبيل فرج يرقبنى فى فتور، - إيه يا عم- ما بلاش فقر. ما تسيبك بقى من الحنين اللى جواك ده؟! !- أقتله يا محمود، أقتله عشان تفوق للى جاى؟!

طللت كثيراً وزادت نظراتى لأمكنتنا القديمة التى تلاشت أو أُبيدت إذا صحت التسمية وصح التعبير أو الوصف الدقيق كيفما أرى ولاح لعيونى من أطلال.. قرية النورس الذى أكدوا إنها جديدة صارت قزما. أشبه بامرأة عجوز تستعد للرحيل، وتوارت حمامات السباحة التى كانت راقده بجانب فندق "إيتاب". ورأيت القرى الجديدة وقد بُنيت على أحدث الطرز المعمارية

الأمريكية الهجين. الواجهات فخمة والرخام الزان فى لون لحم الهوانم- أحمر باهت.. أسطح من القرميد وحواجز مطر طوبى مثبته بخوابير حديد داخل حوائط أسمنتية جهمة. ثمة طوب أحمر غامق وفاتح متراص فى هياج وفوضى قُرب بوابات الدخول المتسعة والتى يقف عليها أفراد الأمن فى مجاميع متفرقة بعضلات مفتولة وأجساد ضخمة مطلين للمارة فى تلصص وقرف واقفين على أهبه الاستعداد فى انتظار الانقضاض وفى أى وقت يشاءون على أى شخص عابر. أو مندهش. أو ضئيل مثلى، وتلفت حولى فى نفس موقع الوقوف. وصار الرمل من تحتى مبتل. الماء يأتى من الشاطئ منفلتا ويعود سارياً فى بطء، وابن الزينى يقول فجأة،

– عارف إن احنا متصورين هنا فى الأيلاندبيتش سنة ستة وتمانين.. (يوم مادخلت إنت الجيش. أيام أبو غزالة.. كان حسن علام لسه مسافرش أمريكا... عارف إن حسن مرة ورانى صورة قديمة لينا. لقاها مرمية وسط الرمل. كانت مدفونة تحت الرمال المبلولة- يومها حسن قال لى- إنه لقاها تانى يوم الصبح بدرى. بعد ماجت مباحث الآداب أول مرة ولقونا سكرانيين طينة،

– فاكر يا محمود؟

– آه لما شمعوا سى هورس بالشمع الأحمر؟!!

– ما شاء الله على الذاكرة؟!!

صرت ألف وادور كالباحث عن مجده الضائع وسط أطلال الخراب.. توارت طفولتى وزاغ منى الصبا وبدد الشباب دون حصاد؟!!،

الأنوار تخفت تدريجياً خلف الكورنيش الجديد المثبتة واجهاته بقشور الطوب الجيرى الأبيض فى بنى، طوفان من السيدات المحجبات يخترقن ممشى

الكورنيش والممر المائى فى حشود. مجاميع. شلل. وفرق متعددة تركض فى فتوة وجهامـة وكبرياء مفـتعل. مـئات الأرديـة اللاميه. والتريفيرا الصينى الشفيفة تلـف الحجـاب والخمـار الأسـود. عـباءات فضفاضـة. وأخـرى محبوكة ملتصقة بأجسـاد شـهية. أجسـاد بدينة. رخوة. مكتنزة باللحم الرخيص المعطر. النهود طـرية والحـلمات لدنـة والأرداف السـاخنة بـدت تـنهض لتمـتص الكلوتـات الفرنسـاوى حول الأفخاذ وأدنى قعر المؤخرات لابده فى غور "الشئ"؟! ! وأدنى السُـرة وأعلاهـا تنـتفخ الـبطون المنـبعجة وتـبرز الشـفرات اللابـدة بين السـاقين متأهـبة للانقضـاض. وتـبرز الأحـواض اللحـيمة المسـتديرة أعـلى العانة الباضة العالـية الـتى تسـتقبل تـيارات الهـواء بترحـاب وغُـنج وتلـذذ لـيقول السـائر هائجاً :- أهلاً؟! !

عيـنى ترقـب السـائرات بمهـل. تجـوث ناظرة قبل المخلوقات الغريبة من بـنى البشـر. ونبـيل فـرج الـذى حضـر الليلة خصيصاً لرؤيتى. يمشى قُرب الماء ويـنظر المـوج الـذى يصـطدم بعـيداً فـى محـاولات مسـتمرة للـنفاذ مـن الصخور الموضـوعة بمحـاذاة الكتائـب القديمـة ومبانـيها العتـيقة والطـلاءات الرخيصـة لثكـنات قـوات حـرس الحـدود. ويزيد تحديقى فى نفس المكان عائشاً فى ماضى المنفلت والزينى يحاول مداعبتى فيقول- (فاكر الحشيشة البلجيكى؟

- (آه)

: الـلى جابها عبدالله وهو جاى من بلجيكا يوم فرح أخوه، أضحك وتزداد ضـحكاتى فـى خلاء الشاطئ الطويل أنظر الفنار الجديد وأتذكر والدى وذكرياتـه ولياليه سهراته هناك فى آخر أيامه بعد العدوان؟! !

اسـتعيد سـيرة حسـن عـلام المسافر هناك عند شواطئ ومدن أخرى. مدن لا تطل على بحرنا هذا المتوسط. وأحمد بريزيو يقول

- هيه أمريكا بتطل على بحر يا أستاذ؟

ويرد عبدالله فى فجور وسخرية،

-: حد عارف. والله ما أعرف هيه بتطل على أى بحر بنت القحبة دى، حسن علام ما اتصلش ولا مرة من يوم ما سافر؟

- اتصل مرة.. أظن سنة ٩٤.

وتاه الزينى متذكراً رفيق عمرة؟!

الهواء يضرب ملابسنا وصدورنا ورؤسنا وشعورنا الغريب المحلق. يصطدم بجلد رقابنا العارية. ويسرى هابطاً يتحلق حول أطرافنا النحيلة.. رذاذ الماء المالح يهب من جهة الشاطئ فيستقر نثاراً فوق وجوهنا الباردة.

على صوت تلاكسات "بوش" لعربة بيجو ٥٠٤ نورس أبيض فى أزرق لمحت عبده فلاش بينادى دخل بإطارات السيارة الكاوتشوك فى الرمال الصفراء الناعمة وصار على مقربة من خطانا وتوقفنا المستمر خلف قرية النورس الخافتة الإضاءة. نادى فلاش. زعق من بعيد ولاح وجهه فى الظلمة هابطاً من سلم الباب الخلفى لقرية النورس!

- إنتو هنا يا حشرات.. عمكم عبده فلاش وصل يا حرافيش.. بقالى ساعتين بدور عليكم يا حوش- (وانتو واقفين تضربوا بانجو، وبدا يتمايل فى سخرية مطلاً للسفن البعيدة مازحاً، وشارب البانجو لا ينجو؟!

ضحكت ودمعت عينى ورأيت عبدالله منهمك فى لف السجائر أسفل مركب الصيد الخشبى المتهالك الراقد قُرب الشاطئ.. وهالنى بحرفته وقت أن بلل أطراف ورقة البفرة بطرف لسانه وصار يبرم السيجارة فى عشق كأنها رفيقته الدائمة.. وأدركت أنه لم ينطق بكلمة واحدة منذ وصولنا للشاطئ فقلت فى نفسى لعله حزين أو شارداً فى أحوال زوجته المريضة وطفله الجديد حسين،

عينى على النسوة المخمرات اللاتى يمشين ببطء آلى فوق ممشى الكورنيش الجديد أطيل النظر لعلى أرى أنثى تمشى بشعرها حراً طاليقاً أتذكر حكى عم حسن عن بورسعيد زمان كانت البنات بتحضر حفلات أضواء المدينة بالكارية وقصة عا الحاجب وذيل حصان طويل وشعر كستنائى هائش وعيون واسعة مكحلة بتطل بخجل وعشق حقيقى. كانت التفاتات جنون. كانت البنات مغامرة وروج فوق الشفايف ورموش طويلة ومسكرة وظلال جفون. وأحلام ماشية فوق عيونهم السارحة؟!!

صرت أحدق فى جنون فرأيت العيون الوسيعة محجوبة خلف الإيشاربات الشيفون تتلصص على الشباب الرائح والعائد فى طريق المشى. الصبايا يرتدين الجينز والبادئ وجواكت فرو فوقها الطُرح التركى والسورى تحجب الشعور، ونفذت لفائف البانجو فى الـ ٢٠ سيجارة واقترب عبده فلاش من محمد الزينى. بعد أن سحب الفوطة الصفراء وقام بتلميع البربريز الأمامى "للبيجو"، فلاش يدس يده فى جيب بنطلونه القطيفة يخرج قطعة من السوليفان يرميها فى وجه الزينى قائلاً، حتة زيت مغربى مُكن عشان خاطر الأستاذ.

والزينى يرد ساخراً.. وهوه فيه زيت مغربى ياكروديه، خمسة سرنا بمحاذاة الكورنيش وأتت المياه المالحة تندفع من الشاطئ القريب لتقترب من الرمال الناعمة. وخطى عبده للأمام وانزوى يميناً قاصداً الشنطة الخلفية للعربة. سحب صندوق البيرة "الهانيكن" البلجيكى. صال الهواء وجالت الرياح فى هبه شيطانية لتضرب أرجل البناطيل الجينز والقطيفة "الليفايز" بعنف لتظهر عظام السيقان وتطفو الأفخاذ الضئيلة مشينا طويلاً فتوقفنا خلف "نادى الصيد" على يميننا الدُشم القديمة والسواتر الرملية المكومة فى تلال وهضاب بارزة قبل استراحة قائد كتيبة حرس الحدود، وصار الفنار يطوف بمنشورات

ضوئية باهرة. وضوت لفة السوليفان الشفافة الذى هوت من بين أصابع عبدالله المُدرب بحنكة على وضع خابور الحشيش الطويل المبروم داخل السيجار المارلبورو دون خروج الدخان من البفرة الملفوفة آلياً، وناولنى عبدالله السيجار ونحن سائرين وبثُ أسحب الأنفاس على صدرى فى كياسه ليخرج الدخان الأزرق من فمى فى بطء ناولت الزينى السيجارة وراقبت انتشار الكرات الهلامية السابحة فى الفضاء الرمادى بطرح البحر الفنار يواصل الطواف والضوء الساطع يكشف الأمكنة البعيدة دانياً يُحط على السفن السياحية العتيقة السائرة بمهل تهجر البوغاز. الدخان يرتفع ونثار الرماد المنطفأ يطير متلاشياً مع هبوب الرياح قُرب منتصف الليل

° ° °

جهة كبائن نادى ضباط القوات المسلحة كان صدى الصوت يحلق فوق رؤوسنا قُرب أذاننا المنصة بشغف راضية بنسمات الهواء العليل. راق الحال وتاقت الأرواح للنشوة والفرح، وسرى صوت المطرب الشعبى يسرى فى الأذان وغمرنى إتزان نفسى نادر فسمعت المغنى القاهرى عبر المكبرات الديجيتال وردد فى أسى ولوعه. (يا جارح القلب اسمعنى. بلاش يا عمرى تضيعنى. حرام عليكو الظلم حرام- ليه اشترى ليه وإنت تبعنى؟!! ومالت رؤوس الأصدقا وانتش الزينى وبلبل وعبدالله وابن فلاش الذى خلع السويتر الجلدى وطوحه فى الهواء فى سكرة مفاجئة. وطفرت الدموع من عينية ورنا إلى سمعى صوت نبيل يأتى بسيرة حسن علام المسافر. صار يهذى فى جنوح وأسى مردداً فى صوت خافت وعلى مسمع ومرأى السائرين بمحاذاته،

كده برضه يا حسن. ١٤ سنة ومش عايز تيجى.

آه يـا ابـن الكلـب يـا خسـيس، ولا حـتى جـواب واحـد. ولا مكالمة توحد ربنا؟!!

وصرخ محمد الزينى وصاح فى غضب،

:- (ديـن أم أمـريكا وديـن أم حسـن عـلام ونيوجرسـى والحـرية. وكـل البورسعيدية اللى هناك؟!!

والتفت عـبدالله يـرمقه. رمـى بـزجاجة البيرة الفارغة وسط الموج المتلاطم واسـتدار يقـول:- لازم تعـرفوا إنهـم مـش هيرجعـوا تـانى. بـلاش فقـر؟!! (وياريت تغيرو الموضوع،

- تحيا أمريكا منارة الحرية والديمقراطية والعدل فى العالم؟!

وتعجبت لمقولة عبدالله المباغتة والتى تتناقض مع كل مواقفه وأرائه الماضية فقلت فى وضوح

-: وأنـا بشـاركك الـرأى يـا سـكران، ورد بحـدة يوبخنى موجهاً حديثه للجميع،

- (مـا خـرفان إلا إنـت وأصـحابك يـا أسـتاذ مخرج.. فوق يا أستاذ.. فوق وفوّق أصحابك اللى مش عايشين فى الواقع.

- عايشين فى غفلة بعيد عنك.

ودنـا محمـد الزيـنى يقول:- (أى واقع يا بتاع الحرية والديمقراطية. فين الحـرية فـى فلسطين والعراق ولبنان وإيران وسوريا.. (وإسرائيل اللى شغالة عا الكل والأمريكان حامياهم،

-أيـوه يـا سـيدى أسـيادى لأنهـم نـاس متحضـرين، (الأمـريكان شـعب ديمقـراطى يـا زيـنى)؟!- إنـت عـارف. لو سمع بوش إللى أنت بتقوله دلوقتى- هيضحك، ومش بعيدة يعزمك على كأسين جوون ووكر،

– آه. هـيأكلك بأيده من الديك الرومى؟! ، كنا ماشيين فى ليل ٢٨ ديسمبر
–وصـوت الـموج المنفلـت مقترباً مـن الـرمال الناعمة يزيدنى جلالاً ويقظة. ظللت فـى البعيد أرقب المراكب السائرة بعرض الميناء وقت أن زعقت السرائن وانطلقت الـنوافير مـن داخـل كـبائن اللنشـات الصـغيرة الـتى فارقـت ميناء الصيد القديم وانحنـت يسـاراً مـتجهة للغـاطس. فى جلبة منتصف الليل وبعده بدقائق طالت أصـوات الـبواخر فـى البعـيد المـرئى فقلـت لعـل المركب الكورى الشمالى يستعد للعـبور ومـن خلفه سفينة الغاز الإيرانية المتجهة إلى الإسماعيلية. إلا أن حركة القباطـنة فـوق اللنشـات المعاونـة والـذى رصدها عبده فلاش بميكرسكوبه المكبر رصدت القاطـرة الكـبيرة وقـد تحلقـت حـول المركب الكورى واستدارات قاصدة وسـط المـيناء لتفسـح لهـا مكاناً قريب من الغاطس، وفرت اللنشات الفيبرجلاس فـى المجـرى الملاحـى ووجدتـنى شارداً فى تلك الهالات والبقع المضيئة المنثورة وسـط المـيناء– وأخذتـنى أحـلام الـيقظة وقـد اعتلـت عقـلى وحلقت به بعيداً فى وعى نادر. ووجدتنى تواق للسفر أرقب البواخر البعيدة الراحلة.

أهفـو إلى مـدن جديـدة. موانـى غريبة. تاركاً كل شىء.. ورأيت الفؤاد وقد سـار فـى كـل الموانـى الـذى حلمـت بهـا فـى عمرى وشاهدتها فى أفلام عديدة. مشيت فى ميناء صيدا ببيروت. وتطلعت فى دهشة إلى ليل مدريد. وسبحت فى نـيس ماكـثاً بالـريفيرا. مـتوقفاً فـى كـان مقـرراً المغـادرة للإقامـة فـى رومـا الحبيـبة؟!! وقلـت فـى صـرخة قهـر يكسـوها الغضـب– فالتحـيا الديمقراطـية الأمريكـية لأبـناءها والوافديـن إلـيها. أما انتم يا حسالات العالم الثالث فهنيئاً لكـم القهـر والاسـتعباد والظـلم فهـو لـيس بجديـدا علـيكم. فالأتـركـكم للدعارة والسـطو والوشـاية الـتى تمارسـونها فـيما بينكم.. وشدنى الزينى من يدى فزاغ بصـرى فـى قطـرات البيرة التى انزلقت فوق شارب عبدالله الكث. ورأيتهما وقد

جذبونـى من حزام بنطلونى محاولين منعى بالقوة من دخول الماء وقت أن قفزت فـى غضب أعـبر الحواجـز الصـخرية المتراصـة بطول الشاطئ، وعدت فى حالة هذيـان وكأنـه مـس جـنونى قـد إنتابـنى فاعتـلى جسـدى خانقـاً روحى مبعثراً أفكـارى. خلعـت كافـة ملابسى ووقفت باللباس القطن الداخلى ألف وادور حول نفسـى. أزوغ مـنهم. أتـرك أصـدقائى القدامى الحيارى أركض فى الماء البارد فى هيستيرية. أركض. أركض متتبعاً الهالات البعيدة للسفن الغاربـة تفارق البوغاز تـتخطى المياة الإقليمية. تعبر. صرت مندفعاً إلى ما لا نهاية أجرى واسبح غائصاً خلف المراكب الصغيرة التى تجوب البوغاز؟!

وأخـرجونى مـنُهك القـوى وقد تملكتنى رغبة جهنمية. شيطانية تدعونى نسـيان كافـة مـا حلمـت بـه. كـل مـا حققـته عـبر سـنوات عمـرى الفائـتة. فى بورسـعيد. والقاهـرة، ووجدتنى وقد أفقت مستيقظاً من خيالاتى وأوهامى نافضاً الهـم عـن نفسى تجتاحنى قوة غريبة مصحوبة بعنفوان وفتوة أنظر أصدقائى فى مـودة وحـب جـارف. ولاحـت لى وجوههـم الطيـبة وملامحهم المجهدة. تحلق نبـيل حـول عبده فلاش وعبدالله وسمعت محمد الزينى يقول مداعباً.. أدى يا عم نتـيجة الحـرية، ياحـر. هـأ. هـأ. هـأ. ضحك وضحكنا جميعاً. وسمعت الزينى يقـول:- والله يـا محمـود إحنا اللى شعب وسخ. ومش بتاع شغل. شعب كسول. (لازم تعـرف يا محمود إننى مش ضدك فى كل اللى إنت قلته.. آهوه. قُصر ديل يا اذعر؟!!

أنـا عـارف إنـك عايـز تسـافر. وعارف إن كل جيلك سافر؟!، بس إحنا.. كُلنا عايـزين نسـافر يـا أسـتاذ بس إزاى. وبعد إيه يا عم محمود.. ولاح وجهـه الخمـرى صـافياً يحـدق فـى شـرود بعينـيه العسـليتين الواسعتين فيبرز جبينـه العـريض وقـد ارتفـع لأعلى كاشفاً حاجبيه الكثيفين الغائصين فى طبقات الشعر

المنتصب والمتدلى هاوياً فوق جفونه.. وطل فى أسى مكسواً بالحيرة والشرود والكآبة التى غمرت معالم وجهه فصار مسترسلاً فى صوت مبحوح...

-: (عارف يا أستاذ. طول عمرى وأنا بفكر فى السفر. كان نفسى أهاجر من زمان- وانت عارف. ياما ضيعنا.. وياما صرفنا. وياما انتظرنا تأشيرات. ورُحنا سفارات. وجبنا.. بس خلاص. بعد الجواز والعيال. بيموت كل شىء.. دلوقت كل همى أبيع لى حتتين فى البوتيك. أصرف على العيال ومراتى.. يا راجل. دنا بقالى شهرين مبعتش بنطلون واحد. والله العظيم يا محمود بقالى شهرين ما استفتحت ولا بعت لى بيعه توحد ربنا... ويقولك تجارة قال. ونص الربح فى التجارة؟!!

هأ. هأ. هأ.

- تجارة. _تجارة إيه يا عم فلاش، يرد نبيل ويعقب من بعده عبدالله قائلاً فى مرار.

- (يا عم لا تجارة. ولا صناعة. خربت يا عم، خربت يا عم بورسعيد من زمان.. كلها سنة ويلغوها.. دا لو مكانوش لغوها فعلاً... دا لسه كمان موضوع الوارد..؟!! ويسترسل عبدالله فى الحديث، ياريتك تسافر يا محمود البلد دى معدش فيها أى مستقبل إلا للحرامية والحلنجية، وانتهى عبدالله من حديثه وبات يرمقنى فى استغراب محاولاً قراءة صدى الفكرة على وجهى.. (سافر يا محمود؟!!) ورأيتنى وقد شعرت بالبلل يغمر جسدى وملابسى. وقطرات الماء المالحة تسيل على رقبتى وصدرى وداخل كلوتى القطن الذى بات يرشح من أسفل البنطلون الجينز الذى ظهرت أزراره مفكوكة،

وضعوا السويتر الجلدى على كتفى وألبسونى حذائى الأسود الصينى أبو رباط وطللت للأفاق الغائمة جهة نادى ضباط القوات المسلحة.. ونادانا صوت

الفرح وسرت في أذاننا صوت الآلات النحاسية.. وظللت للزفة البعيدة أتبع الحشود الغفيرة وصدى الزئيط والقهقهات الدانية، جريت وركضوا الصحاب من خلفي في نشوة مفاجئة غمرتنا جميعاً.. ولجنا من باب كبار القادة ودخلنا من الباب المبلط بالجرانيت ورأيت عربة "بورش" تحمل لوحة معدنية هيئة سياسية. وانفرد العلم السعودى على المسطح الزجاجي بالبربريز الخلفي. ظللت للسيفين وبتُ محدقاً في الداخل أرقب العروسين وقد بدوا في قمة تألقهما. جلسا في المقعد الخلفي للبورش. ولعت البشرة السوداء لسائق السيارة. ورأيت الأطفال بكثرة وقد تجمهروا أمام الشباب الأقزام الذى أرتدوا البدل الحرير السوداء بالبابيون الأحمر. رأيت النفخ في الصفافير الحمراء والسوداء والحمراء وقد انكشفت الملامح الخليجية وتمددت الأصابع الغليظة وحطت العيون وقت أن خطونا ننفذ من صوت الصفير والفرحة الزائفة واقفين أمام مدخل القاعة لتطير البالونات الحمراء في عبث وقد تعلقت كروت التهاني مسطورة أعلى البطاقات الكبيرة المصنوعة من البلاستيك والنايلون الأحمر الخفيف الذى رفرف بأسماء العروسين:- (مبروك لعنود وجاسر).. خرجنا نثرثر متذكرين حسن علام. ومحمد الجيار. وسامى سليمان وطارق سليمان وممدوح عسران ورأفت بطرس ومجدى عبد الحافظ وشقيقه عادل واجتررنا تاريخ خروجهم من بورسعيد في آخر الثمانينات.

° ° °

مشينا على الرمال الصفراء بمحاذاة مياه الشاطئ نسير قبل الكورنيش الجديد. ورأينا عمال شركة حسن علام يهدمون كبائن الشرق وكبائن الموظفين الصغيرة بالبلدوزرات العملاقة التى تسير في الظلام جهة الخلاء متحلقة في إنقاض وفضاءات الشاليهات القديمة القريبة من موقع كتيبة خفر السواحل...

طللنا نحدق للهدم وتذكرنا غرفة الضيافة الكبيرة التى نزل فيها الزعيم جمال عبد الناصر منتصف الستينيات بصحبة المشير عامر، وفى حسرة نظرنا القرى العديدة التى تراصت بطول الشاطئ كساتر من فولاذ.. رأينا الوجوه غريبة. ملامح هجين. بشر لا يعرفوننا ولا نعرفهم.. بحثنا عن عابر طريق عابر سبيل يدُلنا نحن السكارى التائهين. يرشدنا إلى منفذ للخروج من الشاطئ الذى انفرطت معالمه وملامحه التى كانت مميزة، ورنا إلى أذنى صوت عبدالله الذى تقدمنا وخطا للأمام قافزاً يعبر الأسلاك الشائكة جهة نادى الصيد. وسمعته يقول: (على فكرة يا جماعة- محمد أخويا جاى بكرة من بلجيكا.. والقدس جاى عا العيد؟!!

– طب وطارق بسكوته

– (اكيد جاى عن قريب)

– وحسن علام.

– مش عارف؟!!

وانطلقت الضحكات عالية فى سماء "هلنان شبرد".

وخلف حى البودرة. فحلقت فوق شرفات البرجوازية العابثة. وتذكرت آخر قطعة حشيش شربناها سوياً فى هذا المكان منذ عامين فكان بصحبتنا محمد العائد من بلجيكا فى الساعات القادمة، الزينى ينظرنى فى غرابة مردداً فى جهامة.

– بتضحك على إيه يا فقرى.. يا وش النكسة؟!!

– أبداً- أصلى أفتكرت الحشيش البلجيكى ليلة ما قعدنا ساعتين عشان نعدى قناية القنطرة فى القابوطى.

° ° °

اتفقت مع عبده فلاش أن نلتقى فى ظهيرة الغد عند كافتيريا "أبو إسلام" فى طرح البحر. وجاء عبدة بموتوسيكل "ياماها" جديد. تقدر سرعته بالميل. ورأيته وهو يدنو ببطء أتيا من ناحية مبنى النادى المصرى ماراً بكافتيريا "الكاستن" داخل القاعة الخضراء وجلس يتفحص وجهى يرقب ملامحى التى تغيرت فجأة فطفت بالغرابة والحيرة دون سبباً واضح. قال فلاش: –

– أحمد بريزيو". جاى ورايا. جه عشان يشوفك لما عرف م الأشاوس، وهرع أحمد فى اتجاهى يحتضنى قائلاً:

– يعنى تيجى بورسعيد وماحدش يشوفك. وضارب لى ميعاد مع فلاش.. أيوه يا سيدى يا حظك.

ماهو حبيبك،

كان قد ركن سيارته الهونداى الجديدة. بجانب الرصيف ونظرتها فى دهشة. وسرحت فى ظنونى فانتبهت على نداءاته المتتالية على "كريم" النادل.

– (تعالى يا ابنى شوف الأستاذ يشرب إيه لغاية ما آجى. ورمق عبد فلاش الذى قام يمسح الزجاج الخارجى لمؤشر السرعة. ضبط المرايات الجانبية ونظر الموتوسيكل فى فخر وهومركون تحت الرصيف يضوى تحت أشعة الشمس واستدار بريزيو موجهاً الحديث لفلاش على مقربه من الطاولة البلاستيكية الموضوعة أمامى.

– يا فلاش.. مفاتيح العربية آهه. وأنا هضرب بولطة بالياماها. وهجيلك.

– وماله. أنا والياماها تحت أمر البريزيوه، وقدم محمد سمك. (أبو إسلام) صاحب الكافتيريا. معتذراً محاولاً احتضانى ومصافحتى فاعتذرت على الفور قائلاً فى نفور.

-: (يـا راجل ما انت شايفني من بدرى.. اشمعنى يعنى لماجه عبده فلاش جيـت تسلم. وانتـبه عـبده للحديـث فاستدار قافزاً يصعد الرصيف وقد ظهرت سـاقه اليمـنى بطيـئة الحـركة ترتكن بصعوبة أسفل الطوار المبلط بالرخام. رمق محمـد سمـك وظل منصتاً لحديثى الوجه لأبو إسلام وقت أن امتقع وجهه وذاب فى صفار متلعثماً فى النطق مؤكداً.

-: (لـيه يـا أسـتاذ محمـود بـس كـده. والله يا سيدى ماشوفتك. دنا بقول للوله- مين ياد اللى قاعد لواحده ده.. قال لى. باينه زبون غريب يا معلم؟!!

- حصل خير يا أبو إسلام،

- إلا أنا سمعت إنك رشحت نفسك للانتخابات

- آهو يا بيه- لسه المشوار طويل. وأنا مش هيأس؟!!

ورأيت صـور أبـو إسـلام المطبوعة على أوراق رخيصة وقد اعتلت واجهات الأكشاك الخشبية المنتشرة على الكورنيش وبامتداد طرح البحر وأعلى مدرسة "أشتوم الجميل". وخلـف مساكن المغتربات المواجهة لمدخل النادى الاجتماعى الملحق بمبـنى الـنادى المصـرى الرياضـى، حدقـت فـى صـورته الباهتة. ورأيت شـاربة الكـث يتمدد على أجناب صداغه. رأسه مفلطحة، ملامحه لا تبشر بثمة قبول عـند أى رجل مثلى تعود التدقيق فى صور البشر وملامحهم الطافية كأول دلالـة ظاهـرة على التقليب فى كُنيته وطبيعه ميوله وأفكاره. كون ملامح البنية الظاهـرة. هـى الأقـرب للقـياس ومـدى جـدوى مشـروعه الفكـرى أو البـنائى الاجتماعى أو الخدمى.

وانصرف محمد سمك فعلق عبده بالقول:-

- (راجـل هجـاص وحلـنجى. مظـراب. كـل الـناس دلوقـتى عايزة تدخل مجلس الشعب وتغنى وتلعب كورة،

(مشاريع نصب والـلهى يـا أسـتاذ.. آه يـا ولاد القحـبة لفظهـا ونظر فى الـيمين جهـة الأسـفلت. أطل بنفور جهة مدخل مطعم (عبده كفتة) الكبابجى، قلت مالك يا عم فلاش.

- (عارف دى عربية مين؟!!)

طللت فى البعيد فوجدت ستة عربات مرسيدس آخر موديل،

- آهى يا أخى. السودة الـ ٢٠٠ دى،

- آه.. الشبح؟!!

- آه.. أهى دى يا سيدى عربية العرص "إيهاب ضاحى سلطان،

قلت-: واضح إنك زعلان منه قوى،

- عـارف الـولـه معـتش بـيعمل أى خدمة لأى حد إلا بالفلوس (كل شىء بتمـنه. حـتى الجـنازات والأفـراح الـلى بيحضـرها كـل يـوم والـتانى- معـارف جديـدة وعلاقـات مـليانة ونسـوان وفلوس وإتفاق على سهرات وبيزنس، (حتى فـى الميـناء- شغال، تخيل يا أستاذ- كل العمالة الخاصة بمشروع شرق التفريعة جابوهـا مـن بـره بورسـعيد.. والـ ٢٠٠ نفر اللى عينوهم من بورسعيد كل واحد دفع للمعرض ده ١٥ ألف جنيه؟!

قلت:- يعنى أبوه كان أجدع منه يا فلاش،

-: الله يـرحمه المعـلم العـربى- كـان راجـل يـا آخـى رغم أن العيلة كلها- التعريص عندهم فى الجين- بالوراثة وشرفك.. قلت :- (عارف يا عبدة)

- لا مؤاخذة يا أستاذ (أنا عارف إنهم جرابيك؟!!

- إنت عارف العيلة دى بتفكرنى بمين يا عبده

- بمين يا أستاذ طلخان.

- مثلهم مثل نظام الحكم فى أمريكا. (القدامى أفضل)؟!!

ويتفوقون بمراحل على المعاصرين.

ومن الممكن أن تقول أنه ليس هناك وجهه للمقارنة على الإطلاق، عندك جد إيهاب دة مثلاً

- آه. المعلم ضاحي سلطان رشوان. الله يرحمه

- كان راجل جدع وشهم وفتوه بجد. يقف بجانب الضعيف. ورغم إنه أول من أدخل المخدرات في بورسعيد من أيام الملك؟!!

- آه أيام ما كان عضو في مجلس الأمة

- آه. لكن كان راجل واصل. محنك. كان جرىء؟!!

- عارف يا أستاذ. أبويا الله يرحمه.. (ياما حكى لى عنه).

رغم إنه كان بيكرهه. ومش عارف. نفسى أعرف ليه لكن الناس فى أول العرب بتقول. إنه كان بيعرص على بناته التلاته-؟!! ويضحك فلاش بسخرية مواصلاً كلامه وقد بدا يضرب كفاً بكف في دهشة، معقباً- جدتى "كنوز" الله يرحمها كانت بتقول لى. كان راجل جدع وشهم.. لكن كان "أفيونجى"؟!!.. وكان غاوى يطر طرفى الشارع. وقُدام أى حد؟!!

- أصله كان مريض بالبروستاتا؟!! الله يرحمه، عارف يا عبدة إنه مات بعد ٥٦. كان إبنه العربى- أبو الواد إيهاب ده. كان لسه صغير. كان فى الوقت ده إيزنهاور هوه الحاكم فى أمريكا. وزعل. حزن. لما إسرائيل ضربت بورسعيد مع الإنجليز والفرنساو.. حرقوا "المناخ" وشتتوا الناس يا آخى؟!!

- آه فهمت قصدك يا أستاذ.

- ولما تولى العربى ابن الضاحى سلطان العهد اتغيرت الأحوال- بدأت المأسى؟!! لا أبيض ولا أسود ولا رمادى حتى.. خليط؟!!

- إلا المعلم العربى مواليد ٥٢ يا أستاذا

– آه.. تقريبا . اتولد فى ٥٢ أو ٥٣ مش فاكر. لكن هو مولود فى يوليو؟!! وكـان بيـتقدم خطوة ويتأخر خطوتين. غلط كتير. ظلم ناس كتير فى بورسعيد.. (لكـن الـبلد كانـت بـتخاف مـنه برضـك. كان عنده هيبه وعزة نفس. كان شايل كرامته على راسه وبيزعق. كان لما يشخط فى أى حد قُدامه يهُر على نفسه.

– هوه مات إمتى يا أستاذ.

– تقريـباً فـى التسـعينات.. عمـل كـتير فى البلد. لكن كُل اللى بناه إتهد بغباءه. كان متكبر. وعنيد.

– لكن كان شريف.

– طبعاً.

– وتفـتكر يـا أسـتاذ. إن الوـله إيهاب طلع زيه. أبداً دا غبى. متكبر على الفاضـى دا خـرقة مخـوخ وحرامى ويحب المحسوبية. وطماع.. كل المقربين منه قالولى كده.. لكن أنا مش عارف. إيه اللى فى دماغه،

– يا أخى انت غريب جداً.

– ليه؟

والتفت عـبده مقـربا كرسيه المشمع ساحباً إياه أسفل الشمسية البيضاء فى زهـرى منصتاً بـود مدققاً للامحـى الـتى تغيرت فجأة فصرت متجهماً يغلبنى الانفعال والتسرع،

– يعنى إنت شايف الواد إيهاب الحفيد زى "ريجان" مثلاً؟

– لأ. إش جاب لجاب.. دول ناس اتعلمت وتفهم يعنى إيه سياسة.

– يعنى مش "بلاموطى". ولا "ظرْب"

– طبعاً..

– يعنى هوه زى "ريجان" ولا "نيكسون" يا أستاذ،

– لا. لا ده ولا ده. هـو خـليط هجـين (عجيـنة مـن بـوش و"رامسـفيلد" و"تشيني". على حبه ريجان ونيكسون،؟!!

وضحك عبدة وصار يقهقة ضارباً كفاً بكف منصتاً يسمعنى بدقة،

– عـارف يـا عـم فـلاش. أصحاب المبادئ الكبيرة ماتوا من زمان– والطرق اختلفت يا عبدة ومعاها اختلفت الأهداف.

– ودا إيـه معـناه يـا أستاذ. ودى تبقى حياة.. إيه اللى احنا عايشين فيه ده.. كُلنا بنحن لأزمنة راحت. وراح معاها ناس بجد. حبيناهم يا أستاذ.. ناس كانـت كـبيرة؟!!، وانفـتح الـتلفاز الباناسـونيك الموضـوع على الرف الإستانلس وظهـرت شاشـته الكـبيرة تبث خطاب الرئيس الأمريكى على الجزيرة مباشر، بتـنا نـتطلع لجـورج بـوش الابـن وقـد تحلقـت الجـنود الأمريكان من حوله فى بغـداد.. كانـت اللقطـة قريـبة تظهره وهو يقطع شرائح اللحم من الديك الرومى الكـبير.. أمسـك السـكين الطويـل وبـرز النصل اللامع وقد انغرز فى قلب الديك الـذى انتصـف الصـينية المستديرة وسط المائدة المستطيلة.. ورأينا الرئيس ينقض على الرومى وقت أن تحلق الضباط والجنود بجانب وزير الدفاع راسفيلد. وطالت لحظـات الـزيف وقـد طفت الكآبة تصبغ وجوه الجنود وقت التحديق للكاميرا. وراحت الطمأنينة تودع وجه الوزير الذى أصفر وجهه وسط فرق البلاك أمريكان المدرعة.. وسمعت عبدة يعلق فى زهق ونفور.

– مطلعش ديك رومى حقيقى يا أستاذا. دا قالو إنه بلاستيك.

– آهو. شغل إعلام وسياسة. (ماهما خلاص إتورطوا ولازم الكذبة تكمل.

– والله إنت حيرتنى يا أستاذ.. (أذكده إنت بتحب أمريكا.

– لأ يـا عـبدة، عمرك ماهتفهمنى.. أمريكا رمز للحرية.. الأمريكان فعلاً أحرار، عاشقين للحرية الحرية خرجت من عندهم. ودى حقيقة مش وهم

- واللى بيعلموه فى فلسطين يا أستاذ.. (أى حرية دى؟!!)

- بص يا عم عبدة.. العيب فينا إحنا مصر اتأخرت كتير. إحنا فاقدين روح المغامرة يا فلاش.

- يعنى حاكم ظالم وشعب جبان يا أستاذ،

- لا. حاكم مستبد. وسلطة فاسدة. والشعب محتاج ٢٠٠ سنة علشان يرجع شعب،

- (الظلم طابق عا البلاد والعباد يا فلاش)

- وآخرتها يا أستاذ محمود.

- الأمل دائماً موجود. ولازم نبحث عن طريق جديد يؤدى إلى تغيير حقيقى وجذرى حتى لو كان بالدم،

- بقولك إيه يا أستاذ- ما تسافر أحسن، قاعد تعمل إيه فى البلد دى؟!!

وتواردت الأفكار وصار الحديث مع نفسى طويلا، وانهمك عبدة فى لحس "الكاساتا" المثلجة، ونظرت لوجوه البشر الرائحين إلى حى الأفرنج. والآخرين الأتيين إلى طرح البحر مخترقين الشوارع الجانبية.

قاصدين مبنى النادى المصرى ومساكن النشار، فتيات ونسوة وشباب روش يرتدى الجينز. وباص مدرسة الفرنسيسكان. وأوتوبيس مدرسة "تنيس" للغات وعربات مدرسة علم الدين الخاصة يمرقون على الطريق المسفلت المؤدى لأبراج "العزازى" والبهائى و"جزار وحريز" والتى افتتحت مؤخراً بطرح البحر. وبشارع ٢٣ يوليو. تأملت ملامح الناس مدققاً فى الأزياء ولون العربات- ماركاتها. موديلاتها الحديثة.

البالونات تطير من نوافذ السيارات الشبح. تحلق فى السماء وتهبط مفرقعة فى وجه البنت الشقراء التى ضحكت صبى صغير يدور بعربة ذرة

مشوى- ينادى. نادى كثيراً فلم يقترب مشترى، وناداه عبدة فى حنان وابوه. فنظرته يقلب فى كيزان الذرة. يضعها فوق الفحم المشتعل، وتأتى عربة هونداى. تقترب تتخطانا لتركن بمحاذاه رصيف كافتيريا أبو إسلام. وتنزل منها الغندورة أم بنطلون مشدود على البطن. أدنى السُرة، خطوة البنت تؤكد إنها قاهرية. اللوحات المعدنية أكدت لى ظنى. سمعت لهجات مختلفة وصوت مبحوح ولكنه إنجليزية ذائبه فى القليل من الكلمات العربية الغير مفهومة- مبتورة الحروف. ناقصة. وعبده فلاش يعلق بالقول وقت أن اقتربت البنت تاركة السيارة على الجانب وبابها الأمامى الأيسر مفتوح على أخره. عبده ينظر مؤخرتها. يحدق فى كلوتها الأسود المحبوك حول الأرداف قائلاً فى جنون-: (جالك اللحم يا أبوشحم الغندورة تسبق الزوج فى الدخول. تتخطى عتبات مطعم الكاستن ومشى الزوج فى دُبرها وقد ركن السيارة صف ثالث. رجع للخلف وقت أن رمقته الغندورة من بعيد.. واصطدمت مؤخرة الهونداى بعربة الذرة، فركض رفيق الغندورة دون أدنى اهتمام. ودنا يضع يده اليمنى على كتفها وقت أن ولجت تفتح الباب الزجاجى فى كبرياء. وعبده يعلق فى نفور واشمئزاز.

-: (عارف يا أستاذ.. بنات القاهرة دول عايشين برضك. النسوان والبنات عندنا فى بورسعيد. غلابة. الواحدة هنا فى البلد- تقعد تتغندر وتجرى وراك وتضرب الاستريتش المحزق، و"كأنها بتقولك بتاعى أهوه؟!)- ولما الواحد يقرب منها تقولك- لأ:- (قابل بابا. وماما، شوف طنط. وطنطا وفرنسا، وكأنك داخل تحرر فلسطين وهتعيش بجوازها ملك فى فيلا فى الضفة؟!!، وتكتشف بعد كده- إن الغُلب طافح من مشية المرّة من دول. وهيه يا دوبك

خلفه والتانية- ويضرب كرسى النص والعفشة تشخشخ.. ورجليها الأتنين يبقوا شمال.

والبزين زى أشوله الرُز.. (أيوه يا أستاذ)

- الشبار الجوابى. والرز والكرات أبو شوشه يا معلم؟!!

ضحكت كثيراً فبان غُلبى على وجهى فطلبت بيرة مثلجة. وأشار عبده لبائع متجول يبيع فوّط صفراء. اشترى واحدة وقام يسمح زجاج البربريز الأمامى للعربة الهونداى الذى تركها بيريزيو تحت الرصيف. فنظرت لنمر المنطقة الحرة أعلى اللوحة المعدنية فى الخلف وقلت له- وبكام الهونداى المنطقة الحرة دلوقت يا فلاش؟ بـ ٤٥ ألف وممكن تزيد، (بس ربك يستر لما تتلغى المنطقة الحرة- إنت عارف أن تجار بورسعيد ورجال الأعمال بدءوا يلعبوا سياسية يا أستاذ؟!!

قلت: (إزاى يعنى يا عبدة. تقصد إيه؟

-: (يعنى واضح فى موضوع الانتخابات الأخيرة أنهم بيقايضوا الريس فى موضوع ترشيحه، طالبوه بمد العمل بقرار المنطقة الحرة- قصاد إنهم يعطو له أصواتهم فى الانتخابات.

- وده مش هيحصل طبعاً؟!

- والله يا أستاذ ماحدّ عارف.. كل شىء فى البلد بقى غامق، (وبعدين دا كُل أصحاب البطاقات الاستيرادية هليبة ويبيعو ولادهم عشان الجنيه؟!!

- طب وإنت شايف إيه يا فلاش؟

- أنا معاهم طبعاً، "نلعب سياسة" بقصد المصلحة.

(وبعدين ما إحنا طول عمرنا عايشين فى جهل وتماحيك، بس خلى بالك
– البطاقة دلوقت بتتأجر بالدولار، وعلى الفور سألته عن "السيد مزروع"
الصغير. صديقنا التاجر بتاع "طولون"

– إنت معرفتش يا أستاذ.. مزروع محبوس ليه ٦ شهور. أخد ٣ سنين سجن فى قضية تزوير. زوّر البطاقة لاستيرادية- خلا أم ١٠ آلاف ب ١٠٠ ألف دولار. وجاب بيها حوالى ٣٠ حاوية من الصين، (بس جدع آهو عملهم... (السيد مزروع بيلعب له دلوقت فى ٢٥ مليون جنيه يا أستاذ... (يا أستاذ متسافر أحسن؟!! سافر يا أستاذ لحسن هتموت بحسرتك. أو هتجنن

– إنت كل طموحاتك فى العلم والفن- وبلدنا هنا كُلهم حلنجية- (هليبه)؟!- اللى مرتشى. وهم بالسؤال قائلاً- أمال أخبار الحاج إيه. أبوك عامل إيه يا أستاذ- (هوه فين دلوقتى؟!!) وقلت وقد انتابنى الشرود فبنت كالممسوس أردد فى نفسى فيخرج صوتى منخفضاً رغماً عنى (سأسافر يا عبده؟!!

هسافر لما تحين الفرصة. فى أقرب وقت،

وحانت ساعة خروج الموظفين من مصالحهم فزادت الجلبة وبان الزحام كثيفاً فى "طرح البحر" ووجدتنى مطلاً اتفحص ملامح العابرين فى دقة. وكثرت الوجوه على مقربة. وبت أحدق فى غرابة- أرقب الملامح. وهيئات الشخوص. ملابسهم وجوههم- فتزداد حسرتى. ليس هناك ثمة وجه أعرفه أو يعرفنى- شباب وبنات وصبيه وصبايا تروح وتجئ. تخطو فى عجل على الطريق المسفلت.. يسيرون فى جهامة وكبرياء. يمشين فى عجلة متقافزات مترنحات. مجهدات شاردات يطللن بنهم صوب الملابس المزركشة المعلقة فى الفتارين الزجاجية.. أرمقهن. أرمقهم جميعاً فلا يعيروننى انتباهاً لا يلتفتن. لا

يلتفـتون. أقـول فـى نفسى فى فزع- ليس هناك ما يربطنى بهذه الكائنات. بتلك السحنات الهجـين لوجـوه البشـر الغـرباء عـن المدينة- وصارت الطلات وجالت فارتمـت ترميـنى بالشـرر متلصصـة ترقـب هيئـتى. ملامحـى مغـزى نظـراتى. اختلفت الطـرق والأهـواء مع اختفاء المعالم القديمة للمدينة- بناياتها. شاطئها. حسـها. رقـتها. صـفاء الوجـوه فـى بشـرة أهالـيها الطيـبون. صـرت اتتبع خطا المصطافين والمصـطافات- أمشـى- مشـيت فاقتربـت مـن بـاب الهونـداى وفتحـت الـباب الأمـامى الأيمـن وتركـت فلاش يحاسب على المشروبات بعد أن أصر على ذلـك. أتى ليجلس بجانبى صوب مقود الهونداى فى الباب الأيسر. انحنى يميناً وسـارت العـربة بمحـاذاة الكورنـيش الجديد، وضع شريط محمد منير الجديد. (إمـبارح كـان عمـرى عشـرين؟!!) قصـدنا الشـاطئ ومشينا على الرمال الصفراء الـناعمة قبل العصر. وانزلقت الإطارات الكاوتشوك تغوص فى تلال رملية جافة وشـباب روّش يصـطحب فتـيات محجـبات ومنقـبات يسـرن فـى غُلـب وجهالة متباطـئات. ويقفـن فجـأة بجانب مراكب صيد قديمة متهالكة. وتعبث أصابعهن بـزوايا الصـوارى المـتهالكة الممـددة فـى بلـل ونشـوع.. والأمـواج تصطخب قُرب الضـفاف. تـريد الـنفاذ مـن السواتر الصخرية لتحط على الصارى القديم، وتعود أصـابع الفتـيان هـذه المـرة. وتُـرى أكـثر جـرأة فتتمدد من أسفل أجناب المراكب وتـنفذ عـبر الأرديـة السـوداء الطويلـة فـى شراسـة وتعبـث الأنـامل والأطراف بمناطقهن الأكثر إثارة.

وتتسـلل الأقـدام تـدوس أرجلهن اللدنة البضة- التى تخلصت من الأحذية فانفلتـت وهـوت جواربهـن الشـيفون تـباعاً، طللـنا للظهور والمؤخرات الواقفة. المنتصـبة فـى ثـبات وكياسه فى انتظار دورها العابث ترقب النهود فى مواقعها الأمامـية الشـاهقة، عـبدة يخـبط عـلى الدركسـيون والمقود يتأرجح تحت ميوعة

الرمال الناعمة فترى أقدامه وقد حلقت فى الدواسة تدبدب فى زهق وارتجال عبده يحدق فى موقعه خلف طاره الدركسيون. يرمى بسهامه. يرشق هيامه عبر نظرات المتلصصة الآتية من على يسارى تتخطانى تعبرنى نافذة من شباكى الزجاجي الأيمن وقد علق فى جسارة وبصوت عالى مسموع، (كل ده هجص يا غندورة. بكره يزوغ الحس مع فتحه الكس. ظراط عا البلاط يا شابه أصحى يا جنتل. أضحك فى خجل مردداً على سمعه فى اشمئزاز ونفور:- (يا أخى ما يصحش كده. سيبهم يعيشو، وعبدة يقول فى فجور: (والنبى يا أستاذ بكره لما يفرشها هيمرُغ وهيه هتتجوز أى نطع م البلد- شريب بانجو/ أو عجلاتى.

- بكره تهرب لكايرو يا أبو الحجاب؟!! بكره تشتغلى رقاصة؟!!

(هلا هلا. قطعنى حتت وأرمينى فى المالح- احبك يا سوسو. أضحك فتدمع عيونى ليلزم عبدة يسار الطريق الجديد لمؤدى لمساكن "فاطمة لزهراء"- نودع البنايات الشاهقة من خلفنا فنسير جهة المقابر. نودع النوافذ المغلقة. المضاءة. وتهتز الأشجار القريبة مع هبوب الرياح الشتوية وقت أذان العصر، وسيجارة مارلبورو يرمينى بها عبدة الذى أطلق صوت الكاسيت على صياح "منير" وغناءة فى صوت عالى.

الموسيقى بربرية. أما زيغية بتوزيع جديد.. النبرات أسيانة والنفرات تواقه وصوت المغنى شجى محلقا.. لف عبده ودار فى أمكنة غريبة. بنايات مدمرة. هالكة. قديمة. مرق يسلك طريق مساكن الحرية القديمة. فسرحت اجتر استعيد سيرة أبى. وعبد الرحيم ابن حسن. وإبراهيم أبو حجة ويوسف زخارى والمعلم ضاحى سلطان رشوان. مجده القديم الغابر صورته القديمة الأبيض X أسود المعلقة بحائط المقهى فى أول العرب. أتذكر العربى الضاحى الابن واستدعى حديث الحفيد- إيهاب ابن العربى ابن ضاحى سلطان رشوان، أكرر

ما قاله فلاش عن إيهاب. ألبد وسط الماضى العتيق. أقول فى وعى حاذق (عتيق وليس بعتيق). وتشدنى سيرة أبو حجة من فؤادى. لأمكث كثيراً فى حيرة وتناقض، أسأل نفسى فلا أعثر على ثمة إجابة شافيه.

- لمن تحن. وفى أى الأزمنة تحيا؟!! وتعود سيرة أبو حجة من جديد. تراوض خلجاتى. تفتش فى حواسى. ليسائلنى الحنين من جديد.. (نفسك تشوفه)- نفسك تشوفه.. ومش عارف ليه- يقول- لماذا إبراهيم أبو حجة الآن؟!!

قلبك يخفق. تزداد ضرباته على الدوام فتطل للسماء.

وتنكفى صوب الأرض تتبع الطريق. وبنات كتير جميلة ماشية لواحدها. بتبص ليك. ليك إنت تحديداً. وتقول فى نفسك وقد أخذك الشوق إليهن جميعاً. تصطفى واحدة بعينها. واحدة فريدة. لم تولد بعد؟!!- حبيبه ستهبط عليك من السماء بغته وكما تمنيت وحلمت فجائتك ملامحها واستشعرت تفاصيلها الدقيقة فى مناماتك، وبت تحدق لهن عبر الطرقات. فى الشوارع الطويلة الخالية وتقول فى نفسك، - هى هذه؟!!- لا. لا. لأ. ليست هى. هيه أجمل من كده. هى أصفى.. ما رأيتها فى منامى لون بشرتها مختلف، هذه شقراء.. وما حلمت بها وأتتنى كانت بيضاء.؟ لا كانت خمرية.. لا- كانت سمراء وعيونها زرقة وتأخذك الحيرة وقت أن زاد شوقك وطاف بك الهيام محلقاً بفرادتهن وخصورهن القريبة. أرحامهن المستحبة. فروجهن الطافية الغائرة. الهائجة المنفرة. ولما طال عبثك وصرت مجهداً كدراً بتُ تقول. خمرية. سمراء. شقراء. بيضاء، مصرية. عربية أمريكية- لا يهم- ضعف- قلت فى نفسى- ضعف منك يا محمود، عشت فى فراغ ووحدة فأخذتك المتاهة مطية ولعبة فبتُ لا تفرق بين الغث والثمين، بين الجوهرى والمظهرى، وتخيلتهن المنتهى

والحُلم والغايــة- فصـرت انـت بالوسيلة فبددتك السلوى. (إنت تافه يا محمود. أنـت متـناقض انـت فاشـل؟! !- هوائـى قتله الحنين وشتته؟! ! و٣٩ سنة ولسه بتسأل نفسك: - ليه حبيت عبد الناصر؟! ! وليه بتحب السادات؟! !

- لا تعـرف. (إنـت تائـه. حـيران- ضـعيف، (حـتى فـى اللغة) ضعيف. حـتى مـع نفسـك وحواسـك. ضعيف حتى فى نفسك فى فهم حواسك. فى مغزى صوتك- نبراتك المتعددة إيحاءاتها. مغزى الكلمات التى تتفوه بها.

- وبـت تخاطـب نفسـك بجدية متسائلاً، يمكن حبيت عبد الناصر. عشان بـتحن لـزمانه، (يمكـن حبيـت لـون بشـرته. سمـرته كـبريائه، (طـب مـا هو السادات أسمر ووسيم،

- يمكن حبك لناصر وراثه عن الأب والجد؟

- طب وحبك للسادات؟

ما هى دوافعه- يمكن عجبك مكره ودهاءه فى كامب ديفيد؟! !

- يمكن عشان قال- إن دى آخر الحروب؟! !

وهل انتهت الحروب فعلاً؟! !

- (لا تعرف)

سـؤال دايمـاً بـتطرحه عـلى نفسك ولا تملك ثمة إجابة شافيه تخلصك من حيرتك.

- إنـت متـناقض يـا محمـود. أنـت شـاعر. حالم. انت فنان. والفنان اشبه بطائـر محلـق لا يقـف عـلى شـجرة بعيـنها، إنـت تواق للطيران والتحليق على الدوام.

- نفسـى أسـافر أمـريكا. أدخـل هولـيوود.. أقـابل نجومهـا وأقـترب مـن سينماها.

– يعجبني شكل المعالجات الانتقامية- فدائماً ما اعتبرها أداه تعويض وتنفيس عن فشل قادة السياسة الأمريكان. ولذا فدائماً ما أسير في نفس الاتجاه الفيلمى مشاركاً القادة أفكارهم منسجماً مع رؤى ورؤية مخرجيها.

وصار نفس السؤال يلحُ على ذهنك ووعيك في كل حين، يطاردك في إلحاح. وكأن كل مشكلات العالم تخصك وحدك- وعلى طريق الحرية الطويل طرحت السؤال المصيرى على نفسك ولأول مرة.

– كيف ستكون مصر في العشرون عاما القادمة.

– كيف ستكون الناس. كيف سيحيون. كيف يتعاملون مع بعضهم البعض. ولأى الأفكار والمدن والبلاد ستولى الناس قبلتها. قبلتهم.

– إنت خرفان يا محمود؟!! لا. انت سكران. انت غلبان يا محمود- معتوه.

– لا: – انت فعلاً غلبان- غلبان...؟!

– يعنى إيه غلبان.

– عبارة شرقية. عربية. غربية. آهى عبارة والسلام- قالها كومبارس في فيلم قديم. وتذكرتها انت وقت مشاهدتك لنيكول كيدمان في فيلم الساعات، وإحساسك الطاغى بتلك الرجفة. تلك الزلزلة التى إجتاحتها وهى واقفة على رصيف محطة القطار في لندن. وبعد أن فشلت في التعامل مع خادمتها،

– كنت دايماً بتشوف نفسك بطل وجودى. بطل مصرى حقيقى. بطل مأزوم بوجه اسمر منحوت بيسعى للتوحد مع المشاهد التعس عبر تيمه الحنين في فيلم تمانينى،

– لا. فأنت لم تُحس الترجمة. ف الغُلب هنا في المنطقة العربية فقط- في مصر فقط لا غير- وسط أمثالك يتداول المصطلح. انت تهذى يا محمود؟!!

- لأ.. أنا تعبان، صرخت. صرخت كثيراً وسمعنى عبده وهو يقود الهونداى. زعقت فيه وألزمته بالوقوف بجانب مقابر الأقباط؟!!

نزلت أمشى وحيداً بجانب صبارات عتيقة. بحذوها. صرت أبحث عن العلامات وشواهد القبور مستسلماً للحنين هناك- اجتر زمنهم. ماضيهم وماضى السحيق. تقودنى صورهم العتيقة القابعة فى المخيلة.. قابلت حفارون مساكين بالفعل. غلابة؟!!

ودنا الموكب الجنائزى يركض وقد سارت خلفه النسوة قليلات. ثلاثة. أو أربعة ومعهن رجلان عجوزان بصحبة سيدة مسنة.. وسمعت امرأة الكهولة تقول- يا روح جدتك يا عزيز يا غالى. يا عريس السماء يا وليم. يا زهرة شباب ويصا؟!! ووقفت ترقب المشهد عن كثب وقد توارى الجسد فى التراب فى ثوان. بتلف وتدور وسط المقابر فترى التوابيت فارغة. وترشق عيونك فى الصبارة الذابلة وترى التراب الكثيف وقد غطى اللوحة الرخامية القديمة المطموسة فى الخلاء الموحش. وتقترب لتمسح التراب فترى علامات وشواهد محجوبة خلف أستار القيشانى والجرانيت القديم. ترى المكتوب فتحدق مكلوماً.. تتوه. تتوه ويأخذك الصمت يا عابر. وتحار فى ملكوته وأمكنته.. مراقدك. وزواياهم القديمة التى تُحن إليها كل حين- عروس السماء. يوسف نادر زخارى ويصا نوفمبر ١٩٥٦م- (عشان كرامتك يا مصر. وعزتك يا زعيم بيموتوا كل المصريين؟!!

طللت لمقابر المسلمين وجالت عيناك تحصى عدد الشواهد واللوحات الرخام. شواهد القبور.. وتتذكر أبيك. فتنتابك الغصة شاعراً بالألم وقد وقفت مودعاً كزائر غريب وخطون النسوة المسيحيات اللائى لا تعرفهن. وبكيت فى أسى وقت مروقهن خارجات تاركات القبور خلفهن يلفها الصمت. وانتابك

الحـزن فصـرت دهشـاً تسـائل نفسك فى وهنا متعاطفا.. لماذا صرن هكذا. انفلتن مشتتات لتسير كل واحدة منهن فى طريق مختلف،

ونظـرت القسـيس الظاهـر يـدور حـول نفسـه. ملقياً الطقوس الواجبة وقت الدفـن. تسـرح فـى ملكـوت الله وتحـدث نفسـك قـائلاً: (وحـيدون نحن فى هذا العـالم. أتينا فرادى وسنعود كذلك... طللت طلة أخيرة على أهالى المتوفى الدموع محجـوزة فـى عـيونى وأقدامـى تـزحف فـى الـتراب محاولاً انتشال جسدى من خـيوط الإرهـاق والكـدر التى التفت شباكه حول روحى ونفسى.. وعيى يدفعنى للسـير بـبطء ملازمـاً السـور الوحـيد العالى الفاصل بين مقابر المسلمين والأقباط. ونظرتهن وقد تلاشت أجسادهن الهرمة. وطفت ظهورهن المحدود به تتعالى مع خـيوط السـراب القـادم مـن السـماء. مـع صـعود الغـبار الكثيف بجانب زرعات الـبوص ومـع إنحسـار أشـعة الشـمس الغاربـة رأيـتهن يـتقافزون صـوب عيدان الـبوص، خرجـت إلى الجسـر الطويل. ونزل عبدة من خلف الدركسيون يسألنى عـن سـبب تأخـرى فـلم أجب. صمت قليلاً، أمسح دموعى فسمعته يقول: (إنت كنـت بـتزور أبـوك يـا أستاذ؟!! وصعدنا العربة سوياً فانطلقت فى طريق مغاير مواجه لمسجد صالح سليم القديم؟!!

وعـادت ذكـرى أبـى وسـيرته تعتـلى يا فوخى. تلوم نفسى– لماذا لم تفتش فى التراب عن جثته. لماذا لم تأت بحفاروا القبور وتسألهم عن مكان دفنه؟ وهل هو مدفون بالفعل. كيف دفن. ومتى توفى. وأين؟!!

وتسـتعاد الأسـئلة الماضـية الآتـية– وسـؤال مصـيرى حـتمى وحيد تطرحه على نفسك وبحزم.

– مـن حـارب معـه. من صادقه. من رافقه– من شاركه فى سهرة كانت كل الإجابات تؤدى. بل تقودنى إلى طريق واحد مبهم؟!!

– ابيك قتل بتعمد ومن قبل سلطه ما. لها من الجبروت ما يخفى أعظم الحقائق؟!!

عيناى فى السماء تنظر الزراق عن قُرب وكأنه مرآه يرى فيها وجودى.

– هل انتحر محمود طلخان الأب بعد هزيمة يونيو فعلاً؟!!

– هل رمى نفسه من لنش الشحن والتفريغ بعد منتصف الليل كما أكدلى إبراهيم أبو حجة عندما قابلته فى غاطس البوغاز فجر الجمعة نهاية السبعينيات فى ديسمبر، أم أنه قد انتحر فعلاً بإطلاق الرصاص فى فمه بعد أن تعرض للضرب والإهانة أعلى الفنار وعقب عودة الأسرة من التهجير؟!! هل كان والدى يخفى صوراً للقتلى من ضحايا العدوان الثلاثى... ياربى.. أين اليقين؟!!

ويسألنى عبده فلاش فجأة.

– مفيش أى أخبار جديدة عن عم محمود الكبير..؟!!

(عارف يا محمود. كل ما بيكبر سنك. كل ما ملامحك بتقرب لعم طلخان.. الله يرحمه؟!!

– نفس طوله. ولون البشرة. سواد العيون. جرأته،

– وهل شاهدت أبى من قبل يا فلاش؟!!

(سيدى الله يرحمه حكالى عنه كتير

° ° °

أم كلثوم كانت بتغنى وعبده فلاش بيدندن معاها وأنا شارد على طريق المعاهدة. مرت الساعات بطيئة. وسمعت أذان المغرب وكان صوت المؤذن منفر. ولمحت "الخلوة" فى الجنوب فأخفض عبده صوت الكاسيت وقرب يهمس فى أذنى .

- (إيه- على فين. على فين يا أستاذ؟
بقالنا أربع ساعات بنلف وانت سارح؟

صمتُ وزاد شرودى وصرت أنظر للأنفار المحتشدة على مفارق قرى الجنوب قبل "بحر البقر" وعند العزب الجديدة وسط الزراعات.. عربة شرطة البلوكامين تتوقف فى عرض الطريق. وعبده لا يكترث منطلقاً على الطريق يسألنى فى خوف وأنا منهمك فى نزع بطاقتى الشخصية وكارنيه العمل من جيب بنطلونى الجينز. عبده يعود ليسألنى من جديد ويزيد توترى فانصت لما يقول.

- عملت إيه فى موضوع الشنطة؟!

وضغط على ذراع الفرامل بالدواسة فتوقفت السيارة فجأة. فى ثوان كان ضابط المباحث قد ركض صوب بابى الأيمن. ضابط بزى ملكى وقف بجانبه نقيب مرور ببزه سوداء، وأربت بابى وهبطت بالزجاج بسرعة أنظر للاثنين فى حذر محاولاً الاستفسار عن السبب الذى دعاهما لتوقيفنا،

- رخصك يا باشا؟

قُرب الطوبان وبمحاذاه منتهى الرصيف بالعرض. كان ضابط المرور يمد يده داخل باب عبده فلاش عبر زجاج بابى الأيمن المفتوح. ظل الآخر يترقب. فلاش يضرب يده فى الشماسة. يستخرج رخص القيادة. ويسقط مظروف أبيض كبير وقعت منه عدة صور فوتوغرافية. عبده يحاول إخفاء الصور فى عجالة مرتبكا. بتُ ألحظ توتره الشديد وهو يتناول بطاقته العائلية من فتحة الجراب المخفى أسفل الطابلون. زاد توترى وهو يناول الأوراق للضابط، الذى يرمقنا فى خبث. يجول بعينه متتبعاً حركاتنا. إيماءاتنا. يسألنى فى نفس اللحظة وقد برقت عيناه. مطلاً يقرأ بيانات البطاقة.

- والباشا منين،

نظرني في توجس

- مع حضرتك بطاقة.. (أيوه انت. أمال مين)

- (آه).. أعطيه إياها. فتناولها بتؤدة وبات يدقق في ملامحي ينظر تسريحه شعري وقد خرجت حدقاته من محجريها ترصد مظهري رمقته وقت أن بدأ ينفث دخان سيجارته ليصعد الدخان الأزرق سارياً يدخل في فتحتي أنفي.. شممت رائحة حشيش. فبتُ واجماً حذراً. أرنو للخارج من فمه وقت أن سألني في ثقة.

- (الله هوه حضرتك من القاهرة؟.. (ومن المعادي كمان. أيوه يا سيدي)

- بس شكلك بورسعيدي. أو صعيدي؟

- (هوه كده تمام).

- وانتو بقى بتتفسحوا ولا إيه،

ورد عبده في جرأة.. (ولا إيه)

- بتقول إيه يا جنتل؟

ودنا طفل صغير بجلباب مهترئ. تخطى الرصيف الأسفلت وهرع قبل الباب الأيسر يطل في الدواسة ناظراً وجه فلاش مطلاً في اتجاهي بغرابة

قلت وقد زال اضطرابي وتلاشى توتري

- إيه الحكاية. هوه فيه حاجة حضرتك،

- (حاجة إيه)؟

يعني.. زحمه. وفوضى وخلق ملمومة.

- آه- دي يا سيدي خناقة عشان توزيع الأراضي على شباب الخريجين في الجنوب.

(وكلها ثوانى وييجى مدير الأمن. والمحافظ على وصول)

- (خير. خير أن شاء الله.)

- بالسلامة يا جنتل إنت وهوه. بالسلامة ولفْ عبدة بالسيارة عائداً وبسرعة لطريق الرشدين- تاركاً طريق الرسوة المسفلت بالحصى. وطللت للخلف عبر البربريز الخلفى فوجدت المشاجرات قد زادت واشتبك شيوخ بجلابيب مع الخفراء والأنفار فتحلق الشباب فى متوسط العمر حول عربات الشرطة الكبيرة التى تحمل جنود القوات الخاصة. ورأينا ضباط المباحث بصحبة النقيب وعساكر المرور يرقبون المعارك عن كثب منهمكين فى شرب السجائر، كان عبدة فلاش قد أخفى المظروف بسرعة فلم ألحظ المكان الذى وضعه فيه. سألته بعمد عن إبراهيم أبو حجة فقال لى متوجساً، - قابلته من أسبوعين. سأل عليك كتير على فكرة.

آخر مرة قال لى إنه اتصل بيك فى القاهرة أكتر من مرة. (بيقول إنه عايزك ضرورى؟!!)

وعادت ذاكرتى تستعيد ما حدث منذ شهور فائتة وعبر اتصال هاتفى مجهول. سبقه ٣ رنات لرقم غريب ظهر على الموبايل منتصف الليل.. كنت راقد على سريرى فى شقة المعادى.. يومها كنت تعبان أوى.. كانت نزلة برد شديدة مصحوبة بسُعال وهزال شديد.. وبت أجتر ما حدث فى تلك الليلة بدقة ٣ رنات عا الموبايل. ورقم غريب من بورسعيد، يومها طللت للسماء عبر زجاج النافذة المفتوح، عبده يسألنى للمرة الثانية-

- (إحنا حنروح على فين؟!!)

نظرت على يمينى عبر الأرضية المزروعة بالهيش أطل لأشكال السفن العابرة محدقاً للصوارى وأعلام الدول الغربية التى ترفرف محلقة فى الهواء

ببنادير متعددة ودنت سفن البترول تقترب من الأحواض. تعبر الحاويات الفارغة متجهة إلى السويس سائرة عكس اتجاه السفن السياحية الفرنسية والألمانية، وانطلقت السرائن العالية من البواخر الصينية والتركية العملاقة الداخلة إلى البوغاز سائرة فى وسط المجرى الملاحى قبل منفذ الرسوة، العربة تجرى فى جنون قُرب مداخل الرسوة. وعبدة يخرج بزجاجتان من البيرة قام بسحبهما من الشنطة البلاستيكية السوداء المدفونة أسفل كرسى القيادة، ناولنى واحدة ودلق الأخرى فى فمه الواسع وتساقطت الرغاوى من حلقه إلى رقبته مروراً بذقنه النابتة.. ونظرت شعره المجعد المدهون بالفيزيلين وقلت له باسماً.

– (إنت لسه بتستعمل الجيل يا عبدة يا فلاش؟

– ما انت عارف يا أستاذ. النسوان بتحب الراجل الجنتل المطأطأ،

دخلنا منفذ الجمرك وتوقفنا قُرب مبنى إثبات وتقييد الأجهزة الواردة للمدينة، عبرنا الأكشاك الخشبية القابعة خلف باكيات المرشدون ورجال القوات المسلحة وعدت لشرودى وقت المغيب. أطل لسفن قديمة.

سفن بأحجام متعددة ترقد مهملة أسفل كوبرى الرسوة القديم المضروب بالصواريخ منذ ١٩٦٧، من بعيد لاح قطار الخامسة والنصف القادم من القاهرة داخلاً محطة بورسعيد. القطار يرتج فوق القضبان القديمة بنوافذ مهمشة. الجنود واقفون على الأبواب فى عجل.. وذاكرتى تستعيد ما حدث فى ٥٦، ٦٧، ٧٣، وعودة تشغيل محطة السكك الحديدية فى بورسعيد عام ٨٦ فى ظل حكومة على لطفى الذى قال عنه فلاش وقت أن تخطينا الكوبرى وصرنا على مقربة من منطقة الاستثمار.

– (إنت عارف يا أستاذ. أهو المصنع ده كان بتاع أديب جبرة.

– مين أديب جبرة؟

– دا يا سيدى اللى كان شغال معاه على لطفى سنة ٨١.

عُدت أفكر فى سؤال عبدة وقت دخولنا مفارق الجنوب والذى خُيل إليه إننى لم أسمعه فصمت ولم يكرره البته- الحقيبة.. أى حقيبة يا عبدة. سؤال طرحته على نفسى فى صمت وكياسه، وتذكرت ما حدثنى عنه العم حسن زنجير منذ سنوات. ويوم أكد لى بأن والدى قد سُجن بسببها. وتم سؤاله عنها فى مباحث أمن الدولة فى بورسعيد. وفى القاهرة سنة ١٩٧٧م. عُدت لما أفاض به زنجير من حقائق مؤلمة.

– أبوك يومها انضرب كتير يا محمود (انضرب وإتهان. وعصّبوا عنيه. وقعد هناك أكثر من ٩ شهور ولم يخرج إلا مع المفرج عنهم عقب أحداث ١٧، ١٨ يناير.. يومها عم حسن زنجير أكد لوالدتى.. إن محمود طلخان الكبير خرج من بورسعيد فى مارس ١٩٧٦ وغاب فى القاهرة مدة طويلة. وعاد لبورسعيد سراً فى خريف ١٩٧٧م.

بجانب مستشفى "الفرمشية" كنت أسأل عبدة فلاش عن أحوال "سيد عسران" و"محمد مهران"؟ والكابتن مسعد "نور" و"السنجق" و"محمد اللووح" فضحك فلاش. ثم عبث وتجهم وشرد فاسترسل يحكى (محمد مهران بيموت مريض الله يشفيه آخر مرة شفته السنة اللى فاتت لما كان المحافظ مصطفى كامل بيكرمه فى العيد القومى يوم ٢٣ ديسمبر والسيد عسران أنا دايماً با أقابله مع الولة اللى سحبه فى "طرح البحر". وساعات كتيرة أوى. أشوفه فى "غُرزة" محمد البابور اللى عا الكنال القديم فى العزبة.. وأحمد بريزيو قال لى. إنه شافه من أسبوع فى "مخانه" فتحى كوارع الجديدة اللى فى "عمر بن الخطاب" فى "حى الزهور"

– ومسعد نور فين يا فلاش

– آه الكابتن. الدولى؟!!

– آه.

– بقاله ٣ سنين بيغسل كُلى الله يشفيه، كان عبده فلاش بيحكى وأنا أتذكرهم جميعاً فى ماتشات النادى المصرى فى الهجرة.. لما مسعد نور حط هدفين فى تنزانيا فى السبعينيات. كان النادى المصرى لسه غالب الأهلى فى القاهرة وميمى الشربينى المعُلق يومها قال فى الإذاعة ولما مسعد شاط الكورة برجليه الشمال فى مرمى إكرامى– واللهى العظيم ما شفتها؟!! وعلى أخويا حكى لى يومها. أنه شاف مسعد نور رافع إيديه على وش الجرايد وبيشير بعلامة النصر– كنا فى السبعينيات قلت لعبدة فلاش؟

– ماتيجى يا عبدة نقعد شوية على قهوة البحرية

– وماله يا أستاذ

– عايز أشوف الكابتن نصر قنديل.. زمانه قاعد هوه والواد جمال نوفل القبطان.

– آه. دايماً بشوفهم. هما ومحمد منسى الصحفى بتاع الجمهورية– والواد إبراهيم المهُرب؟!!

(يا أخى حاجة بقت غريبة. بورسعيد كلها بقت هليبة ومظاربه.. (فين يا عم الناس بتوع زمان؟!! الناس دى راحت فين. (الله يرحمك يا كابتن عوض يا مرزوقة.

دخلنا بالهونداى من حارة اليهود. بعدما ودعنا شارع عزمى. مشينا فى حذو بيوت موظفين هيئة قناة السويس قاصدين شارع محمد على.

تذكرت ماريا. وحكاياها. وحكايات أمى عنها. وتفاصيل كثيرة عن مالينا بنت بلوتشى. ومايكل ابن بارساريلا الطاليانى وروبرتو.

عُدت لمجالس اليهود ومتنزهاتهم. ميقاتها. وكيف كانوا يخرجون إلى البحر بصحبة المسلمين في بورسعيد كل ليلة "سبت" وخميس.. وحسن الشحمة يجُر العمائم من على رؤوس الصعايدة في أول العرب ويجرى ليختبأ خلف مقهى "الشكربالى"، وقعده "الخوارف" و"الحرزات" و"بيت بدار" و"الهماصة" فى قهوة المع لم ضاحى سلطان رشوان.

واستعدت سيرة جدتى وحكيها الدائم بفخر عن المعلم ضاحى سلطان وأمجاده. وسردها الذى لا ينقطع ولن أنساه مهما حييت، كانت جدتى "كنوز" تقول.. عارف يا محمود- محدش أنقذ صعايدة جرجا من البهدلة إلا المرحوم ضاحى الكبير والعمدة مصطفى أبو إسماعيل. كان ضاحى الله يرحمه بيستقبل "فخرى عبد النور" فى استراحة المندرة جنب القهوة. وسعد باشا يقول له هوه ومصطفى بك النحاس- (يا أخى مايصحش كده.. تبقى صعيدى وأهل بلدك يتهزءوا فى بورسعيد.. أمال لو ماكنتش سيد الناس ومالى مركزك)

أتوه. وأروح أفتكر صور الكابتن عوض مرزوقة وحسن بك رشدى المحامى. والبوم صورة فى المجموعة الخاصة وقت ما كانت عمال البلدية بتلبس يونيفورم أبيض وتدور بالمرشَات الصاج أم بزابيز طويلة وتمشى تسقى أحواض الزرع فى الجناين وفى شارع البازار وسوق السمك القديم هناك- سوق اللاجريح وجهة عمارة "الباب الحديد" وناحية "جيانولا" "السويسرى.. كانت عربات "حى الشرق تلف بفناطيس المية فى شارع فلسطين جنب الميناء. وعند البوليس بتاع الجوازات البحرى.. وناحية عمارة "سيمون ارزت" وباب عشرة وبمداخل كوبانية المية. والمعدية أم جرس آلى بتعبر الكنال راحة بور فؤاد بتذكرة ورق بـ ٢ "صُلدى" ضريبة على نقل الوبيليا فى العربات الفورد والدودج.. كانت العربيات مكتوب عليها من ورا- نقل القنال وبورسعيد؟!!

ووجدتـنى وقـد اختليـت بنفسـى أرقـب خطـاى العابرة قُرب حجر تمثال ديلسـبس. كـان عـبدة فلاش قد تركنى وذهب يقصد "أول العرب" متجهاً لفرشة الـتفاح فـى شارع نبيل منصور.. وكأننى أتودد لذاتى محاولاً استجماع البقايا من ذاكـرتى المنهكة.. جسـدى فاتـر وجبيـنى عـرقان. جوعـان- لم آكـل شـيئاً مـنذ خروجى من شقة شقيقتى هالة فى الصباح. ساقى تؤلمنى دون سبب واضح. عينى تدمع. انفث دخان السيجارة الـ ٤٠ فى نهم وشرود. أقترب لمياة البحر فأجلس مطلاً للمراكب البعيدة. تلـك السـفن الصـامتة الواقفة بممـر القناة أمام أرصفة الترانزيـت الصـخرية الـتى بنيـت مؤخـراً.. أبحـث عـن البامبوطـية والقباطنة وأحـدق بعـيداً صـوب ورش الشحن والتفريغ مخترقاً السفن العابرة طائراً بطللى محلقاً وسط الجزيـرة الخامسـة- صـورة أبـى لا تفارقـنى. هوه- يشبهنى كثيراً فـى ملامحـه. ملامحـى الداخلـية كـلهم قـالولى ذلـك. بـل أكـدولى، أجـنح إلى حساسيته المفرطة. حواسه المتوهجة. مثابرته قوة احتماله. غضبته عند الإهانة – جسـده الطويـل الفـارع. فـتوته- بشـرته السـمراء. نفـس الشـامة عـلى خـده الأيسـر. أنفـه الصـغير المسـحوب فـى كـبرياء. سـواد عينـيه الـتى تقطـر دموعاً متشـابهة وقـت الحـزن والفـرح. عشـقه للملبوسـات الجلديـة. الأحذيـة الكِرب الإيطالى والأسبانى.

الطواقـى الشـراقى- أو البـلمة. أو الأيـس كـاب الصـوف، كان عيوق. كنت عـيوق يـا بويا فينك يا طلخان يا كبير. فينك يا سيد الناس.. فينك يا باشا بحق وحقـيق، وتعـيدنى الهواجـس لتصـرفات عبدة فلاش المريبة. حركاته المحيرة. غموضـة فـى بعـض الأحـيان، وقت سحبه لرخصة القيادة من السيارة. مكالمات "أبو حجة" الغريبة فى منتصف الليل. وقُرب الفجر فى القاهرة، منذ شهور – ما مغزى مطاردته لى تليفونياً فى بيتى؟

ولماذا لم يحاول مقابلتى وهوه بالتأكيد قد علم بحضورى لبورسعيد منذ يومين؟! وهل هناك ثمة علاقة بين اختفاء والدى وتلك الحقيبة؟!! حقيبة مفقودة. وقبلها أبى- ما دخل أبو حجة فى ذلك- وما هى مصلحة عبدة فلاش فى إخفاء الصور عنى. تلك الصور التى سقطت من المظروف فجأة؟!! وهل كان يعلم عم حسن زنجير. أو المرحوم أبو عبدة. شيئاً عن تلك الأشياء..

- كل الحقائق مخفاه؟!!

أكاد أجن، أحس بالعرق الغزير ينسال على صدرى رغم برودة الجو وهطول الأمطار فى ديسمبر- مشيت قُرب فندق "هلنان شبرد" بعد عشاء خفيف من عربة "دالاس" للتيك اواى اقتربت من ميناء الصيد القديم. المراكب مرفوعة على الأذق. عمال الرشمة كسالى متحلقين حول بعض الصبيا من الصيادين بآجر الصبيا ضعاف البنية يتمددون فى وهن أسفل مراكب صغيرة مرفوعة للدهان عربة الذرة المشوى مركونة أسفل مراكب صغيرة مرفوعة للدهان جداريه نحاسية ضخمة للزعيم جمال عبد الناصر كان يلوح لأبناء شعب بورسعيد فى الاحتفال بعيد النصر عام ١٩٥٦- ٢٣ ديسمبر بجانبها تراصت الجداريات كثيرة واصلة حتى "عمارات البودرة"؟!! الجداريات تعرض صور لوجوه مطروقة بالنحاس للأمبراطورة أوجينية والخديو سعيد والمهندس فرديناند ديلسبس فى حفل الافتتاح الباذخ- كاسيت صغير ملقى فوق تلال الترمس المبلول الناهض على مسطح العربة اليد الحمراء صوت الست نادراً ما يشجينى. وانعزفت الموسيقى تشبه إيقاعاتى. صلصلة تخرج من تحت عجلات حديد لقطارات تدهس القضبان وقلوب البشر وتمرق بعد منتصف الليل بجانب ثكنتى فى القاهرة (فضلت أعيش بقلوب الناس. وكل عاشق قلبى معاه. شربو سوا وفاتولى الكاس . من غير نديم أشرب وياه،؟! جريت فى ذهول وقت

سقوط المطر المنهمر فى ديسمبر. أقصد مساكن الحرية. أظل فى ساعتى محدقاً فى حقيقة الميقات أقصد قصر الثقافة- أسأل عن عنوان الكائن، - منزل الأستاذ إبراهيم أبو حجة من فضلك يا جنتل؟ ويقول المخرج الهاوى.

- عم إبراهيم سكن فى الزهور. فى عمارات الضباط اللى بعد العمارات الزلط.

- تعرف رقم العمارة؟

- لأ. اسأل عن مسجد الصالح الجديد؟!!

° ° °

فى العاشرة مساءً دخلت مقهى "البرنسيسة" ليقابلنى الكابتن نصر قنديل مرحباً، أخذنى بالأحضان وعلق بالقول:-

-: (أهلاً بالأمبراطور. فيتوريو دى سيكا الشرق؟!!

وركض جمال نوفل من خلفه صائحاً.. أهلاً بالأستاذ. فينك يا راجل من زماااان- إيه إنت نسيتنا ولا إيه (مصر اخدتك مننا ولا إيه).

- أبداً يا نوفل- مشاغل؟

- وأخبار الجماعة إيه. إزاى أبوك. وأخبار الفيلم إيه

- مفيش جديد يا نوفل. لسه بنحاول- آهو. بنتفرج عا الجديد.

صرت أربت على كتفه فى حنو. وسحب كابتن نصر الكرسى البلاستيك من خلفى ليضعه بينهما قائلاً فى ود.

- أقعد يا أستاذ، والله وحشتنى. هل هلالك شهر مبارك؟!!

- آه (مبارك أوى يا عم نوفل).

وهممت بسؤال نوفل عن آخر أخبار سفرة المؤجل لأمريكا. فقال جمال فى ثقة.

- رُحت عملت الانترفيو. وأخدت التأشيرة.

لكن إنت عايز الصراحة؟!. وبدأت ملامحه فى التغير وبدا شاردا يرمق العابرين أمام المقهى فى صمت متجهين إلى سوق البازار.

- (أنا مش عايز أسافر يا أستاذ؟!، (شُف. رغم إنى كنت بحلم بالختم. بس حسيت إن السفرية جت بعد فوات الأوان؟!.. (وبعدين يا عم أنا عندى الدنيا متلخبطة، وزى ما انت عارف.. أخويا عبد الناصر مجنون.. (واللهى مجنون؟!!).

وضحكت فى سخرية وبت أرقب ملامحمه التى تغيرت وصارت أكثر تجهماً وحدة وقت أن نظرته فى تروى متابعاً خصلات شعره الهش التى صارت تحلق فى جنون منتصبة أعلى رأسه الصلعاء متدلية فوق قورته اللامعة.

- أنت بتضحك يا أستاذ.. طب واللهى أخويا الكبير دا مجنون وإسأل كابتن قنديل،

- يعنى إزاى عايزنى أسافر واسيب عبد الناصر لوحده مع أمى.. دا الأسبوع اللى فات الواد ضربها بالحلة النحاس القديمة كان هيقتلها لولا ستر ربنا؟!!

وجاء "عربى" النادل. وطلبت قهوة إسكيتو فرنساوى فجاءتنى فى كوب كما هى العادة. ودخلنا تباعاً نسحب الكراسى البلاستيكية أسفل التنده المشمع الصفراء خشية المطر كانت صفحة السماء قد تبدلت من الزراق الصافى إلى الرمادى الغائم.. وسمعت قنديل يقول،

- باين عليها هترُخ يا أستاذ، وحدق فى سماء الغيوم وتطلعت أرقب المعلم "الجازوى" صاحب المقهى وهو يتخطى الرصيف المقابل متجهاً لصحن المقهى وقت أن تصادف مرور موكب المحافظ. د. لواء. مصطفى كامل، الذى اخترقت

سيارته شارع أوجينيه فى صمت وهيبة، ومع مرور آخر عربة للحرس الشخصى بصق كابتن نصر قنديل فى الهواء فتطلعت إليه أنظره سائلاً إياه فى دهشة

:- (إيه يا كابتن. إنت مبتحبوش ولا إيه. دا حتى راجل كويس. وبتوع بورسعيد بيحبوه،

– (يا راجل حرام عليك. هيه الأشكال دى حدّ يحبها، دا راجل بطنى ابن وسخه.. راجل "بطيخة".. ياشيخ دول جابولنا الفقر المستعجل.. هيه كانت البلد ناقصة عسكر،

ويرد نوفل معقباً،

– آآآه. عسكر وحراميه يا ابو القناديل

– الراجل ماتشوفهوش إلا فى المياتم والأفراح. أو بياكُل عند "البرج" فى طرح البحر.

– وإنت عايز إيه من اللواءات يا ابو خالد.

(ياعم دا قاعد فى فيلا ولا فيلة الريس،

وتنوعت الحكايا وطالت الأحاديث تنتقد عوالم السياسة والثقافة والرياضة وكابتن نصر قنديل يسألنى فجأة،

– وإنت يا أستاذ. إيه رأيك فى فاروق حسنى وزير الثقافة.

وقلت فى حياديه مندفعاً أعدد إنجازات الرجل فى قطاعات الثقافة المختلفة، مردداً فى حماس حقيقى

– بصراحة الراجل ده واجهه مشرفة للبلد، ومحدش قدم شئ جديد فى مصر بعد ثروت عكاشة إلا هوه

– فكرك كده؟!!

– (طبعاً)-كفاية إنه مجمل نظام الحكم في عهد مبارك، وبعدين دا راجل فنان ومستنير. بيدافع عن تراث دولة لها حضارة عريقة اتبددت بسبب أهواء الحكام والمصالح الشخصية.

– طب وكمال الشاذلى دا مش هيشيلوه؟!

(كابس يا أخى على نفسنا له خمسين سنة. (إيه الخره ده) ونادى جمال نوفل على عربى النادل الذى انهمك فى محاسبة الزبائن.

– عايز سحلب بالمكسرات يا عرب..

ودهُشت وقت أن تناول كابتن نصر قنديل رغيف الفينو الساخن من شنطته البلاستيك الموضوعة على الطقطوقة وقدمه لنوفل هاذراً.

– خُد يا نوفل احبيبى. خد أحبيبى، (غمس) يا جيمو. إنت جعان متغدتش يا حبيبى، وتوقفت العربة التاكسى فجأة تحت الرصيف فى أوجينيه. السيارة هونداى "نورس" أبيض فى أزرق. هبط من العربة شاب فى العشرين ومشى مختالاً فى سوق البازار يرمق الجالسين على رصيف المقهى دانياً بأصابعه الطويلة المعروقة يقفل سوستة السويتر الوتربروف ساحباً قماطه الأسفنجى فوق حزام بنطلونه البُنى. سار قاصداً كافتيريا "دندش" بائع السيبيا والجمبرى ونظرته فى تعجب وقت أن صار يخطو فى ترنُح متثائباً على ناصية سوق البازار بجانب فرن عنتر لشواء الأسماك التفت فجأة يرقب الجالسين فى طرقات البازار واستدار موجهاً فمه جهة السائق زاعقاً فى عنجهية مقترباً من بالوعه الصرف الواطئة. قائلاً فى صوت عالى

– يا اسطى. ثوانى، ثوانى يا ابن الحلاااال،

"استنناني خمسة واجيلك.. اوعى تمشي يا جدع.؟!، وصرت أرقب كابتن نصر قنديل وقت أن رمق الشاب فى حذر وتوجس متتبعاً خطاة مدققاً فى

ملامحه. الكثيبة. ووجهه الأصفر وعيونه الزائغة المجهدة التى تجوث فى قلق متفحصة معالم المكان.

العيون محدقة صوب الباب الخشبى المغلق بجانب الفرن.. الولد يدنو من باب الدكان المغلق ونصر قنديل يهمس فى أذنى قائلاً.

– (عارف مين اللى فى العربية دا يا أستاذ؟!

– مين. أى عربية

– العربية النورس الهونداى اللى الوله نزل منها دلوقتى.

– واد مين.

– الواد الواقف عند الفرن يا أستاذ.

– آه

– مين بقى اللى فى العربية يا عم نصر.

– دا يا سيدى محمد مهران

– آه. بتاع المقاومة زمان

– أيوه يا سيدى (أهو باعت الواد المرافق بتاعه يشترى له حشيش من عند صابر الجناينى.

– وهوه صابر بيبيع حشيش يا كابتن نصر

– من زمان يا سيدى. بقاله ٢٥ سنة على كده- (من يوم ما بنته طفشت وراحت قبرص مع السيد الوزه؟!!

وصرت مندهشاً وقد أخذتنى رجفة مفاجئة ارتعشت على أثرها أطرافى الباردة. وهرشت شعر رأسى فى تروى ودنوت أميل جهة كابتن نصر مردداً فى أذنه وعلى مسمع من نوفل الذى غاص فى كوب السحلب.

– الراجل ده مش مات من زمان يا نصر؟

– لا ياسيدى.. دا لسه المحافظ مكرمه من يومين فى العيد القومى– إداله شنطة بـ ٢٠ جنيه وشهادة استثمار بـ ٥٠ جنيه (أدى يا سيدى نهاية الناس اللى حاربت عشان بورسعيد، مش كفاية قلعولة عنيه. لأ. وهوه كمان ضاع فى الحشيش والبانجو

– تقدر تقول لى تاريخ الناس دى فين. ومين يعوضهم عن اللى قدموه لمصر وبورسعيد.

– هوه فين تاريخ بورسعيد ياعم محمود. ولافين ناسها؟!!

وعبرت المرأة الغندورة جسر أوجينيه المسفلت قاصدة سوق البازار متجهة لمحل شعبان بائع الخضار المنزوى قُرب سوق "اللجريح" القديم وبانت نظرات الرواد فى مقهى البرنسيسة تخترق جسدها البض زائغة تغوص فى جرأة وجسارة تتبع اهتزاز أردافها ورجرجة خصرها الأملس فى شبق. وطالت تحديقات الزبائن وعابرى السبيل فى سوق البازار. بات الرجال ينظرونها فى نهم جنسى لتظهر وجوه رواد مقهى "أبو طرية" شاخصة فى تلصص وهياج لتسمع التعليقات الفاجرة المنطلقة من الأفواه المفتوحة،

– أحب الفرنساوى ومنتجاته المكس، عبرت طرقات البازار متجهة لشارع ممفيس تقصد مدرسة الفرنسيسكان وأومأ كابتن نصر لنوفل الذى طأطأ رأسه فى حسرة ناظراً قُرب موطأ قدميه وقت أن عادت المرأة بعد دقائق لتدخل محل الحاج محمد المصرى السماك وأطلت تحدق وسط البنيكات والأحواض الإستانلس المربعة نظرت الأسماك المعروضة وزاغت عيونها فى فتون متتبعة هياج "البورى" و"الدنيس" و"القاروس" و"الوقار" المتحلق فى عنف داخل المسطحات الصاج المجلفن المتلئة بقطع الثلج. دبتُ التفت فى فضول وهياج مراقباً إياها فى وقفتها والتفاتاتها. حركاتها المثيرة فى الميل والدوران والانكفاء

برأسها داخل أحواض السمك تاركة مؤخرتها البضة بأردافها الملساء المحجوبة خلف العباءة اللامية عُرضه للامتطاء بارزة فى شهوانية وفجور. وانتصبت واقفاً ارتكن على الجدران الجرانيت المواجهه لفرشة الفاكهة وتبعنى نوفل تاركاً كابتن نصر يمشى بمهل يتبع خطانا وملت أسأله بقُرب الجدار.

– مين دى يا كابتن نصر؟

ونظرت جمال نوفل الذى انتصب قضيبه فى بنطلونه القماش الواسع. هرش أذنه اليمنى ودنا فى جنون واندفاع فسحبته من يده صائحاً أضحك فى صوت مكتوم

– إيه يا نوفل- أوعى تنط عا المرة؟!!

– نصيبه يا أستاذ.. والله نصيبه يا أستااااذ. ألطف يارب؟

ومالت بالصندل الأحمر أبو كريستاله لامعة على الأجناب وهبطت أطراف العباءة السوداء تمسح وش القدم الأبيض السمين نسبياً. وظهرت رجل البنطلون الاستريتش الأسود وقد زادت الأصابع الملساء للأظافر المدهونة بالمونيكير النبيذى فتنه، وسمعت نوفل يعلق فى هياج فاق كل توقعاتى وقتما نظر شيئها اللابد أسفل العانة البضة اللدنة

– شايف يا أستاذ الكتكوت. دين أمك يا نوفل. والنبى إجنا اتخدنا غدر، جواز آل. دحنا أضحك علينا بدرى أتجوزنا غفر.

– أهى دى يا سيدى. الغندورة الصغيرة. دى آخر العنقود فى عيلة "حراز"؟!!

– آه دى...

– أيو دى.. شاهيناز يا أستاذ،

وبدأ الهذر يتسرسب إلى الأفواه فى مرح وسخرية وأسى. واشتبكا نوفل وكابتن نصر فى المونولوج طويل. واستعادوا سوياً ما حدث لجمال وقت أن كان يقوم بتهريب الكلوتات الحريمى الفرنساوى من منافذ جمرك الرسوة ببورسعيد فى نهاية الثمانينات ورنا ابن قنديل ينصت لنوفل معقباً بادئاً بالقافيه. مال برأسه الصلعاء شاخصاً صوب عيون نوفل البارقة فى بلة مردداً بالقرب من أذنى.

– آه. وآل له إيه يا نوفل– آله له إيه يا جماااال. آل له إيه آآله، ولا يا جمال آله يا مُهرب الكلوتات يا فكهى؟!!

– آل لى. إنت إيه اللى جايبك هنا يا نوفل. إيه اللى جايبك هنا ياد يا مُهرب (أنا عارفك) آه إنت مُهرب كلوتات حريمى يا عرص. وكل يوم بشوفك فى جمرك شكل. وطلع القرن من الجيب الشمال. وراح مديله بشلتين

– اداله اتنين فى قفاه. وواحدة تانية فى مقتل وقال له ماشوفكش هنا تانى يا وسخ.

– آه وقال له إيه تانى يا نوفل؟!!

– سرحان وقع جنب الشادوف متعور، خَر دم. وقال له– بلاش كده يا باشا.دنا ابن نااااس. والكلوتات الحريمى دى مش بتاعتى. دنا جايبها لأمى؟!!

– وقال له إيه تانى يا نوفل؟!!

ونظرت لوجه نوفل وقت المنازلة الكلامية وازدياد الهذر والسخرية من نفسه، دمعت عيناه وصارت تضوى. سحب كرسى من الخيزران ودار وسط حلقه البامبوطية الذين تحلقوا حولنا وقت الصياح والضحك مفترشين الكراسى البلاستيك المنصوبة بصحن المقهى، طرطر مؤخرته للخلف فلاحت عجيزته

العظيمة النحيلة تتصدر مدخل المقهى الجانبى أمام الطقطوقة الصغيرة المستديرة. طأطأ رأسه وصارت دماغه الصغيرة الصلعاء ترتفع وتنخفض فى حركات بهلوانية. دنا بمؤخرته جهة البلاط الموز ايكو فارداً ذراعيه المشعرتان متقافزا كالشامبانزى.

وكابتن نصر يدور حوله فى جنون مردداً

– آه. وقال له إيه يا نوفل أحبيبى.. قول يا حبيبى قول ونوفل يتقافز كالبهلوان ضارباً بكعوب الحذاء فى البلاط،

– (قال له- إنت آلة مُهرب.. وإداله اتنين فى كُسه؟!!

وانفض المولد فى مقهى البرنسيسة. وتهاوت أجساد الزبائن تستند على قُرص الترابيزات الفورومايكا وقدمت سيارة "رينو" زرقاء. عبرت جسر أوجينيه صوب محمد المصرى السماك. وركضت بنت حراز فى جرأة وثقة تعبر رصيف البرنسيسة. ووجدتنى أسأل نصر قنديل فى جدية.

– مش شاهيناز حرازى كانت متجوزة صلاح أبو ريدة يا كابتن.

– آه

– أمال هوه فيه دلوقتى؟

– آه. أصله يا سـ يـ يـ دى هربااااان..،

ناصب على البنوووك.. (قروض يعنى وكده)

– آه.

– معايا يا أستاااذ.. انت سامعنى.

– سامعك يا أبو خاالد؟!!

ويرد جمال نوفل فى ثقة

– دا العربى الزلاط- قال لى إنه شاف صلاح أبو ريدة مع الحاج سيد متولى فى البانيا؟!!

– آه. آه.. عالم ولاد حراام. أرجوزات،

– آه. وقال له إيه يا نوفل

– قال له. (انا جيت أسألك الجُرنان طالع بكرة ولا لأ يا كابتن- قال جرنال إيه يا مهرب قال له جرنان النادى المصرى يا كابتن مرزوقة- آل له. (جاى لى فى الجمرك تسألنى على الجورنال يا نوفل وإنت لابس كلوتات حريمى يا وسخ.

وخطت شاهيناز حراز. ركبت السيارة "الرينو" ورأيت الشنط البلاستيكية الثلاث معلقة بالأصابع الناعمة فى يدها اليمنى. الأصابع تزداد أحمراراً مع الثقل الهابط لأدنى فى القعر البلاستيك وتدلت خياشيم الجمبرى الكبير الأبيض تطفو على وش الشنطة فجأة ليظهر القاروص الطازج محدقاً من فتحة الكيس الممزق، ودخل علينا محمد منسى موظف الجمارك الذى طلب تفاحة وشاى ميزة. وظل يسحب الأنفاس من الشيشة حتى منتصف الليل. خرجنا فى الثانية عشر والنصف. وقت أن بدأ صغار العمال الغرباء يكنسون المقهى فى نشاط مشيت مع كابتن نصر قنديل وقصدنا شارع "محمد محمود" نخطو بمحاذاة معارض الشابورى فانحرفنا يساراً نترجل فى طرقات ممفيس- وفى طريق السير. تذكر قنديل أنه سيضطر للذهاب لمحمصه محمود فى شارع الفرات. طللنا لفندق "الكيلانى" المواجة لبار "طمادى لابوست" الذى انطفأت أنواره فى شارع الجمهورية. ورأينا العمال الرُحل يقومون بتنظيف بلاطات الرصيف فى الظلام. ومشينا نتهامس فى شارع الجمهورية، طللنا بفزع نرصد تلك العمارات العتيقة ذات الطُرز البلجيكية والإيطالية بتنا نرقب وندقق النظر ف ما آلت

إليه واجهاتها الرخامية ذات الطنافس والحلى الأرابيسك المحلاة بالفسيفساء ورقائق الصدف المعشق بالزان والماهوجنى مرشوقاً أسفل الخوابير المدقوقة فى الحوائط الصلبة أسفل حواجز القرميد الأحمر التى تعلقت أدناه المصابيح والمشكاوات النحاسية، رشقنا عيوننا نتبع تمدد تلك الأعمدة الجبسية التى انتصبت فى فراغ الأرصفة تحمل التراسينات العتيقة التى مالت وهبطت لأسفل.

صارت الجدران وحوائط الواجهات مطلاه بقشور جيرية رخيصة، وصمتنا منتكسى الرؤوس نرقب مسار الأحذية الرخيصة التى تجر أقدامنا على الطريق الأسفلتى المليئ بالحفر. وهبط كيس القمامة الضخم ساقطاً فوق رأسى من أعلى بار "ريتس". طللنا فى البعيد المرئى ننظر قطعة الأرض الفضاء المواجهة لسينما "ماجستيك" الذى ازيلت وأقيم فى موقعها البرج الأسمنتى الضخم الذى ابتناه "البهائى" تاجر الصينى المعروف فى بورسعيد بمشاركة "علم الدين" مستورد الشاى السيريلانكى، النوافذ مغلقة أعلى الشقق الخالية المعتمة. التراسينات القديمة خاوية على عروشها يلفها الصمت والسكون بقرب لمبات الإضاءة القلاووظ المهشمة. وجالت عيوننا فى الأعالى فلم نر أحد، اتجهنا يساراً فى شارع حافظ إبراهيم قاصدين القصر القديم لشركة "الرباط وأنوار السفن" والمبنى القديم للحجر الصحى يسار رصيف شارع فلسطين ومكاتب الملاحة الفخمة التى أقيمت فى الأبراج الأسمنتية الضخمة جهة ممشى ديلسبس الجديد. وتوقفت أطل فى حسرة وذهول أرقب الجدران المائلة فى عمارة "سيمون أرزت" القديمة ومحلاتها السفلية التى أغلقت ركضت صوب فندق "أكرى اليونانى" التى كانت "تمتلكه ماريكا" وتقتسم عوائده مع شقيقها التوأم "نيقولا" فترة الأربعينات وخمسينات القرن الماضى. بت تائهاً اجتر ما مضى وتوارى عبر السنوات الخمسون التى ذهبت بفرحتها ومجدى الضائع مع

أسرتي. ووالدي. واعتلاني الشجن والأسى فصار يسيّر خطاي متحكماً في رغباتي- مشيت أقصد المدخل الرئيسي لأكري وتمهل كابتن نصر في خطاه ليعبر شارع فلسطين سائراً بمهل بمحاذاة الأسوار الشائكة مطلاً في المجرى الملاحي، وهالتني تلك اللافتة الخشبية القبيحة المعلقة فوق باب الفندق قُرب مدخل البار أسفل الباب النحاسي الذي كان مخصصاً لدخول الأجانب وصفوة المجتمع البورسعيدي في الأربعينيات زمان- على اللافتة الخشبية ظهرت العبارة المكتوبة بالفلوماستر الأسود العريض. الفندق والبار بملحقاته ملك لشركة "الجاعوني" للاستثمارات العقارية- القاهرة "أرض الجولف"؟!!

واقترب من خطانا صبي في الرابعة عشر ويزيد، نادى على كابتن نصر قنديل الذي ركض يعبر الطريق الإسلفتي، صار الصبي يقسم باالله إنه قد أعد لنا مفاجأة مريحة. فرصة نادرة لشراء الأحذية الإيطالية بأرخص الأسعار. قصدنا الرصيف المحاذي لأكري. وظللنا في دهشة وتعجب في انتظار المفاجأة المدهشة، أحذية صيني وتايوان مفروشة على كليم رمادي ممزق- والجوز بـ ٥٠ جنيه بس. وراحة الجسم تبدأ من القدمين، اللنشات الفيبر جلاس تحلق قُرب باب ٨ وخلف باب ١٠. صرنا نتطلع عبر السلك الشائك الطويل وزاغت أبصارنا تحلق حول مركب الغاز الروسي الذي يعبر الميناء في الثانية بعد منتصف الليل، المعديات واقفة بالمراسي بقرب الحاويات الفارغة الراقدة في الأحواض القديمة المفتوحة إلى قسم شرطة الميناء- الذي نزعت لافتته القديمة. فوضع بدلاً منها لافتة بيضاء من البلاستيك تضاء بالفلورسنت وكُتب أعلاها- إدارة هيئة المواني ببورسعيد. نظرت اللافتة القديمة المحفورة في الرخام الأبيض منذ عام ١٩٢٩- **polici**.

علـى زعـيق السـفن الأمريكـية الضـخمة ودعـت كـابتن نصـر قنديل. وزاغ بصرى يطل طلته الأخيرة على واجهات قسم شرطة الميناء القديم. وسلم الهروب الخلفى الحديد المواجهة للشبابيك البعيدة المفتوحة أعلى عمارة الساجيرية التى صـارت أنقـاض. مشيت بجانـب مصلحة الأدلـة الجنائـية أدور خلف الحديقة المـزروعة بأشـجار الـليمون الذابلـة. نظـرت للقـبة العالـية الـتى تعتـلى المبـنى الإنجلـيزى العتـيق لإدارة قسـم شـرطة الميناء القديم حدقت لنوافذه التى رُممت منذ فـترة قصيرة شرفاته الثلاثة. قبابه. أجراسه الصدئة المتدلية قُرب الحوائط والجـدران الأسمنتـية المطلـية بـالجير الأبـيض الرخيص. تذكرت حكايا جدتى وأمـى. والعـم "حسـن زنجـير الـذى كثيراً ما أكد لى أن والدى كان قد سُجن فى هـذا المكـان لـمدة عشـرة شـهور. مسـح البلاط فى غرفة الحبس الانفرادى بالدور الـرابع عـام ١٩٧٥م. وعقـب عودتـه مع المهاجرين بصحبة أمى وأخوتى وقت أن أتهـم بـتوزيع المنشـورات الـتى تُحـرض عـلى ضـرب العسكر وضباط الداخلية، صـرت مجهـداً وعيـنى دامعـه. عطشـان ومعدتـى خاويـة- اقتربت من "الكُشك" الألمونـيوم الواقـع خلـف قسـم الشـرق. شـربت عصـير المانجو فى علبة كرتونية حمضـية. قفـزت فـى معديـة بـور فؤاد نظرت لصفحة الماء المالح الدائر فى هياج خلـف الـرفاس الخلفـى- واجتررت ما حدث فى العام الخامس والسبعين. جُلت ببصـرى أهفـو إلى القبة الخضراء للمبنى الرئيسى لهيئة قناة السويس ووجدتنى أقول فى نفسى،

- مـن هـنا عبر السادات.. إلى هنا إلى هذا المكان ومنه وإليه وصوبه وبعيداً عـنه وبقـرب كـل الملايـين وعـلى مسمع الأهالى والسكان الحيارى. المهجرين من بورسعيد. خطب الزعيم جمال عبد الناصر؟!!

– فى بورسعيد. فى بورسعيد؟!!.. دفعوا ضريبة الدم؟!! وتذكرت ملامح الشاه بهلوى وقت أن اصطحبه السادات فى اللنش البحرى فى ٧٥.
نظرت السماء كثيراً فى خنقه ولوعه محدقاً فى المدى البصرى وفضاء القناة الراحل والمجرى الملاحى الطويل الرابط بين قارات وأخرى. والمؤدى إلى مدن وشطوط وموانئ عديدة حلمت كثيراً بالوصول إليها محققاً أدنى رغباتى عبر الكثير من الأمانى والإنجازات التى خابت فخاب سعيى قبل رحيله. لتنكشف الأوهام للشعب مع طلقات الرصاص وسلاطه لسانه فى أكتوبر. رحل ولم تمكنه جلبة الهتيفة من المؤيدين لسلامة؟!!– من سماع صرخة أبى. ولا من نداءاته المتكررة له من آخر الطوابق فى قسم شرطة الميناء يوم أن جاء ليعيد افتتاح المر الملاحى فى قناة السويس.

– وقال له إيه يا جمال يا حبيبى– قول يا نوفل؟!!

– (قال له... إنت مُهرب آله. وله– إنت مهرب يا اد، وإداله أتنين فى كوسو وبعدين باسو ورماه جنب الشادوف.

– ولا. وله يا جمال يا برنجانه يا اخو الحلو يا مُهرب

– عيب كده يا كابتن "نصر"،

واتذكر جمال فى حزنه وسخريته.. ولمعان قورته أعلى كوب السحلب وقت أن ضحك نصر قنديل وزئط صائحاً ينادى على العربى النادل.

سحلب تانى يا عرب للزعيم نوفل؟!!

° ° °

رسالة مفاجئة أبصرها على الشاشة المنيرة لتليفونى المحمول– أختى الصغيرة "هالة" آخر العنقود تبلغنى بتدهور الحالة الصحية للشقيقة الكبرى فاطمة.

– وباتعة نقلوها مستشفى ناصر يا حسين؟!! وأنا أبحث عن عمرى الضائع– و٣٩ سنة عبث يا محمود والسجائر نفذت وانت سائر بجانب الميناء منتشياً كنت ومنصتاً لصوت البواخر وزعيق السفن السياحية ووشيش الماء.

واضطررت للعودة إلى شارع الجمهورية طامعاً فى العثور على تاكسى خالى يقوم بتوصلى فى هذا الوقت المتأخر.

وقفت أمام محلات "بنجوان" مشيراً للعربات الفارة على الأسفلت. ولم يقف أحداً. السيارات تطير فى سكون قاصدة ميدان القواقع عند محلات "بيتزابيينو". الساعة تقترب من الرابعة– والأنوار تخفتُ فى شارع الجمهورية، عمال البلدية يسحبون الأوناش الضخمة جهة شارع "السلطان محمود". يصعدون فوق السلالم الآلية ويقومون بطلاء الأعمدة الكهربائية العالية باللون الفضى قبل الفجر... ٢٠ دقيقة وانا واقف فى انتظار تاكسى. شارد العقل صرت مكبلاً بقيود الحنين الهشة إلى أزمنتى الماضية. أتذكر ما حدث لى فى صباى فى هذى الشوارع التى كانت عامرة. صاخبة. مستحبة، أحدق فى اللافتات واتذكر سهراتى الليلية فى العمل بمطعم "السلطان"؟!! سلاطيرى كُنت. وبتُ يومها أعدُ نفسى للافتتاح العظيم بعد شهرين– رجعت للعام ١٩٨١؟!! ودهشة الأهالى فى المدينة فى تلك الأيام التى خلت، تحديقهم للافتات العديدة المعلقة بكافة شوارع "حى الأفرنج". والمهندس مجدى عباس. مديرى– والخبير السياحى والاستشارى لفندق "إيتاب" والشابورى. يقول لى : (شد حيلك يا بطل– فاضل ١٥ يوم عا الافتتاح.

– (أنا اخترتك إنت تحديداً لقيادة فريق العمل لإعمار أركان السلطان. وحدث جديد فى مدينة العجائب، وصار السلطان الغامض حديث الأهالى فى بورسعيد. السيدات البرجوازيات ينظرن اللافتات الفسفورية محدقات

للإعلانات التى تتوسط ميادين المنشية و"الأمين" و"القواقع".. وفوق محلات "هامبورجر كنج" أمرنى مجدى عباس.

– (عايزك تحط اليافطة الكبيرة على العامود اللى قصاده (وبدأ العد التنازلى لقدوم "السلطان" المفدى ليجلس على عرش بورسعيد؟! !وأنا أتذكر ضحكى مع الصديق القديم. زميلى فى الدراسة محمد الأوزة– الذى وقع عليه الاختيار من قبلى للعمل معى فى مطعم السلطان كطباخ. تذكرت مجدى عباس وحيله العجيبة ومهاراته فى اختلاق العناوين الغامضة والمثيرة للفت الانتباه لحدث الافتتاح المرتقب.. والبنات الجميلات الارستقراط يوقفوننى فى "حى الأفرنج" ليسألوننى فى إلحاح عن موعد قدوم السلطان– وأى السلاطين سيأتى؟! ! ومن أى البلاد– وكيف سيحكم. وهل هو مطلع على مشاعر الجماهير تجاهه؟! !

وتمر "ميرندا" من أمامى، وتدمع عيناى فى شارع الجمهورية الطويل– وكل العربات تمرق فى صمت، و"ميرندا" تشدنى من عقلى. تغوص فى ذاكرتى. تحيا فى خيالى؟! !

"ميرندا" كانت جميلة. بريئة. صافية. راقية، محبة، عاشقة للحياة– ميرندا الذى احببتها وأنا فى الرابعة عشر؟! !

ميرندا بنت قبطان بحرى كبير.. "ميرندا" كانت الحفيدة الصغيرة فى عائلة غزالة– بنت الكابتن عماد القبطان، شارب السيجار الكوبى– وهالتنى وهى تدخل المطعم السلطانى وأنا أرقب خطواتها وهى تمشى فوق الأرضية الرخام. تنظرنى وتضحك فى رقة وعذوبة وترمقنى بدهشة وأنا أقوم بتلميع السيراميك والقيشانى نافذاً للطرقات الباركية دالقاً زيت الزيتون. مستعملاً قطراته فى التلميع "ميرندا" تركت مكتبها الشيك الروستيك ودنت من الحوض

الزجاجي لأسماك الزينة.. التفتت ترمقني في خبث ظاهري مندهشة لتحديقي في عيونها مستديرة ضاحكة تركض في خجل ليصطدم حذائها الإيطالي بواجهه الحوض الزجاجي دون قصد. وتزحف الأسماك الملونة على الباركيه. وتدوس ميرندا الأرض في حنان. فتضغط بكعب الصندل على رأس السمكة السيمون وهي الأصغر حجماً والأكثر نحوله ورقة بين أخواتها السابحات في الحوض الشفاف.. ميرندا بكت في حرقه.. وتسر سبت الدموع على خدودها الوردى. وأصرت على دفن الأنسة "السيمون النحيلة" ليلة رأس السنة سنة ٨١.. وقمت ناهضاً أهفو. اقترب من ملابسها. أتشمم عطرها. أطل في فمها الصغير النونو أبو شفايف حمرة.. سحبنا الأنسة النحيلة سوياً- أنا و"ميرندا" وتوارت وقت ما رفعتها على يدى. توارت ميرندا- أسيه- بشويش يا محمود لو سمحت.

وتوارت السمكة في التراب الناعم أسفل بواكى بنك الإسكندرية البحرى. قبل احتفال البرجوازيات بليلة رأس السنة في ٨١.. ومع أول صعود لصوت الموسيقى الكلاسيكية "لفاجنر" صمتت ميرندا- وقامت تعد نفسها للحفل رغماً عنها. أخرجت صباع الروج الفرنساوى وطلت في المرآة

° ° °

عُدت أتذكر ما حدث مع السلطان، الفجر يقترب وأنا هاهنا مازلت في انتظار تاكسى يقلنى إلى مستشفى ناصر. قلت في نفسى:- سأزور فاطمة الشقيقة الكبرى. ثم أزور "باتعة" الأصغر منها سناً فأنا أحب فاطمة كثيراً- هى التى ربتنى لا صوت إلا للسكون. عربة وحيدة تسير جهة بنك القاهرة. أنادى على السائق. أركض خلفه. فيتوقف عائداً للخلف أسأله أن يوصلنى إلى مستشفى ناصر. فأشم رائحة الكحول النافذة إلى انفى. السائق يهذى مثرثراً

بكلمات لا أفهمها- لا اتبين مغزاها. يقول ورائحة الكحول تخرج من فمه: -
(إنت جاى هناك؟!!

(أنا كلهم سابونى وسافروا- تيجى معايا نروح أنا وأنت هناك- الرجل ثمل. يتكلم بصوت مبحوح. يتقافز على كرسيه يشير بيده إلى صفحة السماء. يفتح الباب ويخرج. فتراجع للخلف مزهولاً وقت أن انتصب وسط شارع محمد محمود وحدق ملياً مشيراً بيده اليسرى فى الفراغ الخالى مردداً فى أسى- أصلى أنا عايش لوحدى هنا- ماتيجى معايا يا ابن الحلاااال

:- يا أخى تعال متخافش. هنطلع سوا عندهم. هما فوق- يا أخى تعالى
- وسحبنى من يدى قائلاً يعنى إنت عاجبك الحياة هنا- برقت عيناه وطأطأ رأسه. فخر ساجداً. هوى على رصيف الناصية ما بين محمد محمود وتقاطعه مع شارع الجمهورية- جريت مذهولاً.. راقبته عن بعد- كان حارس البنك قد قام يترك خدمته- اسنده على السيارة. وضرب وجهه بزجاجة الماء المعدنية.

وعادت سيرة مجدى عباس. وتعجبت للأحداث والمواقف واختلاط الماضى بالآنى فى أحداث مثيرة ومفجعة، اجتررت ما حدث ليلة الافتتاح للشيف لمعى إسطافانوس. كان قد سكر هو الآخر قبل ساعة واحدة من افتتاح السلطان، شردت فيما يحدث آنياً- وفى الماضى البعيد، مجدى عباس الذى دخل فجأة علينا- فقابل لمعى فى الطرقة الباركيه ليبادره بالتهنئة مردداً- كله تمام يا مجدى باشا.. مجدى أطل فى وجهه ورمقنى قائلاً،

- ادخل إنت المطبخ وسبنا شوية يا "زفت"؟!!

حزنت لما قاله.. وتلصصت عليه وقت أن انفرد بالشيف "لمعى" موبخاً إياه قائلاً ليلتها... (أنا سمعت إنك بتشرب كتير. وأهى ريحتك زى الزفت. وبقالك شهر ونص معملتش أى حاجة تستحق عليها مرتبك. محمود والأوزة هما اللى

عملوا كل حاجة: إنت مش حاسس بـ اللى أنا فيه.. البلد كلها واقفة برة على رجل- والكل مستنى يعنى ثوانى وكل أثرياء البلد هيكونوا هنا على اكتافى، (دفعة فى كتفه وقال- يلا روح فوق نفسك، وإنسى؟!!

وعلمت بعد عشرة دقائق. إن الشيف لمعى كان قد دفن شقيقته الكبرى منذ ست ساعات. وميرندا تقول- هوه الكابتن مجدى كده، من يوم ماجه من أمريكا؟!! (بتاع مصلحته وبس.. وتضيف . لسه عايش بنظام الجيش- كله ميرى- (أصله ياسيدى كان ضابط طيار- ساب الخدمة وهوه رائد.. وسافر على حساب الوزارة عشان يدرس..

– آه درس تسويق..؟! بـ- كل حاجة عنده ليها تمن.. مايعرفش المشاعر ولا العواطف.

– يعنى "براجماتى" تضحك "ميرندا"

ويحين موعد الافتتاح وأنا أرقب ملامح الكابتن التى تجهمت- أرقب وجه الأصفر المربع- وقفاه الغليظ وقامته التى انخفضت فجأة وصدره العريض المنتفخ ورأيت فؤاد باشا سراج الدين يدخل مطعم السلطان وبصحبته كبير عائلة سليمان رباح والسيد مصطفى شردى الصحفى. وحاول عباس أن يتظاهر بالسعادة وهو يرحب بضيوفه قائلاً:

– شرفتونا يا باشا. أهلاً برائد حزب المحافظين فى مصر. أهلاً. أهلا يا باشا. الليبرالية المصرية مشرفانا النهاردة. مشرفة السلطان. والباشا يقول

– أهلا بالطيار العتيد. كعبك عالى على شعب بورسعيد يا سيدى (مبروك عليك الدبلومة. وحمد الله عا السلامة يا أمريكانى، ضحكوا سوياً فى خبث وباتت ميرندا ترقب الحاصل مستمعة للأستاذ مجدى وهو يقول فى وجوه الزبائن البرجوازيات.. الدخول النهاردة ببلاش- لكن تمن العشا. هيتم

تحديده مع الخروج، فؤاد سراج الدين يقص الشريط. والشوارع مزدحمة فى الخارج. وانطلقت الصواريخ النارية. والبالونات المضاءة تدلت من المصابيح النحاسية المعلقة بالطرقة.. ورأيت صور وهمية لسلطان جائر. الصور تطير محلقه خارج المطعم. تنفذ إلى الشوارع المزدحمة بقرب شعور البرجوازيات الواقفات بالخارج وقد ارتدن الفساتين السواريه اللامعة.. وتقدم أول المأكولات بصارة السلطان وطعمية الباشا بالحمص. خلطة سورية مصرية معتبرة. والصور القديمة لعبد الناصر معلقة فى المطبخ خلف أجولة الدقيق الفارغة.. وألف ومائة وعشرون جنيهاً أول فاتورة يحصلها "الكاشير" من بصارة السلطان وحمص الباشا- وأنا أنظر فى سخرية وامتعاض متجهماً. ألف وأدور حول نفسى فى الطرقات الضيقة حتى تأخذنى قدماى إلى مكانى الطبيعى- مستقرى- فى المطبخ الصغير الملحق بمخزن الجاف جالساً بجانب الأوانى الفارغة جهة الحوض الكبير. والشيف "لمعى" يُحسنى على التماسك- حتى تمر ليلة الافتتاح على خير، والأوزه يضحك غير مكترثاً.. يسحب زجاجات السفن أب والأسبورت. وكيزان البيرة الهانيكن البلجيكى. يدلق فى حنكه الواسع ويرمى بعشرات من البيض المسلوق فى جوفه. والمطرب يردد فى صوت منخفض وعبر تيارات الهواء النافذة تطرق المرات داخل المطعم- (ياليالى يا ليالى. يا ليالى. يا ليالى- وين بُعادك وين يا غايب عينى. حلمى عاش حزين جلبى عاش حزين فى بعادك يا زين- وين- وين- وميرندا تقف فى الهول الكبير. رمقتنى فى أسى تتبع نظراتى الهائمة تجاهها. نظراتى البكر البريئة الذى فضحتنى فأظهرت خفقات قلبى العاشق للبكارة والرقى والبراءة المفتقدة- قامت تسلم على الزبائن التى تعرفهم فى حى الأفرنج.. وتحلق صفوة المجتمع حولها. وبانت السيدات تضوى بوجوهها ورقابها البيضاء المتدلية بالعقود الألماس

والبروشات الياقوت. ودخل الكابتن هشام حلاوة يدنو من كابتن عماد غزالة والد "ميرندا" وهرع مجدى عباس يقتحم الواقفين متأهبين للخروج وقت أن مال عليه كابتن غزالة منبهاً إياه قائلاً فى أذنه

– (معرفتكش.. هشام حلاوة- كابتن طيار.

جوز ميرندا بنتى.

– ومجدى عباس يصيح فى الزبائن.

– (باركو للعروسين، وغزالة يقول منبهاً

ميرندا وهشام أتجوزو النهاردة من ٣ ساعات ومسافرين بعد ساعة من دلوقتى، (ميرندا رايحة نيس. وجايز تقعد هناك على طول؟!!

وودعتنى ميرندا الجميلة فى صمت وبراءة. ماسحة على شعرى اللامع الخفيف. قائلة- يلا يا شطور بكرة تكبر وتجيلنا فرنسا، جريت أدخل مخزن البقوليات- بكيت دون دموع. وسحبت أول سيجارة حشيش من عُلبه الشيف لمعى، لمعى يشعل لى السيجارة كأننى صديق قديم. استدار وقد طفرت عيناه. منصتاً لصوت الست عبر الكاسيت "الأكاى" الصغير المعلق فوق الطاسة النحاس.

– فضلت أعيش بقلوب الناس. وكل عاشق قلبى معاه- شربوا سوا وفاتوى الكاس. من غير نديم أشرب وياه، خرجت فى شارع الجمهورية الطويل. وركض من خلفى الأوزة يجر الجاكت البليزر الطويل الساكندهاند فى ظهره. معلقاً إياه بصباعه السبابه الأيمن هاوياً خلف ظهره العظمى، الأوزة يغوص فى الجاكت الواسع وأنا أضحك وقت أن قال فى زهو- إيه رأيك فى الحتة "الكموش" دى. جبته مخصوص عشان الافتتاح،

وجسد الأوزة الضئيل يغوص داخل الحشو الأسفنجى، وهو يهرول بجانبى خلف معارض الشابورى ولفحات الهواء البارد تضرب جيوب الجاكت

الطائر، ويضحك الأوزة في عبوث فتخرج رائحة الكحول من حنكه الواسع. حدقت لشفايفه الغليظة وهمت البنت "إيرين" المخبولة خارجه من باب المندرة الحديد. ركضت خلفه في هدوء وهو يقهقه.

صاحت في شارع الجمهورية.. (ولا يا شلاضيمو واد يا شلاضيمو- واد يا اوزه يا ابن اللحاسه، تيارات البرد تخترق عظامنا الليئة- نمشي ونركض قاصدين نفس اللافتة؟! ! منتظرين لأكثر من ساعة تحت مظلة المكتبة الأهلية- العربات الأجرة تمرق في سرعة مخترقة شارع الجمهورية العامر- طللنا لنفس اللوحة- نرصد مداخل شارع السلطان؟!

° ° °

الفجر يقترب وأنا تائه في ذكرياتي وأمكنتي القديمة. أحدق في اللوحة. بقرب المكتبة الأهلية السلطان. الفجر على وشك الآذان ولا مجيب لنداءاتي "باتعة". كثر مرضها في الشهور الأخيرة ودون سبب واضح، "باتعة" تشكو من الكبد. وحالة الإصفرار والقيئ دائمة باتعة صارت هزيلة. والقيئ متواصل. ودائماً ما يكون مصحوباً بدم أحمر قاني غزير، زاد إرتعاشي في طريق الجمهورية المسفلت بالحصى الغليظ. عمال البلدية يقصدون سوق البازار القديم — سوق اللجريح- عمال البلدية ينزعون آخر ما تبقى من الأحجار البازلتية اللابدة إدني أرصفه بوتيكات الانتيكات الواقعة أسفل بواكي عمارات الساجيورية وقُرب النهضة- أمام "بارسيسيل".. أرصفة بارسيسيل تلوح في عيني بارقه وقد استبدلت أرصفتها البازلت بالرخام اللامع.. الصمت يخيم على شوارع بورسعيد. قلت أمشي مستمعاً في إنصات ونشوة وهمية لصوت الوشوشة الآتية من ماكينات الديزل الراقدة داخل مراكب المعاونون في الأرصفة الساكنة بالممر الملاحي للقناة.. الأصوات تخترق أذني والسفن تخرج من البوغاز خلسة

وفى صمت. مشيت فى شارع فلسطين حتى نهايته وانحنيت يساراً طارقاً مساكن الموظفين خلف "هبورجر كنج" ووجدتنى متلبساً بالخطو قُرب مبنى مباحث أمن الدولة- نظرت اللافتة المسطورة بـااللون الأسود الزجـزاج- فـى عهد الرئيس المؤمن محمد أنور السادات.

قام السيد... حسن أبو باشا. والسيد؟!!

والسيد... المخبر الواقف قريباً من الباب الرئيسى ينظرنى شذراً فيحدق متجهماً يرقبنى. يرصد خطاى مدققاً فى ملامحى. سيجارة الحشيش الثانية فى جيبى. لمى أصر على فى شربها.

الحشيشة فى العلبة الفارغة فى جيبى الأيسر للجاكت الجيينز الـ "لى. قلبى يرتجف ويزيد تثاءوبى دون مبرر.. غارق فى العرق صرت. فبت أخرج بمنديل ورقى. مسحت وجهى فى توتر أرقب مدخل المبنى المهيب. خطوت فى عجل وأدب وقد خفت صوت الكعوب فـى حذائى الأسبانى القديم المتهالك.. الأرض حصى. وعربة ميكروباص خالية. تلف من بعيد. قفزت فرأيت السائق يتثائب هو الآخر. قلت للمتثائب وهو ينظرنى بغرابه مبتسماً بحذر.

– تنظُرنى مستشفى النصر. باتعة تعبانه؟!!

– لا مؤاخـذة يـا أسطى الله يكـرمك- عـندى حالـة وفـاة؟!- بسـرعة الله يخليك؟!!

وهممت بالركوب متثائباً. وتعلقت القدم اليمنى بالدواسة المقلوبة وفجأة سمعت نداءً بصوت جهورى. فالتفت فى اليمين واليسار- العربة تنطلق خالية إلا من السائق، استدرت أتبع صوت النداء- النبرة جسورة فى غاية القسوة صوت مبحوح اهتزت على أثره خلجاتى وانتبابتنى رعشة مفاجئة. طالت كثيراً

– ورأيت سيقاني يصطكان ببعضهما البعض ووجهي تزداد سخونته. والجو لابدا في الصمت من حولى. لا أرى أحد في موقعى.

أحدق في بانوراما المكان وقت تكرار النداء الغامض المخيف الذى صار أكثر قوة. أكثر غُلظة. توقفت في موقعى منتبهاً للصوت الأمر.. أمرنى بالركوع مردداً أسمى. اسم والدى– لقبه

:– (قف يا محمود يا طلخان؟!! (الزم مكانك ولا تتحرك خطوة واحدة... (إحنا مراقبينك من ٥٠ سنة؟!!

– إركع، التفت في عجز.

وكأننى اسمع اسمى للمرة الأولى. أعدت الكرة ناظراً للأمام صوب بصرى في الطريق المظلم الطويل، وأحسست بسخونة ومغص في أحشائى. داخل معدتى الخاوية– كركبه وضُراط متواصل بصوت عالى ثم متقطع. ثم خافت، أسمع دبيب أقدام لحذاء ميرى يخطو خلفى– يتعقبنى. أقدام غليظة تدهس الإسفلت ورائى. تكاد أنفاس السائر أن تخترق أذنى. تنقض على؟!!. ترتفع وتهوى بأصابع طويلة مطوقة عنقى العرقان. تسحبنى من أكتافى العظمية. وجهى يحدق في ظُلمه وسواد فأرى هالات شيطانية تتحرك أمام عيونى. وشيئاً ما صلب وثقيل ينفلت من فتحة شرجى بارداً. يسقط في لباسى الداخلى فجأة.. وبتكرر النداء رغم ثباتى في المكان.

– قف يا محمود يا ابن طلخان الكبير؟!!، ويقترب المنادى أكثر فأكثر حتى كاد أن يعتلينى، بنبرة أمرة لحاكم ظالم قال الصوت،

– (فين الشنطة يا محمود– أبو حجة وشي بيك انت وأبوك)؟!!

واسمع السياط وقد هوت على ظهور العباد المظاليم، البشر يزداد صراخهم في البريه. في زنازين مغلقة. على بلاط بارد وأرض أمتلأت بالقاذورات

والخراء- وتخرج الكلمات من فاه المجهول الغير مرئى وتسرى النبرات وتتكرر الأوامر فى فضاء مرئى ويعود صدى الصوت مع سكون خلجاتى وتلاشى تلك الأوهام؟!!

حدقت أمامى ومن خلفى مرتين. وثلاث وتراءى لى فى الظلام وقد تعلق فى سقف عالى مربوط من أقدامه فى مروحة كبيرة صدئه. الظلام يأخذنى من غرفة إلى غرفة:. والأبواب قريبة وهياج لاواعى وذاكرة تجتر. وجسداً منهكاً ورجل بعيد يرقبنى ورجل فى الخمسين معصوب العينين،

وأنا أحدق لأرانى واقفاً محاولاً الإنصات لنفسى فى جدية ويقظة متتبعاً خروج الأصوات والنداءات، أفقت ووجدتنى أحاول الاستناد على جدار مبنى هيئة الرقابة الإدارية.. انظف ملابسى وأعدّل من هندامى. اتحسس بنطالى. مؤخرتى، أزحف محاولاً الوقوف فارداً ذراعى الأيمن فى الفراغ. ولاح لى شاخصاً ينادينى فى طيبة وقد خرج من بين الحشائش الخضوضرة فارداً يديه فى الهواء ماداً أصابع يده فى وجهى يشدنى. يربت على كتفى. وظهرت ملامح الرجل الغريب المجهول. وجدته كهلاً يخطو متثاقلاً مستنداً على جدران هشة، أشعل لى السيجارة "الكنت" فى ظلام الفجر ووقت الآذان وسمعته يقول فى حنو.

- (حدّ يا ابنى ينام فى الجو ده على الأرض.. (إنت غريب ولا إيه. (إنت مسافر يا ابنى. طب قوم. هات إيدك؟!!

° ° °

مشيت وحيدا. أمشى، فكم مشيت وعشت وقابلت وودعت أصدقاء كثيرون هاجروا- تركوا الديار تحت تأثير الخوف من تلك السلطات القاهرة، أشعلت سيجارة، ونفثت دخانها فى الهواء وتذكرت رفيقى. أو من كان رفيقى العراقى

العزيـز عـبد الكـريم الحسينى.. ودنا صوت فيروز يشجينى وقد باتت تردد فى أسـى (سلم لى عليـه ، بـوّس لى عنيـه- هـاى دا حبيـبى؟!! السائق ينظرنى فى حنو وأنـا تائـه. أجـتر سيرة عـبد الكريم الحسينى- أين أنت يا عبد الكريم يا حسينى ياهـاشمى، كان عراقى كردى طُرد من دياره فى بغداد التى عانى كثيراً مـن أجـل السكن فـيهـا- وجـاء لبورسـعيد سـنة ٨٩. كـان ثـريا. تـزوج فـتاة برجوازية لعوب؟!!. عشقت ولد مستخلص جمارك فغواها. كان يعمل فى هيئة الميـناء. وعـرف عـبد الكـريم- وانكفأ على نفسه حاملاً سرة وحيداً. وصار يهذى كـثيراً. ولم يحكى لأحد على شئ. جاء إلينا فى أول العرب. أنا والزينى وأحمد "بريـزيو" وعـادل مصطفى ونبـيل فـرج. عشق شُرب البانجو. حشش كثيراً- فى سجائر وخوابـير- وفـى بـرطمانات إزاز، وظـل شـارداً عـلى الـدوام. كان شكله جميل. نزيه وشيك. وملامحه عربية أصيلة.. واتفقنا معه على العمل مع الزينى فـى بوتـيك الجيـنز- (كـان لسه البلد فيها شوية خير) عمل فى تجارة الملابس. كـل يـوم يـأتى فـى الظهـيرة، ويظـل معـنا حـتى منتصف الليل- نمشى بعد أن نـترك المحلات. ونقصد شقة محمد محمود وحافظ إبراهيم. كان يشرب البانجو فى سيجارة واحدة قبل خروجنا من العرب. ويطلب "باك فاير" فى شقة حافظ.

شـاف فـى الـبانجو مـلاذ وسـلوى- طـريق لـلهروب مـن مجده الضائع فى بغـداد- مجـدة الـذى حكـى عـنه المخـرج القاهـرى الشـهير.. (عـبد الكريم كان بيركـب كـاديلاك فـى بغـداد- كـان مصـاحب كـل ممـثلات مصـر فـى فـترة الثمانيـنات. يعـنى ابـن عـز.. يعـنى مـتعذب- يعـنى معذبـنا معـاه؟!)- يعـنى وتـتعالى إيقاعـات "الدفـوف" فيرقبـنى السـائق وقـت شـرودى- نـبرات "الأبوا" تـبرز نـبرات فـيروز الـبديعة- (هـادى حبيـبى- يهمسـو- تعـبان عـلى سكوته

ودارسو... واضح شجونه. ما نقول شجونه، ما تحرصوا- ليه تحرصوا- سلم لي عليه. بوّس لي عنيه،

- مازلت أتذكر ملامحه جيداً- افتقد وجوده. كثيراً ما بكيت عند تذكرة. بتُ أسأل نفسي في إلحاح وجدية- لماذا لا تتذكره إلا في الليل ومع نسمات الهواء الغريبة تلك وبقرب السائق المؤتنس أنت بجلسته. بسيجارته المشتعلة، بجسده الدافئ.. أم أن للحظات الوحدة والقسوة دوراً في ذلك. هل لوفاءه النادر أم لسمار بشرته. ودفئ علاقاته مع البشر،

- كان يشبهك كثيراً يا حسين..

وإنت يا محمود.. إنت وشك صغير. فرعوني الملامح أنفك مسحوب لأسفل

- وعبد الكريم صداغه عريضة وقصير ودائم السخرية والتهكم وقت ذكر سير الحكام العرب.. أو وقت الحديث والاجترار للوقوف على العلة فيما كان له الأثر المباشر لما حدث لبلدة العزيز وحكم صدام حسين. ومفهوم عبد الكريم عن الأب- والرب، وانفعاله وقت الغضب والفرح- وبكائه في الحالتين؟!!

- أين أنت يا كريم؟!!، راقبوه وتم مداهمته وفي شقة ممفيس تم القبض عليه. بعد أن أشبعوه رجال مباحث أمن الدولة ضرباً على قفاه وصداغه، في البدء وجهوا له تهمة حمل الأفكار الماركسية التروتسكية. وحُصر. وأعد له ملف أصفر به ملازم بخط يده تحض على قلب النظام في بغداد بمعاونة رفقائه في القاهرة. رفقائه الأكراد. قالوا له- (إنت أسست حزب وجماعتكم سرية تنتقد النظام الحاكم في مصر؟!!

- إنت مناهض للحكم البعثي. وسفارتك أكدت ذلك، وقبض عليه فجر الليلة الأخيرة في ديسمبر. في الخامس والعشرين منه سنة ٩٢. وسألنا عنه

كثيراً فى القاهرة طارقين أبواب شقيق المطرب الشهير فى أرض الجولف. دخلنا شركة شقيق المطرب.

فى فرست إيركونديش. وقابلنا عماد دياب أخو عمرو اللى قال- عبد الكريم غايب من ٣ شهور معرفش عنه حاجة،

وقامت عليه الدنيا ولم تقعد. دون جدوى. بحثنا فى أقسام الشرطة والمستشفيات. وداخل السفارة الأمريكية التى سبق للمذكور اللجوء إليها طالباً حق اللجوء السياسى. كان يحمل جواز- لاجئ سياحى- الأمم المتحدة ويمشى بالمهدئات والمسكنات. الاتيفان والموتيفال كويس ليك عشان تهدأ وتنام يا كريم – يارب؟!!

أين هو الآن،

كان يتردد كثيراً على السفارات الغربية.

وقام بإجراء العديد من المقابلات داخل سفارة الأمريكان فى جاردن سيتى. وفى كل مرة كان بيشوف أسمه فى خانة "البلاك لست".

كثرت اتصالاتى بحماته فى "حدائق الزيتون". وردت خطيبته مها. ونفت وجوده فى القاهرة ووضعت السماعة بسرعة ورجتنى آلا اتصل ثانية إلا فى حالة مقابلته- إن تمت.. وفات عام وراء عام وراء عامين. وثلاث وهاتفنى فى القاهرة بعد منتصف الليل فى شقة "المعادى"

– محمود، أنا عبد الكريم الحسينى. إزيك.. أنا مسافر بعد ساعتين. ونازل عا المطار دلوقت. قبلوا أوراقى فى سفارة أستراليا،؟!!

ذهب لسيدنى وترك لى أميله الذى فقد منى ومازلت أبحث عنه دون جدوى،

أين أنت يا عبد الكريم يا حسينى. أين أنت. وأين ذهبت لياليناـ أين أنا وباقى الأصدقاء من مفهومك عن معنى الصداقة والحب والكرامة وعشق الأوطان. وجدوى المعتقدات والمبادئ ومعنى الغربة؟!!

° ° °

دخلت المنزل فى العاشرة صباحاً فقابلت أمى التى سألتنى وبإلحاح عن أحوال أختى باتعة وقالت:

– إنت فين يا ابنى من إمبارح.. إتأخرت ليه يا محمود كنت فين كُل ده.. عمرك ما عملتها وبتِ بره البيت،

– إيه أختك عاملة إيه، (يا حبيبتى يا بنتى؟!!)

– (هوه نفس الموضوعـ تلّيف فى الكبد. لكن د. محمد مصطفى قلقان من موضوع الدم الكثيرـ والإرتجاع اللى فى المرئ

– إرتجاعـ دمـ من إمتى ده. لا حول ولا قوة إلا باللهـ (دى البنت مكملتش ٣٠ سنة،

– طب وأخبار الصفرة إيه؟

– "الصفرا" مش هيه القضية. (بقولك إيه يا امه.

والنبى قبل ما تنزلى، قوليلى. (فيه هنا شنطة قديمة.

– شنطة إيه يا نور عينى؟!!

– الشنطة اللى فيها صورنا القديمة؟!!

– (آه قصدك الصُّرَة،

– أيوه الصُّرَه،

واحضرت كيس مخدة كبير وأخرجت منه شنطة بلاستيك متوسطة الحجم. وانتزعت من داخلها كيس محلاوى كتان بيج وأعطتنى إياه، فتحت

الكيس وقمت بإخراج كافة الأوراق القديمة فوجدت بعض الكارنيهات التى يعود تاريخ صدورها لمنتصف القرن العشرين، كارنيه أحمر متنى اتنين، فتحته. شُفت صورة شبه صورة أبويا المعلقة على الحائط فى غرفة المسافرين

– قوات الدفاع الشعبى. الصفة. مراقب جوى. الاسم محمود محمود محمود طلخان عبد الرحمن.. من مواليد سوهاج لجنة المقاومة الشعبية بمدن القناة. ١٩٥٦م مستبقى ببورسعيد منذ عام ١٩٤٨م- العمل القائم به- خبير أعطال فى السلاح الميدانى، وجدت رخصة لسلاح ميزر رشاش لـ ٢ ماسورة وواحد آخر بورسعيد؟!! ١٢ طلقة.. شهادة تقدير- من حكيمدار مدينة بورسعيد. حسن بك رشدى إلى المواطن/ محمود محمود محمود طلخان.. نهنئكم نحن حكيمدارية المدينة بقيادة الصاغ حسن رشدى، إلى شخص المواطن البطل الجسور لما قتم به من بطولات وأعمال فدائية دافعتم فيها عن وطننا الأكبر — العزيزة مصر.. ومدينتنا الباسلة بورسعيد.. صورة لأبى وهو يقف مع الزعيم الراحل جمال عبد الناصر بميدان الشهداء حدقت فى صورته. ووجدتنى ولأول مرة ألحظ الحوَّل الظاهر فى عين أبى اليسرى. زاد تحديقى لوجه الزعيم. وطفت العزة والكبرياء والرجولة تعتلى وجهه الربع. بعينين ثاقبتين وفى بسمة خفيفة بان يحدق فى المجهول وظهر خلف الواقفين فى الأمام عم حسن زنجير وإبراهيم أبو حجة والسيد عسران ومحمد مهران وباتوا يشيرون ملوحين بعلامة النصر.

كتب تحت الصورة الأبيض X أسود. بورسعيد. ميدان الشهداء ديسمبر ١٩٥٦. أرى محمد مهران منزوع العينين. وقد لُزق فوق جفونة قماشه من القطيفة السوداء تحلقت حول وجهه أسفل قورته، ظللت أقلب فى الأوراق على مدار ٣ ساعات. فوجدت عشرات الصور الفوتوغرافية التى تجمع والدى بيوسف

وسمير زخارى وعبدة الديب وضاحى سلطان وقد وقف حولهم- العمدة مصطفى أبو إسماعيل وجدى والحاج عبد الغنى سلطان، وفى الصف الثانى وقف فى الوسط وبطربوشه النبيذى سعد بك زغلول ومطفى النحاس وفخرى بك عبد النور- وطللت للمكتوب أسفل الصورة- إستراحة جرجا- مدينة سوهاج- سبتمبر- ١٩١٨، وجدت صورة أخرى مشابهة- ولكن بحجم أكبر- موضوعة وسط أفرخ من الكرتون المصقول السميك تضم عائلة المعلم ضاحى سلطان رشوان وبناته فاطمة وسحر وقد وقف المعلم أوسطهما فى اليمين بجانب فاطمة ووالدى فى اليسار بجانب سحر، وكانت الصورة قد التقطت أمام جربين مقهى ضاحى سلطان رشوان فى أول العرب،

أمسكت برخصة السلاح المزقة- وقمت بإغلاق الكيس وقمت بإدخاله من جديد فى الشنطة البلاستيك وناديت على أمى أسألها،

:- (أمه.. (هيه الرخصة دى بتاعة السلاح اللى مع أخويا على).

- (لأ يا أبنى. السلاح إللى مع على أخوك بتاع جدك.. وبعدين اللى مع أخوك طبنجة ٩ ملى بترخيص قديم، ؟!!

وطرحت عليها السؤال المباغت التى جعل عينيها تبرق وترف فبانت أصابع يدها اليمنى ترتجف وهى ممسكة بالطاسة النحاسية المتلئة برؤوس الثوم المعدة للتقشير، وسقطت الأنية النحاسية من يدها وقت أن سألتها

- هوه أبو يا خرج من بورسعيد إمتى يا امه..؟!

:- (مش فاكرة يا ابنى- مش فاكرة..،

أظن بعد زيارة السادات لبورسعيد هوه والشاه بتاع إيران- مش عارفه.. كنا..

آه- تقريبا سنة، ٧٥- ٧٧ مش فاكرة؟!!

– (وإيه اللى فكرك بأبوك دلوقت يا محمود)؟!
– ووجدتنى أقول فى شرود،
– (لا. لأ. ولا حاجة يا امه، أنا نازل– عايزه حاجة منى،

° ° °

أخـى أحمد ينادينى مـن غـرفة الصـالة لأشـاهد محاكمـة صـدام حسـين المعروضـة فـى قـناة الجزيـرة، تركـت غـرفة نومـى فـى شـقة الشقيقة الصغرى وخرجـت مهـرولاً أطل لوجه الرئيس المخلوع وهو يخاطب القاضى فى مسرحية هزلية من إنتاج أمريكى.. وسمعت صدام حسين وقد بدأ فى القسم مردداً: –

–: (أنـا لم أقـتل أحـد+ وإذا ثبـت عكـس ذلـك مـن خـلال عدالـتكم فأنـا مُتحمل وراض بأقصى العقوبات؟!!

– .... ضحايا الدجيل...؟!

– لا. انتم... وكذلك من نصبوكم لمحاكمتى؟!!

ونظـرته عـبر الشاشـة وقـد بـدا يحـدق فى جبروت ظاهرى تجلت مظاهر قسـوته وغلظـته وثـباته فـى آن.. دققت فى ملامحه وهو يشير بسبابته الطويلة صـارخاً فـى وجـه القاضـى العراقى الكردى معترضاً على ما نُسب إليه، فأيقنت بـرؤياى الظاهـرة أن هـناك ثمـة دلائـل وبـراهين بصـيرية قـد أحالتنى إلى عدة تفاسير متناقضـة فـى بنية الرجل الروحية والسلوكية. وحتى العشائرية منها– فانطـباعات القـوة والثـبات والصـمود الـتى كسـت ملامحة وقت دفاعه عن نفسه واقتـناعه بعـدم شـرعية محاكمـيه تخفـى ورائهـا رؤى ونزعة ميكافيليه بارعة لصـبى عـربى فقـير– شـب عـلى الحـرمان وقهر العدم فتلبسته كاريزما الزعامة كـرهاً فسـار وثـار– وصـار مخـتالاً يحسـب هـتافات الخـائفين والمقهوريـن مـن مؤيديـه مـلاذ+ بـل زادا وزوادا لمـلىء فجـوات روحه التى أزهقت عبر مسيرته

الطويلة فى دروب الخوف!!، وصرت أتطلع لهيئته. طول قامته فى بدلته السوداء، وعينى اليمنى تطيل النظر فيكثر تحديقى لصورة جمال عبد الناصر الكبيرة الموضوعة بالصالة والتى التقطت له وهو فى طريقه للأزهر عقب قرارات التأميم. تأملت موطأ قدم الزعيم. ونظرت لشكل حذاءه، فزاغ بصرى فى طلته البهية مرفوع الرأس عالى الجبين ضاحكاً.. شردت وتهت فتنقلت عيناى بين هذا وذاك- ظللت سارحاً أفكر فى وعيى وبيقظة وحيادية باحثاً فى مفهوم الكاريزما الذى سيطراً عليهما وكلاً فى مسارة وطريقه وممارساته- وصرت حائراً فى فهمى وملاحظاتى. ومقارناتى الخائبة والظالمة فى آن واحد، ورأيتنى وقد طفرت الدموع من عينى اجتر صورته وهيئته وهو يلقى خطاب التنحى؟!!

خرجت إلى الصالة مخنوقاً تغُمرنى دموعى، أرقب عن بُعد متتبعاً ما يعرض على قناة الجزيرة، ورمقتنى الشقيقة الصغرى هالة وقت أن زاد توترى فبتُ أطرقع أصابع يدى ضاغطاً بؤبؤ عينى ماسحاً الدموع الخارجة من عيونى. العرق ينضح من جبينى هابطاً لصدرى متسرسباً يدنوا من بطنى وعينى الحمراء الجاحظة تزوغ فى ملامح صدام حسين الذى جلس خائفاً مذعوراً على كرسيه الخشبى الزان وبت أردد فى نفسى فى أسى،

– ولماذا كل هذا الشجن- وما هو مفهوم الحنين- وماذا تعنى هذه الكلمة- ما هو تفسيرها. ولماذا نحنُ. ولمن- ولماذا نحن ضعفاء وخائفون وخائبين هكذا، وهل يكُمن الداء فى موروثنا الكلى جميعنا أبناء العرب- ضحايا العالم الثالث؟!!، – ولماذا صارت ردود أفعالنا ومفاهيمنا. بل وحتى علاقاتنا- بحكامنا متشابهة- لماذا كل هذا الحنين والتعاطف تجاه قادتنا ومعلمينا وقدوتنا- وحتى خالقنا. ومن جاءوا بنا إلى هذه الدنيا. أبائنا- فكلهم قد وضعوا. وزرعوا فينا الغصة والأسى وتواروا- فسرنا نسير على

نهجهم فى كبرياء وجهل متأثرين بخطاهم على الدوام فعادت الأقدار تزيد من أوهامنا لنستعيد ذكراهم.. وهباءً انكشفت أوهامنا؟!!- بعد أن تواروا فى التراب.

وصارت الذكرى شاهده على جهالتنا وتقيدنا بمفاهيم العائل والكبير والمخلص والمنقذ؟!!

– وصرت أحدث نفسى ممسوساً. أسائلها

– (أين أنت الآن يا محمود؟!!

أين نفسك- ذاتك. وجودك- وجدواهم من معان الرب والأب والزعيم والمخلص المنقذ، وهل ستبقى طويلاً هكذا.- هل ستتبع موروثك الجاهل فتظل على الدوام باحثاً عن مجدا ضائع. وأب غائب منذ سنوات طويلة لا تدرك مداها —ورن جرس التليفون فى شقة "هالة" وسمعت الصوت الغريب. وأدركت أن المتحدث مجهول. كان صوته مبحوح وعمرى ما سمعته- وقال الطالب،

– أيوه- أيوه يا مدام هالة- أيوه يا ابنى إزيك؟!!

(أزيك يا محمود- محمود- أنا عايزك ضرورى. أنا هستناك بكرة فى قهوة "الشكر بالى" بعد صلاة الجمعة؟!! (ضرورى يا محمود.. أنا هستنااااك؟!

– واضطربت هالة وعادت تذكرنى،

– (دا أكيد عم حسن زنجير؟!!

° ° °

اليوم جمعة وأنا ارتدى ملابسى وأطل فى ساعتى قبل النزول من شقة هالة —العقارب تقترب من الثانية عشر- قلت (أنزل أصلى الجمعة فى (التوفيقى).

نزلت قاصداً المسجد الذى أعيد بناءة من جديد فوضعت عليه اللافتة النحاسية اللامعة التى تشير لتاريخ إنشاءه- ١٨٨٥م، وشدنى صوت المؤذن العذب الصاف- وذكرنى بشيوخ وأئمة ومقرئين عظام رحلوا قال حى على الفلاااح، واستطالت الحروف الأخيرة فى كلمة الفلاح فأعقبها بـ (الله أكبر)- الله أكبر- لا إله إلا الله.

وشعرت بغصه فى حلقى وأسى شديد يخنقنى ويزيد من صمتى وسكوتى. وحنين جارف ومبهم يشدنى إلى مناطق وأحداث- وأمكنة عديدة مرت فى عمرى الطويل. خطب عن الرسول (ص) وختم بالهجرة فتسائل قبل التأذين بإقامة الصلاة هل فعلاً جاء الإسلام غريباً وسيعود كذلك؟!!

قُلت فى نفسى- بل جاء الإنسان غريباً وسيصير كذلك حتى يوم التلاقى – ونزلت دموعى على خدى وتذكرت أبى- ورتل فى خشوع، خرجت صافياً بعض الشىء. أجُر قدمى النحيلة فى طريق ٢٣ يوليو.. أفوت على أول العرب- أدخل مقهى "الشكر بالى"- أسأل الأوكو النادل عن عم حسن زنجير.. ويبلغنى الأوكو بوصوله الباكر -: (عم حسن كان مستنيك. ومشى من ربع ساعة.. هتلاقيه فى قهوة البرنسيسة اللى فى "البازار" هوه مستنيك هناك يا أستاذ، دخلت مقهى البرنسيسة فى "البازار" ورأيت طفل جميل ينظرنى فى دهشة واستغراب، وطفتا البراءة والذكاء يغمران ملامحه، وجرى من خلفه عم حسن زنجير. احتضنه فى حنان، فصرت أرقب ما يحدث عن كثب.. سحب الطفل من يده اليمنى فبانت أصابعه الصغيرة البيضاء وأصابعه أم الأظافر دموية.. واندفع الطفل يرتمى فى حضنى. يقبلنى.. قبلنى ٣ مرات ودمعت عيناه، فانتبه عم حسن لوجودى فزادت دهشته وصار يرقبنا سوياً وقت المزاح المرئى للجالسين بصحن المقهى وفوق الرصيف الموزايكو المغسول.. عم حسن دنا يربت على كتفى

ويحتضني ساحباً إياى من كتفي وقت اقترابي من الأرض قرب الطقطوقة المستديرة مداعباً الطفل الأشقر.. قال في حزن،

– يخص عليك يا محمود– ١٠ سنين يا جبان– واللهي ماعرفتك يا أبني

– كُلك أبوك؟!!

– كُلك. ملامحك– روحه– سُمرته– (الله يرحمك يا طلخان يا كبير؟!!

وضحكت في البدء ثم صمت فجأة وقلت في تمهل

– هوه أبويا مات إمتى يا عم حسن؟!

– ياه– إنت لسه فاكر يا ابني– (إنت جاى تسألني بعد ٢٩ سنة؟!!

وتهت شارداً وقت أن تعلق الولد في أصابع يدى اليمنى فرفعته إلى صدرى وقبلته،

وقال عم حسن زنجير،

– (عارف ده مين؟

– مين يا عم حسن

– (دا حفيدى– يوسف ابن البهاء؟!!

وجرى يوسف على الجسر القريب المسفلت. فركضنا خلفه في هلع وقت انطلاق السيارة المرسيدس في شارع أوجينيه.. وسمعت زنجير يعلق بعد أن انطلقت المرسيدس بقرب "صلاح سالم"

– الواد عايز يجرى كل شوية. بيحب الحرية؟!!

– (لا مؤاخذة يا سى محمود– أصله متعود على ركوب البسكلتة في طرح البحر،

– وبتعلمه السواقة فين عا الطرح،

– عند الفنار الجديد،

ومشى يوسف أمامنا فى سوق "البازار" وظهر الطرطور الأحمر "الهلنكة" مكبوس فى شعره الأصفر.. وبرقت عيونه الزرقة تنظرنى فى مداعبة، وحدقت فى حيرة مطلاً لملامحه فى تعجب، بان وجهه الأشقر مستديراً لامعاً ندياً وقد تدلت خصلات شعره الكستنائى الذائب فى غماق الشيكولاه تدنو من حاجبه الأيسر الكثيف.

قُلت لعم حسن زنجير.

– ويوسف طالع شبه مين؟

– هوه آخد بياض أمه وزراق عيون أبوه وحواجبه العريضة،

ناديت على التاكسى النورس. ونزلنا قُرب النادى المصرى فى الخلاء الواقع بين الشاطئ وقرية الكروان- مشينا على حصى الأسفلت بعد أن انزلت البيسكلته من على شبكة الهونداى، وجرى مقترباً من موقع الفنار الجديد ولاحت المسطحات الخضراء مزروعة بحشائش كثيفة ومزهرة متحلقة حول كافتيريا الكاستن الفخمة.. يوسف يجرى بقُرب الماء قاصداً الشاطئ- قفز على الدراجة الحمراء الإسبور الصينى أم الكرسى المنجد فى الخلف، طار يفر فوق الرمال الكثيفة فصرت أرقبه فى حذر.. عم حسن زنجير خلع حذائه وفرد أقدامه على الرمل الناعم. والتفت ينظر فى البعيد قُرب الغاطس.. ظللت واقفاً فى خجل وتوتر أطرقع أصابع يدى فى عصبية ملحوظة، وددت أن أسأله عن ظروف رحيل والدى. ومتى وكيف رحل؟!! ولماذا هو دائم المروغ والصمت عندما تأتى سيرة الأب أو سيرة أبو حجة زنجير يبصر السفن البعيدة التى تخرج من البوغاز فى صمت.. وأنا أنصت لوشيش الماء المالح الدانى لوقفتى، يوسف يفر بالبسكلتة قُرب الفنار من جديد. ينحنى مبتعداً عن الرمال الكثيفة، عم حسن يلتفت ناحيتى فجأة.. يحدق فى ساعته السويسرية فى قلق. يستدير

لـلخلف محدقـاً جهـة الـنفذ الوحيد القريب من كافتيريا الكاستن.. يرقبنى فى قلق ليخرج من صمته بغته ويسألنى..

– ما قابلتش أبو حجة من يوم ما جيت يا محمود؟!!

– لأ يـا عـم حسن. (أنا جيت حسب الميعاد وقلت إنه هاييجى وياك عشان يشوفنى؟!

– يعنى إنت معرفتش اللى حصل؟

– خير يا عم حسن

– إبراهـيم. قبضـوا علـيه فـى أمـن الدولـة تـانى والمـرة دى خـارج تعـبان أوى؟!!

عـلى صوت الصراخ الأتى من جهة "الكاستن" التفت أنظر عم حسن زنجير الذى ترك موقعه وصار يجرى فى ذعر وهياج صائحاً ينادينى،

– قـوم يـا محمـود.. يـا محمـود قـوم يـا محمود– إبراهيم أبو حجة هناك أهوه؟!!

جريـت خلفـة تابعاً ظله قبل العصارى غائصاً بحذائى الكلاريكس الإيطالى فـى الـرمال الـناعمة لاهـثاً أرقـب الزحام البعيد وقت أن حدق جنزير فى عربة الشـرطة الـزرقاء المـركونة خلف سيارة الإسعاف التى تأهبت للانطلاق. اقتربنا لرصـيف الكافـتيريا. فظهر وجه أبو حجة وقد سار مترجلاً فى مارشات منظمة هازيـا يكـلم نفسه. يصيح فى جموع الشباب المتحلقين حوله فى سخرية يريدون توقـيفه. واندفـع حسـن جـنزير يهـرول أمـامى فـى طـرح البحر. وتراءى جسد إبراهـيم الضئيل بقامته القصيرة وذراعه الأيمن الغليظ وقد أحكم قبضة يده بكفه ممسـكاً بحقيـبة سامسونايت سوداء كبيرة تدلت دانية من حصى الأسفلت. بات يصرخ محاولاً الانفلات من بين الحشود زاعقاً فى جنون،

– سبونى فى حالى يا رعاع يا ولاد الكلب، واستدار يضرب الشباب الواقفين على رصيف عبدة كفته الكبابجى وتمدد ذراعه الأيسر فى فراغ الطوبان فصار يدفع النسوة البرجوازيات فى قسوة ونفور هائجاً يردد فى خبل.

– يلا يا داعرة انتى وهيه؟! !– يلا يا زوانى يا ولاد الكلب؟!!

وانطلق ينفذ من بين العربات المرسيدس والأوبل والهونداى الجديدة السائرة بمهل فى طرح البحر. ورأيت جنزير وقد سبقنى رامحاً فى ذيله منادياً

– استنى يا إبراهيم.. يا إبراهيم– استنى يا إبراهيم محمود طلخان معايا أهوه يا إبراهيم– محمود طلخان جاى يشوفك يا أبو حجة،

كان قد زاغ فى الزحام.. فأبصرته من فوق الطوبان العالى القريب من قرية النورس. وقت أن طار راكضاً بالحقيبة جهة ميناء الصيد القديم قاصداً عمارات "البودرة"؟!!

واندفع الشباب من خلفه فى هرج وزئيط متعقبين خطاه فى سخرية متحلقين فى نصف دائرة قرب مسجد السلام.. ناديت عليه فى أسى فاستدار على الصوت المميز المسموع ينظرنى فى بلاهة وقد طفت نظارته العظمية الغليظة مدفوسة فى وجهه الأسمر المنبعج.. قفز قاصداً مدخل العمارة رقم (١) والمطلة على الميناء القديم فاندفع حسن خلفه دون جدوى. كان قد أنزوى فى الركن الأيسر للمصعد الخشبى الجديد الذى أغلق على الفور. صعد الطابق العاشر لينفذ إلى السطح الكشوف المتسع ووجدتنى وقد تسمرت قدماى أعلى الرصيف الموازى لمسجد السلام. تراجعت للخلف أنظر السطح المكشوف محدقاً فى الحشود التى تجمهرت بطول شارع الجمهورية وعرضه قبل مدخل نادى الصيد –قريباً من المدخل الجانبى لميناء الصيد القديم، حسن زنجير يصيح من بير السلم. يندفع جهة الأسانسير ويعاود الكرة متراجعاً للخلف مطلاً للسماء راكضاً

من جديد فى مدخل (١) عمارات البودرة.. صار ينادى فى هوس- إنزل يا إبراهيم- إنزل يا إبراهيم؟!! ووجدتنى عائداً للخلف مستنداً على السلك الشائك الملفوف حول الميناء مراقباً إياه وقت أن أعتلى السطح المكشوف فى دقائق، ناديته- ناديت كثيراً فلم يرد، الصمت والسكون يخيمان على الفراغات فى الطرق والشوارع. وأنا انتصب فى وسط "الجمهورية". أنظره وقد قفز على السور الأخير المطل على الشارع الرئيسى للميناء جهة منتهى شارع فلسطين الخالى.. وأبصرته وقد رشق عيونه فى السماء العالية مطلاً لركام السحب يهيم قبل الشمس الغائمة فى الأفاق الرمادية محاولاً القفز من فوق العمارة رقم (١) "بحى البودرة".. ووجدتنى شاخصاً منتصباً أرقب جسده الضئيل وقد مال مع انفلات النظارة القديمة الذى هوت دانية عبر الشرفات المغلقة وسمعت دوى الطلقات من الطبنجة الميرى الـ ٩ ملى والتى طاشت فى الأفاق العالية.. وألتفت فى نظرة أخيرة مدققة- كان قد أدخل ماسورة الطبنجة بالفوهه فى حلقه..

ضغط ضغطة واحدة- فهوى جسده النحيل محلقاً عبر الشرفات هابطاً فى البانوراما الفضائية لشارع الجمهورية مرتطماً بالجدران العالية لأسوار ميناء الصيد القديم.

(تمت)

بورسعيد ديسمبر ٢٠٠٣
القاهرة مايــــو ٢٠٠٦

للكاتب

١- "عربة تجرها خيول" رواية ٢٠٠٠م الهيئة العامة للكتاب.
٢- "المغيب" قصص طبعة أولى يوليو ٢٠٠٢ قصور الثقافة.
٣- "المغيب" قصص طبعة ثانية أغسطس مكتبة الأسرة.
٤- "ساحل الرياح" رواية ديسمبر ٢٠٠٤ هيئة الكتاب.

